

رواية

ادوار الخراط

الزمن الآخر

الزمن الآخر

الزمن الآخَر

رواية

ادوار الخراط

لوحة الغلاف : الفنان الكبير أحمد مرسي

١٩٨٥

١٦ شارع إسماعيل محمد ـــ الزمالك ت : ٤٠٢٨٣٦

الباب الأول

دمُ العشق مباح

كانت رامة تقف بالباب ، في الدفء المُخامِر ، ندية ، نضرة ، ثقيلةً بجناحين كبيرين مطويين إلى جانبها . تنظر إليه بابتسامة خفيضة من العتاب والمودة ، والضوء من خلف وجهها يجعل وجنتيها تسطعان بوهج ناعم .

وفاجأه شعرها القصير ، أَجَمةً حوشية لاترويض لها .

كانت ثابتة ، في جلابية سابغة ، واسعة الاكمام ، تسقط بطياتها على الجسم الراسخ ، وقد بسطت ذراعيها قليلا ، لاترفرف ، في إيماءة ترحيب تدهور لها قلبُه .

وهو يصعد اليها ببطء ، في ثقةِ مَنْ يعرف أن اليأس مضروب ، وأن هذا اللقاء ، كغيره من لقاءات الصدفة عبر سنين طويلة ، سينتهي على أية حال ، إلى أن يكون شيئا عرضيا عابرا .

يا بجعتي السوداء ، ياوردتي السريّة .

كان المؤتمر في يومه الأخير ، وكانت لجنة هندسة الترميم ، بفروعها المختلفة ، قد فرغت من عملها ، وانتهى ميخائيل من صياغة مشروع تقريرها ، وذهب في آخر الصبح يستمع إلى بحث في الباليولوجي ، من أستاذ فرنسي وجهه شمعي ، ولحيته مخروطة ، غائر العينين تحت حاجبين كثيفين ، اتجه إلى الاعضاء القلائل الذين هبطت بهم المقاعد الوثيرة ، في الضوء الهادىء تسكبه مصابيح الفلورسنت الممتدة بمكر فوق السقف الزجاجي المضلع ، وأزيز التكييف السخن يدعو إلى الانزلاق في النوم وهو يتحدث عن أدوات كشف طبقات السر العريقة في صلب المادة الأثرية ، وعن طرائق قياس أغوار الزمن الكامنة في الحجر والخشب والبرونز والفضة .

كان ميخائيل يفكر ، بسذاجةٍ شيئا ما ، وحبوط ، أن القياس التاريخي الكرونولوجي ، ممكن ، ولكن كيف يمكن سبر الزمن حقا ؟ عندما أحس بمن يضع يده على كتفه برفق ، وخيل اليه أنه يعود فجأة من تهويم سِنةٍ من نعاس اختطفته ، كما يحدث دائما في مناخ المؤتمرات الرازح بثقل رقيق . وعندما التفت رأى الفونس ينحني عليه ، بوجهه الناحل العميق الاخاديد ، وظهره المقوس قليلا البارزة عظامه تحت جاكتة قديمة فضفاضة ، ويهمس بصوته المتردد المضروب :

ـــ رامة تريدك .
ـــ طيب .. حاضر .. أكلمها بعد الظهر .

الدوّامة القديمة المعتادة في نفسه ، واليأس القديم منها ، ومن نفسه .

كان يعرف ، من الأول ، أنها هنا ، وكان ينفي هذه المعرفة عن نفسه ، بإصرارٍ غير معترف به .

ـــ لا ، هي هنا الآن ، على الباب تنتظرك .

لم يشعر أنه وقف ، ولم يحس العيون المستطلعة التي التفتت إلى هذا الاقتحام الصغير ، كما يحدث دائما في لجان المؤتمرات ، وهو يصعد ثقيل الخطو ، على الممر المكسوّ بسجاد كثيف يغوص تحت قدميه ، لايريد أن يفلته .

كانت ابتسامتها له صافية ، مشعةً بحنوٍ مرت عليه سنوات . وفوجىء ، مرة أخرى ، في يده ، بهذه اليد الرخصة المكتنزة الأصابع التي يعرفها ـــ هو ـــ معرفة خاصة حميمة . اليدان لاشأن لهما بمر السنين .

كأنهما لم ينفصلا قط ، كأن سنوات من الفرقة لم تأت ولم تمض ، وهما يخرجان بحرص ، من باب اللجنة إلى ممرٍ رخاميّ الأرضيّة ، ساطع النور ، فيه نسمةُ هواء رخية ، صحراوية ، والفونس قد سَلَّم ، ومضى بسرعه ، بخطواته الزاحفة قليلا ، وهي تقول له بصوتها الذي يغوص الى داخله :
ـــ أنت هنا من أربعة أيام ولا تسأل عني ؟ طيب سَلِّمْ يا أخي .
قال بصوتٍ يعرف أنه يُكذّب نفسه ، من غير محاولةٍ للاستخفاء :
ـــ أبدا ، وأنا أقدر ؟ أنا دائما أسأل .
ـــ سألت عليك العافية ياميخائيل .. طيب تعال .. تعال نشرب قهوة في الكافتيريا .

ووجد أنه يستطيع احتمال عينيها .

الشرفة العريضة تطل ، من نافذةٍ شاسعة وعالية ، على حديقةٍ رمليةِ الأرض . والصبار الضخم قائم ، بغضارته الثرة ، كأنه منحوت ، وسط حطامٍ ليّنٍ من العتر البلدي ، والعواسج الملتبسة ، والأزهار المُتضرّجة والقاتمة والخشنة الحريفة تضوء كلها ، من وراء الزجاج ، ناصعة .

وهما يجلسان ، المقاعد مريحة ومحايدة من البلاستيك البنى اللامع ، والمائدة مدورة على قوائم معدنية مقلوبة بإتقان تحت القرص الزجاجي الواسع ، حافته معتمة قليلا .

خطر له أن الفونس قال له : « رامة تريدك » . ولم يقل ، مثلا ، « رامة تريد أن تراك » وكانت ابتسامته الداخلية لنفسه ملتوية وخاليةً من المعنى ، كان قد عقد عزمه ، أثناء الخطوات القلائل معها ، أن يكون واقعيا ، وأن التعلّل بالأوهام القديمة قد فات أوانه ، فلا يترك ثغرةً تتفتح أمام هذا السيل المعتم الملتطم المحبوس . قال لنفسه : فليظل كل شيء ، كما ظل منذ سنوات ، على شكل الودّ والصحبه ، لا ، بل أكثر ، على التحايا التي تمضي كأنما لا صلة له بها . وهمس به شيءٌ ما ، من غير صوت : لاتخطُ إلى حافةِ السقوط الفاغرة أبدا ، تحت قدميك . مظلمة .

كانت صفحة الهرم الكبير ماثلة من النافذة العريضة ، تصعد بجرمها المكين ، مُهدَرة ، وأبدية .

والقهوة الفرنسية المترقرقة في فنجانها الأبيض الواسع الواطىء الحواف حادةٌ ولاذعة في فمه . بينما هي تصّب اللبن من العلبة الورقية الصغيرة المترجرجة .

قالت ، كأنما يتحدّ خلفىٌ :
ــ هذا إفطاري وغدائي معا .

عيناها تتكشفان ، وترتدان عنه ، فيما يحس ، إلى عالم آخر لا يعرفه . أما هو ، من وراء تحصيناته التي يلوذ بها كأنما طلبا للبقاء حيا ، فقط ، فكأنما يقول لنفسه ، دون أن يقوله تماما ، إنه يتزود من هاتين العينين بزاد لعله أخير . ويقول إن زاده منهما غضٌّ مع ذلك ، متجددٌ دائما .

يندلع في جسمه فجأة هذا الألم القابض الذي ينشعب تحت الضلوع تماما ، ويدور بسرعةٍ خاطفة ، حلقةً مشتعلة ضيقة تتحلل لها أوصاله ، وتنهمر ، وتسقط ، ثم ينجاب الألم ويرتفع فجأة كأنه لم يكن هناك قط ، وهما يتبادلان السؤال عن الأحوال ، ولماذا لم تشتركي في المؤتمر ؟ لأنها عادت منذ أيام فقط من بعثة تفتيش أخرى في الواحات ، وعندها لجنة في الوزارة ، وما أخبار المتحف في الاسكندرية ، والترميمات الجديدة للحائط الشرقي ؟ وإدماج عناصر الأعمدة التي اكتُشِفتْ في ماريوبوليس ، هل نجح ؟ وأخبار قراءاتها الأخيرة للبرديات اليونانية ؟ ويضحكان من أخبار الزملاء والرؤساء والأولاد الجدد في المصلحة ، وينسلان ريشهم قليلا ، باستمتاع .

عندما التقيا صدفة ، في محطة مصر ، أمام شباك تذاكر الدرجة الأولى ، اكتشف أنهما يأخذان قطار الصعيد نفسه . قال لها إنه ذاهب إلى أخميم ، في مهمة يومين ليكتب تقريراً عن ترميم جدران المعبد الذي اكتشفته بعثه جامعة مينيسوتا ، أما هي فستنزل في المنيا . وسوف يرى ، فيما بعد ، ابنة الملك ، مُغنيّة الإله آتوم ، صانعة صديرية حتحور ، نائمةً وجهُها إلى الأرض تحت النخلات الأربعة ، ومازال على شفتيها آثار الأحمر القديم ، وسوف يفكر أنه لم يَرَ شفتيها ، هي ، بالأحمر قط ، وسوف تشتعل الرغبة وتنطفىء ، ولا تنقضى أبدا .

تراجعت أعمدة المحطة وجدرانها ، كأن المحطة كلها خاوية ، لم يبق فيها أحد ، خفتت لغط الناس وطنين القطارات الواقفة وصفيرها المفاجىء ، وهبّت حوله أنفاس العراء والوحشة وهى تقول له بمرارةٍ هادئة ، بلومٍ لا تعترف به ، إنها قد ضجرت من هذا السفر المستمر ، وهذا العمل لايصلح لِي ، ولا أحبه ، ولعله قد يسعده أن يعرف أنها بسبيلٍ ماكان يريده لها دائما ، أن تكمل العمل في الدكتوراه وتُدرّس في الجامعة ، وجاء دورها أمام شباك التذاكر ومضت إلى القطار وحدها تحمل حقيبتها الصغيرة ، في خطوات مصممة ، وعندما وصل إلى داخل القطار ، كانت قد اتخذت بالفعل مقعدها في مقدمة العربة ، ولم تنتظره . ولماذا كان ينبغي أن تنتظر ؟ في المحطة كان قد عصف به سرابٌ خاطف أنهما سيجدان أحدهما الآخر مرةً أخرى ، وسيعرف كما عرف مرةً ومرةً وبلا نهاية ، معنى القرب منها في القطار الضارب في ليل الصعيد ، وذراعها حوله في نصف النوم ونصف التيقظ . جلس في مقعده وراءها بعده صفوف ولم تستدر بالنظر إليه مرة واحدة . وظل ساهراً وكان شعرها طويلا وغنيا يراه على مسند المقعد الجلدي ، ونامت طول الليل

بجانب الغرباء ، وفي الفجر رآها تعود من خِيَام العربة وقد غسلت وجهها ، عيناها متفتحتان قليلا من النوم بدورانهما الحسى الثقيل ، كما كان يراهما في أول الزمان ، عندما كان يفيق من غيبة النوم القصيرة الى جانبها ، وهى تفتح عينيها ببطء وصمت ، دون تَعَرُّف ، كأنه إما مسلَّمٌ به وضروري وقائم أبدا ، وإما لا وجود له وغائب تماما ولم يكن قط ، على السواء ، فيهبط بشفتيه على الجفنين المطبقين بكل الرفق والحنو الذي يعرفه ، ويحس مرةً أخرى رعشتهما الخفيفة تحت فمه . ونزلت في المِنْيا ، بإيماءة خفيفةٍ من الرأس على سبيل التحية ، هذا كل شيء . كانت الغربة نهائية . سوف يقول لها مرةً بعد مرة ، بالتياع : لا تعامليني أبدا كأنني غريب . وسوف لا تجيب عليه أبدا .

قالت له : كنت قد ألغيتك .

وكانت رفيقة ، وقرأت له هيروغليفية الالغاء .

ومازال يرفض كل قراءاتها .

قال لها : ألا تسمعينني أناديك ؟ ألم تسمعيني ؟

قالت ، قاطعة : لا . لم أسمع .

لم يقل : فقط لكى أسمع — أنا — وقعه ، هذا النداء ، والحنوَّ في جَرْسه ، في تحدّر نغمته ، ونأْمته الناعمة في هدأة الليل . فقط ، لأنني أفتقد أن أناديك ، وأنت على مسمع ، فتردّى ، أو تصعدي إلىّ . كأن الخرس الذي يُطبق على رقرقة القلب قد ثقلت وطأتهُ .

قالت : لا . لم أسمع .

في ردها لوم ، ورفض للّوم ، ونفىٌ لعبث الرومانتيكية كله .

قال لنفسه : أعرف أن النداء ، في آخر الأمر ، لا وزن له . لامعنى له . ليس من شأنه على أى حال أن يُسْمَع . هو موجود لأنه لا يُسمع .

وقال : طبعاً ليس له قوة سحرية — أليس هذا ما أُكنّه ، رغماً عني — في عمقٍ مَخْفِيٍّ مني ، أنّ له فعلاً ووصولا ؟ أنه رُقية ؟

وقال : بل أنطق عن ذات اللجاجة التي فىَّ ، وبه أُسمىِّ جيشان حبّةِ القلب التي تفور وتفيض وتغلي . كأنني ، به ، أقول : « أنا » . به أكون . كأنني من غيرِه لست أنا .

أُنادي من قاع بئر الوحدة السحيق .

وقال أيضا : أظن أنه لا يمكن ، على أى حال ، أن يكون ثم مُجيب . لا يمكن أن تكون إجابة . ومهما جاءت الإجابات ــ وقد جاءت ــ فكأنها لم تحدث وبقى النداء . الإجابة فقدان . والنداء افتقاد دائم للإجابة . وهى هنا ، ملء يديه الخاويتين .

وسأل نفسه بوضوح : عندما أجدها أفقد نفسي ؟ وعندما أجد نفسي أفقدها ؟

وقال : الظنون ، على الحالين ، تبقى معلّقه ، وفي الحالين قدرٌ من جُبن الراحة ، ودعة الاستنامة ، أو ــ على الأقل ــ الخروج عن لا ونعم .

ويعود على نفسه : لماذا هذا العسف الثقيل ؟ جُبن الراحة ؟ مرة واحدة ياعم ؟ أهناك حقا محل للجبن أو الشجاعة ، أيهما ، هنا ؟ ألا تنفض عن جلدك ، أبداً ، أشواكَ أخلاقيةٍ طفليةٍ ما ؟ متى تصل للإيمان ؟

وهما يشربان القهوة الآن ، في نورِ الشمس الصحراوي ، حرارته من وراء الزجاج خدّاعة ، ومياه القهوة السوداء صافية وقليلة وتترقرق في ملاسةِ الفنجان الأبيض العريض .

سوف يأخذ يدها هذه التي يراها هادئةً الآن وصامتة ، وهو الذي يعرف مدى قدرتها على التشكُّل والصَّوْغ معا ، وسورةَ الحميا ودماثة الاستكانة معاً ، ويضعها على صدره إذ يحس فيه رفرفةَ توقٍ عارم لا يعرف كيف ينطلق ويحلّق ، مهما اتسعت له آفاق الزرقة ، بلا نهاية ، ويقول ، أيضا ، كأن لن يتعلم أبدا : هل تسمعين ؟ وسوف يصطدم ، فجأة ، بالعينين المحايدتين بخضرتهما الداكنة ، وَحَومان شُبهة الابتسامة نفسها التي فيها أصداءُ سخريةٍ خفيفة جدا ، واستمتاع :

ــ قلبك يدق بانتظام وثبات .. كالساعة .. ستعيش مائة عام !

كانت صدمته الجافة لأنه ، أصلاً ، لم يخطر على باله أن يضع مثل هذا السؤال ، كأنما

كان مهموما بسلامة عضلة قلبه ! سذاجته التقليدية أنه كان يريد أن يقول لها : أنظري ، كيف ينبض بحبك . فوجدها ، كما عوّدته ، سيدةَ النزول من حالق الدراما إلى الأرض . ولاشك عنده الآن أنها كانت محقة . هذه إيماءات ميلودرامية ، أو لابد أنها هكذا تبدو . فكيف يمكن أن تُصاغ دَفْقاتُ الحب (الحب ؟ الحب ؟ ما الحب ؟) وارتعاشاتُه ، وغوامضُه المطمورة ومغامِزُه الثاقبة ؟ أيمكن أن تُقال — حتى — من غير ميلودراما ؟ أن تأخذ يدَها ، بصمت ، وتضعها على صدرك ، أكان هذا صعب لاحتمال ؟ ألم يكن ممكناً أن يُطاق ؟ كان لابد أن تنزل به من قمة الوجد المُحرقة . أهذه صياغتها — هي — للمستحيل ؟ أسياق المبتذَل هو المُشيِّخ بوجوهِنا أن يُصوِّحَها اللظى المتقد ؟ أهذا هو ؟ أم مجرد اللامبالاة ، ومجرد الانقطاع ؟

قال لنفسه : الكفران بالنعمة مِحنة الجاحدين .

وقال : هو أيضا عطش الواردين ، ونُكران الشاهدين . وهو ديدن الإيمان .

هذا كله مما سوف يكون . هو الآن لا يعرفه .

أكنت لا أعرف حقا ؟ أم أن معرفتي مغلقةُ الأوراق على كِنهِّا ، تنفجر في المستقبل الصَّموت ، ولا أسمعها عندما تحدث ؟

قالت له : تتعشى الليلة عندي ، دعوت مجموعة من الأصدقاء ، بمناسبة المؤتمر ، احتفالاً بأتْريّي الاسكندرية . ستأتي طبعا ؟ لا ، لا ، مجموعة صغيرة ، على الفرّازة . سنية منصور طبعا ، وإيفيت ، وسامية ، وزينب العصفوري .

قال : البنات فقط ؟ ماهذا يارامة ، غزو الحريم ؟

قالت : لا تكن مُضحكا . رجالهن أيضا ياسيدي ، دكتور فؤاد والأستاذ قدري عبد الفتاح وطبعا مصطفى ضروري ، وأحمد أيضا ، من غير ترتيب .

قال لها : كنت قد كتبت لك رسالة ، وأنا في الاسكندرية . طويلة وصعبة وسخيفة ..

نظرت إليه بلوم : هاتها . أهي معك ؟
قال : لا
قالت : هاتها معك الليلة ، في الحفلة .

لم يعرف ... حتى — أنه كان يقول لها : أحبك في اليأس الكامل . هذا الشيء ، هذا الحلم ، جارح وناتىء الشظايا . كانت رسالتي هى محاولتي ، في اليأس ، أن أجيب على سؤالك الأول ، — هل تذكرين ؟ — « ماذا حدث لنا ؟ » عندما تماسكت يدانا ، لأول مرة ، في التاكسي المنطلق بك إلى حفلة أخرى قديمة منسية دعاك إليها ديبلوماسيّ سوداني ، في مدينتنا الأولى التي لم تحدث أبدا ، وهي قد حدثت . فلما أجبتِ أصبح اليأس تاماً ، ليس فيه ثلمة . الآن لم يعد لليأس حق في أن يصرخ . لأنه كامل .

العالم يحتشد بجسدِكِ . وقد استبحتُ العالَم ، واستباحني ، فماذا يبقى ؟

لم يقل لها أبدا ؛ حكم الإدانة أنتِ الذي أصدرتِه . لأنك كنتِ ، أنتِ نعم .

إن لم يكن له فعلٌ ، فهو ميت في ذاته ، قال الرسول الصخر المحترق العينين .

سوف تتناول يدَه ، مره أخرى ، وتضعها ببطء ورفق وتماسٌ حميم على شفتيها ، والشفتان الناعمتان على بطن راحته ، مفتوحتان قليلا ، ولكن جافتان ، من غير ندى الشبَق ، وهى تمسح باطن اليد المفتوحة على مهل ، بعرفان وغفران معا . ثم قبضت على يده ، بمسكةٍ ليس فيها إلا زهد التقرير وشجاعة القبول ، ولكن عينيها كانتاتضحكان ، من غير غضب ولاً عتاب ولا مرارة وهى تقول : حبك بالليل حلو ، ياحبيبي ، كالسمن .. ويسيح بالنهار .

شِلو أوزير المفقود قوامه من شمع الحلم الصلب الحار ، متدفقا بالمنىّ المهدور نعمتك يا إيزه الليلية واستعادة مجده وقَوْمة تحديه بينهما المعركه قد خُتِم على خسرانها لأوزير كمال الفقدان وقد بُترت عنه حقيقته .

إليكِ تاريخ شهوتي المنتصب أعمدةً وصروحا المنتفض أبداً في رقرقة ماء النيل المحروم من احمراره بالطمى القديم النابض أبدا برعشته يتقطّر بدمٍ مآله النضوب على الشقاف والبرديات لا أريد أن أقرأها على مسامع الشمس ، وقد نالها العطب قليلاً بخراب الزمان .

ثم قالت له ، دون ابتسام ، ومازالت عيناها تضحكان :
ــ أنت أيضا نصبح التنين في حياتي .

فلما أوشك أن يرتاع ، وأوشك ضحكها ، من ارتياعه ، أن يغيض ، سارعت تحكي له قصة :
ــ تعرف ، في حياتي أشكال وأصناف من التنانين . أحلم أحيانا كأنني في سماء سيّالة صافية ، تلعب فيها معي تنانين صغيرة لامعة ، صدورها مدوّرة حلوة الملمس ، كأنها من الخزف الأزرق المصقول ، أزرق فاتح ولكنه جدّيّ وغير خفيف ، أزرق لا يوصف من الفرح الذي فيه ، هذا الفرح الرصين الممتلىء القلب . وكأنني رجعت طفلة ، ألعب لعب الأطفال الذي لا مثيل لرصانته واستغراق نشوته . بعض اللحظات معك من هذه التنانين .

وانخفض صوتها الى شجن منضبط لايكاد يرتعش :
ــ ولكن حياتي كلها هي اللعبة . وأنا لا ألعب ، خسارة ، لا أملك معك حق اللعب . الآن على الأقل . هل كانت بيننا ، في الأول ، إمكانية هذه اللعبة ؟

ثم عادت تحكي وقد استعادت صوتها :
ــ هناك الأخرى ، التنانين المظلمة ذات الحراشيف الحادة السوداء ، جاثمة في الصمت والعتمة المعمورة بأشياء كأنها حية ، أحسها شائهةَ الوجوه ، ممزقةَ الجسد .. بوررر .. يالطيف .. لا تدعني أتكلم عنها ، أبدا من فضلك ياميخائيل .. امنعني من الكلام عنها من فضلك .. وإياك ، إياك أن تكون منها .

• أخذها بين ذراعيه ، أحاط كتفيها العاريتين المدورتين بذراعه ، لم ينحنِ عليها ، ولم يقبّلها . للحنان شبقٌ حار موجع مُكتَفٍ بذاته لايريد فعلا ولا شيئا . لحظةٌ مشوبة ، غير خالصة ، تضربهما معا ، كموجة ، وتغمرهما معا . وأوَتْ إليه ، وهو صامت ، بصمت . كأنها لحظة لم تنقضِ ، واكتمالُها نهائيّ .

أطلق كوافير ثلاث رصاصات على ابنة مليونير في مصر الجديدة ، في شقة مفروشة ، فقتلها في الحال ، وأطلق على نفسه رصاصة واحدة ، على رأسه ، ومات بجوارها ، بعد قصة حب استمرت بينهما خمس سنوات كاملة . كانت جثة الفتاة داخل غرفة النوم ، فوق السرير عارية ، والدماء متجمدة حولها ، وكان الشاب ملقي على ظهره أسفل السرير ، والمسدس بجواره ، وعشر رصاصات متناثرة ، وحبوب لمنع الحمل ، وقطعة من الحشيش ، وزجاجة ويسكي ملآنة . وكان بجانبه ـــ كالشهادة ـــ عقد زواج عرفي على ورق مطبوع لأحد المحامين .

فقال لها : ماذا قطع عليهما اللعبة ؟

وقال لنفسه : ليس هنا ، في هذه الحكاية ، وفي تلك ، اكتمال ولا نهاية .

وقال : الف وخمسمائة معتقل ، مرة واحدة ، أكثر حتى من اعتقالات عبد الناصر ليلة رأس السنة التي تعرفين . هذه المرة ، كلهم ، الوفدي والشيوعي ، هيكل وسراج الدين ، القسس وشيوخ الجوامع ، العيال والنساء والكهول ، الجدد والقدامى ، التكفير والهجرة ومقاتلي مارجرجس ، المقهورين والمشهورين . ماذا يحدث لنا ؟ ألم تكفه القدس ؟ وأصدقاؤه الأعزاء كارتر وهنري ، وبيجين . ماذا يريد أن يفعل بنا ؟ ولماذا يُراد بنا دائما ، ولا نكاد نريد ؟

قالت : والدماء التي راحت ، كأنها هدر .

ثم سألت بلهفة : هل تعرف أخباراً عن أحمد ؟ هل قبض عليه ؟

قال : أبدا ، تصوري . كان مع أهله على أول الشهر في الفلاحين ، ونفذ ، وراح الخميس والجمعة ، وعاد يوم السبت في أمان الله ، بعد أن عَدَّتْ الهوجة .

قالت : وعباس فؤاد أيضا نفذ . رأيته مع زوجته ، في سيارته الفورد القديمة السوداء ، في ميدان التحرير ، أمس فقط . ولكن طارق ، أخ مصطفى ، كان قد قبض عليه من أسبوعين ، في الكرنك .

قال بلهفه : ومصطفى ؟

قالت : أبدا . جاء المصلحة ، « كل شيء تمام » .. ولكنه طبعا غضبان وحزين .

وحكى لي ، على جنب ، أمه قالت له أنهم قبضوا على طارق ، وهو في عز النوم ، تقريبا . أخذوه بالبيجاما . كان يستعد لتقديم الشبكة يوم الخميس ، من حظه . ولم تكن القرارات قد أعلنت ، يوم الخميس ، طبعا . مصطفى ثآرَ بأبيه ، لم يفعلها قط من قبل ، أنت تعرف مصطفى . صرخ في وجهه : كيف تسمح لهم أن يأخذوه ؟ قال لي بمرارة : لو كنت هناك يومها لخطفت البندقية القديمة من ركن القاعه وضربتهم . قال لي إن أمه ، الصعيدية التي لم تبكِ في حياتها ، كانت تنزوي عنهم ، وتنشج وحدها بالليل وهو يسمعها تنوح بصوت رفيع مكتوم : ليلة عِرسك ياضناى .. يخطفوك منى ياعريسى .. أحْضَرها معه بالقطار لتزور أخواته هنا في العجوزة ، وتبقى معهم قليلا .. قال يجب أن أُنسّيها قليلا وأُغيّر لها الجو الصعب في الصعيد . ولكنها عندما وصلت عرفت أن عبد المنعم زوج بنتها ، قبض عليه أيضا .

قال : كان نشيطا في « التجمع » ونقابيا .

قالت : طبعاً ، عبد المنعم دخل معي بورسعيد في ٥٦ .

حضرة عمنا المحترم الخواجا قلدس أدامه الله نشكركم لعواطفكم النبيلة وتشجيعكم الأبوي سائلين الله أن يلهمكم الصبر والعزاء في فقيدنا الغالي وأن يدبر أموركم حسب مشيئته تعالى ويخلّي لكم ميخائيل ويحفظه . ولعله الآن أخذ الابتدائية . نرجو أن تخبرونا .

مرفق طيه إيصال رقم ٢٠ بمبلغ جنيه واحد قيمة المبلغ الذي تكرمتم بقبول التبرع به وسداده لبناء الفسقية بأخميم في بحر شهر مايو والله يعوضكم ويجازيكم خيرا . المخلص عطا الله مقار سوهاج في ٢٧ مايو ٩٣٧

كانت السنوات يحسها بين أصابعه ، رسالةً هشة النسيج ، أصفرّت أطرافها ، ونالها عطبٌ هين جاف ، كأنه قد احترق قليلا .

في هذه البرية الموحشة التي تهب فيها رياح البحر ، رمالها مبتلة قليلا من ندى النجوم المُغلقة السوداءِ ، والأعشاب العنيدةُ الجلد ، كثيفةٌ ملتفةٌ على نفسها شوكها الأخضر الداكن في داخل غِمده ، تهديدُها جسدٌ صامت . أحَسُّها ، في نومه الكامل ، صرختَه ، تجيء من بعيد جدا ، من على حافة البحر الدفين . تبدأ صغيرةً صغيرة ، ثم تقترب الصرخة من عمق الغور

المجوف تتردد أصداؤها بين صخور الغيران المظلمة . الصرخة تقترب وتنبسط لها أجنحةٌ تصطفق وترفرف بالريش الأسود وهُدبه ثقيل . أقوى وأكبر ماصرخت في حياتي ، أعلى من كل جحافل الصرخات الليلية ، تجأر في قلب النوم . يدٌ ضخمة ، هائلة ، كالمخلب تمتد إلى عنقي ، وتنقبض ، تُطّبق . وأنتفضُ فإذا أنا جالس في سريري ، على جبيني عرق بارد يتفصد ، وكأن الرُّخّ قد خرج لتوه ، مشتعلَ العينين ، من وراء جدار غرفة نومي ، بخشونته التي رقق الزمن منها الآن . والليل ليس آمنا ولا مستريحا . لحلمي بالنداء عيونٌ خضر ضارية ، مفتوحة أبدا . لاغمض لها .

يؤرخ تلك الليله في ٢٤ يوليو ١٩٧٩ ، وهي ليلة كغيرها من الليالي .
هل صرخةُ الاعتراف لها إرادتها الخاصة ؟
قبل أن أسقُط ، أن أترك اسمها يتشكل ، يُقال ، يتحرر .
صياغةً محددة ، منطوقة ، قاطعة .

أن ينطلق الاسم ، فليس بينه وبين أن يوجد في الخارج ، في الصمت ، إلا أقل من خفقة . أن يتم . أن يُفْعَل . أن يحدث الكمال .

أن يحدُث . أن ينفصمَ القيدُ بصوت سقوط السماء . طلقة الرعد الواحدة ، تنقصم بها نفسه ، وتتفتت ، رماد الشهب . انفصام كل شيء . الانقطاع عن العقل ، انشقاق الزمن ، انفضاض القهر ، هشيم الواقع يتهاوى . الإنطلاق الاختراق إلى قلب الحقيقة تدميراً للحقيقة قصف ضربة الرعد غير المتكررة تتقوض لها كل الأركان الهشة التي كانت تلوح سامقة الأعمدة وطيدة الصخر . على الحافه المسنَّنة لهوّةِ الانفكاكِ الغائرة السديم ، تشدُّني غوايةُ السقوط في إطلاق الاسم ، صرخته .

والنداء لا ينطلق .
قالت له : لم يكن هذا النداء لي .
وكأنها قالت له : لم يكن هذا اسمي .
فقال لنفسه : ولكن أنا ، ليس عندي شك في أنني تعلمت الاسماء .
وقال : وهذه نازلةٌ تحل بالقلب ، كسائر الأحوال .

وبالطبع لم تكن سخريته من نفسه قليلة جدا . أما هي فكانت لا تحب كثيرا سخريته من نفسه . ولكن ماذا يفعل إذن عندما تقول له ـــ أو لا تقول ـــ إن هذا النداء لم يكن لها . مع أنه يعرف أن عندها حباً ، ما ، له .

قالت له : لن تعرف أبدا كم أحبك .. خسارة .

وقالت له : هل رأيتَ لهفتي على خطابات بنتي ؟ هل ترى كيف أنتظر ؟ كيف أفتح الباب مرة بعد مرة ، وأُصيخ السمع ، أتصور أنني أسمع « بوسطه » ؟ أتصور نبوية تصعد السلالم ببطء تحمل إلى خطابا منها ؟ لهفتي إلى خطاباتك أكبر ، وأكثر ألف مرة .

ما نواة المرّ الصلد الصوان في وقدة لهفته ؟

رفع ساقيها العَبْلتين ، وضعهما على ركبتيه ، ومر بيديه على عموديْ الجسد المكين المطواع . يسقطان له ، استسلامهما هبة وعطية لا يمكن أن تُقوَّم ، بأية قيمة . الوردة السوداء المُضرَّجة يكتنفها الهُدب المخملي الغامض قد تفتحت له أوراقها الغضة النابضة التأمت عليه وتقطرت بنداها الكثيف القوام . وهو الآن ، ينحني فقط على أعواد اللوتس الخمسة المكتنزة الصغيرة ، مصفوفةً ومُغلَّفة بنعومة ، وتومض مسُّ شفتيه قد برىء من كل لوثات النشوة ، هو مجرد اعتراف .

فقالت له : ياحبيبي !

أما هو فقد استهزأ بما آل اليه مآله إذ أدْجَتْ عليه الاشجان وألوت به آمالمَوْءُودة وتألّبت عليه آكام الآلام فأوَّلها بأنه ينوء بإرثِ إثمٍ مؤثّلِ الأواسي وأنّ أُخذة الأُلق قد هرثت مهما ضاءت آلاءُ السماء وأوّلها بأنه إنْ يأخذ بالأزِمّة فهو أسير أصابعها الأسيلة ، أزيز الأجمة الأثيثة الجائحة بأجيج لا ينطفىء تتأرث بإراقة الجأش الخبيء في نوءخطيئةٍ ألفيةٌ لابرء منها الى أبد الآبدين ، أُوار البؤرة قد أجَنّ كاءِ آسن في حَمْأةِ سويدائه وهو ينوء تحت إصرِ الأسى يجأر بلا مرفأ يؤوب اليه من لأواء الأحزان والأوهام التي تتيض إلى لاشيء ولا يُرقأ له أوام في مباءة الممالاءة . من يدرأ عني شواطىء الأرزاء المتلالئة بأحجار الألم ؟ أحجار الألم شوهاء . هذا أدركه الادراك

كلُّه فبأيِّ الآلاء تتألم ؟ أوجاعك لايعبأ بها أحد وليس لأحدٍ أن يعبأ . أليس لكلٍ أعباؤه التي تضوء في شتاء دائم ؟ الشقاءُ الأليفُ الشقاء الياء . أما أنتَ فلست إلا نتوءاً وأهواؤك ملجأ للجدأ الأكّالة لا أُطأطِيء أمامها رأسي أبدا . ومع ذلك فإن الأفلاك مازالت تؤُجُّ حوله في رواءٍ يرأب أذى الأرض ويُبرىء اليأسَ الأُجاج . اليأس غير بريء .

وحدث أيضا أن قالت له :

ــ أنت تعرف أن القربى الفيزيقية يجب أن تُبنى . كنا قريبين من أحدنا الآخر .. جداً .

استقبلته على موعد الثامنة مساء في بيت درب الشعوي اليمانية نفسه الذي كانت قد قالت له : بيتنا .

على الباب الخشبي القديم الثقيل مدّ إليها يده ، وأحس فيها بأقل رجفةٍ ممكنة من الابتعاد ، لايمكن أن ترى العينُ هذه اللحظة الهاربة من الافتراق في قلب اللقاء ، ولكنها هناك ، كأنها لم تقع إلا لكي تمضي ، دون تتابع ، بل في الوقت نفسه ، دون انفصال . هي أقل من إيماءة وأهون من نسمة ، لكنها كالجبل .

كان ثوبها كاملَ الإحاطة بها ، شتويا ، داكن الخضرة قليلا ، من الكستور البلدي ، بيتيا وواسعا . كانت مغلقة في داخله ومغلَّفة ، ومسدودة عليه . وهو يخطو ، كأنه غريب ، الى داخل البيت الذي عرفا فيه ، من زمان ، أمجادَ الحب غير الموصوفة ، واختناقاتِ العشق القابضة . البيت الذي كأنما هو مبنيٌّ ، وموجودٌ بلا انقضاء ، في داخله . إيماءة التغريب قد ندَّت عنها هفهافة ورازحة الثقل معا ، في أول لحظة ، صحيح ، لكنه ، بخطئه النمطي ، وخيبته الثقيلة ، سلَّم أمامها ، أُسقط في يده ، ولم يضرب الضربة المُبرئة . وأثناء الساعتين اللتين قضاهما على مقعدٍ منخفض وضيق ، بعيدا عنها ، تحت شجرة الظل الداكنة التي امتدت لها الآن أفنان لم يعرفها ، وتنكره ، وتحت تعشيقات الخشب المخروط القديم ، قالت له عن آخر أخبارها ، وكيف أنها أصبحت الآن مديراً عاما في المصلحة ، وهي أيضا تُدرِّس اليونانية القديمة في معهد الآثار ، وهنأته بأبحاثه الأخيرة وخصائص اسمنت الترميم الجديد الذي ابتكر تركيبته ، لم تأت بسيرة سقوط معبد الواحات عليه ، وكان يحس أنها تذكره ، ولا تريد أن تشير اليه . وحكمت

له عن إجازتها الأخيرة في إحدى جزر اليونان ، وخطر له أنه لم يذهب معها إلى جزيرتهما ، وحدهما ، أبداً ، ولن يذهبا ، أبداً ، وقالت له : لماذا لا تقوم فتصنع لنفسك قهوة جديدة ؟ هذا جزء من إعادة التعرف للبيت ؟ ولم يرد عليها ، كأنما يرفض ، منذ البداية ، أن يدخل حلبة صراع ضروري معها ، ودائما يقول لنفسه إن نفي الصراع هو النفي بالاطلاق ، ويرفض صحة ذلك بكبرياء وتَطَلُّب قاسٍ جدا ، ويزعم أن حبه لا يمكن أن يدخل معترك الصراع ، وأنه إما أن يكون قائما وأولياً ومسلَّما به دون شروط ، أو لايكون . وهو يعرف أن ذلك بدوره غير صحيح وأن رفض الايمان هو قبوله وإقرارُه القلِق . وقد ترددت في أن تفهمه ، وعلَّقت الحكم في نظرتها المستطلعة إليه ، الداعية للكلام ، والدخول . فلم يتكلم إلا ليحكي حكاياتٍ عمومية كأنه في ندوة عن فلسفة الآثار أو علم اجتماع الاثريين ، إن كان لمثل هذا الشيء وجود ، كأنه يكمل حديثا آخر خيل إليه أنه دار منذ سنين ، على فنجانين من القهوة الفرنسية أيضا ، في كافتيريا الفندق الصحراوي تحت الهرم ، قبل أن يغوص العالم في فَلَك مجد الحب الذي لاقاع له ، وشهوات الجسدين اللذيْن لا فُرقة بينهما ، أبدا ، ولا اندماج أبدا . كانت تعرف أن هناك ، تحت هذا الانسياب السهل من الثرثرة ، تيارا يهضب ويدوّم دون أن يبين ، كأنما تجيب على سؤال لم يعرف — هو — أن يسأله ، فقالت ، فجأة ، دون مقدمات :

— القُربى الفيزيقية يجب أن تُبنى ، من جديد . ولا تأتي هكذا ، وحدها ، من تلقائها . كنا قريبين جدا . لكنك تدخل الآن عليَّ ، غريباً ، لا أكاد أعرفك . بل أنت الآن فعلا ، تدخل من جديد . القُربى الجسدية ليست شيئا معطى ، مسلما به . كأنما يجب أن أراك كل يوم من جديد ، أن اعتاد عليك .

قالت : أنا الآن أُحس حرجا !

لم ينهض من جلسته ، لم يمد إليها يده ، كأنه — وهو لا يُصدِّق — يخشى ، حتى الموت ، اختبارَ الغُربة ، وكأنه مفصول ، يرى نفسه لا يملك من أمره شيئا ، بل مضى يُقرر الوقائع والحقائق ، كأنه يصف آخر ، آخرينْ ، ويحكي عن حكاية النداء الذي لا يُفارِق أن يناديه ، والحلم الذي يتردد عليه دون أن يطرق الباب ، كأنه أليف ، وهو ضاري العينين ، والجزء الأقل من خطفةٍ بينه وبين التردي في هوة الانطلاقِ والغَمْرِ الذي لا عقل فيه ولا قانون .

قال لنفسه : ما أبعد هذا عما كنت تقولين ، أن القُربى الجسدية شيء مُعطى ، وهي قائمة من اللحظة الأولى ، تتجاوز كل شيء .

وضعت ساقها تحتها ، بحركةٍ مألوفة ، فوق حشيّة الصُوفَا التي طالما عرفا النعمة عليها ، وارتفقت الوسادة المغطاة بخيوط القصب الذهبي الباهت على الساتان الأخضر القديم ، كانت في عينيها نظرة فحص ، وعدم تصديق ، وشك فيما يقول ، كأنها لا تفهم ، وهو يقول ، بلهجةٍ ترن في أذنه استاذيّة ، ولكنها متهدجة إن هذا غريب جدا ، صحيح ، لأنه ، هو ، يحس أنه لم يفترق عنها لحظة ، وأن يده التي قالت عنها إنها غريبة ، تحتفظ لها وحدها بذاكرةٍ خاصة ، مستقلةٍ تماما عن إرادته ، صوته مازال محايدا وإن غضب قليلاً لارتعاش الوقدة الداخلية فيه ، ومازالت تنظر إليه نظرة أصبحت الآن محايدة ، ويسأل نفسه : كأنها لا تصدّق ، أو كأنها لا تصل إلى قرار .

نهضت فجأة ، وقالت له : سأذهب لأنام . تعال قل لي : تصبحين على خير .

ومنذ هذه اللحظة سقطت قشرة العالم الصلبة ودخل يتحرك في وردة السماء المتفتحة بضوءٍ كأن فيه نعومةُ الفجر وحَدْمة الظهر ولينُ الغسق الأخير معا ، لا يعرف كيف وضع خطوه الواثق إلى سرير فرحه الخاص ، وعندما نضت عنها ، بسرعة خاطفة ، ثوبها الشتوي ، أبرق في نفسه ماكان يعرفه ولا يعرفه ، طول الوقت ، أنها كانت عارية تماما ، له ، تحت ثوبها . وأشرق له جسدها الباذخ مرة واحدة وهي تدخل فورا تحت الغطاء الرقيق . ماذا فعل ؟ وهي ترقبه بنظرة عميقة وسرية قبل أن يجد نفسه معها وصدمة التقاء الجسدين ، ثم التطامهما ، هو القانون الأوليّ والنشوة المكتوبة على العمود القديم ؟ ماذا فعل ؟ حتى وجد وجهها الناعم المدور ، ساطعا بسمرته المتوهجة ، بين يديه ، وتحت شفتيه ، كأنه لم ينفصل عنه لحظة واحدة ، وكأنه جديد مفاجيء لم يعرف نضرته أبدا من قبل ؟ رغبتي تنمو ، وحشية ، في لحظة واحدة ، وتنبثق لها أفنان وفيرة الفيء ، تفترش جيدها الذهبي الباهت اللمعان وتدور حول ثدييها الكرويين الناعميْ الخرط وترتفع لتلتف حول عنقها المبذول ، عساليج شهوتي حيّاتٌ رقيقة الجسد تنساب متلوية حول جسدها وهي تشهق بنفث مطالبها الحارة. والوردة المكنونة الخفية تمتليء شرايينها الدقيقة بدم الحنان والقرار والاجابة التي تنفي كل سؤال ، والأطراف الطرية والقوية تحتوي جوهر

العالم من جديد كنوز جسدها لا تُصدَّق والفقدان لم يوجد قط ولن يوجد أبدا واللُقيا مجدّ مستديم فمي على النبتة النابضة الحوشية الوديعة التي تستنيم مفتوحة العين في خَمْأتها الطرية الحريفة سراً دفينا شوكها الهشُ يخِز وجهي والمُخْمَلُ الغنيّ الملمس الذي في عمق كأس الزهرة المتفتح . جمعتْ يداى الوردة الحية الشائكة الهُدب الحريرية اللحم ونهلْتُ من النكتار العذب الحار ، حُميًّا الجوارح المتضامة المتقاطعة التي تغوص وتطفو وتتكشف الأغوار القديمة كأنها لم تعرفها قطّ ، وتتعرف على صبحها الأول ، وتتقد ببؤرة شمس من داخلها تتدفق وتتشعّع وتتقد لانُطاق في انطلاقات دائرية كأنها مدمرة لكل مافي الإيماءات من حرص حنون حتى تتفجر ببرق منشعب كاوٍ وتسقط باندفاق قَطْر النعمة وريّه العميق وهو يرى في اللحظة الأخيرة وجهها الصافي كأنه يتمزق مزقا ممزعة وعيناها مشدودتان مفتوحتان في جمال وحشي الثمَل مكتوم الصرخة .

قال لها : مهما حدث .. أحِبّيني .

قالت بخفوت : أنا أحبك . سأظل دائما أحبك .

وكانت قبلته على شفتيها الهادئتين خاتما .

بعد دقائق كانت صاحية ، وفيها قرار خاص . قالت له :

ــ عليك أن تقرر الآن ، فورا ، تبقى الليلة هنا على أن تخرج قبل الثامنة صباحا ، سوف تأتي طالباتي مبكرات جدا ، أعطيهن يوم الجمعة درسا في اليونانية القديمة .. أو أن تخرج ، فورا .

قال لنفسه : الغريب أنني لم أجد في هذه الردة إلى الأرض شيئا غريبا . قبلته على الفور ، دون مساءلة .

لم يردّ عليها بقراره في هذا الخيار المفروض ، كانت ملابسه مرمية مكوّمة على الأرض ، عند قدم السرير ، كأيام زمان ، كأنه لم يرها ولم يعرف كيف جاءت هناك ، وكان يرتدي الجاكته ، ويتجه إلى الباب دون كلام .

نهضت فجأة ، واختطفت الشال الأسود المذهّب الحواشي فرمته على كتفيها العاريتين ، ورأى ، فجأة ، مرةً أخرى كأنها أولى ، كل بذخ جسدها العاري ، ونضارته ونعومةَ مهابته ،

تهتز عليه شراشيب الشال اللينة الخيوط ، وأوشك أن يستسلم من جديد ، لكن حركة قدميه كان لها إملاؤها وحده . وكان آخر ما رآه منها ، من وراء الباب الخشبي الكبير الذي ترده بحرص ، رهبةَ نهديها المليئين ، وسرَّ العينين البدائيّتين ، وحوشيّتها الوثنيّة ، وربوتها النضرة ، عشتروت شعرها مضطرب ، وقد عريت وتخلصت من إلحاح التطلّب ، تسبح ، سامقة وصامتة ، في جمالِ الشهوة المتحققة ، تحت نور المسرجة المطرزة بكتابات كوفية ، معلقةً بخيطين مجدولين في الردهة الضيقة خلف الباب .

كان يهبط السلالم الحجرية الضيّقة ، بين حائطين ، في عتمة البيت المملوكي القديم ، وشجرة الجميز العتيقة المتلوية الأضلاع في شبق كثيف ، قد سَحَبَت إلى داخلها كلَّ الندر ، ونامت في الحوش العتيق فيه رائحة تراب خفيف تحت النجوم المقطوعة .

قال : كان اليأس بريئاً وشديد السذاجة وبعيداً في الخلف ، وهي تلح في الدعوة لحفل العشاء في بيت الشعري اليمانية الذي لم أكن أعرف أين هو ، ولا ماهو

وقال : كنت ـــ ربما ـــ أنتظر لقاء عابرا آخر من لقاءات المحطات والمفترقات وتقاطع المسارات الذاهب ، كل منها وحده ، إلى اتجاه ، ولم أكن أعرف أن الزمن الآخر كان هنا .

قالت : هل تذكر يوم أن سافرنا بالطريق الصحراوي ، للاسكندرية ؟ كان معنا ذلك الطالب الذى حكى لنا عن تل الزعتر ؟

ـــ وأنزلناه في سيسيل ، يومها ، وذهبنا إلى زيزينيا ؟

ـــ تصوَّرْ ، جاء إليّ أمس في المصلحة . بحث عني ووجد العنوان، تخرج من كلية الهندسة بالاسكندرية . وذهب يعمل في الكويت . وكان يزور أهله هو أيضا في بيروت .. وحكى لي عن صابرا وشاتيلا . ألا تفرغ هذه الحكاية ، أبدا ، ياميخائيل ؟

ـــ ما اسمه ؟

ـــ محمد عمران . ماذا يهم اسمه ؟ لم يعد لهم اسماء . لم يكن لهم أبدا اسماء .

قالت : وحكى لي ..

ـــ شريط الدم المتجمد الذي فيه رمل قليل ، صلب وخفيف ، وعليه ظروف الرصاص الفارغ ، صغيراً ولامعا مازال وكامل الاستدارة ، كأنه جديد ، تحت حجر النافذة المكسور ، تحت الحائط المرسوم عليه بخط صبياني : ثورة حتى النصر ، السيقان والأيدي والرؤوس مكومة ، سوداء ، منتفخة ، في عناق جماعي صامت ، كأنه مستريح ، بين لَفّات سِلك صدىء ، وجزء من أنبوبة فخار ضخمة الفوهة ، وحذاء جديد مازالت ساقه المبتورة معلقة به ، والنتن الآدمى الذيْ لايُطاق ، يفوح من الحيطان ، من ظلمة النافذة ، من خشب السرير المنتهَك ، من الجلابية النسائية المنشورة على حبل الغسيل ، سوف تلبسها الجدة العجوز ، ولن تنضو عنها الرائحةَ أبدا ، بِرْكة البنزين واللبن والدم ، على رملِ الشارع الضيق وأحجارهِ ، تجف في الشمس .

قال : الذَبحْ متكرر ، مبتذل .
قال : ولا يُطاق . ورهبته أُولَى ، في كل مرة ، بلا انتهاء .
قال : بينما العالم يعصف بنا ، بكل ضراوته ، بي ، وبك ، وبجحافل لا تتوقف من الجوعى ، والمضروبين ، والمُهانين ، والعرايا أمام قصف الحديد القاسي .

قال : والمطروحين في الوحشة ، وحدهم ، والمتشبثين ، بآخر أظافر الحياة ، بالأنقاض الحادة والشظايا .

قال : والشهداء بلا اسم ولا مجد ولا كتاب الساقطين بلا توقُّف تحت الأقدام والسنابك والجنازير وعظام المخالب المتفجرة بالديناميت .

وسأل : هل نحن نلوذ بأحدنا الآخر ، من رعبهم ، من رعبنا ؟ .

وأجاب على نفسه ، دون اقتناع : أو ليس السياق ملتبسا ، أو ، حتى ، لا معنى له ؟ أو ليس كلٌّ منهما حقاً قائماً برأسه ؟ والتداخل خفي وحميم ، ولكنهما لا ينقضان أحدهما الآخر ؟

وقال أيضا إن كل طريق مَخِيلةٌ وخلابة وإن تحت قدميه ، في كل طريق ، حَسَك .

قال لها : من الأشياء التي لا أنساها أبدا ، هذه اللحظة قبيل سفري الى أسوان .

كان في طريقه الى المحطة ، وأوقف التاكسي على باب المصلحة ، وراء المتحف على جنب من ميدان التحرير . قال لها : كان ذلك ممكنا في الزمن الخالي عندما كانت التاكسيات حيوانات قابلة للترويض .

وعندما دخل إلى مكتبها ، دخل إلى لحظة نادرة من الهدوء الساجي ، مكينة ومركوزة ، وكان ثوبها افريقيّاً ولدن النسيج ، وهي رشيقة ، تكاد تكون نُحيلة ، وفي جسمها خفة ونغمة صاعدة برفق في جو نقي كأنه متخلخل الهواء . وعلى عكس حوشيّتها الجسدانية المصطخبة التي يعرفها ، كان في قوامها ، عندئذ ، رنّة شجن خفيضة . وأعطته كتاب هيسه « رحلة الى الشرق » لكي يعرفه .

في غرفته بالكتراكت القديم ، والنيل غامض تحته ، في ليلة مقمرة كأنها بشارة ونذير ، كان وجع الشوق اليها يمتزج بوجع الضرس الحاد الجارح يُغذّي أحدهما الآخر ، يضع قرص الاسبرين على الفجوة المنقورة في عظْمه ، ويتعرف إلى نورٍ صوفيّ مُمضٌ ومُضْنٍ وساطع معا ، وحيطان الغرفه المُصْفَرّة الخشنة المِلاط تقول له إن وحشة غرف الفنادق كلها متشابهة، وفراغ قلبه بالفقدان الذي لايعرف الخلاصَ منه . الألَمُ المخدر الكامن يهدأ ويتيقظ ويطعن ويخبو ، وهو يتقلب في موجات البحث عن منارة ملتبسة الضوء ، فنزلَ إلى ردهة الفندق الخاوية الخافتة ، قبيل الفجر ، وكان موظفو الفندق قد تركوا أنفسهم لنعاس قِلِق ، ولكن المكتبة الصغيرة مفتوحه ، فاشترى بطاقةً بريدية ملونة ، وكتب لها : أتذكرك ، وأفتقدك .

وفي تقليبه الطويل لسيرة حبه معها ، جاءت ، مرّة ، حكايةُ الليلة التي كان القمر فيها قد شبع من فرائسه ، وكانت حُميا ملايين الحيوانات الصغيرة تئز من وراء الزجاج الخشن المحبَّب المُغبَّش النور ، وعندما أحسها تترقرق تحته بالتحقق والرضا ، ونامت ، لحظة بين ذراعيه ، وتيقظت يقظة كاملة وعيناها ساطعتان مُتطلّبتان ، وقالت له : تعودت أن أنام بين ذارعيك .

قال : هذه أيضا لا أنساها أبدا .

قالت : لماذا خرجتَ ، بعد ذلك ، بهذه السرعة ؟ كنت دائما أسأل نفسي . هل كنت تخشى الفضيحة ياحبيبي ؟ الفضيحة كانت قد تمت ، خلاص . !

كان الكتاركت ، ليلتها ، موحشا ومليئا بالخطر . خطر آخر ، غير مفهوم .

وكان يعرف أيضا ــ لأنها قالتها لهــ إنها تومىء إلى طَقْسه في صنع الحب إذ يستنفد كل شيء في اشتعالٍ محرق وكامل ، مرةً واحدة . لم ينتبه قط في سذاجةٍ جنسيةٍ ما ، أنه لا يعرف روتين المواصلة ، والمقدرة على الراحة ، بعد لحظة الاستكمال ، في حضن الأرض التي شعفتها نار شهوته التامة ، ثم ابتعاث اندلاع الشوق الممتلىء بعد أن تنتفي لحاجته . لكنها ، طبعا ، كانت رقيقة جداً وحساسة جداً له ، ولم تومىء إلى ذلك كله إلا بعد أن علّمته طقوسَ التعدد المتطاول الأنفاس . أما قوانين جسمه فلم تكن قد عرفت إصرار التلاحق .

قالتِ له : من الحب أيضا أن نعرف قوانينا الداخلية ، وتَقْبَلها . لكلٍ منا ، ولنا ، كلينا ، معا .

ولم يقل لها : في كل قبول تنازل ، وتصالح ، ولا أقبله .
ولا قال : إن القوانين لا تطْلُب القبول . بل تقوم ، ثابتة ، لاتُعْنَى بأحد ، ولا بشيء .

لأنه كان يزعم لنفسه أنه لم يبارح قط أرض طفولته ، حتى في هذا الاكتهال المحترق .

وهو يقول لنفسه الآن : أليس في هذا العكوف عليها ، وعلى تلك اللحظات التي بادت كلها ، واندثر معها العمر ، ولا معنى لبقائها في هذا الولع والتَدَلُّهِ ، أليس في هذا كله طفولةُ الشيخوخة التي لا تُغتفَر ؟

يدها في يده ، وجهها قريب إليه جدا ، هادىء الجمال وعليه ندى خفيف من جهد

الحب المكتوم الصعب ، وهما وسط الناس ، الناس يعرفهم ، واضحين ، لكنه لا يتذكر مَنْ هم ، شأن تجسيم الحلم ، يحس في يده كتلةَ يدها الناعمة فيها ثقل هين ، تركتها له ، مَسُّها حقيقيٌّ مُلازمٌ لا يخفّفه توهُّم ، كأنه في خطفةِ برْقٍ بين يقظتين ، أو هو في يقظةٍ خاطفةٍ بين إغفاءتين ، هي معه ، بين الناس ، وقد أخذ ضوء الحلم الصحْوة يشتد ، يده ، يحسها ، مرة واحدة ، لاتتحرك ، نبض الدم توقف ولكنه هناك ، وصلابة يدها الثابتة دافئةٌ وثقيلةٌ ثقيلةٌ الآن ، اندمج حجر اليدين معا ، وأصبحا في حسه جِرْماً واحدا مُصْمَتاً مغلقا على بعضه البعض ، وقد اختفى الناس كأن لم يوجدوا قط ، والوحشة واسعة قاسية ليس فيها نسمة ، ولا تتحرك حبات الرمل على الساحة الخاوية ، وفي بصيرةٍ كأنها ليست له ، يرى ، دون أن يعرف تماما أنه هو الذي يرى ، قامتين ، ثابتتيْن من الحجَر ، ليست لهما معالم ، ولكنه يعرف أيضا أنهما ـــ هما ـــ باسميهما ، هناك ، في قاب الكتلة الواحدة المزدوجة ، واحديْن ومنشقيْن معا ، رجلاً وامرأة ، فقط ، ولكنّهما ليسا هُما ، بشكلٍ ما ، مهما كانا هُما ، هُما ، في مضضٍ لا يطاق يعرف ، في صميم أحشائهما معا يعرف ، أن الحياة لا غلاب لها ، هناك في داخل الحجر أنينٌ يسري عبر صمت المادة العنيدة القوام ، والدم يرشح ببطء ينساب على البياض الداخلي المقفل يتشربه ويمتصه ويظل شاحبا غير مشوب ، الأنين الذي لا منفذ أبدا لتَحَشْرُجه العميق ، والدم المهدَر المسفوح غير المرئيّ ، كيف يمكن أن يصعد إلى جدار الحجر ؟ ، ولكنهما يظلان جامديْن ، بدائييْن ، مكشوفيْن في العراء ، ودمهما المكنون مباح ، الجِلد الحجري مُطيَّب بالزيت ، الجسم الواحد المثنّى مُعَدٌّ للذبيحة . وهو يَنْشَقّ بخور القربان ، كأنه في كنيسة طفولته . ولكن الصرح الحجري يقوم خلفهما ، أسود هائلا ، ضاربا في ركن السماء المُحرقة ، حَجَرُه خشن الحواف ، به فجوات غائرة دقيقة يؤكدها نور الظهر المنصبّ بلا هوادة ، وقد سقطت الريح . هل هما المقرَّبُ إليهما ؟ أم هما القربان ؟ السؤال مضنٍ ومُلحٌّ وقابض . وقد صمت العطر وانقطع البخور ، على أرضٍ جفافٍ صحراويٍّ لا رحمة فيه .

الباب الثاني

الحَوَمان حول الدائرة

خذ عندك ياسيدي هذه هي القاهرة الفاطمية .

قال له أحمد ، بصوت فيه قليل من السخرية وقليل من الحزن ، وفيه أيضا بِخفّة سكر طفيف من البيرة التي شربوها في الكوزموبوليتان ، منذ قليل ، ثم جاءوا مشياً من شارع قصر النيل ثم الأوبرا والعتبة والأزهر .

وكان شعره المسرَّح بعناية وأناقة قد شاب فجأة ، وهو مازال بعد في رجولته الفتية النحيلة ، من عذاب الاعتقال القديم ، وكانت فضة القمر الغنيّة جزءاً منه .

كانوا في الشارع القديم المزدحم تحت ظل المآذن الجسيمة التي يسقط القمر على جانبها المُضلَّع المنقوش بموسيقى رصينةٍ من الحَجَر .

قال ميخائيل لنفسه : هذه أيضا قاهرة فاطمة .. كيف آخذها ؟

روائح التوابل والتراب العتيق والبهارات والمجاري والنفح الحريف الجاف الذي لم يتوقف عبر الألف عام ، وما وراءها ، تملأ صدره بنشوةٍ خاصة ، الشيح واليانسون والفلفل الأسود والكمّون والعِتّر المجفف ومسحوق الريحان وعادم البنزين والجلد المدبوغ الطازج البشرة ونفث احتراق المصابيح الكهربية القوية وعَبَق التمباك والمعسّل وكركرة الجوزة المعمّرة التي تدور بسرعة في القهوة الصغيرة المفتوحة ذات الأرض البلاط والكراسي القش ودكة خشبية قصيرة تحت النَصْبة ، وروح الخشب الذي لاينتهي من البلى طوال القرون ، والطين الذي نشّفته وعقّدته بينها أحجارٌ ألفيّة ناعمةٌ في تكسرها البطيء ، وبخار المكواة الأبيض ، لها نشيش ، على الجلاليب البلدي والبنطلونات الجينز في الضوء القليل ، وقتار شواء الكباب والنكهة النظيفة الصاعدة من حساء الكوارع الذي يغلي في الحَلّة الهائلة في صدر المطعم الضيق فيه أربع موائد فقط مفروشة بمفارش بيضاء ثقيلة النسيج . داهمه فجأة صوتُها النهائي ، قاسياً ، كأنه مُعَادٍ ، سوف يجيئه من زمن تالٍ :

ــ يا ميخائيل يا قلدس أنت تعرف ، لو كنت أستطيع لقتلت الرجل بيدي هذه ، دون لحظة تردد .

كانا قد فرغا من العشاء ، لحْمة رأس وفتة ضاني بالخل والثوم في هذا المطعم نفسه .

وتذكر الجدال الطويل عن نظريات الإرهاب الفردي والجماعي والمجالدة الطويلة حول حركة الشعب وحركة الأفراد وقبوله العميق في أحشائه الغاضبة ، برغم كل اعتراضاته المثقفة العاقلة ، وقبولها أن يصنعا الحب ليلتها بجسيد فيه بؤرة رفض عنيد .

قال مصطفى بضحكته الطلْقة ذات العمق الأجش الصادر من تحت ، وقد انحسر حزامُه تحت قميصه المتهدل على بنطلون واسع غير مكوي :
ـــ يا جماعة .. نحن تهنا خلاص .. يالله نرجع ؟

كانوا يضربون في الغورية منذ زمن الآن ، تدور بهم الأزقة والشوارع الغاصة بالدكاكين الصغيرة والسيارات الزاحفة بين الحيطان والأبواب وعربات الكارو المنزوعة عن حميرها أو بغالها مركونة على جدارن السبيل المزركش بأحجاره المتساقطة الناعمة النقْش خطوطُه الأنيقة المشجَّرة ذهبُها ناصل باهت كأنها حلوى قديمة نالها العطب ، تحت لافتات البوتيكات الحديثة بخطوطها الجريئة تشتعل في تلويات النيون الملوّن بالأحمر اليانع والأصفر الفاقع .

قال أحمد ، بصوته الهادىء الخفيض : نتكلم في التليفون . نرجع لماذا ؟

كانا أمام ممر يُفضِي إلى ظلمةٍ مفتوحةٍ تحت السماء ، يحسونها تغصّ بحياة الناس الذين يروحون ويجيئون بصمتٍ مهموم تحت الحيطان الهائلة الارتفاع ، وكان دكان الصائغ عليه لافتة قديمة معتمة تقول فلتس ساويريس ذهب وفضة ، حلقان أساور بانتاتيفات ، خواتم ساعات ، والدكان طويل وهادىء في ضوء ضعيف وواجهته الزجاجية المرتفعة محكمة الإغلاق على الحلقان الهلالية الضخمة الدوران والعقود المفروشة المَخْرُوزة بأحجار داكنة الحمرة والخواتم الكثيفة الغليظة والصواني الفضية لثقيلة ومفاتيح دقيقة وصلبان وخراطيش هيروغليفية رقيقة وعلامات الزودياك : العذراء والحوت والثور والميزان والعقرب وفي الجانب الآخر ساعات السايكو ومنيرفا وسلاسلها وقطع من عملة فضية عليها طغراوات السلطان حسين والملك فاروق والسد العالي .

أحس ميخائيل أنه الآن قد عاد من حافة الغربة وأنه في أرضه القديمة ، رائحة التراب والبهارات والقدم ونفث الرطوبة التي تجف ، تُبرئه من شُبهةٍ ما .

كان التليفون على المنصة الخشبية العالية بجوار خزانة حديدية قديمة الطراز غليظة الباب فيها قبضةٌ صفراء معقوفة شكلها وحده يوحي بصرير له حشرجة صدئة .

استأذن أحمد من عم فلتس الضيق العينيين اللامع تجاعيد الوجه ، مازال يلبس الطربوش على جلباب بلدي حرير وبالطو من أيام العز الغابر ، وأدار الرقم ببطء ، وانخرط في حديث طويل مع الطرف الآخر لا يقول فيه إلا : نعم ؟ أين ؟ لأ .. آه .. وكان واضحاً أن الأمر مختلطٌ عليه اختلاطا لا فكاك منه ، وأن الغورية ، والبيرة ، وهمومٌ خفية أخرى كلّها قد أسكرته قليلا ، وقال بعد فترة ، وهو يضحك ضحكة حادة : خذ .. تكلم أنت .

التقط ميخائيل السماعة ، وهو أيضا خفيف القلب شيئا ما ، وهتف :

ـ رامة .. !

جاءه الصوت المبطن بالنعومه التي يعرفها وكأنه لم ينسها طول السنين :

ـ خدامتك رامة .. أنت أيضا سكران ياميخائيل ؟

ـ إطلاقا .. سعداء فقط لأننا قادمون اليك ..

ـ سيدي ياسيدي ..

ـ صحيح والله .. فقط أين بيتك ؟ دخنا السبع دوخات .

ـ بعد الشر عليك من الدوخة .. من أين تتكلم الآن ؟

ـ من عند صايغ طيّب اسمه فلتس ساويريس .

ـ خلاص .. اسمع .. أنتم الآن تحت البيت تقريبا . وأنت تواجه الصائغ ، أول حارة على اليمين ، وخطوتان ، ثم الفتحة على اليمين أيضا ، قد لا تراها لأول وهلة لأنها داخلة تحت قبوة قديمة ، ستجدها منورة بمصباح نيون لا يمكن أن تخطئه . اسمع .. فيه بياع ورد في أول القبوة على طول . تدخل تحت القبوة ياسيدي ما الا انت ، فتجد البيت أمامك مباشرة . الباب الخشبي عليه رقم ٢٢ب . أمامه شجرة جميز ضخمة عجوز جدا وعفية جدا ، خبّطْ على الباب فقط ونبوية ستفتح لكم . واضح ؟ مفهوم ؟ محدد بما فيه الكفاية ؟ أم تحتاج أيضا إلى مزيد من الشرح ، مستعدة والله أشرح أيضا ، على أتم استعداد . فقط تأمر ..

فضحك . هذه رامة التي يعرفها ، من جديد . الخطوط الجليّة الساطعة والإشارات

الخفية المثقلة بالمعنى أيضا . وإن كان كل شيء بينهما ، حتى الآن ، مازال على أرض محايدة غير واضحة المعالم .

ـــ لماذا تضحك ؟ شربتم كثيراً قبل أن تجيئوا ؟ والله ياسيدي ليس عندكم حق ، الخير عندي كثير والحمد لله .. تعالوا فقط ، بسرعة .

ـــ سمعا وطاعة ياست الستات .

ـــ العفو العفو ، مع السلامة .

طقطقة السماعة وهي توضَع ، دقيقة وصارمة الترحيب .

تحت ضِلع حائط ضخم أسود الحجارة ، يقتحم نصف الشارع بأركانه المهدمة ، كانت القبوة تبدأ بالرائحه السُكَّرية العطنة قليلاً تفوح تحت أنبوبة الفلورسنت البيضاء المائلة قليلاً فوق دكان بيّاع الورد ، وأرضه المُبلّطة ببلاط أسود مبلولة ، وعليها ورق شجر جاف مرشوش منتثر وفروع خضراء دقيقة متلوية ، وجرادل متجاورة بازغة بالورد البلدي والقرنفل وأغصان ذقن الباشا .

كانت السيارات تقف في الدرب الضيق نازلةً بمقدماتها من على الرصيف ، وكانت الشجرة العتيقة تنزل بغصونها الغليظة الأثيثة على الباب . وفتحت لهم نوبية ، سمراء جدا وجسيمة ولامعة العينين ، وملابسها سوداء ، ودخلوا الحوش الصغير ، وكان مقمراً ومكنون الهواء .

وكان السلّم الحجري الضيق العالي الدرجات جافاً ومنعشا ، بين حائطين مسدودين تماما أحجارهما كبيرة ومظلمة . وعندما وصلوا إلى الدور الأخير كانت قطعة السماء المنيرة المحبوسة فوقهم ، تشير إلى خلاص غير مفهوم وغير مطلوب .

انفتح الباب عن عالم مفاجيء ، بعد طُرقة صغيرة عبروها تحت أنوار مسرجية مملوكية الطراز تومض كتاباتُها الكوفية المُذهَّبة على زجاج ملون بالأزرق المصري العريق ، حول مصباح كهربي مُلوَّز وصغير .

كانت الغرفة الفسيحة القديمة البناء دافئة ببخار الحديث والأكل والشرب،وتموج بلغط الناس والحركة ، وفي البيت رائحة بصل الكباب المشوي والطماطم المحموشة ، وأحس ميخائيل بالبساط الوثير تحت قدميه بألوانه الدافئة ، بنّي محروق وأصفر كمّوني داكن وبقع عميقة السواد متناثرة ، وكان على يمين القاعة ، ومن أمام ، شجرتان من أشجار الظل ، ناضرتين وجديدتين تحت النور المرقّش الذي يهتز من مصابيح عربية كالمشاكي معلقة بسلاسل نحاسية جديدة مدلاة ، من عوارض خشبية داكنة اللون جدا ومشققة وعتيقة ، في سقف عالٍ بعيد الارتفاع . والحائط البحري كله مشربية قديمة ، تعاشيق الخشب فيها متشابكة ومكتنزة ودقيقة الدوران بايقاع لا ينتهي تكراره ، مقفلة على ذاتها ومفتوحة بلا نهاية ، أما الحائط الشرقي فهو على حَجَره العاري القديم ، أبيض ، طاهرا ، صارمَ الجمال ، وفي وسط الحائط صورة زيتية لمولد شعبي كأنها من فن الاطفال ، خُضرتها برسيمي سائدة ، وبقع الحمرة القليلة فيها تُعمّق زحمة المواكب والذاكرين الذين يذهبون إلى آخر الساحة منظورهم يذهبُ نحو الصِفْر باطّراد . المواكب تمضي إلى عالم آخر خارج اللوحة ولكنه مُتضمَّن فيها . البهجة الطفلية في اللوحة ، على الحَجَر العاري ، كأنما تأتي من قَبْل الطفوله وقَبْل الميلاد ولا تعرف الموت ..

وعندما دخلوا الغرفة كادوا يصطدمون بسنية منصور التي كانت آتيةً من اليمين ، من المطبخ بلا شك ، ترفع بذراعها صينيةً عليها أطباق صغيرة عميقة من الصيني الأزرق الرقيق ، تترقرق فيها ، بكثافةٍ مُشتهاة ، عجينة مرقةِ كبابِ الحَلّة البُنّية تبرز من زَبَدها الداكن مِزقُ اللحم المقطوعةِ بمكْر ، ومازال بخارها يتصاعد في لَفّات بيضاء متطايرة ، فهتفت بصوتها العالي الذي ترتعش حافته ، مع ذلك ، بنوع من التهدج المردود :

ــ أهلا أستاذ ميخائيل ، وصلتم أخيرا ؟ وأومأت برأسها الى مصطفى وأحمد ، وأكملت : إيه يامصطفى .. وَلّا تغريبة بني هلال ! اتفضلوا يابهوات .. ! اتفضل أحمد بيه .. !

كأنها ــ كعادتها ــ بحضورها القوى المُتَقَحِّم ، وجسمها الذي تندلق طواياه الضخمة ، وانبعاجاته التي تكاد تكون سليطة ، وثيابها الغالية التي لا ذوق فيها ــ قد استولت على المشهد كله ، لحظة . وكان ترحيبها ، بالنيابة ، صادراً كالعادة عن قلب يريد أن يسترضى ، بسذاجة ، مهما كانت النوايا ماكرة . قال ميخائيل لنفسه : هذه بنت البلد القاهرية الحقيقية

بين كل هؤلاء الناس ، في عصر السادات ، وشراهة الانفتاح ، نهمة إلى كل شيء ، على استعدادٍ للبطش وللبكاء ، للنهب والتضحية ، على السواء .

وكأن رامة ، لذلك ، قبلت أن تترك لها القيادة ، بتنازلٍ محسوبٍ وموقوت ومحدد جدا ، فقط في وسط هذه الجماعة ، فقط الآن .

وذهبت سنية بصينية الأكل مباشرةً الى قدري عبد الفتاح ، وكيل الوزارة ، بوجهه الطفليّ المتهدل الخدين ، وصلعته الزاحفة تحت سعره المصفوف الأسود ، ينهج قليلا من ضغط جسمه الضخم عليه ، وزَخْمةِ الويسكي والحديث ، والى جانبه وجدي المحمودي ضيفه من إدارة الآثار العراقية ، يجلسان ، تحت لوحة المولد ، على المصطبة العريضة الواطئة المفروشة بمرتبة منجّدة مكسوة بالقصب الأخضر الداكن والذهبي الباهت .

والتقط ميخائيل ، خلسة ، ترامق المغازلة الخاطفة والهمس الذي كأنه بذيء بين سنية وقدري ، لأنه كان ينتظرها ويعرف أنها لابد ستحدث ، وهو في طريقه الى مقعد تقدمه له رامة .

وفاجأته رامة ، دائما تفاجئه ، بهذا الغنى الذي يشع ، كأنما رغما عنها ، بأنوثة ممتلئة لاتُقهَر ، وهى ترتدي البنطلون المحبوك الذي يبدو وكأنه مصبوب عليها ، خاصة ، والبلورة الداكنة بياقتها اللينة وفتحتها المثلثة غير العميقة تنسدل سلسلتها الذهبية الرقيقة تحتها إلى موطن النهدين الثابتين بكبريائهما الخاصة ، وقال لنفسه إنه لا يريد أن ينظر اليها حقا ، ولا يريد أن يتذكر .

وهى تقول له : ياأهلا ياأهلا .. نحن اليوم زارنا النبي . شرفتنا ونورتنا .. ماهذا الهناء الذي نحن فيه ؟

بابتسامةٍ في دماثتها وعذوبتها نَفْيٌ لكل مافي الكلام من سخريةٍ عالية ، بل كأن السخرية الحارة نفسها تغطيةٌ للسرور الحقيقى ، وخِلابةٌ عنه ، كأنها تخجل من فرحها بلقائه ، وتُساتِر به .

قال لها : أحضرت لك الرسالة الطويلة التي كنت كتبتها لك في اسكندريه .

فأخذتها منه بخفة ، دون أن يلحظ أحد ، ووضعتها في درج المكتب الصغير في ركن القاعة ، تحت العمود الواحد المستدير الذي يستند إليه السقف .

وأمامه انحنت سنية منصور على قدري عبد الفتاح ، وهي تقدّم له طبقَه الساخن ، وارتفع كفلها الضخم فجأة تحت عيني ميخائيل ، وانكشفت مؤخرة وركيها المدملجين العاريين تحت الجوب القصير ، وسمع قدري يهمس ، كأنه لا يتصور - أو لا يهمّه - أن يسمعه أحد ، بلهجةٍ فيها كثافةُ المَرَقة التي يتناولها ، نفسها ، وتسائِلُها : ماهذا ؟ شكله لذيذ جداً من يديك .. سآخذه طبعاً مادمت تأمرين .. لك كل ما تأمرين ياستى أنا .. ! أما صديقه العراقي فقد رفع طَبَقَه بنفسه من الصينية ، بعنايةٍ وحرص ، هادىء الجمود ، هادىء الابتسامة ، كأنه يخلي نفسه من مسئولية أنه سمع - وشهد - حكاية المغازلة المخطوفة وسط الجميع . كانت سلوى قد اقتربت بطبقها من صدرها الوفير ، وهي تنظر إليهما بقصد ، ومكر . أما نورا فقد كانت ترمقهما بصراحة وابتسامة .

تحلّق مصطفى وأحمد ، في الطرف البعيد من القاعة ، حول الصحّارة القديمة المفروشة بملاءة من كتان بنّي فاتح جدا مطرز بنقوش نباتية نحيلة ومدورة بالبنى الأكثر امتلاءً وأكثر لمعانا، ورامة تقدم لهما ، في طبق كبير ، ما تلتقطه من أطباق الجبن الابيض الطري ، وشرائح الجبن الرومي القديم المشروخة الجفاف بصفرتها الداكنة ، والجامبون في لفائف رقيقة ينضح بحمرة وبياض نظيف ، والزيتون بلحمهِ الطري الأسود المجعّد بغضارة غنية في زيته الصافي ، وقد رُصت ، إلى جنب ، الأشواك والملاعق والسكاكين الفضية الصغيرة القد ، الرشيقة التدويرات ، مصفوفةً على الفوط الصغيرة من نفس نسيج وتطريز المَفْرش الكبير . قال ميخائيل : النظر إليها ، وحده ، مُتعة . لماذا ابتذالها ؟ وهو يدور بعينيه على زجاجات الويسكي البلاك آند وايت ، والكونياك المارتل ، والمياه المعدنيه بَرَكة ، والشينزانو ، والفودكا الاستوليشنايا ، والأوزو اليوناني كلها على جانب ، والأكواب والكؤوس المُضلّعة الطويلة والمسحوبة والمنفرطة الفوهات ، يتكسر النور عليها تحت الأحلام الخشبية للخرّاط القديم الذي صنع المشربية المملوكية .

وعندما أخذ ميخائيل طَبَقَه من يديها ، وفي يده الأخرى كأسه ، كان قد بدأ الضغط

داخله يتحلل، وجسمه يتحرر ويخف، كأنه قرر، من وراء نفسه، أن ينسى، الآن، كلَّ مضض الحب القديم المتروك في داخله ، أو أن يحيطه ويدفعه بعيداً في مكانٍ غير محسوب حسابه ، أو أن يُحيِّد تهديده .

ورأى سامية ، تحت شجره القشطة التي تومض بخضرتها الداكنة ، تقترب بثدييها الصغيرين ، وجسمها بنحوله الملفوف المخادع ، يدها السمراء الطويلة الأصابع تحمل كأسها ، وتهمس في أذن أحمد ، وينفجران بضحكةٍ قصيرةٍ متواطئة ، ويستندان بحرص ، على جانب المشربية التي انحبس الليل الخارجي ــ بقطع محددةٍ من الظلمة ، عكس نور الغرفة ــ في تخاريم تعاشيقها الأنيقة .

قال لنفسه : نحن الممتهَنين في عقر دارنا ، المحبوسين عن أن نرفع ــ حتى ــ صوتنا ، المطرودين نبيع أنفسنا ، بالرُخص ، وبكبرياء ، في شوارع الصحراوات ومدنها المجلوبة القاسية ، في الميادين الخلفية والمطابخ الخلفية لعواصم العالم كله ، بحثا عن الترانزستور والفيديو والفول اتوماتيك نستهلكها وتستهلكنا في الشقة الجديدة المستحيلة أو على شط الترعة التي ماتزال تعص بالبلهارسيا ، نحن الذين مازلنا نأكل المشّ بالدود وأعواد الجُعْضيض ، بالرغيف الجاهز المدعوم ، في أوانٍ بلاستيك جديدة ونعالج البلاجرا ، مازلنا بقطعةِ لحمٍ عزيزة نأخذها من الحكومه بالعظم والشغت ونفكّ الخط بصعوبة ونطلب من الغرباء أن يملأوا لنا استمارات السَفَر في مطارات مالطة وطرابلس وجدة وبغداد ، نحن ، نحن هنا أيضا . لا يمكن الا أن نكون هنا . نحن المضروبين ، مَنْ أنا بينهم ؟ نحن الغارقين في القهر المتزيّن بأطمار خلقة ، نحن الذين ــ برغمنا أو طوعاً وقراراً منا في دخيلتنا ــ نَنْشَقُ دخانَ جبل القمامة المحترق المتصاعد من صناديق الشوارع وصناديق التاريخ ، يُلوِّث بيوتنا وقلوبنا ، نحن الذين يرقبوننا ويسرقوننا ويكذبون علينا ويُخوّفوننا ويجعلون نفوسنا وساحاتنا وحاراتنا قفرا وخرابا ، نحن المحاصَرين الصامتين الذي نجري ونقف في الزحمة صفوفاً بذيئة وراء اللُقمة واللَحْمة ، نضرب بأيدينا المتقبّضة في الظلام ثم نترك أيدينا تسقط ، نحن الذين تنقضُّ فوق رؤوسنا الأنقاض وتحترق بنا القطارات وتنقصف السيارات وتنقلب المراكب في مياه النيل اللامبالي العميق .

سوف تقول له : البلد راحت تحت أقدام الكلاب .

وسوف يحس الغضب والإهانة ، له ، وعلى الأكثر لها ، هي ، ولن يعرف أبدا إن كان في الغضب شُبهة إنقاذ أو شبهة يأس .

جاءت زينب العصفوري ، بخطْوها المتقارب ، لوجهها جمالٌ غائب مصقول جدا ومحسوب جدا ، ورشاقتها مدروسة ، ولكن عينيها الشرقيتين الشَبِقتين تخونان كل الحسابات والدراسات وتنمّ عن عمقٍ من الجِسيّة والبراءة الفيزيقية غير مصقول ، وهي تحمل الكباب السخن على صينية فضة طويلة ، في أسياخه الرفيعة ، وأنصاف البصل المشوي مُحمَّرة وفوّاحة بين مُكعَّبات اللحم الداكن وشقق الطماطم المحروقة والبياض السمنّي لِقطَع الدهن الطيّعةِ البشرة .

وإنفتح الباب الخشبي الثقيل المنحوت عن ضيف الشرف ، عباس فؤاد وزير الثقافة الأسبق ، وزوجته . وخطر لميخائيل أنه كان من نجوم المؤتمر ولكن الاهتمام الرسميّ به كان في اتجاه التجاهل ، إن لم يكن المُعاداة الصراح .

وحدث الهرج ، والارتباك المعهود ، نهض الجميع للتسليم ، وجلبة وضع الكؤوس والاطباق على الموائد المنخفضة وعلى الرفوف الرخامية في الطاقة الطويلة المنقورة في الجدار ، وعلى الأرض أيضا بجوار الكراسي ، وبينها جميعا حركة الاقدام الحريصة بالرغم من السُكْر الخفيف ، وابتسامات السرور التي تحفزها أيضا خفة الشرب والرضى عن الأكل ودغدغة الحواس من لعبة الغَزَل والغزل المضاد ، بينما رامة تقوم بطقوس الترحيب الذكية المدربّة الناعمةِ الحوافّ ، بكل مافي رصيدِ بنت عائلات العزّ العريق التي تربّت في الساكريه كير وكلية ڤيكتوريا والمدارس السويسرية لِصَقْل البنات ، من بساطةٍ فيها القدر المضبوط تماما من الشُغل والإحكام ، وأُلفة فيها القدر المضبوط تماماً من الرعايه والاحترام . فقد كان عباس فؤاد من قادة إحدى التنظيمات الشيوعية التاريخية ، وإذا لم يكن ينتمي إلى التيار العريض للحركة ، فهو زميل أيضا ، وله تاريخه في المعتقلات والسجون أيام فاروق وعبد الناصر ، قبل الوزارة ، وله تاريخه الذي بدأ يشحب كثيرا ويتوتر كثيراً بعد الوزارة ، وبعد أحداث الحرب ، والمعاهدة ، والانفتاح .

جلس عباس فؤاد وزوجته جنبا إلى جنب ، في وسط المصطبة المنجّدة تحت صورة المولد تماماً ، أفسح له قدري عبد الفتاح ، وجلس الضيف الأثرىّ العراقيّ ، بكرم ، على مقعدٍ واطىء إلى جانبه .

كان وجهه الكبير محتقنا ، قليلاً ، بأهميته ، بيقينه الغائر الذي أصبح لا واعيا أنه ، هو ، يعرف ويُنْفِذ حتميّة التاريخ ، وقَدَر الشعب ، والحقيقةَ النهائية . وعيناه الجاحظتان تملآن نظارةً سميكةً جدا ، وبطنه البارز يستقر على ساقين قصيرتين مدموكتين ، وكان تَرَصُّنه وحِسُّه الثقيلُ بوزنه التاريخي يجعل وجوده على النقيض من بهجة اللوحة التي فوق رأسه ، كأنه يقطعها ويردها إلى خَلْفٍ بعيد ، وإن كانت لها نداءات أحسها ميخائيل غير خافتة .

وكانت زوجته صموتاً جدا ، رقيقة الجسم إلى حد الذبول والجفاف ، فستانها الباريسى الأصل يبدو باهتاً لاطعم له ولا كَسْم ، كل مافيها يوحي بقرار قديم تَكَوَّن عبر السنين ، بالضمور ومحو الذات والاختفاء . زوجها استأثر من زمن طويل ، بالحيّز المتاح لهما كليهما ، وأكثر .

عباس فؤاد ، على الفور ، وفي يده كأسه ، وأمامه طبق أعدته له سنيّة منصور ، باحترام واضح وتملّقٍ يتخذ شكل رفع الكُلفة ، ينزلق في حديث فرديّ طويل بصوتٍ مرتفع رغما عنه ، ومتسلّط كأنه لا يحس به ، وكأنه يخطب وفي الوقت نفسه يشكو ، يحكي وقائع شبابه وكفاحه . كأنما كانت الكأس الواحدة التي شربها أكثر قليلا مما يحتمل ، أو كأن في داخله همّا يريد أن يفيض ، فانتقل ميخائيل بكأسه الى الساحة الجديدة . ونظر إلى رامة باسما ، وهَمّ بالجلوس على الأرض . فقالت رامة ، في تواطؤ قديم كان أوشك أن ينساه وهى تجلس معه ، على الأرض : نعم ، نعم ، البساط أحمدي . ليس هناك أحلى من قعدة الأرض . وجلس إلى جانبه على الفور من الناحية الأخرى مصطفى وأحمد وتحلّقت البنات حولهم . وردَّ مصطفى ، بحذر وتحوطٍ على مشاعر الرجل ، فأثار حكايةً قديمة عن صراعات التوحيد القديمة بين الفصائل والتنظيمات ، وتدخلت رامة على الفور ، بلباقةٍ واضحةٍ جدا ، وتكلمت عن الأدوار التاريخية والتضحيات التي لا يمكن أن تُنسى ، وعن تطور العلاقات بين القوى الاجتماعية والطبقية وتطور الوعي بهذه العلاقات ، وانتقل عباس فؤاد على نحوٍ فجائي إلى حدٍ ما ، إلى أن المعاهدة الآن هي المحكّ ، وأنه لا معيار هناك الآن إلا معيار الموقف منها ، ولا ضرورة إلا مقاومتها وإحباطها ، وأن وحدة القوى الوطنية كلها ، على الأصعدة الداخليّ والقوميّ والدوليّ معاً ، إنما تناط بهذا المعيار .

كانت إيفيت الآن قد أخذت دور سنية منصور ، بمنطق عفويٍ يأتي ، هكذا ، في داخل تطور علاقات الحفلات ، وكانت هي التي تروح إلى المطبخ ، وتجيء ، تصعد الدرجة الواحدة العريضة التي تدور وسط الغرفة الواسعة وتهبط ، بحركة نشطة كأنها تسبح في الدفء والثرثرة والسُكْر والأكل ، ولا تشارك في الحديث . عرف ميخائيل أنها كانت قادمة اليوم من الاسكندرية مباشرة ، حيث نزلت البحر في برد أبريل المُنعش ، وفهم أنها كانت مع صديقها الذي لا يعرفه أحدٌ منهم ، وجاءت ومازالت ، على قدميها ، في الصندل المفتوح ، آثار رمال المعمورة . وكان شعرها القصير جداً قد جف وعليه خشونة ملح البحر المتبخّر ، وكان وجهها المخروطي محمراً صوّحته الشمس تتقد فيه عيناها الحالكتان ، وصدرها خفيف وواضح أنه متحرر من السوتيان تحت البلوزة الرقيقة النسيج المفتوحة على بنطلون ضيق مُحكم على استدارات الجسم النحيل الذي ما زالت فيه سخونةُ شمس الشاطىء .

وفي نوع من الاستهتار كأنه مواجهة — أو هرب — من مسئوليةٍ ما ، قال ميخائيل إن المؤتمر كان عظيما ، وكل شيء ، وأن دراسة الآثار بلاشك جزء من نسيج الثقافة الحيّ - مهما كان ذلك يبدو هامشياً ، ولكنه يريد أن يعرف ، حقيقةً ، ودعْنا من كل الدعاوي والكلمات الضخمة والرنانة ، بل حتى دعنا الآن من الايديولوجيات - صحيح أن الايديولوجية وراء كل شيء ، بمعنى ما ، أى نعم ، لكنى أتمنى ، ببساطة أن أذهب الى أصولٍ عاريةٍ في الأشياء ، ولا تقل لي إن ذلك أيضا أيديولوجية ، المهم أريد أن أعرف ، حقيقة ، مادور المثقف المصري الآن ؟ ماصلة هذا المؤتمر أو أمثاله ، بالناس ؟ لا أريد أن أقول الشعب ، أو الطبقة العاملة — الى آخره ، حتى لا أسقط في شَرَك الصيغ والقوالب ، أعنى الناس ، الناس المتحددين ، المتعيّنين وليس الناس كمفهوم، وتجريد وقيمة جبْرية في معادلةٍ نظرية ، الناس الآن ، هنا ، بكل اختلافاتهم وكل تشابهاتهم وكل اشتباكاتهم ، نحن كلنا ، هل لنا دور ، ياناس ؟

وأدرك ميخائيل ، فجأة ، وهو في هامش نشوة الشرب والبَوْح والتحدي ، ماكان يعرفه طول الوقت : إنه لايريد أن يترك لطغيان حضور رامة أن يكتسحه من على الأرض ، أن نفح أنوثتها ، وتألّق وجودها ، وبراعتها كمضيفة وامرأة وشخصٍ نادر ، واستئثارها ، كأنما برغمها ، بالاهتمام والقبول والتسليم من الجميع ، ذلك كله يقتحم ويمتلك كل الآخرين ، ولايريد أن يتركها

تحتويهم جميعا ، وتشتمل عليهم جميعا ، تحتضنهم ، على نحوٍ ما ، بصدر رحيب وثير ، فإذا هم ينبثقون من بؤرةٍ واحدة ، هي ، وينصبون الى بؤرةٍ واحدةٍ ، هي . هؤلاء ، كلهم ، وغيرهم ، ليسوا إلا شظايا صغيرة دقيقة متناثرة من الجَرَّة العظيمة التي لا يفرغ منها العجينُ الخصيب أبدا .

وفهم أنها أحست بذلك ، وأنها عندما جلست إلى جانبه على الأرض ، كانت تريدُ له أن يُنفِذ إرادته .

وتذكر ميخائيل ، مرةً واحدة ، أيام الجامعة في اسكندريه ، وكيف كان لاسم عباس فؤاد رنّة ومهابة في حركة الطلبة اليساريين سنة ١٩٤٦ ، لم يكن قد رآه ، ولكنه كان يناوئه ، من بعيد ، الحُجّةَ بالحُجة والتنظيمَ بالتنظيم ، وتذكّر ليالي الاجتماعات في غرف الطلبة من باكوس الى المنشية الصغيرة ، الغرف التي ليس فيها إلا مرتبة على الأرض والكتب ومائدة للطبيخ والمذاكرة معا ، وترتيب خروج المظاهرات ، وتنظيم الاضرابات ، وصَوْغ الاسانيد والشعارات . كان عندئذ يتخيل عباس فؤاد نحيلاً ، كله حيوية، لامعَ العينين من الذكاء ، فهل كان يلبس النظارات السميكة في تلك الأيام ؟ وتخرج عباس فؤاد من كلية العلوم إلى بعثةٍ في فرنسا ، في نفس السنة التي خرج فيها ميخائيل من كليه الهندسة إلى البَطَالة ثم إلى المعتقل ثم إلى الآثار ، وظل التوازي قائما ، لم يلتقيا قط ولم تتقاطع الطرق بهما قط ، ذهب عباس فؤاد إلى الزعامة والوزارة ، وذهب ميخائيل إلى ترميم الآثار وإلى الشعر والفلسفة يُرمّم بهما انكساراتٍ عميقةٌ لا يعرف بأمرها أحد قط .

وتكلم قدري عبد الفتاح ، من داخل ضخامةِ جسمه ، الكلامَ القديم ، تلك القوالب التي من فرط صحتها أصبحت لا تعني شيئا ، عن أهميه دور المثقف المصري ، وكيف أنه أستاذ المنطقه كلها ومعلمها ومربيها وكيف أن تراثه هو الذي غذّى كل المثقفين العرب ، في المرحلة الأولى لتكونّهم على الأقل . وقال وجدي المحمودي ، باكتفاءٍ بالذات مثير ، إنه على الرغم من أزمة مصر الآن ، ووقوفها على مفترق طرق حاسم بين القومية العربية والغزو الثقافي الأمريكي إلى آخره إلى آخره ، فإنه يُقدر دور مصر الذي لاغنى عنه ، وعنده ثقة بأنها سوف تجتاز هذه المحنة ، وردّت عليه رامة ، بغيظ ، كأنما تستنكر منه نوعاً من التعالي العربيّ على مصر ، وإعطاءَه نفسه حق الحكم عليها ، وتكلمت عن حركه التاريخ ، وعراقة الإسهام الجماهيري الصامت ،

وثقله على المدى الطويل ، وقال عباس فؤاد إن حركة الجماهير هي التي تحكم الموقف كله ، وإن القيم الانفتاحية الاستهلاكية بسبيلها أن تدمر ، إن لم تكن قد دمرت بالفعل ، الثقافة المصرية ، وإن المَنَاط مرةً أخرى هو الكفاح ضد المعاهدة ، ولكن الوزير الأسبق ، فجأة ، لم يعد مُهّماً ، وكأنه ليس هناك ، وكأنه قد لحق بشبح زوجته الصموت الممسوحةِ الحضور . وأثار ميخائيل مرةً أخرى حكاية تنوُّ ع الثقافات ، وتحدُّدَها ، في داخل مفهومٍ عامٍ مجردٍ عن الثقافة المصرية ، من ليبرالية علمانية وإطلاقية عقائدية ، بمختلف ألوان المروحة من يسار إلى يمين ، ومن شعبيةٍ تحتانية وفولكلوريةٍ تسير إلى الانقراض ، إلى ثقافةِ الاستهلاك التليفزيوني والإذاعي الكاسح ، وكلها تعمل داخل هذه الثقافة المصرية ، وسأل عن دور الأزهر الآن ، ودور الكنيسة الأرثوذكسية ورهبانها الذين يدرسون الآن النصوص اليونانية والقبطية والألمانية بلغاتها الأصلية في أديرتهم ، وعن غياب الناس ـ جمهرة الناس ـ عن كل هذه المشاكل ، أو على الأقل عن الوعي بها بوضوح ، وانغماسهم فيها حتى العنق ، حتى الفم المختنق والعينين المفتوحتين . وكان ميخائيل متألقا ومتواضعا وجذابا وعنيفا وحارا ، واقتربت منه زامة في جلستها على الأرض ، بجانبه تحت العمود الرخامي باستدارته الحسّية الناعمة الدوران ، وتاجه الغامض اليونانيّ الشكل الذاهب بعيدا يستند إليه السقف الخشبي المعتم ، وشربا نخباً صامتاً ، غير معلَن ، وعنيفاً حارا . وقالت له كأنما على حدة : يعني لم تعلق بكلمة واحدة على أنني قصّرت شعري كالغلمان ؟ نظر إليها ، وأحس ، تحت يده ، بالحرشة اللينة القصيرة ، كانت لديه ذاكرةٌ حية ، وقالت : مريح ، وعملي ، ويوفر كل عناء الغسيل والكوافير وشغل النسوان في شعرهن ، وكنت مطمئنة على كل حال ، أن أحداً لن يخطيء . قال : ولا أدنى إمكانية شك . فضحكت وقالت : هل لاحظت إيفيت ؟ حلقت رأسها تقريبا . وأصبحت فعلا غلامية . أنت تعرفها .. عندها هذا ممكن . وغيرها وغيرها ، وأوشك الآن أن أضع تيار مودة في الشّعر .

عندئذ كان مصطفى قد تهدل قميصه أكثر على وسطه ، وانفك الزرار العلوى منه ، وهو يضحك ضحكته المكترشة الطيبة الوقْع مع زينب التي تقضم قطعةً متأخرةً من الكباب بأطراف أسنانها ، بحركةٍ رشيقةٍ وشهويةٍ في وقت معا وسنية منصور تقول لها ، وهي تضع ذراعها الكبيرة المنبعجة اللحم على الكتف الرقيقة : ياختى كُلِي على راحتك والبساط أحمدي ، كأن بينهما نوعا من الفهم الجسدي الأنثوي الخاص ، وكان أحمد ، بشعره الفضيّ وتهضُّم وجهه ، يدندن لسامية بصوتٍ حنون وخفيض : الحلوة دى قامت تعجن في البدرية .. وانضم إليه مصطفى

بصوته الخشن : الصنايعية المظاليم .. "والهم داير علينا ، ودخل ميخائيل : اضربها صرمة تعيش مرتاح ، فانضمت سلوى أخيراً ، بنغمةٍ شجيةٍ مدربَّه ، صوتها فيه بحة مثيرة ، ودوران بطنها مُوج ومحبوك ، وسمرتها رائقة : وبرضه لسه غلابة مظاليم ، وكانت نورا تحكي ، أخيرا ،حكايتها ، بقليل من الفلفل ، تميل على وجدي المحمودي الذي انتقل إلى الجانب الآخر ، بقوامها الطويل المسحوب وشعرها الفاتح الخفيف الوزن ، يهتز حول وجهٍ فيه فكٌ بارز قليلا ، كأنها فرس ذكية ذلقة اللسان .

بعد الغنوة بدأوا ينزلون ، قام ميخائيل وقال لمصطفى ، همساً : لا تنزل من غيرى ، لا تتركني هنا .

عندما نزل على السلم الحجري كان يحس أنه خذَلَ نفسه ، وخذَلَها ، كأن حياته نفسها ــ أياً ماكانت حياته ــ تتوقف على قراره ، متدهورَ القلب ، من حضورٍ غير مفهوم أبدا ومحمَّلٍ بالنُذُر على أى حال .

قال لنفسه : ماكان أغرب هذا الخَطْو الأول نحو ذلك الزمن .

وقال : عندما أتحدث عنها الآن ، تبدو الأمور قاطعة الضوء ، واضحةَ الأحجام والحدود . ليس في ذلك شيء من الحقيقة ، في مَجْرَى الأيام والليالي المختلط الأمواج ، حيث ليس هناك إلا شبه ضوء ، وأجزاءٌ مضطربةُ القوام ومقطوعةُ الشكل . الضوء لا يأتي إلا في الحلم .

كل حديث عنكِ يجرحك ، وكل حكاية عنكِ ظالمة ومتجنية ، وكل إشارة إليك ، منى أو من غيرى ، كم هى قاصرة وناقصة ومعطوبة ، لأن الحب الذي أعرفه ـــ بك ـــ هو كاملٌ وصافٍ وبدائيّ وجوهريّ . الحب يُطْوَى ولا يُحْكَى . إن أَبُحْ بالسر أُبِحْ دمى . فكيف أتكلّف ، مع المقتول قديماً ، سَتر الهوى ؟ أليس الحب فضيحةً قتولا ؟ والكتمان أقتل ؟ .

كانت قد قالت له ، فيما بعد : أنت فضحتني ياحبيبي .

المياه النزرة تجري في قنواتها الصغيرة الشحيحة . أما البحر الذي يهضب فهو مدفوعٌ في الغور السحيق ، عواصفه المُجلجلة وهديره الوحشيّ لامرئيٌّ ولا مسموع . هذا البحر يحلم بك ، كما يحلم بصحراء وديعة وكامنةِ الشراسة ، لا شمسَ فيها ولا نهاية لأفقها . طيّات بطنك كثبانُ حلمي الممهَّدة الوهدات . تعصف بي ، وتتقلب ، الأيامُ والشهور والسنوات ، ولاشيء يتغير ، والحب مصون ، يزداد سطوعا ، ويتقد بلا خفوت ولا انطفاء . أنت لاتسمعين حَدَمة هذه النار ، لا يصلك اضطرامُ شعاليلها المتطايرة اللاذعة الأسنان . صوتها ، بلا انقطاع ، تعزف به كلُّ الأوتار ويملأ علىَّ كل طريق . صوتها ، صوتك ، صوتي . كيف أنطق باسمك ؟ كيف يمكن أن أنطق باسمك ؟ بكل الأصوات ، من العُواء الموجوع في الأحشاء الحيوانية إلى الهمس الوثير ، من حشرجةِ القلب المختنق إلى النجوى المتقطِّرة بدم شفاف ، من الصرخة التي تعض عليها إلى النداء بيأسه الرقيق ، كل الأصوات ، كل الأصوات ، شوق معتم مكتوم ملىء ، عقدة غليظة الحَبْل ، مزدحمة بنوع من الجمر المتلظى المطمور . أضُمّ على الجمر قبضتي بلا انفكاك وقبضتي عليه رمادٌ أبيض كثف ساكن الطبقات .

كانت قد قالت له ، فيما بعد :
ــ كنت قد ألغيتك . لأنه كان يجب أن أبقى على قيد الحياة .

يا حبيبتي . أى فقدان ..! كيف كان ممكنا ــ وكيف يمكن الآن ــ أن أفقد هذه الياقوتة الغنية المعقَّدة الحنايا المُلْتَفَّة على نفسها بطوايا الاشتعال ، ثم أقدر أن أعيش ، ثم أقبل أن أعيش ؟

كانت قد جفت آبار الدموع . أو هكذا خيل إليه .

كانت قد قالت له ، فيما بعد :
ــ ياويلى وياسواد ليلى لو كان حبيبي يحب الألم !

وكان قد قال : أُمقت الألم . لكن الألم هو صيغة العالم .

كلمات ، كلمات ، كلمات . ضاقَ صدري واختنق بالكلمات . أليس عندي غير الكلمات ؟ كم أمقت الألم أمقت الكلمات التي تحاول ، وكَمْ هي عاجزة ، وعابثة حتى ، أن تقول الألم . أريد الصمت الحاسم الفعال . أريد السكوت الذي يصنع جسمي وجسمَكِ ، وهو وحده الذي يصوغ ، ويحكُم .

هأنا لا أجد بين يديّ إلا الكلمات ، قطعا صغيرةً صدئةً من صفيح ، وحتى ليس فيها لَمعَان .

السكات . .

على أن كل شيء مازال هناك .

قال لها : كنت في إيفا-يفيتش ، وقد أصبح الآن شيئاً رثا ومتربا ، أشرب كوب شاى عَكِر وأقضم ساندويتش فول ، بالعافية ، أنتظر قيام الأوتوبيس الصحراوي للاسكندرية . انتظرت يومها خمس ساعات ، أُغلقَ الطريق فجأة ولم يُفتح إلا بالليل ، ولم يقل لنا أحد شيئا . كنا ، فقط ، ننتظر . رأيت الأوتوبيس يضربه ، أمام القهوة ، ويرتفع عن الأرض قليلا ، ثم يسقط ، خفيفا وكأنما لا وزن له ، إلى اليمين ، كومة طرية بلا حركة في الجلابية البيضاء غير النظيفة . تجمعت حلقة صغيرة من الناس ، وتعطل المرور قليلا ، ثم انحرف عن الحلقة واتخذ طريقا ملتويا قليلا .. بطيئا قليلا ، ثم استقام وأسرع . حملوه إلى الرصيف وتقدم شاب إلى الرجل المرمى وصنع ملاءة يغطيه بها من ورق الجرائد التي أسرع الناس يقدمونها له ، يفرشها بعناية فوقه ، أطرافها يطير بها الهواء قليلا ، فيضع عليها قطع حجر وطوب يلمها له الناس . وانفكت الحلقة ، بقى الرجل المغطى بالجرائد وحده على الرصيف . كانت الساعة الخامسة إلا ربع . في الخامسة والنصف جاءت سيارة النجدة ، نزل منها ضابط صغير السن ، لم ينحن على الرجل ، أعطاه القهوجي بطاقة شخصية أثبت رقمها عنده وردها اليه ، وعاد إلى السيارة التي مضت . في السادسة إلا ربع جاءت سيارة الاسعاف ، وكأن الرجل الذي نزل منها يمثّل دور بانتوميم ، أخذ البطاقة ، نظر إليها ، ردها ، وعاد إلى السيارة التي مضت . أُضيئت الأنوار ، الزحام والأصوات في الميدان لا شأن لها بالميّت ، الناس والسيارات والترام تأتي وتمضي . في السابعة جاءت جماعة

صغيرة من النسوة لابسات السواد يصرخن ويلطمن ويشوّرن بالأذرع وبين أرجلهن أطفال تجري في الفساتين والجلاليب . كان صوتهم لايكاد يُسمع في ضجة الميدان ، توقف الناس لحظة يرقبونهم ، ولم تبطيء السيارات ، وجلسن على الرصيف حوله ، الصرخات ترتفع وتخفت ، واللطمات على الخدود تشتد وترتخي ، وفي التاسعة جاءت عربة بوليس سوداء مقفلة ، عالية ، مما يُستخدم لنقل المساجين ، ونزل منها عسكريان وحَمَلا الرجل إلى أرض السيارة ، وتطايرت الجرائد على الرصيف .

قال لها : أربع ساعات وربع ، بالضبط ، حسبتها ، بعد أن جاء الوحش إلى الميدان وذهب . هل ذهب الوحش حقا أم مازال هناك ؟

همست ، بغيظ : الوحش مازال في الشوارع طبعا .

قال لها : أحكي لك هذه الحكاية لأنني بعدها بيوم واحد قبلت ، أخيرا ، دعوة سوزي الكاتب أن أذهب اليها ، في بيتها في بولكلي . أنت تعرفينه ؟

قالت ، بانتظار وترقب : طبعا .

قال : كانت هذه المرة الأولى ، التي اتضح بعد ذلك أنها الأخيرة أيضا .

قالت ، بنوع من التحدي ومُغالَبةِ غيرةٍ لاتريدها أن تظهر : ولماذا الأخيرة ياحبيبي ؟ لماذا لم تأخذ راحتك ؟

قال : لا ، بجد ، كانت زيارة غريبة جدا ، وتاريخية !

قالت : عِينى ياعِينى ، وتاريخية أيضا ؟

قال : نعم . صبرك عليَّ أحكي لك ، شُقّتها كما تعرفين في آخر دور في عمارةٍ عالية

على البحر . تُهْت قليلا ثم عرفت البيت . كان الجو في أواخر سبتمبر أكثر حرا من المعتاد ، والبحر رصاصياً في الغروب ، وهواؤه مكتوم . وعندما دخلت أحسست بالشقة خالية وهادئة ، ولم أكن أعرف هل هي متزوجة أو مطلّقة وهل لها أولاد ، ولم أسأل طبعا . لاحظت على الفور أناقة الأنوار والبورتريهات الثلاثة التي رسمها لها حسين داود بأسلوبه المتميز حتى وإن لم أر التوقيع . كان في اللوحات حب ، مرسوم ، واضح ، وبألوانه الخضراء المتماسكة النسيج والرمادية المشهورة ، وكانت ساقاها الرفيعتان جدا موضوعتين في نورٍ شفقيٍّ داكن .

قالت : حسين داود نعم . قصة حب كامنة لا يعرفها الكثيرون .

قال : أما يوسف نوح فقد كان كعادته وَغْداً معها ، كما تذكرين .. هل تذكرين المؤتمر في أسوان ؟ صحيح ، كانت معلِك في غرفة واحدة في الكتاراكت القديم . قلتِ لي مرة إنك كنت تكشفين في حقيبة يدك قطعةً من ملابسها الداخلية ، هكذا بدون مناسبة .. !

ضحكت ضحكتها الجافة ، كأنما بدون صوت وقالت : ياعيني عليها . كادت تموت . أنا قلت له بصراحة ووضوح إنه كان وغداً معها . مسحت به الأرض . أفهم أن يستلطفها مثلا ، يخرج معها ، ينام معها حتى ، لابأس ، مفهوم ، مقبول . ولكن أن يعاملها هكذا ، ثاني يوم ، مباشرة ، يرفض أن يرد عليها بالتليفون صباح اليوم التالي بعد أن أخذ منها ما يريد ، وقال لها كل الكلام الحلو ؟ كاد يقتلها والله ، دون أي مبالاة .

قال : ممثلنا العظيم مشهور بالسفالة ، هل رأيته أخيرا ؟ هل رأيت كيف تحول وجهه العريض المنحوت إلى شيءٍ بشع من الشرّ والتمزّق . موهبته كانت حوشيّة .

قالت : لم أعرفه جيدا . لم أحس أبدا نحوه باحترام .

قال : ماعلينا .. قدمتْ لي كأساً ، كانت قد أعدت الثلج والماء والويسكي والفسدق ، على صينية فضية عليها نقوش معابد وباجودات من الشرق الأقصى . كانت ترتدي .. دعيني أتذكر .. بلوزة حريرية خضراء يانعة منقطة بالأسود وصدرها البني الغامق مفتوح وحر ، وبنطلون ملتصق بنحول جسمها ينتهي بعد الركبتين بقليل ، بلون الفسدق الأخضر الفاتح جدا ، غريب جدا مع لون ساقيها المحروق السمرة ..

قالت : وفاكر أيضا كل هذه التفاصيل ياحبيبي ؟

قال : وحدثتنى عن بريتون وأعطتنى نسخة نادرة من الطبعة الأولى من « الحب الجنوني » وكانت تنحني عليّ ، بتدبير والله ، وهى تصبّ لي الويسكي وتمسك بيدي أيضا وأنا أشعل لها السيجارة ، وأخذت عيناها تغيمان قليلا ، وأنت تعرفين حلاوة صوتها .. أقول لك الحق كنت متحيرا قليلا ، ولاأريد أن أقتنع بما أرى ..

قالت : أيوه يا سيدي ..

قال : لا .. المهم هو ماحدث بعد ذلك . النهايه كانت مفاجئة ومسرحية جدا .

قالت : نعم ، ماذا حدث ؟ قل لي على النهاية المفاجئة ، المسرحية جدا ..

قال : واللهِ ..كانت الأمور تقترب من اللحظة الحرجة ، ولم أكن قد قررت شيئا ، أيا كان ، عندما دق جرس التليفون بإلحاح . قامت وردّت عليه . كان التليفون بجانب باب الشقة ، بعيدا عنى . لم أسمع شيئا ، وعادت فصبّت لي كأسا ولنفسها أيضا ، وكانت مضطربة قليلا ، وهى تتكلم بعذوبةٍ وإصرار عن أندريه بريتون وتريستان تزارا ، وبعد دقائق عاد التليفون يدق ، فنهضت مسرعة ، وبدأتُ أقلق ، وسمعت صرخةً مكتومة قصيرة منها ، وعندما عادت كان وجهها الأسمر الغامق كأنه زاد ضمورا ، وبرزت عظْمة خدها ، وتحت سمرته شحوب واضح ، وشفتاها ترتعشان . وقفْتُ ، وقالت لي إنها إذاعة الإسكندرية ، وكانت تكتب لهم برامج خاصة ، وقالت إن الاذاعة في القاهره أوقفت برامجها منذ نصف ساعة ، واكتفت باذاعة القرآن فقط ، وقالت إنهم تكلموا الآن وقالوا إنه الريّس .

قلت ، غير مصدق ، وقد سرى في ساقى نوع من الخَدَر والخفة : مَن ؟ عبد الناصر ؟ ماله ؟ وصوتى سمعته مرتفعا ، كأنني أصرخ ، ولكنه خشن قليلاً لا أعرفه .

كادت تجهش وهى تقول لي : نعم ، ميخائيل .. نعم .
ولم تستطع أن تقول الكلمة .
ووجدتها بين ذراعيّ ، كل جارحةٍ فيها تنتفض .

قلت مذهولا مازال : غير ممكن .. لا أصدق .

قالت ووجهها على صدري ، بصوت مكتوم نعم .. نعم .

كنت أحس من وراء الجدران والشبابيك المغلقة نوعاً من الصمت ، في الخارج ، قد سقط على المدينة ، على البحر ، على كل شيء . ودارت في ذهني صور مضطربة ، ماذا سيحدث الآن ؟ هل يعود مجلس قيادة الثورة ؟ هل يخرج الضباط ؟ هل ينفجر الشارع ؟ وكأنني رأيت الدبابات تخرج إلى الشوارع ، مشرعة المدافع ، وكأنني أعرف أن حظْر التجول سوف يُعلن بعد قليل ، أو كأنه قد أعلن بالفعل ، وخلَت المدينه إلا من العساكر ، وكأنني سمعت طلقات الرصاص تتردد أصداؤها في محطة الرمل ، ومحطة مصر ، وأسمعها وأنا في بيتنا القديم في راغب باشا من وراء النوافذ المغلقة .

قلت لها : سوزي .. أنا .. لازم ..

قاطعتني : نعم .. نعم ، إذهب الآن .

وكانت عيناها مبللتين وضارعتين ولامعتين ، بسوادهما الخارق ، وفيهما يأس طفولي ، رفعت إليَّ شفتيها ، بتوسل ، أحسست بجفاف عظام ظهرها تحت يدى ، كبنتٍ صغيرة متحيرة ، وحتى لحظة الحنو هذه لم تبق معى ، جاءت ثم غابت تماما ، الآن فقط أذكرها ، ولم أحس بقبلتها الغريبة . وعندما نزلتُ كانت الشوارع فعلاً مضروبة بصمت كامل ، والعربات القليلة تمرق بسرعةٍ وسكوتٍ كأنها تريد أن تختفي . هكذا عرفت بموت عبد الناصر .

قالت رامة : هل احتاج الأمر أن يموت عبد الناصر ياحبيبى حتى تتخذ قراراً في مسألة سوزي الكاتب ؟

ثم قالت بسرعة : لا . لا تغضب ياحبيبي . أنا أعرفك . أنت بيوريتانيّ بالطبيعة

أمواج الليل ، في الخارج ، سكنت ، وحوشا منفية على صخورها الرابضة .

قوارير الاحشاء المحنطة : المخ والقلب والمعى والكبد وسائر الأعضاء المُخْيِية المغمورة في القار والنطرون . والأفاويه الغريبة ، في وَهْمِ تجاوزِ الموت ، وَهْمِ تجاوزِ الزمن . النادبات يشلشلن بالطرح السوداء ويستصرخن الميّت الذي لم يرد بعد يناديه أن يجيب مازال التراب المحثوّ على شعرهن المرسل المفكوك خشناً وحَبَّاتُه على الخدود التي تضرجت بالحمرة من اللطم والأصوات قد بحت من صريخ النداء واللوعة نصف مصنوعة نصف ساخنة .

وأدخُلُ في أدغال الاحلام الوَحِيَّة الوابلة بالغَدَق يُحَوِّلُها الصباح إلى صحاري من القحط المُصَوِّح في حَبَّة قلبي .

صرخه بوق القيامة في كونٍ موحش خاو ليس فيه أحد كأنما رمال الصحراوات الشاسعة لم تطأها قدم منذ البدء السحيق وحتى النهاية التي لن تأتي أبدا والأفق الفسيح المترامي إلى غير أفق يدوّى بصرخة البوق . ملائكة البوق لا يراهم أحد ، لأنه ليس هناك أحد ، ولا الملائكة .

أما هى فقد قالت له :

ــ قبل طلوع الجنازة صممتُ أن أذهب الى مجلس قيادة الثورة ، أودّعه . نزلتُ في الفجر تقريبا ، وفي يدى مَنَال . كانت صغيرة وكنا نكاد نجري في الشوارع التي ابتدأت تمتلىء بالناس كل الناس ولم تكن الشمس قد طلعت بعد . لم تكن هناك سيارات ولا أوتوبيسات ولا عربات نقل بل ناس ، ناس ، صامتين ، مفقودين . وحتى عندئذ ، قبل أول الصبح كانت صُوَره في كل مكان ، واللافتات المكتوبة بأى شكل وبأى خط ، بكلمات التوجُّع ، كتبوها وحدهم من غير تعليمات . وقبل كوبرى الجلاء كان هناك كوردون عسكري ، بعرض الشارع . ولكني لم أتردد . واقتربت ، واستمررت في المشى ، أخترق الكوردون . العساكر ، صبية صغار من الأمن المركزي ، بوجوه طفليّة سوداء مغلقة يقولون : ممنوع ياستي .. ممنوع .. إرجعي ياست ، وصفهّم يضطرب قليلا ، ولم أكن أنوى الرجوع ، ومنال في يدى صامتة ، متعلقة بي ، مُعلقّة العينين بالعساكر ، فتقدَّم إليّ ضابط شاب ، الكاب الأنيق على رأسه ، ومد ذراعه يعترضني قبل أن أنفذ من بين العساكر ، صرخت به : أريد أن أرى جمال عبد الناصر . قال : غير ممكن ياهانم . ممنوع . اتفضلي . قلت له وقد ارتفع صوتي ، وتهدج ، وكدت أفقده : بل ممكن . بل ضروري حتى . ضروري . ولن أرجع حتى أراه .. لست هانم أنا .. عبد الناصر أبطل حكاية

الهوانم .. وبنتي هذه بى بنت عبد الناصر . هو الذي رباها ، على حب البلد ، على حب العروبة ، وعلى الأمجاد ، وحتى في الهزيمة هو أبوها ، وأخونا ، ومعلّمنا كلنا . ويجب أن تراه مَنَال ويجب أ - أراه أنا .

كنت تقريبا قد أصبحت هستيرية ولكني محتفظة بجأشي . وأُفحم الولد الضابط ، لم يعرف كيف يرد عليّ . كان الكوبري خاليا تماما في آخر الفجر .

قال : وماذا حدث ؟

قالت : ذهبت . قال الضابط لعر ن معه : « إذهب معهما » . ودخلت أنا ومنال ، بين الحرس . ورأيتُ النعش الملفوف بالعَلَم . لا أذكر كيف رجعت .

كانت عيناها جافتين . وكانت الدموع في عينيه .

تذكّر كيف كانت الدموع تجيئه ، رغما عنه ، وتتوقف وتجيء ، وهو في اسكندريه يرى الجنازة في التليفزيون . كانت طائرات الهليوكپتر الثلاث ، صغيرة في السماء ، تحلق في شاشة التليفزيون ، إحداها تحمله . أيها ؟ كان قلبه ينقبض من الروْع والجُرح . والموكب الرسمي الغريب الذي بدأ مهيبا وبطيئا ، والوسادة الصغيرة التي عليها النياشين وعربة المدفع التي تحمل النعش . ثم الانهيار . والحرس العسكري يقاتلون بأجسادهم دون أن ينسحق الامبراطور النحيل القصير ، ويصنعون سدأ مستميتا أمام الجماهير التي لم تعد تريد شيئا إلا نعش عبد الناصر . سقوط الرؤساء والزعماء والوزراء وملوك الأرض في الطوفان ، تدفُّق أمواج الناس دون حائل ، صرخة الفجيعة الواحدة المتعددة الطبقات الصاعدة إلى عنان السماء ، الناس بلا اسم بلا انفصال جحافل لاعداد لها متلاصقه تهدر في كتلةٍ واحدةٍ متحركةٍ مع النعش الذي ضاع تماما وذاب في وسط الناس يغوص بينهم ثم يطفو ، والذين سقطوا من على أعمدة النور والشرفات ومن على تمثال رمسيس وتلقفتهم الأذرع والصدور في موجهم الملتطم ، ولكنهم حرسوه ، وحدهم ، حتى الجامع .

قال ، وصوته يرتعش رغما عنه : كانت مصر أيامها مجيدة .

ثم قال : مجيدة ، نعم ، أين هي الآن ؟

ثم قال : ولكني لا أستطيع أن أنسى ، أيضا ، التعذيب ، تشبيح أجساد الرجال ، إقرار الخوف في قلوبهم حتى تفسد وتنتن ، الكلاب المدربة التي تنهش سيقانهم وخصيهم ، الحرق بالكهرباء في أعضائهم ، وأعقاب السجاير المشتعلة المدفونة في بطونهم ، كيف يمكن أن تُنسَى ؟ حَطْمُ الرؤوس بالعصيّ ، والجَلْد اليوميّ في الزنازين بالكرابيج حتى لايعود لها ألم ، تقريبا ، إذلال الرجال بأسماء النسوان ، ولذائذ الارهاب الشائهة . والمقامرة بالجيوش في حسابات عصابات التسلط ، وتمزيق أرض الوطن ..

قالت : ربما .. ربما .. ما أقل ثمنها من أجل ما حدث . من أجل اللقمة الطرية التي أكلها ابن الفلاح لأول مرة ، والكلمة التي تعلمها لأول مرة وكسْر شوكة الباشوات والانجليز والخواجات ، وتوحيد الآمال والرايات ، وإلهام الجوعى والمقهورين في العالم كله بحلم الحرية الساطع النور والأمان من الجوع وذل البطالة ، والكرامة التي ملأت صدورنا ، ورفعت رؤوسنا ، وصعود السدّ ، والحديد والصلب ، واخضرار الأرض ، وتطهير أرض الوطن ..

قال : ألم أقل لك مصر كانت مجيدة ؟ كم ثمن المجد فادح مقطوع من لحم المتهنين ولحم القتْلَى .

قالت : وبماذا نقابل القتل الآخر ، العدوان الآخر ، القهر الآخر ؟

قال : ليس هناك مفرّ . للأنبياء والثوريين والذين يريدون تغيير الانسان وتغيير العالم وجهُ الحنانِ القاتل .

ثم قال : فقط ، مَنْ هم الأنبياء ، ومن هم الأنبياء الكَذَبَة ، من العادلون ومن القَتَلَة ؟ من يحمل وجه الحق ؟ وكيف نعرفه حقا ؟

قالت ، بصرامة : لامفر من الاختيار .

عندما كانا معا في مؤتمر آخر ، من زمان ، مرّت عليه في غرفته في الكتراكت القديم ،

وطلبت اليه أن يراجع معها ، بسرعة ، بضع نقاط في بحثها عن الپاليوجرافي ، وكانت تريد أن تتحقق نهائيا من كلمةٍ أُشكلت عليها قليلا في نقش عربي قديم وجد سنه ٢٣٠ للميلاد في وادي فران في سيناء ، وعلاقتها بالخط القبطي . كان صدرها يرتفع وينخفض في قلق الاستعداد لإلقاء البحث أمام جمهرةٍ غريبةٍ عليها من الباحثين ، وخيل إليه أنها في الواقع تبحث عنده عن مرساةٍ تشد إليها هذا التوجس — غير المألوف منها — وعن ثقةٍ في موج مضطرب ، وضع يده يضغط قليلا ، بحنو ، على صفحة وجنتها ، وأحسها باردة قليلا ، وعندما قال لها إن بحثها بقدر مايرى رائع وممتع وأن لديه اليقين الكامل بأنها ستقول أشياء هامة وشائقة وتقولها جيدا ، وأنها كالعادة ستأسر الناس ، قالت له : الله يخليك ياحبيبي ، بغياب ، واتفقا على اللقاء في الكاتاركت الجديد بعد انفضاض الندوة العلمية ، في العاشرة تماما . وعندما صعدت الى المنصة وكان شعرها طويلا عندئذ ، ومُلقى كله إلى جانب وجهها الصابح السمرة ، وبدأت بصوتٍ فيه ارتعاش أنثوي خفيف كأنه يلتمس المعذرة سَلَفا ، ثم ثبت الصوت ورَكَز وانطلق وقد فقد الحس بذاته في تناوله للموضوع المعقّد الذي تُبسِطه بتمكّن ومقدرة ، وإن لم يفقد المستمع ، لحظة واحدة ، حسه بأنثوية الصوت مع ذلك وامتلائه الموسيقيِّ الواثق ، على الرغم من صعوبة الكلام ، بل بسبب هذه الصعوبة نفسها ، وعندما صعدت هَبّةُ التصفيق التلقائي والحار من مجموعة الأثريين الذين أصبحوا من ساعتها زملاء وأصدقاء،لعله كان ، في جلسته في الصف الأول ، الوحيد الذي لاحظ حركةً يسيرة من قدميها ، من وراء القائم الخشبي الضيق الذي يحمل الميكروفون والمصباح الصغير وكوب الماء ، والقريب من مدخل المنصة الجانبي ، والوحيد الذي عرف أنها خلعت حذاءها الشيك الناعم الجلد ، من وراء خشب القائم ، وأنها ألقت البحث الجاد الممتع وهى حافية القدمين على بساط المنصة الكثيف الوَبَر ، وأنها بعد موجة التصفيق سقط الورق منها ، وكان يعرف أنها أسقطته عمدا ، فانحنت تجمعه بسرعة وأدخلت قدميها في الحذاء ، وخرجت ، خطوتين إلى جنب ، فكانت وراء الستار الجانبي للمنصة ، ولاحظ أن محمود ينهض من مقعده وراءه ، ويتجه إلى الباب الجانبي للقاعة ، وبعد قليل أيضا خرج عبد الجليل ، بينما استمرت الأبحاث تُلقى من بعيد ، والمناقشات تصعد وتهبط ، وهو غائب ، مثبت بمقعده بلا حراك ، متحجر من الداخل والخارج معا ، حتى التاسعة والنصف .

وبالطبع لم تأت ي في الميعاد ، للكاتاركت الجديد ، وكانت الدقائق تمر عليه بأقدام ثقيلة . يخرج الى الردهة المنيرة المزدحمة ثم يعود للكافتيريا بسرعة ويطلب قهوة ، ثم كونياك ، ثم كأساً

آخر ، وذهنه قد اشتعل بحيرةٍ مرتطمة ، ويمر نصف ساعة ، ثم لا نهاية من الوقت حتى تمر ساعة ، فيتخيل أن الميعاد كان في الساعة الحادية عشرة وأنه أخطأ ، وتبدأ دورةٌ جديدة وقوية من الانتظار والقلق والعذاب الممّض ، كأنما لم تكن قد دارت دورتها الكاملة بالفعل ، وبايقاع أثقل وأفدح ، حتى منتصف الليل ، ويعطى نفسه خمس دقائق أخرى ، ثم دقيقتين ، ثم لا يحتمل ، كأنما كان قد احتمل ، لكنه يَنْفصم ، يَكْسر الدورة فجأة ، من غير سبب ، فهل كان ثمة سبب للدورة كلها ، أصلا ؟ ويعود إلى غرفته ، الليل حوله سجن مطبق ، وهو لا يعرف إن كان قد أكل شيئا ولا يعرف إن كان قد ترك بابه مفتوحا ولايعرف كيف سقط في نومه ولكنه يتيقظ فجأة نصف يقظة في غرفة الفندق التي يجدها مُضاءةً بنورٍ خشن ومنسيّ ، وفي جوفه ألمٌ كاوٍ ممزق ولكنه بشكلٍ ما لا يحسه كأنما الألم يخرج من شخص غريب عنه ، ورعدة حُمّى لا علاقة له بها تنفضه ، ويرى نفسه ، كأنما من مكان آخر ، خطواته تجري به حافيا إلى الحمام الضيق المظلم ، وهو يقيء العالم كله من داخل أحشائه ، يرفض السماء والأرض ويقذفها كلها إلى خارجه ، عضويا ، جسديا ، في صراخ القيء المتشنج المتتابع ، لا يملك من أمره شيئا ، ويحس على وجهه خيوط الماء المِلح القديم تنهمر عنه بلا إرادة ، لا يعرف ماهي .

وعندما يجد نفسه على السرير ، بملابسه ومن غير حذاء ولا جورب ، من غير غطاء ، يسمع دقات سريعة على الباب ، ويجد حوله عبد العزيز وإيفيت وسامية منحنين عليه بوجوهٍ فيها اهتمام وقلق وكل المودة والرعاية ، ويحس نفسه تهتز وتجيش لحركة الزمالة المفاجئة ، وهم يسألون ماذا حدث ؟ ماله ؟ إيفيت بالروب دى شامبر تقول بصوتها الصغير الساذج : آتيك بقرص ؟ وكيف أنت الآن ؟ وتضع يدها الجافة النحيلة على جبهته ، وساميةُ تلف الغطاء حوله ، وهو يتبسم بشجاعةٍ وإنهاكٍ كامل ويقول بصوت فوجيء بخفوته وبُحّته : أبدا تعبت قليلا . كل شيء الآن تمام . لا ، لا أنا أحسن .. ويسأل الساعة كم ؟ ويقول عبد العزيز إنها الثالثة صباحا وإنهم استيقظوا على صوته ، وإنه كان صوتا فيه صراخ وتشنّج فظيع ، فجاءوا إليه جرياً على غير اتفاق ، كلاً من غرفته ، وقلبه يجيش مره أخرى ، وعبد العزيز يطلب الشاى الدافيء من الكافتيريا بالتليفون ، وتخرج إيفيت لتأتي بقرص السبازمولين ، وعادت ومعها رامة ، بقميص النوم الطويل ، واقتربت منه وسألت عنه ، وقالت إن إيفيت خبطت على بابها كأنما لكى تستنجد بها ، ولم يكن يعرف كيف نظر إليها ، كان يعرف فقط أن هناك عذابا لا يوصف ، وراء عينيه المرفوعتين إليها ، ولم يكن فى غرفته غير كرسيين ، فجلست رامة على الارض مستندةً إلى الحائط ، وكانت تنظر إليه وهو يحاول أن ينهض قليلا ليجلس على السرير فيسارعون جميعا إلى دعوته أن يستريح ، ورفعت ركبتيها أمامها وغطتهما بحاشيةِ قميصها الأزرق الباهت المطرزة بشريط من

الدانتيلا الصغيرة جدا باهتة اللون أيضا تحت الضوء القليل في غرفته ، وأحس الشاى والحنو والزمالة وفِعْل القرص المهدىء كلها دافئةً في جوفه ، وهم يتبادلون الأحاديث عن الندوة وحكايات المؤتمر والسفر القريب بعد غد والرحلة مع الضيوف إلى السد العالي وسفر فريق الواحات بعد ذلك ، وكيف أن قدري عبد الفتاح سيضع قائمة توزيع السفر غدا ربما على الأكثر ، وكانت رامة صامتةً جدا على غير عادتها ، كانت تعرف . وكان الهدوء يعود فيتسلل إليه وقد اطمأنوا فخرجوا وتركوه لينام وأطفأوا النور .

كان النوم يُرنّق بعينيه في استسلام الجسم المنهك لليأس القديم ، عندما خيل اليه أنه يسمع دقات رقيقة متتابعة على بابه ، ولم يكد يهم بالنهوض حتى انفتح الباب ، وفي العتمة التي لايضيئها إلا نور القمر من وراء زجاج النافذة الجانبية ، رآها مندفعةً إليه ، صامتة ، وجهها متقد بعزمٍ جسدي متوهج . نَضَتْ قميص نومها بحركةٍ واحدةٍ خاطفة ، وانزلقت إلى جانبه تحت الغطاء الخفيف ، كل مجد جسمها العاري المتموج وهو يتلقى دفقتها الجارفة بين ذراعيه ، والأطراف المنبعثة تتماسك وتتشابك ، وترتفع وتنعقد ، تتماسّ وتلتحم في موسيقى التكشف والتعانق الحارة ، كان جسمه يبضّ بالارهاق والنَهَك والشَبَق معا ، تسوقه اندفاعات متعاقبة ومتزامنة من الحب والرفض والعرفان والنكران معا ، وعندما خف ضوء القمر من وراء الزجاج ، وتقطّر منه غَبَش الفجر المبلل بنور شاحب كان الصراع مازال يدور بين الجسدين المعذَّبين المقذوف بهما إلى أحدهما الآخر قذفا ، من غير حسم ، على السرير المهوش الذي تشعث فرشُه وانحرف يكشف جانبا من المرتبة وسقطت ملاءته على الأرض . واندفعت فجأة ، مرة واحدة ، وقبل أن ينسدل قميصها على بذخ الجسم المخذول كانت على الباب دون كلمة . وتذكّر أنها كانت ليلة سبت النور ، وأن الجمعة الحزينة قد انقضت .

كانت قد قالت له ، فيما بعد : هل تعرف أنك جرحتني ، ليلتها ، وجدتُ نقطة دم عليّ .

ولم يكن يذكر ، على الاطلاق ، هذا العدوان الفيزيقي الخشن من جانبه ، لم يكن يفهمه حتى ، أو يتصوره أصلا .

وبعد الغد ذهبوا لترميم المعبد الصغير القديم في الصحراء .

عندما قالت له : تعالَ قُل لي تصبحين على خير ، وغطّني حتى أنام ـ كأنها تريد أن تختفي عنه ، وعن قسوة العالم كله ـ دخل معها إلى غرفة النوم في بيت الشعرى اليمانية . كان السرير مهوشا والملاءة مكورة تحت قدميه . كان الديك الجسور المطرز بالأحمر والأصفر ، على الحائط ، طالما صاح بزقاء بهيج ومليءٍ بالحرية في فجرٍ متكررٍ من الضوء الساطع على أمجادهما القديمة ، مازال يطل عليه ، فاتحا منقاره الأحمر ، أخرس الآن . وكانت الستارة الثقيلة مسدلة على اللوح الزجاجي الواحد العريض في النافذة التي صنعتها من الألومنيوم والخشب المعرق في الحائط الحجري السميك ، وكان يعرف أنها تطل على المآذن الرشيقة كالإبر تطعن السماء ،وعلى مقابر العاشقين الثلاثة ابن الفارض وجميل بثينة وكثير عزة في صحراء المقطم المزدحمة بأجداث الفُجّار والعُشاق والقتلة والضحايا القدامى . وكانت الدبّة التي اشترياها معا من اسكندرية ، في فجر حبهما العتيق ، مازالت معلقة بقدميها ويديها ، بفروها الناعم البني الفاتح ، تلتصق بقائمة السرير الخشبية اللامعة . قالت له إن عفاف الحمزاوي كانت عندها ، باتت معها الليلة الفائتة ، ولم ترتّب السرير عندما قامت . كان يعرف صاحبتها القديمة ، صلبة ضامرة قائمة العود ، تمسك بعصا ، وترتدي البنطلونات دائما ، أو معظم الوقت على الأقل ، قوية القبضة قوية الفك ، في عينيها نظرة جامدة وحادة ، وكانت عفاف الحمزاوي لاتلين ، ولا تصبح إنسانة تقريبا ، إلا مع رامة ، وقد كبر أولادها الآن ، وتركوها ، وهي تذهب أحيانا إلى رامة وتقضي الليلة معها . وأحس ميخائيل بلذعةٍ هيّنة جدا من الغيرة ، تدعو فقط إلى الابتسام ، لا أكثر .

كان عليّ أن أغطيها من عرى وحدتها القاسي ، ومن الأيدي المتطلّبة .

وكان قراري أن أتركها لوحشة الليل الخاوي ، ظناً مني بأنها هي التي تريد أن تُخرجني إلى الليل ، الآن أو قبل الثامنة صباحاً سواء على أى الأحوال ، من دفء القُربى الوثيقة التي عدنا فعثرنا عليها من جديد ، لآخر مرة .

أنا الآن في الخارج ، فماذا أقول ، وقد أصبحت كُلّي شوقا مجسدا إليك ، وتوقا لا تحقيق له . أُريد أن أسبر غور عينيك الذي لايُسبر أبداءأن تزدهر في طياتك الباذخة زهرتي الوحشيةُ الممتلئة المتفحصة ، أن ينفجر الدويّ بأنني أحبك حتى يَملأ أطباقَ السماء والأرض ، أن تحترق شفتاى وتنعمان مرةً أخرى بمذاق واديك الناعم المخضلّ ، ماذا يحدث لي ، ماذا يحدث ؟ والعالم مدمِّر ومدمَّر يحيق بنا . لست أنا ، لست أنتِ ، بل جحافل الساقطين . وماذا تهم الأعداد ؟

قِتلة واحدة غير مبررة ، لأنها لا يمكن أبداً أن تكون مبررة ، تعدل كل الفلسفات والطوباويات والعقائد والأيديولوجيات بل ترجح كفّتها في الميزان . قلب واحد مضروب يتنزى في الوحشة والشوق والغربة أفدح ثقلاً من ملكوت السموات . لست أنا ، بل أنت . نحن .

وليس في هذا الجمع بيننا ، في النهاية ، عزاء ، أي عزاء .

حولي جحافل القتلى والعطاش إلى الحُبّ وإلى الماء ، والمطروحين بلا نجدة ، والموطوءين تحت عَجَلات المطاط الثقيل وأطنان النار ، فكيف تقضين ساعات وحدتك ؟ أيمكن أن تنكسر الوحشة ، ويتحطم الوحش بخراشيفه الجارحة ؟ أهذا ممكن ؟ ممكن ؟ حشرجة الاحتضار المحرقة تقول : لا ..لا ! لكن الاجابة الحتمية الوحيدة هي : نعم ، نعم ! في قلب اليأس المضروبة دائرته بإحكامٍ كامل ، وفي قلب التمرد الأحمق الذي لا يتوقف عن اختراق الدائرة ، في وثْب وسقوط متكررٍ بلا نهاية . في اليأس المقاتل .

القبضة التي تخبط خبطا أصم على جدار قلب مسدود مصمت ، ما أشد صلابةَ حجرِه ، وهو يهْمِي مع ذلك بحب مُهْدَر .

يا إمام العاشقين ، يا أبا الزهراء ، أين رحمتك ؟

أين عيناكِ المغمضتان تحت قبلة شفتيّ ، تمسحان هذا الوجع عنى ، وعنك ؟ أين نفح شعرك ؟ لست أختبيء فيك من قسوة الألم ، بل منكِ أعود ، فأنظر الى وجه العار والامتهان ، دون أن تطرف عيناى . المهانة قائمةٌ أبدا ، غير مَمْحُوَّة ، تتحدى الغفران ، وتغلبه . ياحبيبتي حاشاى أن أُلحقَ بك جُرحاً ، ولكن الجراحات قائمة أيضا ، لا تندمل ، لن تبرأ أبدا .

في هذه الساعات التي يُطبق فيها الحصار عليَّ وعلى أهلي وقومي وعالمي ، صرختى إليك ليست إلا الحنان المتحدِّر من حُرقةِ الأحشاء نحوك ، كانت بيننا آبار الوحشة .

فيم تجدي الصيحة الساقطة سدى ؟ من أين لي بنعمة الايمان ؟
هل نعمتي فيك أنتِ وحدك ؟
قال ميخائيل ، ببساطة ، لنفسه : ما أشد سذاجة هذا كله !

الباب الثالث

أضغاث الورد القديم

عندما عاد من الغورية إلى مينا هاوس ، كان الفجر قد أوشك أن يطلع على المدينة التي تَعرّى جسدُها الجميل المتألق بأنواره ، من قبحه النهاريّ ومن زحف جحافل السيل البشري الحزين الذي ينهشه طول اليوم .

التاكسي يقطع به المدينة الخاوية ، وفي نفسه همود بعد صخب الحفله وزحامها . كان مغلقاً من الداخل . هاهو قد أعطاها رسالته الطويلة القديمة - خفيةً عن الناس وعلى مرأى منهم في وقت واحد - ولم يكن يظن أبداً أنها ستتلقاها . ولم يفكر ، ولم يترك نفسه يفكر فيما إذا كانت - حتى - ستقرأها . كأن ثم قراراً قد اتخذه له ميخائيلُ آخر في داخله : أن يصمت عن نفسه ، ألا يكون ثم حوار أو كلام بينه وبين هذا الكامن الذي رفض أن يقرّ بوجوده ، حتى ، ونفى عن نفسه أنه يتربص به . لم يدرك ، ولم يضع لنفسه ، أن الرفض هذه المرة سيكون قاصماً لا يعرف عواقبه ولايطيق تصوره . لذلك رفض أن يطرح فكرة الرفض نفسها ، دون أن يضع لهذا الرفض صيغةً أية صيغة . أقفل على نفسه كل الأبواب وقال إن الأبواب ليست موجودة أصلاً ، وعندما نام بسرعة ، في غرفته بالفندق ، كان نومه عميقا جدا ومصمتاً واحتشادُ الأحلام فيه كتلةٌ سقطت الى قاعٍ ساكن أسود الماء .

بعدها بأيام قلائل تغير فيها وجه العالم وأضاء ، كانا في ميدان الحسين . وفي الميدان هذا الرَوح من البهجة العريقة الكامنة . كانا يجلسان في القهوة العالية بدرجتين عن الأرض ، والجامع أمامهما ، رصين الجدران ، أضلاعه مكينةٌ ثابتة ، والقلائل يدخلون من بابه ، بهدوء وألفة ، الأنوار تتخايل وتدخل بين النجوم من وراء المئذنتين الرقيقتين الذاهبتين في زرقة السماء الداكنة جدًا ، الرحمة الحجرية لها عذوبةُ طعنةِ الوالهين . وَضَعَ صبي القهوة الخفيفُ القدمين أمامهما كوبين يملأهما الشاي الأصهب ، والماء الرقراق ، في زجاج رائق مضلع ، والسكر الباهت البياض ، في فنجان قهوةٍ غليظ الجدار ، باهت الزرقة ، عروته مكسورة ، وملعقتين صغيرتين من الصفيح الخفيف ، على المائدة الرخامية التي انكسرت شظية من حافتها ، تَعمّمْتْها الأيدي والسنون .

كانا يجلسان على طرف الأرضية المرتفعة للقهوة ، وكانت تفيض بحيّويتها التي تتدفق رغم حواجز ملابس لا مَنَعَة لها أمام طوفان متصل من فيض أنوثتها . ساقاها العبلتان تنحسر عنهما

الجيب الداكنة التي كان نسيجها الغالي قد تحول إلى مجرد قشرة عضوية وجزءاً لاضرورة له حقاً من جسمها القوى المستغنى بذاته . ابتسم لنفسه ، بسعادة صافية ، عندما خطر له أنها لا تكون هي ، حقيقة ، إلا من غير ملابس .

صعدت إليهما المرأة ، عيونها ثقيلة بالكحل ومليئة بالمعنى ، والمدورة المعقوصة على شعرها تؤكد مرونةً كثّةً خشنةَ الملمس فيه ، وهي تقول : من رِيحة سيدنا الحسين . عندى بخور هندي وبخور جاوي ، من ريحةِ أهل البيت .. ربنا يخلى لك الست يارب ، ويخلي لكِ البيه .. لاجل خاطر سيّدنا الحسين . وعندما يأخذ العيدان النحيلة التي جفّت عليها عجينةُ البخور القاتمة المُحبَّبة ، يشم طعمها الحريف ، وَرْدِيَّ الحلاوة أيضا ، وتُكرر المرأة دعاءها لها ، بنظرةٍ فيها تواطؤ أنثوى ، كأنها دعوة تقع بعد حدود الإغراء بكثير ، في وسط لغطٍ واطيء النبرة مغلّفاً بالليل الفسيح، من أبواق السيارات ، والأتوبيسات في شارع الأزهر ، ونداءات باعة اللِبان ، والبرتقال الطازه ، والمسابح ، والقفاطين البلدي في أكياس شفافة من البلاستيك ، والآيات المخطوطة على أوراق مؤطرة بزخارف عربية ميكانيكية الصنع ، وصيحات صبي القهوة من الداخل ، ووشيش عربة الكباب والكُفتة أمام القهوة ، وترجيع القرآن من ميكروفونات بعيدة إلى الوراء . وتقبلَّتْ منه أعواد البخور ، من غير ورق ، يتحاتُّ على أصابعها غبارُها ويسطع فوحُها ، وهي تنحني على المائدة الرخام بينهما بصدرها الوثير خلف البلوزة الخفيفة التي يحس أنها ليست هناك ، ويلوح كأنها لا تستشعر كل نظرات الناس التي لا يمكن أن تعبر بها إلا أن تلتفت ، مُبَاغَتة ، تقع لحظة في أسر قوةٍ كأنها ليست من هذه الأرض .

صعد إليهما الدرجتين ، يتأرجح قليلا إلى اليمين وإلى اليسار بخطوته المختلجة ، وقام ميخائيل فاحتضنه وقبّله على وجهه الهائش بلحية عظيمة سوداء أحس نعومة شعرها تحت شفتيه . وقدمه إلى رامة : بشاى أبسخيرون ، تلميذي القديم في معهد الآثار القبطية . يعمل الآن في التليفزيون ، مصوّر ، فنان حقيقي وله تصاوير غريبة . أهلا بشاى ، ماذا جاء بك ؟ كيف أنت ؟

سلّم بشاى عليها ، ورفع يدها إلى فمه فقبلها باحترام .

كان عريض الكتفين ، مليئا ، غائر العينين في اللحية الغريبة الضخمة التي تسقط إلى صدره ، ومايفتأ يُملّسها بيديه من أعلى إلى أسفل في حركة إيقاع متكرر غير مدرَك تماما .

وجاءت السوبيا في ثلاثه أقداح ، لزجة مُبْيَضّة سائغة الشكل ، ولها رغوة طفيفة عليها فصوص الفول السوداني المكسورة . وبعد قليل كان بشاى يحكى لها عن زمن صباه الأوّل عندما جاء من الصعيد وأقام مع ميخائيل ومع صديق رسام كان يدرّس الرسم لبشاى في المدرسة الثانوية في المنيا اسمه أحمد قنديل ، ثلاثتهم في بيت بالعجوزة له حديقة ، وشارعه ليس له اسم ، بين الغيطان والبيوت القليلة المتباعدة ، وكان عندهم كلب ضخم شرس الشكل لكنه وديع جدا لاينبح أبدا . وقال لها إن ميخائيل كان عندئذ يترجم كتابا عن قواعد اللغة القبطية ، بالاشتراك مع أحد أساتذة المعهد الذي لعله آخر من يتكلم القبطية في بيته مع أبيه وأمه وزوجته ، وكان هذا الأستاذ يشكو من أن أولاده لايريدون أن يتكلموا معهم ، ويردّون بالعربية . وقال إن ميخائيل كان ينهض في الرابعة صباحا ، ويترجم صفحتين قبل النزول للوزارة ، يوقد النور في غرفة المكتب الوحيدة التي هى في الوقت نفسه أتيليه أحمد قنديل ، مليئة باللوحات وأنابيب الألوان وفيها رائحة الترابنتينا ، ويصنع لنفسه الشاى وهو يسترِق الخطى ، ولكنه على كل حرصه يقلق زميليه في السكن ، وينغص عليهما حلاوة نومة الصبح ، ثم يعود فيترجم صفحتين أخريين بعد الغداء ، ويشتغل ساعات لانهاية لها بالليل وقال إنه كان مسحورا بهذا الدأب الصبور ، والمقدرة . ثم حكى لها حكايةً عن ميخائيل والموديل . قال أن أحمد قنديل كان يدعو الموديلات ليرسم صورا عارية على نسق سيريالي قليلا ، وكان ميخائيل وبشاى يخرجان الى الفَسَحَة الضيقة المربّعة عندئذ ، ويتركان الرسام مع الموديل حتى لاتحس الحرج ، وقال إنها كانت تأخذ عشرين قرشا في الساعة ، وفي يومٍ من الأيام كان على ميخائيل أن يُنهى مراجعة الكتاب وكانت المطبعة تنتظر وكان عليه أن يسهر حتى الصبح ، وجاءت الموديل وخلعت ملاءتها ودخلت الأتيليه وتحرّج أحمد من أن يدعو ميخائيل للخروج ، ورفضت البنت أن تقف أمام اثنين ، فقال لها أحمد أن صديقه رسام أيضا ، وطلب منه أن يصنع لها اسكِتْش بالحبر الشينى على الورق ، وأعطى البنت عشرين قرشا أخرى ، وضحكوا جميعا .

تذكر ميخائيل أنه رأى ، عندئذ ، أول أمرأةٍ عارية في حياته ، وتذكر الجسم الأسمر النحيل ، الثديين المرتخيين والبطن الهضيم الذي لم يكن يبدو نظيفا تماما ، والبنت تضم ساقيها

الضامرتين المُفَوَّفتَين في وقتٍ معا ، برشاقه الموديل المدرَّبة ، مقفلة ، بخيلة ، وأنه أحس فقط برثاءٍ للبنت ، كان فضوله الجنسيّ قد توقف ، وهو يضع على الورق خطوطا تجريدية باردة ، وأحس أنه غش نفسه .

نظر إلى المئذنتين اللتين تصعدان في السماء باسترجامٍ حجري ، عمودان من صبّار مُضلّع منحوت ومفرغ .

وشاركت رامة بحكايةٍ أخرى عن موديل أخرى اسمها عزيزة كانت تجيء إلى حسين داود ثلاث مرات في الأسبوع ، بانتظام ، في شقته التي يتخذها أتيليه في عمارة قديمة بعماد الدين ، وكيف أحبها ، وكيف صبرت عليه زوجته حتى مرت مرحلته العزيزية ، وصبرت أيضا على مراحل الموديلات المتعاقبة ، المرحلة الحُسنية ، والعَليّة ، والبهَيّة ، حتى تاب الله عليه ورجع يرسم طبيعةً صامتة .

وكان بشاى ابسخيرون ثقيلاً في جلسته معهما ، مطمئنا ، وواضحٌ أنه لاينوي الذهاب. وكان ميخائيل يعرف أنه تزوج ، وسافرت زوجته الى أوروبا وتركته ، وأنه سقط في قبضةِ ملاحقةِ المرأة بنمطٍ متكرر ، وكأنه حُواذى . طلبوا الشاى مرة أخرى ، وميخائيل قلِق قليلا ، وبادلته رامة النظرات وفهمت عنه أنه ماحيلته الآن ؟ فقالت فجأة إنها تدعوهما ، كليهما ، على العشاء وأنها هي الداعية ، فقبل بشاى على الفور ، وقالت إنها تعرف مطعما في أرض شريف ، وراء فندق أطلس ، تعرفه من أيام سكنها هناك ، وبعد عناء اصطياد التاكسي ، كالمعتاد ، من شارع الأزهر ، جلس بشاى بجانب السائق ، أما ميخائيل فقد وجد يدها بجانبه ، ومدّتها إليه بحركتها القديمة المُعابثة والمحملة بالمعنى ، ودست يدها برفق بين المقعد وبين فخذه ، وابتسمت له ، كأنها في طلبٍ مسبقٍ للمعذرة .

كان الباب الزجاجي ، بلونه الأصفر الداكن مضيئا من الداخل ، صغيراً في الشارع الجانبي الضيق القليل الإضاءة ، في الخارج ، والاسم منقوش بالخط العربي والافرنجي بزركشةٍ قُرطبية « مطعم دى لامانشا » ورَسمٌ الفارس الوحيد المخذول قضيف العود سمهريّ الرمح كأنه متحيرٌ في ساحة العالم ، ومن وراء الزجاج مباشرة تأتي الستارة القطيفة الثقيلة الحمرة ، فتمس وجهه بمداعَبةٍ واثقةِ الطوايا ، وهو يأخذ بخصرها في الدخول ويحس متانةَ الجسم ولدونته معا .

جاءت على الفور صدمةُ موسيقى أمريكية لاتينية ، أو تاهيتيّة ، فوارة ومتتالية وعنيفة الإيقاع . وجاءت معها على الفور مضيفة سمراء داكنة الشفتين فياضة الجسم ، تبتسم لرامة بخدودها المتهدلة قليلا تحت عينيها الواسعتين ، وتأخذها في حضنها : أهلا يارامة ، اتفضلي ، اتفضلوا . أين أيامك ياحبيبتي ؟ تفضلوا على البار ، الأوّل ، تأخذون كأسا أو شيئا قبل الأكل .

ودهش ميخائيل لحرارة الترحيب ، ورفع الكلفة ، كأنهما صديقتان ، ولكنه استدرك لنفسه ما يعرفه مِن أن كل مَن تعرفه صديق ، وهمست له رامة : كنت آكل هنا بانتظام ، وتصادقنا ، أنا أحب الناس ، والناس تحبني ، كما تعرف .

ومالت المضيفة بسرعة على منصة البار ، لتقدم لكل منهم ، بحركةٍ واحدة ، وردةً بلدي حمراء داكنة في عز مجدها ، متفتحة ومطلولة بقطرات دقيقة مشعة الماء ، ساقها النحيلة مكحوتة من الشوك وملفوفة بورق فضة وثيق الحبْك وغني الملمس . فتقبّلها رامة ، شكرا ، وتسألها عن أولادها حازم وبسمة وعزة ، وكيف هم الآن ؟ وترد المضيفة الوافرة البدن ، وهي تكاد تتحرك للذهاب ، ثم تميل فتهمس في أذن رامة بشيء وهي تنظر إلينا ، في معابثة مطايبة مرتاحة ، وتضحك رامة ضحكتها القصيرة الخفيضة المُبَطَّنة ببحّةٍ مليئة تنقطع مرة واحدة ، بسعادةِ انتصارٍ وترقبٍ للانتصار .

بعد مشاورةٍ وجيزة باسمة طلبت رامة ثلاثة سكُوتْش . كان على البار اثنان فقط معهم ، أحدهما واضحٌ أنه قد خرج في سهرته للفتْك والعربدة المحكومة ، مفتوحَ القميص على شعر صدرهِ الأسود المفتول ، ومعه زميله الطويل الشمعيّ الشماليّ الملامح ، يتكلمان بالانجليزية الخشنةِ من ناحية وأمريكيةِ الغُنّة من ناحية . وكان على الكنبة نصف الدائرية التي تدور بالبِيسْت بنات يرشفن الأبريتيف بأناقةٍ مهمَلة مع رفقائهن الصغار والكبار . وعلى ساحة الرقص زوجان اثنان فقط ، يدوران ويخبطان الموكيت بهندسةٍ عاطفيةٍ ليست جيّدة الحساب جدا . فقال بشاي : ألا ترقصان ؟ وضحك ميخائيل ضحكة حرجة وهو يحس بالحرّ ، وندى خفيفٌ من العرقِ على جبهته وزجاج نظارته ، وقال إنه لا يحسن الرقص ، فقال بشاي لصديقه وأستاذه القديم : جرب ياأخى . أرقص ، اترك نفْسك تنطلق ، مرةً واحدة . ونظرت إليه رامة نظرةً محتشدة بالسؤال والدعوة والغرابة ، وكرر ميخائيل نفسه بآلية ، من غير لَمَعَان ، أنه لا يحسن الرقص ، وكانت قد بدأت فيه هذه العملية البطيئة التي لا رجوع فيها ، من العناد والرفض والبعد ، دوران عجلات

أنيابها المثلثة باهشة للحم الداخلي ، وكأنما حدس بشاي أسخيرون شيئا ، وكأنما هو أيضا قد قرر في داخله ، بتلقائية التعوُّد ، أن أرض الصبد مفترحة . فقال له : هل عندك مانع أن أرقص مع رامة ؟ ولم ينتظر إجابةً طبعا ، ولم تأت إجابة ، وقال : تسمحين ؟ وكانت لم تتحرك للقيام حتى هذه اللحظة ، كأنما تنتظر انجلاء مسايفةٍ خاطفةٍ من فارسِ لحظتِها ، فقامت من المقعد العالي المستدير غير ذي الظهر ، وانزلقت إلى الساحة في حركةٍ بدء الرقص المعتادة وكان جسمها جزءاً من الموسيقى التاهيتيّه الحوشيّة ، كأن جوارحها اللينة المحكومة الأنثوية هي التي تعزف هذه النغمات الزاحفة تحتكّ بالأرض ثم تتلوى على نفسها وترتجّ بالتماسّ والأبواق تشب في تصاعدٍ أجش يحُوطه أنينُ الخشب المتراوح الأنفاس .

عادت إلى ميخائيل فتاة الجيشا التي لا ينسى لحظةَ جسمِها من وراء الكيمونو الأبيق الطويل ، في فندق كيوكو ياما تحت جبل فوجي . كانت عذبة الفم وخصرها هضيم تحت النسيج الحريري ، وكانت معه طول العشاء ، وكانت بعثة الآثار المصرية التي صاحبت المعرض قد أوشكت على الانتهاء من عملها وتستعد للعودة في الصباح . حدثّته عن ميشيما وكاواباتا ، وكيف تُطهَى سيقان الجمبري بالساكي ، وحدَّثها عن ميشيما وكاواباتا وعن الكرنك وكرداسة ، وعن سذاجة القناع الذهبي الفاحش الصياغة الذي جاء مع المعرض . وقالت له إن اسمها « ظل الياسمين » وقالتها له باليابانية وكان وقع الاسم في مسمعه ينوس بجرْسٍ صغير وهو يسقط من طرف لسانها . ولم تجد صعوبةً في إغرائه بالرقص على موسيقى إسبانية في المرقص شبه الخاوي ، ووجد نفسه يهتصرها برفق ، وتآلف الموسيقى بين أطرافهما بلا اقتحام ، وعندما أحسته قويا متصلبا يجد مكانه بدفء واطمئنان بين ساقيها نظرت إليه بفهمٍ وودٍ جسديّ له مقاييسه التي لايجوز الخروج عنها وقالت له إنه يحسن الرقص جدا وأن الرقص معه متعة حقيقية ، وودّعته بالليل ، على باب الفندق ، بقبلةٍ مدروسةٍ مثقَّفة وإن كان فيها شبهةٌ — كنفح زهرةٍ حميمة — من الشُكر والفهم الجسدي .

كان ميخائيل يحسو كأسه الثالثة ، وقد استدار بنصف ظهره ، يرقب الساحة التي تطعن عتمتها بقعٌ ضيقةٌ من الضوء ، دائريةٌ صفراء مستقيمة نازلةٌ من السقف الذي يوشوش بخفيف ثريات البلاستيك المطفأة الآن ، ورأى ساقيها تدوران وتتلمسان أرض الموسيقى وقد التصقت بفارس لحظتها ، وخدُّها تحت اللحية الهائشة السوداء ، ورأى يدها البضة بأصابعها

المكتنزة تتحسس شعر مؤخر عنقه بحركةٍ حميمة ، نفس حركتها عندما كانت ترقص مع سامح منذ أزمان بعيدة . ووجد ميخائيل أوراق الوردة قد تمزقت بين أصابعه وتفتتت على رخامة البار بجانب كأسه الفارغة ، نثاراً أحمر جفَّ الآن ويبست نداوتُه ، يصنع على الرخامة المُجزَّعة شفرةً ملتبسةً بينها شرائح رفيعة من ورقة الفضة المُغَضَّنة تومض ومضاتٍ متقطعة . وكان يحس تمزق الوردة في داخله ، من غير دم .

عندما نزلوا السلم الصغير الدائري إلى قاعة المطعم في دورٍ تحت الأرض طلبت رامة أكوافيّتا وستيك بارْبار ، وطلب بشاى أبسخبرون كِرْشة بالبصل مع البيرة إيل ، وطلب ميخائيل وزاً مشويا بالبرقوق والتفاح مع ربع زجاجة بورجندي سان جورج ، ومازالت أمامه كأسه الرابعة من السكوتش نزل بها في يده ، وأصرت رامة أن تدفع الحساب بعد أن شربوا القهوة التركي السادة .

في العودة ، في التاكسي الذي وجدوه أمام فندق أطلس ، ركب معهما بشاى جانباً من الطريق ، واقترح أن يصوِّر بيتها المملوكي بالفيديو وأن يُريها الكولّاجات الفوتغرافية التي يصنعها ، وأعطته رقم تليفونها ونجحت في أن تتخلص منه بلباقة ، وقالت له ، وهما في طريقهما إلى الغورية : صديقك هذا ليس في عظامه ذرة من الشر . فصمت لأنه كان مازال في حالِ المفارقة والنأْى ، وكانت تعرف . كان وجهها منوّراً في عتمة التاكسي بنضارةٍ متضرجة وقالت له : ياحبيبي كنت أنتظر منك أن تخرج عن صمتك . أن تدافع عني . أن تقول ، بكل حركة منك وكل كلمة ، ودون حركة ولا كلمة ، أن تقول إني مَرَأتُك ، ليس لأحدٍ أن يمد إليها يده . لكنك سكتَّ .

ومالت عليه ، في التاكسي الذي يُقلع في شارع المعزّ الموحش بأطلالِ صروح الرهبة القديمة ، في سَدْفة آخر الليل ، بمغامرةٍ غير مأمونة العواقب ، وقبّلته على فمه قبلةً ندية وحارة وسرية ، وكان وجهها منوّرا .

عندما أُعطِى لنفسى الحق في أن أُسميّك باسمك « حبيبتي » فهذا من شأني أنا . أما أنت فتعرفين تماماً شأنك ، وأعرف أنكِ حزمت أمرك ، وقطعت فيه . ولك أيضا مطلق الحرية في ذلك . ليس هذا حتى بحاجةٍ إلى أن يُقال . الحب هو الحرية . هذا صحيح . أين الحب ؟

للجسد قوانين مختلفة . أما تصوراتي فسأحتفظ بها . أما ما أقوله فما جدواه ؟ بل حتى مامعناه ؟ ما معنى أن أقول إنني أحبك ، إنني أفتقد نظرة عينيك تلك الخاصة جدا ، بلون الرمل الداكن الذي تضرب فيه الخضرة العميقة ، وأفتقد نبرة صوتك تلك الخاصة جدا ، والحتمية ، ومامعنى أن أسميك ؟

نفيْتني إلى الصحراء الغربية

بخور الصندل والمرّ والمسك ، المضطرب ، الذي يصعد ، ويظل معلقا لا يصل إلى حضنك . العيد لا يأتي بعد ، على أنني أقيم له صلاة البَرَمُون التي تمجّد الأفراح البائدة القائمة الترانيم . الآن تقوم دوريات الحرس أمام البوابات العتيقة ، والسيّارات السوداء الضخمة مضلّعة ومطاط عجلاتها الهائلة مسدود معمّض العينين ، وحوش رديئة ، والأبواب التي كانت تصدّ غارات البدو موصدةٌ أمام الأحبّاء . كأسٌ من خشب ، مستوحشٌ النبيذ ، أنتِ . طلبتِ نفسي فسفحتها لكِ . على العتبة الرخامية الممسوحة بأقدام جحافل القادمين آثارُ قطرات دمٍ باهتٍ ضنين . كشفتُ قلبي لك لكنك لم تنظري الشقين المتفطّرين ، مفتوحين ، نبضهما لايتوقف ، مستميت . قبور الشهوة مفتوحة كما في اليوم الأخير ، في نداء الأبواق الجليل ، وجلستُ على عرش ساقيك الذهبيتّين الذي تحيط به النيران والشاروبيم ، والتفّتْ لي ذراعاك المورقتان المثقلتان بالتمْر ، وسقطتُ فلم يُقمنْي أحدُ الشاروبيم ، انخذلوا جميعا بأجنحتهم الهشة أمام سطوةِ الملاك الشرير . صليل الناقوس البهيج وهتاف الهوسّانا .. هو سّانا يتكتمّه الحلق الجريح ، وأخطأتني النارُ المحيية من الأموات ، وأنا لن أربح حياتي إلا بالموت ، لا ، حتى الموت لم تنكسر شوكته في رمل الصحراء العامرة بأجداث الشهداء القدامى ، ليست لهم قيامة . ليس هناك ربح ولا خسران . صفير رياح كيهك يخترق ستار التسابيح ، وآثارك تقطر دماً على الرمال . ليس الحب لذاته ، بل الحب لكِ أنت التي لا تعرفينني . أما أنا فأعرف طعم كتفك المدورة الناعمة تحت شفتي ، ويداي الخاويتان لهما ذاكرتهما التي لا أحكمها ، ذاكرة حية ومرتعدة ، ببضاضة لحم الإلاهة الذبيحةِ الصاعدةِ أبدا من بين أنيابْ التنانين ، متفجرة بالمنّ والسلوى .

أما هي فقد قالت له : أنا لا أتكلم . لا يهمني أن أتكلم .

وقالت له : أنت الذي أحببتك أعزّ ما أحببت في حياتي .

قال : في جلجثة الطريق الليلي ، تحت وطء الخشب ، والمسامير الحادة المسنّنة الأنياب تغوص في عظم يديه المشبوحتين ، وقدميه المشلولتين عن الرقص . كيف ترضى طائعا أن تمزق أوراق وردتك ؟

أحتجنُ إلى صدري المفتوح وردةَ الرأس المحنيّ تحت غار الشوك ، مخضلة بطلّ الدم الذي يتفصّد ببطء ولا يسقط أبدا على تراب الجلجثة .

وقال أيضا : أمازونة القاهرة الغريبة ، شقيقة المحارب في خضم طواحين الهواء ، بدرعه القديمة التي لا تصد شيئا . فروسية الإعطاء الجسديّ بريئة وأولية ، تعود . وتعود طاهرة من كل لوثة .. ليست من هذه الأيام . تتجاوز كل الأيام .

قال لها : أحبك لأنك أنت . أحبك الحبين معا .

من على سريرها كان يرى الجبل ، أغبر صخريا في غبشة الفجر ، وخشونةِ رماله ، من وراء لوحةِ الزجاج الواحدة العريضة المبلولة من الخارج بالندى ، وكان يراه ، على الجبل ، عن كَثَبٍ جدا ، أساريره ناعمة تحت عينيه الغائرتين ، يثب نازلاً من صخرة إلى صخرة ، وفأسه في يده ، ودخان قربانه المرفوض مازال يصعد من شقوق المغارات والخلوات ، والدم على يديه . سرب الشاروبيم والصاروفيم يرفرف حواليه كأنه يطرده بخفيف جارح مصمّم ، وعيونهم لامعة كالخرز ، وكانت حواليه بناته ، لاعداد لهن ، أجسامهن الملساء المدورة الحَنيات قوية ، يتلوين من الشهوة تحت وطأةِ عِشق الأجنحة . أُبيحت تحت هجمة الأجنحة كلُ حرمات أجسادهن . صرخات الديسكو المبحوحة تلتصق كالحيات بالأثداء المبذولة وسفوح البطون . والأجنحة العريضة القوية تلتف ببنات الناس فوق أذرع مفتولة ، ومضات النيون حمراء تنظر إلى عربدة الأطراف جاحظة العيون ، عويل اختلاط الأجساد المتراكبة يصعد إلى السماء تحت النور ويسقط مرفوضاً على الجبل . دقدقة الشفرة الكوديّة تنزلق منها ، على الأرداف المتكومة المتقبضة والمفرودة ، شرائح الورق المخرم الطويل عليه التواءات الخطوط المثقلة بقهْرٍ تجريديٍ بارد الملمس وانفجار الكُرات الصغيرة الخشنةِ الحراشيف يهمى على الوجوه المدفونة في الأحضان القاسية بدموع مصنوعةٍ من الأعصاب المحكوكة ،وبنات النور التفافاتٌ من ضبابِ الفجر الأبيض الرقيق ، قاماتهن الشفافة

تتحلل وتذوب في الزرقة التي تمتلىء عند الشرق بصفاء المراعي المعشوشبة وقد تشربت دم أبيهن المقتول .

وميخائيل قلبه مع الأجساد المتروكة على الجبل معذبةً بنشوةٍ المعصية .

تحت السحاب الأسود المبرع عبر ساحة لياله مقمرة ، وصيحة الديك بلا صوت ، كان عناقهما . الدموع التي لا يمكن أن يحتجزاها ، ورفرفة القلب المبدَّد والجسم المنقضي ، إيذانٌ كلها ونذير ، كأن الموت غدا ، وكأن كل انفصال للجسدين المنهكين بالتحقق والمتعة ميتة صغيرةٍ أخرى ، تحفزهما بلا عقل إلى تَلَمُّس الالتصاق الجديد وإلى وَطْءِ شوكةِ الموت تحت الشفاه المتماسّة في حنوٍّ اندماجٍ وثيق ، والأيدي تضغط على الظهر ، ولا فكاك للذراعين حول دوران النهدين المضمومين وهما يجدان صياغةً جديدةً لدنة ومُقاوِمة ، تحت الصدر المشدود .

عندئذ كانا يعرفان صمت المطلق .
والظلمة تسد الطريق .

حضرة الفاضل المحترم أبي العزيز الخواجا قلدس قلادة
بعد السلام والسؤال عن صحتكم جميعا وخصوصا الست أم ميخائيل ، وميخائيل افندي ، والبنات فردا فردا ، أنا في حاجة إلى جزمة سوداء نمره ٤٠ حشمة لأني بعد وفاة المرحوم اشتريت جزمة وطلعت كوتش وأنا مكسوفة جدا ياوالدي لانني إذا كنت لا أطلبها من والدي الحنون أطلبها من مين ؟
والدي تجدنا مشغولين جدا لأننا أرسلنا لحضرتك خطابين بوصول الطَّرْحة والفستان ولم يصلنا الرد من مدة أربعة أشهر وأكثر وإنما مفتكرة فيكم وخصوصا في الحالة الحاضرة ونحن نحمد الله جدا جدا لأنه يحمي شعبه من الأخطار المحدقه بهم .نسأله تعالى أن يحميكم من كل شر ويكفيكم شر الغارات على الاسكندريه ليلا ونهار فأرجو سرعة الافادة . من كريمتكم عزيزة قلدس .
تحريرا بالزرابي فيوم في ١٩٤١/٩/٩ .

قال لها ميخائيل باسما وهو يشرب فنجان قهوة على الصوفا المنخفضة ، تحت صورة المولد ، إلى جانبه شجرة نبات الظل ، ينفض رماد سيجارته على الموكيت ويتأمل نسيج خشب المشربية العريق اللمعة :

ـــ تذكرين أول أيام الاسكندرية ، أول أيام رحلتنا الأولى ؟ وكنا نمر بعد كوبري النزهة ، على المحمودية ؟

فرفعت إليه عينين راضيتين وامقتين ، وفخذاها مدورتان من جلستهما على الأرض ، تحت قدميه ، وأحاطت ساقيه بذراعيها المليئتين .

كانت سماء الصباح الفضية تهمي برذاذ خفيف الوقع يطير به هواء الاسكندرية المبلل من الترعة ومن خضرة الغيطان القريبة ، وكان أسفلت الطريق مرآة سوداء لامعة وخطرة قليلا .

هل كانت تلك هي المرة الأولى التي قدم لها ذراعه بحركةٍ مجاملة ومقاربة جسمانية بسيطة وصفو ، ليست فيها أدنى فكرة خلفيّة ، بمجرد حنوّ الزمالة ؟ والمرة الأولى التي أحس فيها ، على ذراعه ، ثقلها الهين المطاوع في معطفها الصوفي الخفيف الناعم بحمرته الداكنة ؟ كانت ابتسامتها له منوّرة ، كورد الشتاء النادر ، وهو يحدثها عن ماريو بوليس الراقدة تحت الرمال ، ويقول لها على الله يصبح الغد صحوا ، فالاسكندرية أحيانا تظل غائمة متصلة الرذاذ أياماً بطولها ، وهما يخطوان بحرص على حديد الكوبري الذي يهتز قليلا ، والترعة السوداء الضيقة تحتهما بين ضفافها الملتفّة بالخضرة الدسمة ، والتراب الداكن من البلل تنحدر عليه خيوط بطيئة من الماء يشقّ له مساراتٍ دقيقة متعرجة ، والتين الشوكي بأقراصه الغليظة الشرسة الشكل تحت الرذاذ يحيط بخصّ خشبي موارب الباب منير بمصباح كهربائي أصفر على نصبة القهوة الضيقة بوابور الجاز وعدّة الشاى والأكواب المصفوفة .

كان سياج الكوبري من الحديد المشغول الدقيق نباتاتٍ لاتهتز متفرعةً ومتلوّية برشاقة الآرنوڤو ، من آخر القرن ، صقيلة السواد ، فيها نفس الخطر الكامن وديعاً الآن ، واستشعر نفح جسدها الرطيب الدفىء ، في بردِ الهواء الخفيف ، وهما يسرعان قليلا تحت المظلة المفرودة الواحدة يرفعها بذراعه الأخرى ، في طريقهما الذي مازال طويلا بعد ، إلى كازينو النزهة . وكانت بجعة بيضاء تنساب بجلالها الرشيق ، تلعاء العنق ، لاترى شيئا ولا تهتم بشيء ، على ماء المحمودية المتدفق إلى البحر ، ينقشُه رذاذُ المطر بنسقٍ متقلب ومستمر من النقط المائية الدقيقة الرهفة

السنان تخِز سطح الماء ، وماتنى تظهر وتختفي وتظهر من جديد على بشرة الماء السمراء الغنية .

عندما عبرا الكوبري ، وكانا يسيران تحت أشجار الكافور والتوت والجميز العتيقة الضخمة التي تُظِل الشارع من الجانبين ، وتسقط من دَغَل غصونها المتراكبة قطراتٌ ثقيلة مفاجئة من الماء ، انفلتت ذراعه منها مرةً واحدة ، وانزلق وسقط على الأسفلت المبلول . وجد نفسه على الأرض ، لم يحس كيف وقع . عندما قام بسرعة واستعاد توازنه مدت له يدها ، وكان محرَجا ولكن غير مرتبك ، ونَفَضَ الماء من على معطفه الووتربروف ، وضحك .

قالت له : كان لوجهك ، ساعتها ، لون مدهش ، وبديع !

من الهواء الطلق الخفيف البرد ، ربما ، وخجَل سقْطته ، والأمن الغريب الذي كان يعمر قلبه ، عندئذ ، معها .

في اليوم التالي سوف يركبان الترام ، ويذهبان معا ليشتريا لها دبَّة صغيرة من دكان في المنشية الصغيرة .

طلبتكِ نفسي ، وأنَّتْ عليك أحشائي ، فلم أجدك .

وكلك مشتهاة . مُرهبة كجيش بألوية ، والحلم لا ينكسر ، عندما تدخلين عليَّ ، كالنار المتقدة ، أجد قلبي تربة غميقة من الطين الطري مغروزة بحب الرمان ، صفوفاً دائرية من العقيق الحيّ المتشعع ، دمي يتحلّب من انتهاك الجواهر المدورة المشقوقة . أنتِ المُنْتهكة وشباة أهدابك سكاكين مرهفة دقيقة الذؤابات .

أعبُّ من النهل الطامي بالرحيق المُسْكِر ، وأظل عطشان أبدا .

ما أقسى حب الوِرْد والظمأ .. ! اشتياق لا يسكن ولا يهمد . هيام للقلب في تيهاء وثيرة المهاد ، لا أثر له على أرضها ولا قرار .

متى تأتيني إجابة الهمود ، بعد تلهّب نار اليأس ؟

أنتِ أنا ، وأنا أنت ، أريدك أن تقبلي هذا اليقين ، يقين العطش ، حتى عندما لا أراك ، ولا أسمعك ، حتى إذا لم أرك أبدا بعد ، فأنتِ معي ، يقيني كامل رغم كل رمال الخماسين وترابها السخن الدقيق الخشن في الفم والعينين . أحج إليك ، قِبلتي ، مرةً كل عام ، كل شهر ، كل يوم ، مرةً في كل نبضة قلب ، في كل رنوة ، ودفقة ، ونَفَس .

جسدك الأسود المهيب الهشّ النعومة قائمٌ أمامي في كل لحظة ، مبذول ومنيع ، رحمته ورهبته لاتفترقان وملاسته تجرح يدي . استبحته حتى غورِ الغائر العميق ، ولم أطرق عتبته قطرة ألدم من يدي أنا ، لا منه .

أنت لست قدّيسة ، ولست منفصلة ، أبدا .

قال له بياع الزهور ، في الغورية ، بجلابيته البيضاء وعليها بالطو كاكي ، وهو ينظر إليه من وراء نظاراته المدورة السميكة ، وطاقيته من نفس قماش الجلابية : وردة واحدة ، واحدة يعني ، ياسيدنا الأفندي ؟

كان الدكان الأسود ، تحت القبوة ، مبلطاً بمربّعات مبلولة ، عليها جرادل البلاستيك فيها ماء قليل وفروع حنك السبع ، وعصفور الجنة ، وذقن الباشا ، المتشابكة .

قال : وردة واحدة . نعم . ولكن أريدها تساوي ألف وردة . نَقِّيها على ذوقك إنت يامعلم ، وحياة دينك . حاجة للغالي .

ابتسم الرجل عن نواجذ مَبْرِيّة مُصَفَّرة ولكن طيبة ، مثلومة ، ولمعت النظارة :
ــ عينيّ يافندينا . وغلاوتك إنتَ وردة بالدنيا كلها . على شانك إنت يافندينا ، وعلى شان الغالي .

حية الصحراء الشرقية .

مستديرة الجسد ، ناهدة الثديين ، واقفةً أمامي بعينيها الحزينتين الجميلتين ، ملتفّةً حول نفسها ، كحرف الهاء في آخر أبجديتي ، وملتفّةً حول جذعي القائم بعصارةِ المعرفة ، هي حملت إليّ المعرفة التي بها أتعذب وبها أقف عارياً أمام وجه الله .

تنهمرُ هبّات الوَهَج من مهجتي وتهمى في غير هِينة ، همس السهوب إليَّ ليس تلهيةً عن الهوان وليس فيه نهْيٌ عن النهار . تهب أهوية الشهوة ويهُجّ اللهبُ ـــ الهيام حتى التهلُكة وينهض المُهر بين النهدين تحت هدهدةِ الهدب المتهدّل ويهويَ في الهُوّة في هيجاء الوَلَه ، هتكتُ المهرة الهاذيةَ بالهوى حتى الانهيار ولكن الهمزة هادئة قائمة غير مهلهلةَ ولا صهْد الهَوْب قد هَجَع . لا هزيمةَ هناك ولا زهوَ التيه بل تهاويل مهدورة . اللهفة تهويماتُ مهيضة والبهاء جُهُومة ، هسهسة تهجّد الجسد هفهاف وهديل اللهَج باسمك لا يهدم قَهْرَ العالم بل ينهال عليه الهَدَد . ولكنه لا يهاوِده ولا يهرب من المواجهة . أهتافُ المهضوضين طول الدهور ليس إلا تهتهةً هجينةً أمام هزيم رعدِ الهول ؟ أهنينهم هباء ؟ أهدير الهَلَع مهصور؟ بينما الأوهام تُهدهِدُه ؟ ماذا يهم التأوُّه أمام وجه الهُولات الشائهة ؟ فما همهمةُ الأنهار وهجْس الزهور ؟ لكنها لا تهدأ ولا تستنيم .

كانت قد قالت له : ماذنب الوردة المسكينة ، تسحقها وتفتتها بين أصابعك ؟ نعم رأيتك طبعا . صديقك لم يكن في عظامه ذرة من شر ، كان طفلا كبيرا . أعرف أنا نوع دونْ جوان المكشوف اللعب ، الغلبان . ولكن مادمت أنتَ قد غضبت ... هل كنت تريد أن تمزقني أنا ، وتفتتني قطعاً صغيرة ؟ لماذا لم تفعل ياحبيبي ؟

كانت مستندة إلى حضنه ، وكان تحت وجهه ذلك المثلث المقلوب الذي يقع طرفه الأسفل في آخر الوادي الناعم بين ثدييها ، مجعد الجلد قليلا جدا ، فيجعله ذلك محبوبا أكثر ، وسمرته أعمق ، من التعرض للشمس والهواء . وبين النهدين المتماسكين اللدنين المكشوفين ليديه ، رأى شعرة دقيقة وسوداء ، رقيقة ومستدقة الطرف ، غريبةً جدا في البشرة الدسمة الوثيرة . مَسَّ طرفها بطرف أصبعه وقال : هل أنزعها يارامة ؟ قالت باستسلام وخضوع : انزعها ياحبيبي .

وطرفت عيناها من اللذعة الخاطفة في انتزاعه لها مرة واحدة ، ولم تصرخ ، فانحنى يقبّل موضع سنّ الألم الحادّ المنقضي ، بقبلةٍ لهْفة ، شفتاه نديتان وجائعتان . الحَلَمة الداكنه تمتلىء وتتحدد شقوقها الدقيقة المتعرجة في الكرة الصغيرة الصلبة . شمس السماء وردةٌ قائمة متكررة مرتين على قمة الرُبى اللدنة . الأكام الساطعة بنار سوداء تتفتح عن التَوْيج المدفون بين ضفتيه . الأكَمَتان الطويلتان الصاعدتان إليه تنضمان عليه في اخضلال أنفاسٍ حرَّى ومبلولة بقطْرِ سحابٍ نقي له وهج شفاف . أقطفُ الوردة الناعمة الذهبية الغميقة التي يحرسها التنين . وقد قتلنا التنين معا بأيدينا العارية المتشابكة في عناقٍ لا ينفصم . رفرفةُ أجنحة العنقاء تنزل من السماء بنفح من البهجة ورؤوسنا تعوص تحت السوسن الطافى على صفحة مياه الأردنّ متتابعة الرفرفة مَوْجُها متصاعد الإيقاع مع الفرح حتى نضرب معا قاع مياهٍ وضاءةٍ شاسعةِ الأفق ، بين آكام شاهقة من أضغاث ورق الورد الأحمر الطرىّ المهروس تتهاوى بعضها على بعض .

سأعرف أن أسنان التنين المنزوعة سوف تنبثق من جديد بألف تنين ، وأن النَوَّارة التي تصطلي بالحرارة مازالت مطويةً في أسدافها الخضراء الكثيفةِ الغضارة ، بعيدةَ المنال .

سوف تمتلىء أقداح الدموع ، وتفيض .. ياسلام .. ! فليكن . وماذا في الأمر ؟ كم من أنهار متدفقة من الدم والدمع تتجمع في طوفان يُغرق الأرض ، من القتل المتكرر والامتهان المتكرر ، فبأى حق ترفع قدحكَ أنتَ إلى أعلى ؟ باسم ماذا ؟ كيف تجرؤُ ؟ شقاء العالم بحرٌ طامٍ ليس لأمواجه أبداً من ضفاف . افعل شيئا . لاتقل لي إن شقاء أى أحد ـ يعنى شقاءك أنت ، تريد أن تقول ـ يعدل شقاء كل العالمين ، منذ تخلُّقَ الكون وحتى ينتهى . أى صَلَف صغير .. ! أى فجور .. ! لا . بل من حقك أن تعادل بينهما ، وإلا فكيف تعرف الآخر ؟ ذلك كله لن يدرأ حسك بالجريمة المدفونة ، بالنكوص أمام وجه الجريمة التي تملأ صفحة الأرض والسماء . ولا يبرره . الاعتراف يسد الطريق أمامك ولا يفتحه . ليس هناك من ثأر للحقيقة ، دمها لا يجف .

قال لها : إن محافظ الإسماعيلية أصدر تعليمات إلى مديرية الأمن بالمحافظة بتشديد الحراسة على المستشفى العام لمواجهة تجمهر الناس على أبواب المستشفى مطالبين بجثة رجل لقى مصرعه في مشاجرة نشبت في الشوارع . ظلت الجثة لأكثر من أسبوعين في انتظار الطبيب

الشرعي الذي يجيء من المنصورة ، فليس في الإسماعيلية طبيب شرعي مقيم . قال إنه في ١٢ أكتوبر الماضي زار المحافظ المستشفى العام واكتشف وجود تسع جثث ، تسع ، ناجمة عن حوادث السيارات ، تنتظر وصول الطبيب الشرعي منذ أكثر من عشرة أيام ، قال واكتشف المحافظ أنه لا توجد ثلاجة بالمستشفى لحفظ الجثث .. تصوّري .. قال ونشرت الأهرام أن المكاتبات مازالت مستمرة .

سمعا طرقاً على الباب ، نهضت وسوت ملابسها ، وألقت نظرة سريعة على البيت ، وفتحت الباب .

دخل مصطفى ، وجهه مندى بالعرق ، ينهج قليلا من طلوع السلم ، والحر ، وكانت حافة قميصه ، كالمعتاد ، قد خرجت عن حزامه الذي نزل قليلا على بطنه ، وشعره الذي فشا فيه شيب مبكر ، مهوّش . وجلس على مقعد منخفض ، بثقل .

قال : أبدا .. كل شيء تمام .. أرسلت أمي للصعيد ثانية ، الجو هنا ملبّد ، وهناك ملبّد ، خلاص ، هناك أخف حتى . وأعطيتها قرشين لتشتري خروف العيد . ووعدتها بأن أُعيّد معها .

قال ميخائيل : مالك يامصطفى . سارح يعني ، قليلا ؟
قال مصطفى : أبدا . كل شيء تمام .

كان واضحا لميخائيل أن كل شيء ليس تماما إنما هو مضطرب ، تماماً ، في ذهن صديقه . كانت عيناه تتجهان إلى شيء ما ، يتجاوزهما .

رجعت رامة ومعها الشاى ، في كل تحركها إيماء بالرعاية والحنان .

تردد مصطفى لحظة ثم قال : في ذهني فكرة ما . مهمة . سوف أقول لكما عنها ، فيما بعد . أريد أن أتكلم فيها مع أحمد أولا .

وقال : لا ، لا ، لا تسألني الآن . فيما بعد . أعد أن أقول لكما . بالعكس ضروري أن أقول لكما .

قالت رامة : أخذت إجازة بدون مرتب ، من المصلحة .

قال مصطفى : ماذا ؟ خير ؟ ما السبب ؟

قالت : إسمع ياسيدي الحكاية . أنتما تعرفان أن موشى دايان ، قُطع ، وإيجال يادين كانا يقومان بحفائر جنب سانت كاترين . وطبعا سرقوا ماعثروا عليه . قال هواة آثار ، وعلماء ..

قال ميخائيل ، بعناد : يادينْ ، نعم ، شغلُه في أوراق البحر الميت لا يمكن أن يُنكَر .

قالت : قُطع هو الآخر .. عالِم يمكن ، ولكن لص وقاتل ، أولاً وأساسا . المهم . في ٧٩ كان من ضمن ما سرقه خرطوشة مهمة ، عليها اسم نعرمر نفسه ، انظر ، ترجع إلى ذلك العهد .

قال مصطفى : أعرف أنهم يرفضون إعادة مانقلوه ..

قالت : هذه هى الحكاية .. ما سرقوه تعنى ..

قال ميخائيل : يعنى ما الذي حصل ؟

قالت : ياسيدي طلبوا منى في المصلحة أن أكتب لهم ، نطالب بردها . لم أتردد ولا لحظة . رفضت نهائيا . مأزق ؟ طبعاً . لن نختلف أن الهدف عظيم . أن تُرد الينا آثارنا المنهوبة تحت الاحتلال ا على العين والرأس ، بل ضروري ، وعلينا أن نناضل ، أن نحارب لاستردادها . الطرق كثيرة . ولكن أنا أكتب لهم .. تنكسر يدى ولا أكتب .. أضع اسمى على ورقه تذهب اليهم ؟ إن شاء الله تنشّل .. مازالت أرضنا مرتهنة ، ونتحدث كما لو لم يكن هناك شيء ؟

قال مصطفى : وبعد ؟

قالت : طلبت إجازة ، وخرجت ، وعلى استعداد وحياتك أنِ أتركها لهم ، وأمشى ..

كانت قد أعدت له الإفطار ، وشربت معه قهوتها الأولى ، كانت قد وضعت على كتفيها هذا القميص النايلون الشفاف الفاتح الزرقة ، المفتوح ، أكمامه قصيرة تقف عند أصل الذراعين بلفائفها المنفوشة ، على غرار اللفائف التي تحيط بفتحة العنق الواسعة ، وكانت عارية تحته ، ثدياها وبطنها حقيقة مجسمة ، في نور الصبح اللبنى الرقراق في البيت ، وساقاها متينتان ، غنيّتان .

قالت له : تعرف « رؤيا آدم » ؟ النص الغنوصي المكتوب بالقبطية الذي كلمتك عنه ؟ كلّفوني بشرح فقرات منه والتعليق عليها ، ليُنشر في كتاب عن مخطوطات نجع حمادي .

قال : من ؟

قالت : جاءني خطاب من المعهد البولندي للآثار .. المهم ، تعال ، نكتب معا صفحتين فقط ، لكي أخلص ، وأفرغ اليك .. هل تسمح ؟ من فضلك ؟

ابتسم وهي تجلس على مقعدها أمام المكتب الضيق الأنيق الموضوع في الركن ، بين حائط المشربية المخرمة بضوء الشمس الخارجية الرفيق، وأوراق نبات الظل العريضة الساقطة، وراء العمود الرخامي المدور . جلس بجوارها ، في الركن الضيق ، على مقعد صغير . أمامهما النص القديم بالحروف التي يعرفها ويحبها ، والورق الأبيض ، والكتاب الكبير الذي فيه الترجمة بالانجليزية ، وعلى الأرض مقالة عن النص ، بالفرنسية .

يدها الرخصة تجرى على الورق ، بخطها الكبير ، كانت ساقه تمس ساقها المدملجة العارية ، وهو ينظر الى نهديها المهتزين قليلا ، بامتلائهما الركين :

« الرؤيا التي علمها آدم ابنَه شيث في السنة السبعمائة قائلا : أصغ الى كلماتي ، يابني شيث . عندما خلقني الرب من التراب ، مع أمك حواء ، انطلقتُ معها في مجدٍ كنتُ قد شاهدتُه في الدهر الذي منه جئنا ، وعَلّمتْني كلمةَ معرفةِ الرب الأبدي ، وكنا على هيئة الملائكةِ العظام الأبديين ، لأننا كنا فوق نور الرب الذي خَلَقنا وأعلى من القوات التي معه » .

قالت له : ميخائيلُ ، وبعد ؟ ساعدْني في مراجعة النص من فضلك . لاتنظر إليَّ هكذا ، أرجوك . ألم تشبع ؟

وهي تضع يدها بحنو على ركبته .

قرأ ميخائيل :

« بَارَحنا المجدُ الذي كان في قلوبنا ، أنا وأمك حواء ، مع أول أنفاس المعرفة التي هبّت في داخلنا ، أنا وأمك حواء . وبعد ذلك أصبح الرب ظلاماً في قلوبنا » .

قال ميخائيل : المجد الذي في جسدينا ونور قلبينا هو المعرفة ، يارامة ، معرفة أُخرى وأوليّة . وبهذا المجد سنغلب كل قوات الملائكه الأزليّين . معرفتي محرقة : الوردة الساطعة بين يدىْ المخلّص من قَهْر الرب ، يأتي مشعاً بالنور والظلمة في داخله ، غير المخلوق ، المولود قبل كل الدهور .

هتفت به ، باسمةً وجادة : ليس هذا في النص .

قال : المعرفة لا تنتهي الى قرار .
فنظرت إليه . هى التي تعرف.

هأنذا أجلس ، في صباح شتوىّ صحو ، على سور الكورنيش أمام صفحة البحر الساجي . لكن السور عالٍ جدا في السماء ، مبنىٌ بكتلٍ من صخر خام غير مستوي الأطراف ، خشنة الملمس ، وأنا أتشبث بها بيدىّ ، وإلى عمقٍ كبير أرى البحر أزرق صافياً شفافا ، ساكنا كبللور لا قوام له ، مائىّ ، لايكاد يترجرج . والماء واضح تحت عينىّ ، أرى منه القاع الرملي الأبيض الناعم الطيات . وتصعد من القاع جزيرةٌ هى صخرة واحدة ، بارزة ، تشق الموج الساكت الزجاجىّ ، حتى تطعن بشرةَ البحر ، ناتئةً من سطح الماء الشفاف . تحتي ، من بعيد . وعليها امرأة غير محددة الملامح ، يخفق لها قلبي في توجس ، أعرفها ، ساكنة ، هامدة الجوارح ، عارية ولكنها مغلّفة ومطوية على نفسها . حنانُ قلبي يَدُلُّني عليها ، وهى مبهمة وغامضة ولا تلتفت إلىّ . الجزيرة الصخرة تنزل إلى عمقٍ بعيد جدا ومرئيّة طول الوقت في الماء ، ضيقة قليلا من أعلى ، وعريضة راسخة في نزولها حتى الرمل الملتبس البياض .

وأقول لنفسى : لا يمكن الغوص إلى تحت . إلى كل هذا العمق . ليس هناك إمكانية للنَفَس ! بهدوء ، دون توتّر ، دون أزْمة . لكن العمق كله مرئى وواضح ودعوته حتميّة لا رفضَ لها .

الباب الرابع

وحدانية القلب

كان ميخائيل قد أعد لنفسه إجازة قصيرة ، في القاهرة ، يقضيها في الفندق . آثر ألا ينتقل من مينا هاوس ، بعد المؤتمر ، واستمر في غرفته ، ووافقت إدارة الفندق أن تعطيه تخفيضاً عن الفترة التي سوف يقضيها على حسابه .

بعد الحفلة لم يشأ أن يقرأ النخب الحارّ غير المعلَن بينه وبينها ، وآوى إلى الصمت الذي يألفه . كان خائفا . كان يعود من زياراته للمصلحة ، من عند أصدقائه ، من المشي الطويل في الشوارع ، من المسرح ، من مكتبات الأزهر وسور الأزبكية ، يقضي النهار وشوطا موغلاً من الليل في البلد . وكانت مسيرة التاكسي ، متأخراً جدا ، في شارع الهرم ، رحلةً جافةَ الهواء خارجةً من ليل القاهرة إلى كتلةِ الهرم المهيبة المُبهَمة ، فيها أمانٌ لا يفسره لنفسه ، ليجد ردهة الفندق العريق خاويةً ومنيرةً بألوانها الداكنة ، والسلم الخشبي القديم يئز تحت قدميه ، وهو يصعد إلى غرفته العلوية ، ويسرع في أداء طقوس استعداده للنوم ، نافذته مفتوحة على الحديقة التي تتنفس في نومها ، أنفاسَ الأنتظار .

وخلال أيامٍ أربعة ، كان يحرص ، بنوع من الأستمتاع المقلوب على وجهه ، أن يتيقظ من نومه مبكرا جدا ويخرج من الفندق بسرعة ، ويقضي نهاره كله وجانبا كبيرا من ليله في الخارج ، وكان موظف الاستقبال في آخر الليل يعطيه مفتاحه مع الإشارات التليفونية التي جاءته وفيها رقمها واسمها وأن يتصل بها من فضلك ، مرتين أو ثلاثاً أو أكثر كل يوم . فلا يفعل شيئا . ينام في الساعات الأولى من الفجر ، ويتيقظ وحده مبكرا ، صامتا وعنيدا . وتنبَّهَ ، فيما بعد ، وقال لها ، أن قلبه ، وجسمه ، في موات غريبين عنه ، تنبَّهَ إلى أنه فقد حتى توتر الدفء الجسماني المتصلب الذي يأتيه عادةً قبل اليقظة ، ويملأ لحظةَ مغادرةِ النوم بالحُلْم الفيزيقيّ البحث الذي يحلمه الجسم ، وحده .

كأنه يقطع رحلة فرار من مواجهةٍ لا يعرف عمَّ تتمخَّض . كانت مجرد واقعة أنها تطلبه ، بهذا الإلحاح ، منذرةً ومهدِّدة ، فيما يخشى ، أو كانت إجابة حاسمة . كان يعرف ، بل كان ينكر تماما ، أن انبجاس البراكين القديمة قريب جدا ، وأن أرضها هشة هائرة حتى إن ظلت متماسكةَ القشرة ، على شروخها ، طوال هذه السنين . كيف يحتمل طوفان الحسم ، لو انطلقت من محبسها الغائر في لحمه ؟ كانت إجابته المؤقتة حمقاء جدا : مجرد الفرار ، والاستعداد

الكامن ، غير المعترَف به حتى الاستماتة ، أن يصبح هذا الفرار دائما .

كانت رائحة الصحراء تأتيه من نافذة سيارتها الفولكس ، حادةً وجافةً بالرمل المحترق طول النهار ، وكان في المقعد الأمامي بجانبها ، وهى تقود بتمكّنٍ وتصميمٍ وتعب قليل . ووراءهما محمود ، مقطبا غائر العينين وجهه عميق الغضون . وسامية قد أغفت ، على المقعد الخلفي ، شعرها البنى قد سقط على القماش . وورق الرسم ، والكتب ، والقواميس . وانبثق من امتدادات الرمل المتموجة صخر الرخام النقى الأبيض ، تركت عليه الشمس الغاربة ماءها المحمرَّ الرقراق ، بعد أن دفن قرصُها المدور الكبير نفسَه ، بسرعة ، وراء أفقٍ مشعث مدبب الصحور . وكانت الصخور ، بتكعيباتها الممزقة ، مطمورةَ الرسيسِ في الرمل ، تبدو في نور المغيب كأنها مُدَخّنة ، وأطلال قرية مهجورة صعدت على حيطانها المكسورة كثبانُ الرمل ، سقطت أركان البيوت ونبتت بين أحجارها أغصان قائمةُ الخضرة شائكةٌ متينةٌ ومعجونةٌ بعصيرها القليل العنيد . وعلى جانب الطريق ، وراء كثبان ناعمة جدا تصفِّر السيارة بينها بأزيزِ المحرّك الثابت القلب ، جبانةٌ قديمةٌ تحطمت صُلبانها السوداء وأحْنَت رؤوسَها .

بعد اثنتى عشرة ساعةٍ من الرحلة على الطريق الأسفلت الناعم السواد ، والرمال على الجانبين بريئة وغامضة في التقلب الثابت لكثبانها الصغيرة ، وأكوامٌ منها تزحف ببطء على قواعد أعمدة التليفون المتلاحقة ، كان طنين السيارة وصوت اصطدام چيركين الماء نصف الفارغ ، وچيركين البنزين ، بانتظامٍ رتيب ، قد أصبحت كلها دقاتٍ خافتةً في وعيه .

ووصلوا الى استراحة الآثار وراء المئذنة جنب الاتحاد الاشتراكي في الميدان الرملي الضيق بشجيراته النابتة وسط دوائر مبلولة يحيطها سورٌ منخفض من الحجر المكسَّر .

في الغد ، من الساعة الثامنة صباحا ، كانت جماعة الأثريين الصغيرة تدخل من البوابة الرومانية ، إحدى كتفيها مهدمة ، وعلى الأحجار الألفيّة المغبرة اللون المحببة ، نقشٌ باليونانية على طول صفحة الواجهة ، والكباش رابضة ، أربعة على كل جانب من الطريق ، مدوّرة الأفواه مضمومة الحَجَر ، قرونها المعقوفة ممتلئة مثلومة السنان ذابت في كتلة الرأس ، وبطليموس الثالث يقدم القرابين لآلهة مصر العتيقة التي ما تزال ماثلة بحضورها الغريب ، على اليمين آمون وخوفو ، وعلى اليسار أوزير ومعت وسخمت ، والمعبدُ الصغير بأعمدته المتوجة باللوتس التي في حَجَره

القديم عذوبةٌ مازالت تفيض ، مفتوحٌ تحت قرص الشمس الأبدي ، فوقهم ، قادماً من آلاف السنين ، فوقه حيَّتان ، يقظتا العينين ، وحوله جناحاه العريضان يضمان سماء الصبح الشفافة الزرقة التي تكاد تكون بيضاء.. والرمال تحت أقدامهم ، في فجوات مكسورة بين الصخر الأملس الصلابة .

قال له معاون المركز الشاب المنهضّم الوجه ، رشيقاً في حلته العسكرية التي فتح أعلاها عن شعر صدره الرياضي المنفوش ، وأمسك الكاب بيده :

ــ الصعايدة جاءوا أمس باللوري ، ومقاول الأنفار يريد عربون الأجرة من المصلحة . يريد أن يرجع إلى أسيوط اليوم ، ويأتي يوم الثلاثاء .

فقال ميخائيل إن الشغل سينتهي قبل ذلك إن شاء الله ، فالعملية عملية تنظيف وترميم بسيطة جدا ، رفع الرمال عن قبو المعبد وصَلْب قاعدة العمود لن تأخذ أكثر من يومين ثلاثة على الأكثر ، وأن الفلوس والكشوف والسُلَف عند الست المفتشة والسيد المدير المالي الذي معنا ، وإن شاء الله تتدبر الحكاية ..

أعمدة البردى واللوتس تتناوب ، وعلى الحيطان مازال الفلاحون منحنين عليكِ في الزمن الصحراوي القفر ، يستنطقونكِ بكل مافي أجسامهم الأبديةِ الشباب وتستجيبين لهم باللذائذ اللدنة الثابتة عبر كل الأزمان ، عراجين الشهوة الحمراء بين السَعَف الذي ينوسُ في الهواء الجاف .

تحت حائطٍ مبنى من الحجر ، قاعدته مُسْوَدّة من هباب النار ، شائهة الشكل ، جلست جماعة العمال الصعايدة على الأرض ، بجلاليبهم البيضاء وعممهم ولِبدهم ، دائرتهم مغلقة على نفسها ، في داخلها تقاربٌ بلا صوت ، مهمَلة ومزدراة من الخارج ، وعرف أن قرابته بهم حجرية ولا اسم لها ، وتبضُّ من داخلها بعذوبةٍ منكورة .

وكان بدو الواحه يقفون ، فرادى ، من بعيد ، أغرابا ، في صَلَف جاف ، جذوع نخل مقتحمة وغير مثمرة .

قرأت رامة النص المحفور ، بصوت خفيض ، وبثقة :
— على من يدخل هذا المكان أن يكون طاهرا .

رد عليها ، في ذات نفسه ، متضرعا :
— نحن أطهار . نحن أطهار . نحن أطهار .

يدخلون من البابين اللذين على اليسار لقاعةِ كبار الكهنة ، بها أعمدة البردى الأربعة . كان أوزير واقفا ، عبر الحدّ النهائي غير المحسوب ، ابتسامته غير مرئيّة ، وهو يتلقى قرابين الوز المسمّن المذبوح ، وأصابع البلح المدوَّر ، وسَمَك البلطي المليء بجسدانيةٍ مُشَرّعَةِ الزعانف . وفروع الشبت الدقيقة ، وأوراق الخص العريضة ، وعيدان البصل الأخضر المكوَّرِ الرأس المستدقّ الأطراف .

على الأرض جذور مستديرة مشعثة الأطراف ، كل مابقى من الأعمدة التي سقطت وتحطمت شظاياها وحملتها أيدى المقتحمين والناكرين .

طائر عنخ ، الرخّ ، ذكر العنقاء المستحيل ، بجناحيه المفرودين المتصلبين ، لايزال يحلّق ، منتصبا ، فوق عرجون النخل الطريّ الخصيب ، الطير الوحدانيّ الذي لا يأكل إلا من رأس نخلته المفتوحة له .

كان الأثريون ، ومساعدوهم ، والمعاون ، يأتون من ورائها في حلقات من اثنين أو ثلاثة ، تنفرط وتتجمع وتنعقد يتحدثون بصوت منخفض في فرحةِ الصحراء والاستعداد للعمل ورهبةٍ خفيفة من حضورٍ كامن في هذه الأطلال ، ومن مشاغل الغد ، معا .

والجعارين السبعة تزحف حول أقدامهم ، منتفخةً بصلابةٍ غمِقة من طين الأرض السبخة المغمورة أبداً في الطمْيِ العتيق ، متجددةَ الصلابة ، تظهر أبداً وتغوص في عمق الردغة المُحيية .

وكانت رامة بجانبه ، خفيفةَ الخطو ، تتجسم في بنطلونها الضيق المريح الشكل ، أنوثتها تتجاوب في ألفةٍ قديمةٍ مع أنوثةِ الأعمدةِ الناعمة ، وتستثير ذكورته استثارةً هيِّنة ولكن محسوسة ، ومعاون المركز الشاب يرمقها بنظرةٍ مفتونةٍ ومهذبةٍ في الوقت نفسه ، وهي تفيض عليهم جميعا بحيويةٍ نسائيةٍ وقوةٍ لاترد عليها .

حول ساحة إيزه وأوزير المهجورة مخازن خيرات القرابين المكدسة وملاجىء القمح والأشواق والصبوات والنبيذ . وفي الحجرات المنقورة في الحائطين ، على الجانبين ، آثار دخان المشاعل القديمة ، ويقول ميخائيل في نفسه : أنارت للعاشقين القدامى طقوسَ الحب التي لا تموت ، يلوذون بها من قهر الأجسام المتقلبة على الصخر . ويقول أيضا في نفسه : وأنارت للهاربين بعقيدتهم الجديدة مواطن اللواذ بإيمانهم المنكور وصلباتهم السرية في قهر الجحافل المدججة بالحديد تطبق عليهم بقوانين الپاكسا الرومانا الامبراطوريّ ، حتى أطراف البرية .

حتى انتهوا إلى آخر المعبد ، فتحة ضيقة مردومة بالرمال الناعمة فيها شقافة وحطام من الصوّان والبازلت التي تسد جانباً من مدخل درجات تسعة ملتبسة الضوء تفضي إلى القبو المنحدر المتسع العالي السقف ، عتمتهُ فسيحةٌ ممتدة تحت الأرض تحيطها جدران سامقة ، كأن فيها ، لاتزال ، أصداء التراتيل الغابرة والبخور العتيق . قدس الأقداس الذي مازال غير مسبور وجزء منه مطمور ، والشمس تضرب جانباً منه بنور مُصفًّى غريب ، فتستضيء فيه فجوات رملية من آثار أقدام الآلهة التي تركته ، وتَبين شروخٌ دقيقة في قاعدة العمود الواحد الضخم الذي يصعد في وسط الهيكل — القبو ، يستند إليه السقف .

كانت رامة ، تتحدث إلى الضابط الفتى ، كما تتحدث إلى كل الناس ، كالآلهة ، ليس من علٍ ، بل من سياق آخر بلا صلة ، كالمطر ينزل على الأخيار والأشرار ، كل الناس وكل الأشياء كل العشاق وكل الغرباء ، بحيادٍ ما ، وراء كل العفوية المدروسة والفيض الأنثوي ، بنفس العطف غير الانساني ، لأنه غير ضعيف ، بنفس الانقطاع أيضا لأنه لا مكان ، أصلاً ، لا للاهتمام ولا للامبالاة على السواء ، بالرغم من الاقتراب الفيزيقيّ الغلابّ . قال ميخائيل لنفسه : هذه المرأة التي اشتغلت بالثورة ، ومازالت أصابعها في عجين الثورة المضطرب الخمران ، عندها ارستقراطيةٌ من نوع ما ، ككل الثوريين الحقيقيين ، ليس التعالى بل السمو والتجاوز المُفارَقة .

كانت تقول ، لمعاون المركز ، بنوعٍ من الأمومة والاستجابة المحكومة لحركةِ شبابه ، وغرارته : هل تعرف حضرتك أن هذا الهيكل مخصص فقط لإ يزيس وأوزيريس . أنت عارف طبعا قصة إيزيس وأوزيريس ، أليس كذلك ؟

ضحك المعاون الشاب مُحرَجاً قليلا ، كأنه خائف من الامتحان وقال بسرعة : طبعا ، طبعا الواحد هنا تعلم الآثار والتاريخ وكل حاجة .

فلعلها أشفقت عليه ، ولم تضغط ، وأخذت تشرح له ترتيبات القاعات ، وطرازها ، وكيف أن القاعة الأخيرة ، قدس الأقداس ، كانت مازالت مردومة حتى ١٩١٤ .

قال ميخائيل ، صامت الترتيل : أرضيَ الطَّهور . عندما يدحلكِ ريح رع المُشرَع الحارق تتقدسين ، وكل الاستباحات تتطهّر .

ثم قال : ألم يفُت أوان الترتيل ، إلى غير رجعة ؟ وهل تظن أن شعر الصلوات الصدىء له معنى ، أي معنى ؟ ألن تغادر أبدا مراهقةَ الوهمِ الذي يعبث بك بسخفٍ وسفَه ؟

كأصحاب الخِرق والمرقّعات الذين يصرخون على أبواب المعابد والكنائس والمساجد الجامعة ، أصرُخ : أيها الناس اقتلوني !

انقطعت بي الأسباب بعد أن كنا أنا وأنتِ ، ليس مابيننا شعرة ، ليس ما بيننا لا أنانية ولاغيرية ، بلا مقاربَة ولا هجران . مركز دوّار بلا بدء ولا انقسام . والشهادة هي الثواب . أيها الناس اقتلوني ، واقتلوها . فلا يعود انقطاع ولا قِسمة . صراخُ الذاهلين بالتوحّد المطعونين طعنةَ الموت من افتراق ، هذا الزئيرُ الفاحش صمتٌ مطبق ، تام . لسان ما لايُحْكَى ، ولا يمكن أن يندّ عنه صوت ، أدنى صوت .

في المستقبل ، كان كل شيء صافيا ووديعا ، وقال لها :
ــ أذكر رحلةً من أولى رحلاتي في البعثات الأثرية، في ١٩٦٤ أو ٦٥، عقب استقلال الجزائر ، كنا في جامعة وهران ، في حلقه بحث ، دعانا إليها قسم التاريخ ، عن العصر اليوناني ـ الروماني . كانت تلك أول مرة أراكِ فيها . مرت عليها الآن خمس عشرة سنة أو أكثر . همس لي مصطفى : انظر ، هذه التي تدخل مع زوجها ، باحثة في الآثار منتدبة هنا مباشرة بعد الاستقلال ، وماركسية كبيرة .

قالت : لا أذكر .. لا أذكر أبدا .

قال : أنا أيضا كدت أنسى ، تماماً . عندما جئتِ للاسكندرية لتعملي معنا في المتحف اليوناني الروماني ، ودخلتِ عليَّ أول مرة ، في ١٩٦٩ ، بالضبط ، كنت متأكدا أنني أراكِ لأول مرة . لم أذكر حكاية الجزائر إلا بعد ذلك ، عندما حدثتِني عن بنعمار .

وقال : ولكني مازلت أذكر هذا الحضور الذي دخلتِ به علينا حلقةَ البحث ، في وسط المناقشات . أذكر القامة الطويلة ، والنظرة المترفعة ، والجمالَ الذي يصدم . مازلت أذكر القاعة الواسعة شبه الخاوية ، والمدرَّج الدائري ، والضوء الخافت إلا من قضيب النور الساقط على المنصة الطولية الضيقة . ودخولَك هذا في نصف العتمة . وأذكر أن حسن كان معك ، لا أذكر عنه شيئا إلا خطوةً بطيئة ممتلئة أيضا ، كأن دخولكما معاً نوعٌ من التعطف والتنازل على الأثريين الغلابة الموفَدين من القاهرة ، لا يعرفون شيئا . وأذكر غضبي على هذه البنت الأرستقراطية التي أوحت لي ببنات جاردن سيتى والزمالك النازلات من بيوتات العز والأراضي والعزَب والأصلِ التركى المختلط أنا القادم من طفولةٍ مضطربةٍ مع الحُفاة والصعايدة والغلابة في حواري غيط العنب وأزقة راغب باشا ، في وسط زرائب اللبن ومطاحن الدقيق . وقلت لنفسي : ماركسية أيضا ، هذا أدعى للغضب . وأذكر المشية المنسابة المُوقَّعة ، وخطوات الجسم الرشيق الآمر ، كنتِ مُحيلة شيئاً ما عندئذ ، أليس كذلك ؟ وأذكر ، بغموض ، البشرةَ السمراء وشفتين قانيتين في الضوء الخفيف ، والماكياج شديد الإتقان ، وهو شيء لم أره منكِ أبداً بعد ذلك . هل كان ذلك صحيحا ؟

قالت : أبداً ياحبيبي . لابد أن خيالاتك شطحت بك . هل أنت متأكد أنني ذلك الشيء الأسطوري الذي تحكى عنه ؟

قال : لاشك عندي لحظة واحدة . كنتِ أنتِ . وكل هذا الحقد والغضب الذي ثار بي وكاد يخنقني والذي شدّني اليك ، مرةً واحدة ، شِدّة المصير ، هو نذير لا يمكن أن يخطىء .

قالت : بتعقلٍ ، وغضب مُنحّىً به إلى الوراء حتى لايعكر هذه اللحظة الناعمة من وداعة العتب وتصفية التذكّر :

ـــ ثم ماحكاية الطفولة الفقيرة وهذا الهراء .. ؟

فقاطعها : لم تكن فقيرة تماما مع ذلك ، بل كانت مع الغلابة الذين لا اسم لهم .

فأكملت : وحكاية الأرستقراطية وبنت العز هذه؟ منك أنتَ ، نغمة جديدة ، النغمة التي أهلكتنا في الأوائل ، في الخمسينيات ، عملت صراعات لانهاية لها المثقفين ضد العمال .. وأبناء الشعب ضد أبناء الذوات ، في داخل الحركة ..

قال مُطايبا : أنت تعرفين أنه ليس عندي ، دون تواضع زائف ، ابتذال القصد الساذج وراء ذلك كله . تعرفين أنني لا أعتبر أن عندي مجداً خاصا في أنني ــ أو أي أحد ــ جاء من الحواري والأزقة ، أو أنك ــ أو أي أحد ــ جاء من أولاد الذوات وتعلّم عند الراهبات أو كان جدّه من بيوت الأشراف ... ليس هذا كله عندي بشيء .

فغيّرت الموضوع ، وحكت له عن تقرير علمي جاء للمصلحة من جامعة جوتنجن بألمانيا الغربية عن نتائج فحص مجموعةٍ من المومياوات المصرية القديمة ، وأن صور الأشعة التي التقطت لجمجمة أحد الكهنة قالت إنه كان مصابا بورم خبيث داخل رأسه ، وأنه منذ أربعه آلاف سنة أجريت له عملية جراحية دقيقة في المخ ، وأن الجرّاح القديم استطاع إزالة الورم ، وقالت إن نتائج البحث أثبتت أن الرجل عاش بعد هذه العملية عدة سنوات .

سمع الحكاية صامتاً ، متفكرا .

وسوف تهفّ عليه ، فيما بعد ، ذكرى جلسته معها ، مرة ، في كافتيريا في المعادي ، لم

يعد يذكر اسمها ، بعد أن اشتريا معا ، بلوفر من الصوف له ، اختارته له ، أبيض وبرقبة ، من فرع شيكوريل بالمعادي ، وحمل الكيس النايلون وجلسا إلى مائدةٍ يذكرها تماما ، من وراء الزجاج ، وأنهما طلبا بيرة ستيللا ، وطبق بيض مقلي بالبصطرمة ، كبيراً اشتركا فيه معا ، جاءت به مضيفة طيبة الجسم كرغيف الخبز الطازج ، وفي خديها المتهدلين غمّازة كالأطفال ، وكانا قبل الظهر بقليل ، والمكان دفء وعبق برائحة القهوة ، وَثمَّ رذاذ خفيف يسقط على الزجاج ، في مرةٍ من المرات النادرة التي يهمي فيها بلُّ المطر في القاهرة . وقالت له :

ـ كنت أنام على حِجر جدتي ، وأنا طفله ، أم أمي ، وكانت بيضاء الوجه وبيضاء الشعر ، قُطْنة بيضاء . وأموت في رائحتها ، مزيج من الماء العطِر والصابون النظيف . وكانت تحكي لي الحواديت التي أحكيها الآن لعَزّة بنت منال . وكانت تسافر إلى باريس كل سنة في الصيف ، وتأتي لي بجهازي ، كاملا . وأنا عندي أربع أو خمس سنين ، الترووسّو كاملاً للسنة كلها ، الفساتين ، صيفي وشتوي ، والفانلات والكيلوتات والشرابات والجزم ، كل حاجة ، حتى الفُولار الصغير والقبعات المدورة للمَدْرَسة وللخروج ، كلها ، من عند البون مارشيه في باريس . وكنت أفرح بها ، أول يوم ، أطير من الفرح وأريد أن ألبسها كلها ، صيفي وشتوي معا ، ثم أنسى ، حتى أنها موجوده ، ثاني يوم .

قالت : وكنت أتخيل البون مارشيه هذا مثل صيدناوي وأكبر منه ألف مرة ، وكله قباب من الزجاج المضلّع والحديد المقوّس ومصاعد مفتوحة لها أبواب مشبَّكة وليس فيه إلا الملابس الصغيرة التي تكفي كل بنات العالم ويمكن أن أمشي فيه سنة دون أن أخلصْ . بعد أن رأيته ، كان صغيرا جدا .

لم ينقطع حديثى إليكِ ، في الحقيقة ، منذ سنوات طِويلة ، منذ عرفتك ، هل أقول قبل أن أعرفك ؟ وجودك معي ، منذ شفق الصبا المُحْمَرّ المختلِط الغيام عبر الحواري والساحات ، على حافة الاسكندرية المُزْبدة بغضب البحر وفي غيطان الصعيد ، في المعتقلات وعلى شط النيل في الطرانة ، في منعطفات أحلام الشباب الفسيحة الخاوية وعلى تلال أندونيسيا ، في شوارع سنغافورة وعلى الثلوج في اسكتلندة ، تحت الأشجار الافريقية العملاقة على المحيط الأطلنطي وفي سريرى الضيق في ماريوبوليس ، في غرفة السطح المعلقة القديمة الطراز في مون سكاريان وفي الزقاق المطل على خيام الغَجَر في مخرم بك ، أتحدث إليكِ وأنتِ غير متحققة بعد

ولكن موجودة ، وأنتِ هناك حاضرة على الفُرقة ، وأنت معي في قمقم حبّنا ، على السواء . ومازلت لا أعرف هل تضيقين بهذا الحديث المتصل الذي لا يكف أم تطلبينه ، وهل يصل أو لايصل ، على كل تعثّره ، وعَطَبه ، ونُوبَاتِه العُقَدية المتخثّرة ، وهَمَيَانه المنسرب السلسال ، وشطحه وتحليقه ، وهُويِّه وانحطامه ، الشيء الذي أعرفه تماما ، أنه ، منذ البداية وإلى نهايةٍ غير مرئية ولعلها غير موجودة ، حديثي موجَّه إليكِ أنت ، وأنتِ وحدك . بيأسٍ ــ له وجه الأمل المخفيّ ــ من أنه سيصل إليك ، يوما ما ، وأنك ستعرفينني . كان يقيني كاملا أنني لن أتلقى ردا ، أبدا ، وأنه لن يحدث أبدا ، هذا الوصل الذي هو حبٌ ومعرفة . معجزةُ الزمن الآخر أنه قد حدث ، وأنه يبدو كما لو كان لم يحدث . بقعةٌ محرقةُ النور ستظل أبدا في بؤرةِ القلب ، لا أكاد أستطيع أن أنظر اليها .

قلتِ لي : ليس موجها إليّ .

قلتُ لك : هنا يخونني ذكائي فعلا . لا أفهم . فروض الفهم كثيرة إلى حد الإرباك . واحتمالات التأويل متعددة جدا .

قلتِ لي : ماجدوى تعدادها ، وطرحها أصلا ؟ ماجدواها أصلا ؟

قلتُ لك : مادام الحديث مستمرا ، على أى حال . وسيظل مستمرا . سواء قيل أو لم يقل ، سواء وصل أو لم يصل ...

قلتِ لي : مادام كل شيء يدور هنا ، في رأسك ؟

قلتُ لك : أو بتعديلٍ طفيف ، يقلب كل شيء على رأسه ، كلُّ شيء يدور في دخيلتي .

قلتِ لي : الكلمة المفتاح هى الداخل ، نعم . القمقم .

قلت لك : مادام الشوق الحارق إلى الخروج ، الخروج إليك أنت ، مازال حارقا ، وأشد ؟ مادامت المعرفة كَمًّا مجهولاً بعد ؟

يبقى هذا الحب . متحققا أو مُحْبَطاً ، سواء ،كاملاً ، في أحيان نادرة ـــ كم كان رائعا ! ـــ أو تعتوره وتتحيّفه أخلاطٌ من الإخفاقات والحواجز ، سواء . متوهجا في الشمس أو مطموراً تحت رُكام الكَتْمَة والخرس ، سواء .

قالت : في أحيان نادرة ، فقط ، ياظالم ؟

قال : ليست الندرة أو الوفرة بمقياس .

هل تعرفين ـــ حقا ـــ مدى الزلزلة التي أتحدث إليك من غمارها الآن ؟ أمواج الماء الملح التي تغشى صفحة العالم ؟ الحافة التي أقف على حرفها الهاري كل مرة أتحدث فيها إليك ، كما يحدث الآن ؟

وأرى نظرة الاستغراب ، مايشبه الإنكار وكأنه الرفض ، والتفحّص ، والصمت على كل حال ، النظرة التي رأيتها حينما حاولتُ أن أقول مايشبه هذا ، وأنتِ مغلقة الأكمام مسدودة أمامي ، في ثوبك المسدل الثقيل .

قلتِ لي : غريب جداً أنك ـــ وأنت رجل الكلمات لاتُحسن الحديث .

وأرى في الوقت نفسه عينيك المحبتين تفيضان بحنو خارق لا يتصوَّر ولا يُصدَّق ، نظرةٌ خطفةٌ تنقضي . ولا تنقضي أبدا . لكن الصراع مع اليأس لا ينقضي ، ومع أنواع الغضب ـــ والغضب من المجهول على الأخص ـــ ومع المسوخ الشائهة الأنياب التي متى نزيحها عن الكتفين ، كلانا ؟ ومتى نعرف خفةَ الحرية ونزقَها العظيم ؟ على الأقل ، طيب ، في هذه السوانح التي نختلسها من الزمن الضنين ؟ هذه أيضا نعرفها . وباقية . وتبدو كما لو كانت لم تحدث .

قال ميخائيل : على ثَبَج هذا اليمِّ من العلاقة زَبَدٌ أسود كثير . حقُّه ألا يكون .

كان ممدداً على سريره في استراحة الآثار في ماريوبوليس ، بالقميص والبنطلون ، منهكاً ، لم يكن قد نام طول الليل ، ونور أول الصبح يضيء الستارة الصفراء الكمّوني الحكومية ، على

النافذة الشرقية العريضة في غرفة نومه . كم الساعة الآن ؟ الخامسة ربما . كانت يقظته حادة الأطراف أعصابها مكشوفة لأقل اهتزاز .

سمع صوت عجلات سيارة تأتي من بعيد ، وتقترب . صوت دوران العجلات واضح ، تخبط الأرض بانتظام وهى تكشط الرمل على الطريق المدكوك بالحجر والرمل ، فنهض ؛ لا يعرف من يمكن أن يكون القادم الآن . ووضع قدمه في الصندل بسرعة ، وأزاح الستارة . رأى تاكسي مصر الأزرق الداكن بالأبيض ، واقفا في الصحراء ، والخفير الصعيدي مقبلا يجري من بعيد ، في جلابيته الفضفاضة في هواء الصبح المبكر ، خارجاً من الكشك الخشبي الذي ينام فيه . ورأى مصطفى ينزل ويحاسب السواق ومعه حقيبة يد صغيرة .

شوّر له من وراء الزجاج ، ولم يره مصطفى ، فأسرع يستدير ليفتح الباب .

— أهلا مصطفى .. يا أهلا .. حمد الله على السلامة . اتفضل . ماهذه المفاجأة المفرحة .
— أهلا بك .. هل أزعجك ؟
— ياخبر ..! أبدا يارجل .. معقول ؟ تسعدني طبعا . أهلا .. أعمل لك الشاى ؟

كان الخفير قد وقف بالباب ، مازال عابسا ، أول أشعة الشمس تسقط على غضون وجهه القاتم فتضيء خطوطها الرفيعة المتعرجة ، وعيناه ضيقتان مركزتا النظرة .

قال ميخائيل : شاى وحياتك ياعم شعبان .. وأنا أيضا ..
قال شعبان ، بصوت جاف ، مختصر : حاضر .
قال ميخائيل : أخليه يحضر لك الافطار ؟
فرد مصطفى بثقل : لا . ليس الآن . بعد الشاى ، يمكن . الآن أريد أن أغسل وجهي فقط ..

بعد الشاى سقط بينهما صمت وجيز محمل بالانتظار .

قال ميخائيل بود ، وشيء من القلق ، صريح : والآن قل لي .. ما الحكاية ؟

قال مصطفى بصوته الأجش : أبداً كل شيء تمام . اسمع ياميخائيل ، ببساطة هكذا .. جاءوا البيت عندي ، وقلبوا الدنيا . بالصدفة تأخرت عند أحمد ، وبتُّ عنده الليله التي فاتت . الولد ابن أختى هو الذي جاءني على وجه الصبح ، وقال لي . قضيت النهار عند أحمد ، وخرجت إليك بالليل . طبعا كنت أنتظرهم منذ أن قبضوا على طارق في البلد . وربما كنت قد بتّ عند أحمد وفي ذهني انتظار ما . أحمد غير معروف عندهم . اسمع ، بقي .. سأقضي عندك هنا يوماً أو اثنين . لا أظن أنهم سيفكرون أنني هنا ، ثم أنك أيضا غير معروف الآن ، ياعم أنت خلصت منهم من زمان . لكنني لا أريد أن أضعك في أى موضع حرج . سأمشي على طول . لم أرد أن أذهب إلى فندق بالاسكندرية الآن . الفنادق كلها عندها تعليمات كما تعرف . لكن سأمشي غدا أو بعد غد.عندي أقارب في كفر الدوار . تبقى منها زيارة ، واجازة . إجبارية صحيح ، لكن وماله ؟

وضحك مرةً أخرى ، وهو ينهج قليلا من مشوار الكلام .

قال ميخائيل : أهلاً بك يامصطفى ، ولا يهمك . أقعد هنا كما تحب ، على راحتك ، أى وقت .

قال مصطفى : طبعا الخفير وعمال الحفريات سيلاحظون . وقد يحرجك أنه ...

قاطعه ميخائيل : لاتقل هذا .. لاشأن لهم بشيء .. اطمئن أنت واسترح قليلاً .. أدخل نم .. ثم أنك مفتش آثار قد الدنيا .. هل نسيت ؟

وقال لنفسه : طبعا الموقف حرج . وطبعا وضعني في موضع لا أملك فيه شيئا إلا أن آخذه إليَّ .

ولكنه كان مستريحاً في داخل هذا القلق نفسه ، كأن القرار قد صُنع له في داخله ، دون أن يبذل جهداً ودون أن يفكر ، ويقلّب الأمر على وجوهه المتعددة .

قال لنفسه : أفضل قراراتي تلك التي تُفْرَض عليَّ ، ولا أفكر فيها . كأن أحداً ما ، آخر ، بداخلي ، هو أنا الأحسن والأفضل ، هو الذي يتخذها بدلاً مني .

قال له مصطفى : لماذا تبتسم ؟

قال : أبداً . تذكرت شيئا . سأحكي لك بعد أن تنام وتستريح .

ضحك مصطفى فجأة ضحكته المليئة المشحونة ، من بطنه ، وقام لينام .

عندما عاد للقاهره قال لها :
ـــ اسمعي ياستي ، ألست مؤرخةً أيضا ؟ في أهرام اليوم ، أرِخّي عندك :

« كنت أعيش أنا ووالدي ووالدتي منذ سنوات في بلدتنا مركز أبو قرقاص محافظة المنيا وفي حجرة بالايجار مظلمة ليس بها ماء ولا كهرباء ولا أى « أساس » سوى حصير ننام عليه .. كان والدي يعمل فلاحاً بالأجر ومات وتركني أنا ووالدتي نفترش الأرض ونلتحف السماء. واشتغلت في مخبز بالبلد لكى نجد ما يسد رمقنا .. وحصلت على الثانوية والتحقت بكلية الطب جامعة الأزهر .. لا أجد من يقف بجواري ولا مأكل ولا ملبس ولا كتب وخلافه .. أنا مقيم بحجرة فوق السطوح في أحد أحياء القاهره سقفها مغطّى بالبوص وأرضها كما جعلها الله لا أجد ولو بطانية أفرشها لكى أنام .

الطالب شحاته حسن المنزلاوي
الأميرية مدينة الفردوس شارع أبو بكر الصديق حارة وهبه حسن منزل رقم (٧)

وكانا يتعشيان ، ، بعد أن صنعا الحب مرات عديدة ، والأكل على الطبلية النحاس الواطئة ، في الجانب الأيسر المنخفض بدرجة عن القاعة الكبيرة ، وبجانبه الاستريو الضخم الذي قالت عنه : هذا الوحش الموسيقيّ ! تتحدَّر منه إيقاعات باخ التجريدية الدقيقة الوِجْدان ، على البيانو البللوري الصفاء . النور المنسدل من القنديل المملوكيّ يقع على تشابيك المشربية المظللة بورقِ النبات الداكن الحارّ النَفَس .

العشاء البسيط على طبقين مسطحين ، بلا عمق ، من الصينى القديم الأزرق العميق ، وعليه زخرفة ذهبية باهتة بأفنان نحيلة عليها ورق رفيع ، عليهما غطاءان من الكتان المطرز .

قالت له : جئت لك بشيء تحبه .

رفعت الغطاء ، وقالت : سومون فيميه ..

قال بفرح : غير معقول !

كانت شرائح السومون المدخّن ، بلونها الأصهب نصف الشفاف عليها لمعة زيتية مخضلّة وفيها عروق مضلّعة متراوحة ، داعية .

وكانت زجاجة النبيذ الألزاسي الأبيض مختومة ، ورشيقة العنق ، وورقة الاسم قديمة مصفرّة وعليها رسمُ قصرٍ بأبراج ، والحروف القوطية باللون البنّي صعبة القراءة . وإلى جانبها ، في طبق من القش المجدول ، فاكهة مجففة وطرية الجلد ، برقوق أسود ، ومشمش ، وتين ، وبلح . والخبز الشامي المحموش سخن ، شرائح رقيقة لانقصافها فرقعة خافتة بهيجة .

قال لنفسه : كيف تنتقي الأكل .. ! كأنه كونشيرتو أحيانا ، وفوجة مرة ، وسيمفونية املة مرة أخرى .

فض ختم الزجاجة الثمينة ، وعلى غير عادته انزلقت الفلينة خارجةً من العنق الطويل ، ناعمة ، بصوت شهْقةٍ خافتةٍ مبلولة . فضحكا ، وشربا ، بدقّةٍ نخبٍ من غير كلام ، وللكأسين رنين كأنه آتٍ في سياق إيقاع باخ الشفاف . وكان للنبيذ نكهة عطر قديم ومرهف .

ثم وجدا أنهما ، دون أن يعرفا كيف بدأت الحكاية ، في غمار مناقشه مضطربة اللفّات .

قال لها إن البابا كيرلس الخامس كان قديسا حقيقيا ، وأن له معجزات ، عندما كان حياً

وبعد أن مات . قال إنه من سلاله آباء الكنيسة المصرية العظام بطاركة الاسكندرية المدينة العُظمى والنوبة والحبشة والمدن الخمسة ، وقال إنه عندما مات ، بعد هزيمة ٦٧ ، طيّبوه بالطيب والحنوط ، على عمادة الكنيسة القبطية ، وأجلسوه على العرش البابوى في الكاتدرائية المرقسية . جَلّس ،وهو ميّت ، في يده الصولجان ، متوجاً وعليه الطيلسان ، مغمَض العينين ، لحيته عظيمة ، هادىء الأسارير وإن كان يبدو أنه كان يتألم لنا ، ويعطينا بركة . قال إن صفوف الناس كانت تدخل الكاتدرائية الشاسعة الشاهقة الجدران ، والشمامسة يرتلون المزامير بصوت حفيض ، وأن الناس جميعا في مصر مروا في هذا الموكب المهيب ، يكاتمون بدموعهم ، وبعضهم ينتحبون بصمت ، كانوا أقباطا ومسلمين معا ، كان الميّت الجالس على كرسيه العالي ، بمعنى ما ، هو تجسيد حي لمصر ، وخاصه في تلك الأيام السود بعد هزيمة عبد الناصر وعودته القلِقة .

قال : لذلك ، بمعنى ما ، نحن لسنا أقلية . أيا كان عددنا . وليس البطرك مجرد رئيس طائفة دينية . ليس فقط خليفة القديس مرقس ، هو أيضا ، رمز ،بل أكاد أقول الرمز الواحد الباقي من آلاف السنين .

قالت : يمكن . ولكن هذه نظرة محدودة جدا ، وجامدة ، وبعيدة جدا عن واقعنا . جدليّة الواقع المصري الآن مختلفة ، وتسير في سياق آخر . كيف يمكن أن تنسى تراث عبد الناصر ، تراثنا الذي جلاه لنا عبد الناصر عندما علمنا ، كَشفَ لنا ، أننا مصريون صحيح ، ولكن عرب أساسا . إن مصر ، إن لم تكن قلب الوطن العربي ، وقائدته ، فهي على الأقل ، بالتأكيد ، جزء لاينفصل عنه باللغه والتراث والتاريخ والمصير ، والثقافة كلها ، وماشئت .. أى كلام آخر يقطعها عن هذا الجسم الكبير ، ويُميتها .. أليست هذه ، بالضبط ، هي مؤامرة الاستعمار ، ومقامرة إسرائيل ؟

قال : لا أُقطعها . هي أصلاً ليست منه . حكايه الجسم الواحد ، وقلبه أو رأسه أو ماشئت ، ليست إلا مجرد استعارة . مجرد مخايلة بالكلام . ليس أكثر مني عداوةٌ للاستعمار أو للصهيونية ، لست بحاجةٍ أن أقول ، ليس أكثر مني يقظة لما يدبّرون ، هذا مفروغ منه . لكن حكاية الجسم الواحد ؟ هل نحن عرب ، حقا ؟ ما أصعب الإجابة على هذا السؤال . هو سؤال قائم وجدّي . ليس محلولاً . مصالحنا مشتركة ، نعم ، جغرافيا مشتركة ، صحيح ، تاريخ له دوره ، نعم ؛ أما الثقافة ، بمعناها الأعمق ؟

قالت : ماذا تعنى ؟

قال : لست أتكلم الآن عن معركةٍ سياسيةٍ متقلبة الأدوار ، ومتغيرة .. ليس التاريخ معطى ثابتا أو قيمةً تجريديةً سلفية . الجغرافيا والمصالح شيء آخر ، مقبول ، بلْ ضروريّ وعمليّ . لكن هناك عمق آخر ، عمق هويةٍ مركوزةٍ في أرض غنيّةٍ جدا متعددة الطبقات الجيولوجية بالمعنى الثقافي . والكلام عنى كأقلية ، يغيظني ويثيرني . لسنا أقلية . نحن أهل البلد . وبهذا المعنى فالمصريون جميعا قبط ، بغض النظر عن دينهم . هذا اسمهم ، كما تعرفين . مسيحية الأقباط مصرية ، وخاصةً بمصر .. وأولياء مصر وقديسوها لهم أعراق بعيدة في هذه الأرض .

قالت : ما الهدف وراء هذا التقوقع ، هذا الفصل ، هذا التعصب الشوفينى ؟

قال : أقر وأعترف . أنا شوفينىّ المصرية . بالرغم من كل الحجج العقلية التي أسلم بها . ثم لماذا تُغرقيننا في هذا الجسم العربىّ الكبير ، كما تسمينه ؟ أى عرب ؟ عرب النفط أم المسحوقين في الشوارع والقرى والكفور ؟ بكل جرائم النهش والتمزيق والتجويع والقتل الذي يرتكبها هذا الجسم نفسُه على نفسه ؟ والتي تُقْتَرف عليه من الأجسام الضخمة الأخرى ؟ أنا ، أحلم ، رغم كل جدلية التاريخ ، بالكائنات العضوية الصغيرة الحرة المنسجمة في ديمقراطيةِ فلك واسع ، به فجوات كبيرة وبين نجومه تواصلُ الإشعاعات . معذرةً للتشبيه والاستعارة . هذا أقرب ما أستطيع أن أقول ، إلى ما أتصوره . لا أطيق المونوليثيّة والقوالب المصمتة الضخمة الجِرْم . الدول العظمى وأشباهها .. لا أحتمل ثقل جهاز الدولة العظمى .. هذا ، بطبيعته ، هو القهر والآلية وطحن الانسان الفرد الواحد الذي هو الحقيقة الفردة الواحدة .. الباقي كله ميكانيزمات ، وتجريدات ، وأدوات قمع .. غير إنسانية ..

ثارت فجأه ، وغضبت ، وانكشفت أسنانها الدقيقة :

ـــ ماذا تقول ياميخائيل ؟ هذا الكلام يلعب بنا في أيدى الاستعماريين ... هذا إفْقار للامكانيات الهائلة في صراعنا ضدهم . هذا بالضبط ما تريده اسرائيل ، وما تفعله في لبنان ،

والأكراد في العراق ، والجنوبيون في السودان ، تمزيقٌ إلى وحدات صغيرة يسهل إخضاعها ، وابتلاعها .. هذا ، كأقل ما يقال ، جريمة ...

قال ، بتعقل : أبدا . ليس هذا ما أعني . الصلات ، التحالفات ، ترتيب الصفوف ، وخاصة في الديموقراطية ، هذا ضروري . هذا كل ما يلزم . أما الاندماجات ، والتسطيح ، والتكتيل الأصم .. فهذا ما أرفضه .. وعندما أتكلم عن مصر ، فعنها كلها أتكلم ، دون أغلبية ودون أقلية ، مع الاحتفاظ بحيويةِ كل الثقافات الداخلية المتفاعلة ، أتكلم عن جسد مصر الواحد المتعدد الأعضاء انصهرت فيه الروح العريقةُ من الأزل واتحدت فيه بجوهرها ، دونٍ انفصال . اتكلم عن أقانيم في جسد .

قالت : إسمعْ .. افترض مثلا أنَ هناك في انجلترا ، في الشعب الانجليزي ، أقباط ..

قاطعها باسماً : لا يمكن أن يكون في الشعب الانجليزي أقباط .. الأقباط ، بالتعريف وبالتحديد ، فقط في مصر ..

وضعت شوكتها بعنف على النحاس قائلة : ماذا تظنني ؟ أتتصور أنني لاأعرف ؟ أنني بهذا القدر من الجهل أو الغباء .. أو ماشئت ؟ معذرة .. إسمح لي .

وقامت .

قال : رامة .. ماذا حدث ؟ هذا كلام .. تعالي .. كملي عشاءك .

قالت : أشكرك . اكتفيت ..

أوْصَدَتْ كلّ الأبواب عليه .

بُهت ، أرتِج عليه تماما . كيف تجرى مناقشةٌ ما ، مبتورةٌ بالضروره ، وناقصةٌ ، بعفويتها ، بسخونتها حتى ، إلى هذه النهاية ؟ أحقيقةً تحس أنه يتعالى عليها ، يحسها أدنى منه ؟

كيف خطر لها ؟ وهو الذي كان ــ على العكس ــ يراها تُقلل من ذكائه ، ويستشعر منها تهويناً لعدّته العقلية ؟ بل تسترخص عقلانيّته ؟ قال لها مرة : أنا لست عقلانيا . فقالت ، مستهولة : هووه ... ! كل شيء عندك عقل . فدهش ، أولاً لأنه لم يتصور هذا لحظة واحدة ، أنه كله عقل ، وثانياً لأنه كان يؤمن أن كل شيء انفعال وجُموح قلب .

عندما لحق بها ، وقد نُسي الأكل والنبيذ ، كانت قد رقدت على الصوفّا المنخفضة وقد التفت بعباءةٍ من الكتان ، سوداء ، كان قد أتاها بها من كرداسة . وغاصت برأسها تحت العباءة ، وجمعتها حولها ، وضعت وجهها تجاه الحائط الحجري ، تحت صورة المولد ، ولم ير إلا ظهرها المكوم على نفسه . عودة إلى ظلام أوّليّ صامت . بعد أن رفضت كل شيء . ألأنّ كل شيء الآن ، في ظنها ، قد رفضها ؟

وضع يده ، برفق ، على كتفها ، تحت العباءة السوداء ، وناداها . لم تجب . اقترب منها ، وناداها . وضع وجهه بجانب رأسها المشيح عنه ، وناداها .

قالت : أرجوك . أريد أن أنام الآن . أتركني من فضلك .

كان لها ثقل جسيم متروك ، مَرْميّ . بينما من شأن جسمها القوى الذي يعرفه ، الخفة ، والنُزُوّ ، وتدفقٌ ضخم مليء بالرشاقة .

لم يكن يفهم ، أبدا ، هذا الموقف ، الذي يأتي ، أحيانا ، منها . موقف غير شرقي وغير مألوف من نسائنا . الانحجاز ، الانفصال ، القطع . أهذا من آثار تربيتها عند الراهبات ، وفي مدارس سويسرا للبنات ؟ رفض المرأة عندنا هو استدعاء واسترضاء ، هكذا كان يظن ، الرفض النسائي دعوةٌ للمصالحة ــ مادام سباق الحب سيارا ، لم يجف ــ وحيلةٌ جسميه للطلب من جديد . حسه الجسديّ ، هو ، لا يعرف الرفض ، مهما كانت الاصطدامات العقلية وغيرها شائكة .

فأصرّ . وقال : اذن اسمحي لي أن أرقد بجانبك .

قالت : أتركني من فضلك ياميخائيل .

قال : لا أعرف كيف أتركك .

قالت بصوت خفيض ضارع على وشك الانكسار : أرجوك اتركني الآن . سأعود إليك بعد قليل . أريد أن أنام .

قال :لا أستطيع .

نهضت مرةً واحدة ، وقالت : لا تستطيع .. لاتستطيع .. حاضر .ياسيدي .
وذهبت إلى السرير في غرفة النوم المطفأة النور ، ولم تخلع عنها العباءة بل أحكمت لفها حول جسمها المغلق .

بعد لحظةٍ واحدة أحسها نائمةً بالفعل ، أنفاسها هادئة ، منتظمة ، ولكن رازحة . ليس في نومها استسلام ، بل توتر .

في عَبَق الليل ، في عُمق النوم ، عرف الجسدان أن يتصالحا ، بحكم قانونٍ خاص حميم ، يتجاوز الإرادة ، كأنما على الرغم منهما كليهما . كانت قبلاتهما صامتة وَحادة الوقع ، مكتومة ، والأطراف غير الواعية تتماس في بحثٍ مشدود ، تحت ضغطٍ حتميّ ، لاقِبَل به لكليهما .

هيلا هوب الأبدية على حبالِ شراع المراكب الرشيقةِ البطون التي تُقلع في بحر النيل العريض ، وعلى أسلاك التليفون الثقيلة المرتخية على سهوب الرمال . أوزير وحتحور ، سيدى الأربعين وست دميانة ، مارجرجس والسيدة زينب ، أتلمسُ أجسادَهم الباقية التي لافناء لها ، وأملّس عليها ، أتطلب النعمة والبركة ، تسقط على كتفى قطرات الشمع السخن ، ونفثات العرق الزكي ، متفصدةً من جباههم ، ينحدر الدم والمسك من عيونهم المفتوحة للأبد التي تقبل أوجاعنا ، وبِصَمْتها نفسه تُحرّضنا على أن نعرفها . ترتيل الشيخ رفعت رخيماً ، موجعا ، عذباً ، في رمضان طفولتي ، شقّ في قلبي ، وآذانُ الجامع الذي كان يطل على بيت عمتى في شبرا ،

يَصَّاعَد في الفجر ، أسمعه في حلمٍ مستمر ، يجيش له صدري ، حلاوة المولد تتقطر في فمي ، ومواكب الصوفية والذاكرين وخارقي الأفواه بالسيوف وراشقي السكاكين في الجُنوب يترنحون وراء الخليفةً الأبيض العباءة في مولد سيدى كريم ، أمام بيت خالتي حنونة في غيط العنب ، نشوةٌ منيرة بالمصابيح الكهربية الكثيرة المتقدة البطلون ، يهتز بها الهواء ، ومآذن سيدي أبي العباس ، وسيدى أبي الدرداء الذى صعد من تحت قبّته ، بالبرنس السمنيّ الرقيق ، وطار في السماء يحمل بين ذراعيه الطوربيد الذي رماه الطليان على باب سدره ، رأيته . والآى البيّنَ الناصع الذي انصهرتُ فيه ، كلها ضفائر أخرى ، عضويّة ، في نسيج نفسي .

كأنهم ، مرةً أخرى ، في طفولته ، وقد تأخروا في العودة من كازينو أبو قير . كانت أمه ، وأصحابها ، قد تركوه وحده ، بين الكراسي القش والموائد التى تقشر خشبها من ملح البحر وحر الشمس الذاهبة . بيوت وشوارع صغيرة في مدينةٍ من تحت الأرض . والبحر الليلي غامض ، عليه أسنان صغيرة من أنوار متراقصة في البُعد ، مراكب الصيادين التي لايُرى منها حتى بُقَع السوداء الطافية على الموج الثقيل الجسم . وصفارة باخرة تأتي من وراء الأفق ، موحشة وطويلة ، نداؤها غير مجاب ، من ظلمة البحر الممتزجة بجِلْد السماء القاتم ، لها صدى أجش يملؤه بالروع ، فيتشبث بالرمل الرطب تحت الكرسي القش المتروك على الشاطىء ، ويزحف نحو حائط الكازينو العالي الذي لايُرى منه ، من تحت،الا دائرةً متميعة الحدود من شَعٍّ النورِ الرطب في الظلمة ، تأتي من وراء الزجاج المغبَّش بالنور المُصفَرّ . الرمل يرحّب بجسمه الصغير المستوحش ويجد فيه إجابة مبهمة لا يعرف أن يقرأها . كان في الرمل الداكن الطرى حنانٌ وفهم ، كأنه يضع وجهه على فخذٍ أنثويةٍ تتلقاه بدماثةٍ وفيرةٍ ، من غير غضب ، فتتحرك طفولته تنزع من أسر براءتها الى معرفةٍ جسميةٍ جديدة ، لا يخافها بل يحس في نفسه قوةً جديدةً غير مفهومة ولكن واضحة ، وكأن هذه الغواية قد جاءته وهو نائم ، النوم كمين منصوب له في العتمة ، مهاويه لاقرار لها ، وأقدامه غير ثابتة على حرفها ، النائم فريسة لانجاة لها ، على أرض البحر بأمواجه السوداء قريبةً جدا منه .

في عمق الظلمة ، حينما لم يكن صحو بعد ، رأى أنهما واحد ، غير منقسم ، يطفو على وجه الغمْر ، والماء له قوامٌ لدن وصلب معا ، يقاوم انغمارهما فيه ، ولايرفضه ، ظهراً لبطن ، لهما رأس واحد ، وعيناها يرى بهما ، وهما على جِلد الماء المعجون بالطمى الثقيل ، العينان يقظتان ، والنور الوحيد في الكون هو نورهما الداخلي ، كيانها الباهر الساطع الجمال وقد تخلَّق من قاع هذا

الطمى الغني الذي يملأ الآن داخله . وهو يعرف أنها إن جاءت إليه بالمعرفة ، فقد عادت إليه بالموت . الموت هو ما يعرفه في قلبه . ولهذه المعرفه بهجة لاوصف لها . صرخات الموت لاعداد لها ، صرخات فرح ليس فوقه فرح ، تنْقطع فجأة ، وتتجدد ، صرخات بلا اسم ، بلا انتهاء ، ورأى أنه حسنٌ هذا النومُ هذا الطفُوُّ هذا الانغماسُ هذا الصحوُ هذا الفرح ، الليلُ الشمسُ الحبُّ التوحد ، حسنٌ وكاملٌ في ذاته ، لا يحتاج لشيء ، على أنه محكومٌ به عليهما ، والحكم غير منقوض : تموت الشياطين من تحتهما ، مائةً منها كل يوم ، في زمنٍ لاحساب فيه للأيام .

جاءه الصوتُ الشيخ ، في القّداس الالهى ، في عيد القيامة ، مُجْهَداً من الصوم الطويل ، يرنّ في صحن الكنيسه الفسيح الخاوي :

ــ أعطِنا يارب نعمةَ وحدانية القلب .

كان ميخائيل يعرف أنه لن يأتيه ، هو ردٌ على الدعاء . فارتعد قلبُه من التوجّس المدفون .

الباب الخامس

السقوط في قدس الأقداس

عندما رنّ التليفون ، في غرفته العلوية في ميناهاوس ، كانت الساعة الثانية صباحا ، قبل أن يسقط في نومه تماما . أمسك أنفاسه ، وتعلقت أنظاره بالجهاز الأسود القديم الطراز المعلق في الحائط ، رنينه عال وملحّ في الهدأة المحبوسة . كان يعرف أنها على الطرف الآخر .

هو الذي ينتظر أبداً ردها على ندائه المتصل ، ويظن أنه مامن ردٍ أبدا ، قد عُقِد له عزمٌ آخر ، من وراء نفسه . عزم من خشية الاختبار ، مجرد مجيء التليفون في هذه الساعة من الليل إجابة حاسمة على الاختبار . لم تكن حاسمةً ، عنده ، بما يكفى ، بعد . في عمليةٍ معقدةِ التلافيف وجد أن عزما بالرفض ، قد انعقد ، على الرغم منه وبرغبته معا ، ولا نقض له الآن .

استمر الرنين زمنا طويلا جدا ، وهو جامد الجوارح ، مرصود ، لايتحرك في رقدته على سرير الفندق أدنى حركة ، ملففٌ عليه بأربطةٍ وثيقة لاتنفك ، مفتوح العينين على آخرهما ، يحس برداً هادئا ومطمئنا في جسمه الميت . حتى انقطع الرنين العاجل فجأة ، وجاء صمت مضاعف ، سمع فيه لأول مرة صرير جدجد خافت ، تحت في الحديقة . ونام على الفور ، دون أن يفسر لنفسه شيئا . نوما مظلما .

في استراحة الآثار ، كان نومه قلقاً من التأهب للغد ، في الغرفة الكبيرة الخاوية إلا من الأسرّة المتراصة حول الحيطان الحجرية ، وعبد الجليل وسامح ومحمود نائمين في الحر ، والنافذة الخشبية مفتوحة على القمر، وكان ماء الحمام المشترك يخرّ طول الليل، وصوت الانهمار الخفيف المتصل في الليل لجوج ومصمم ومخدّر في النهاية ، وكان حسه بها ، نائمةً تحت القمر في الغرفة الأخرى ، مع البنات ، مؤرِّقا ، وكان يحلم بالقباب الصغيرة التي ترتفع وسط مربعات الجدران المكسورة ، في جبّانة البجوات ، والرمال تصعد على القباب التي انهارت صلبانها ، وكانت ظلالها ، في حلمه ، طريلةً على الرمال .

في الثامنة تماما من صباح الأحد كان في الموقع . كان قد قال لنفسه إنه لم يعد يحتفل بالعيد ، كأيام زمان ، وسيأخذ إجازه مضاعفة بدلاً من إجازته التي قضاها في الشغل ، وأنه لم يكن يستطيع أن يضيع هذه الفرصه متعللاً بالعيد .

وكانت قد حكت له ، هى ، عن نومها مع سوزي وسامية والهام ، في السرير العسكري المفرد لكل منهن ، والمُلّة السلك ، تحت المرتبة القش ، تغوص بالواحدة فتحبسها في نصف السرير ، تستنجد . والغرفة كانت مفروشة بالحصير ، وفيها قُلّة ماؤها كالشهد ، وكيف سرّحت شعرها أمام المرآة الصغيرة المعلقة بمسمار مغروز في المونة الجافة بين الأحجار العارية .

وحكت له عن قرص القمر الذهبي الذي لايُحْتَمَل .

كانت الأعمدة المتقابلة تقترب ، ولغط العمال الصعايدة من ورائهم ، هى إلى جانبه ، ومعهم المعاون ومدير قصر الثقافة وريّس العمال . كانت عملية الترميم منوطة به أساسا ، ولكنها تصرفت ، بالاتفاق مع عبد الجليل ، وصرفت للعمال سلفة من الأجر فأرضتهم وكسبتهم ، واشتروا ليلتها الشاى والدخان ، وغنوا أغانيهم الموجعة الخشنة حول الراكية الصغيرة التي كان نارها تبدو باهتةً جدا في القمر ، تحت جدار الخص الخشبي الضيق الذي فرشوا أمامه ، بعد ذلك ، جانباً من أحرمتهم الصوفية وبطاطينهم الناصلة الفتائل ، وتغطوا بجانب آخر ، ووضعوا بجوارهم فؤوسهم وجواريفهم ومقاطفهم الليّنة الفارغة .

كانت شجيرات الزيتون والتين وزروع الشعير والليمون تمتد حول المعبد ، يمر إلى جانبها مصرفٌ ضحل محفور في الرمل المتماسك ، وهو الآن يحس قدميه خفيفتين وأطرافه مرنة ومتوترة معا ، من المسئولية والترقب . كان فريق الشئون الادارية والمالية ، مع سلوى والهام وسوزي ، قد ذهب لجَرْد المخزن الذي تكومت فيه كنوز الآثار المرمية ، تُركت تحت حراسة الخفير الحكوميّ الذي صرفت له بدلة ميري ومفتاح ضخم حديدي للقفل المربّع ذى اللسان ، وبندقية عتيقة وخمس طلقات ، كلها عُهدة .

مر الفريق الفنيّ والمسئولون والعمال ، من خلال طريق الكباش التي تحاتّتْ فأصبحت تقريبا نحوتاً تجريديّةً مُنقَّرة الحَجَر ، ثم ساروا بين صفى الأعمدة بتغضُّنها الناعم العطِن العذْب التشكيل ، عبر القاعتين المكشوفتين لسماء الصبح ، قاعة الشعب ، وقاعة الكهنة ، تحت الأطلال المنخفضة الساقطة من جدران الكنيسة البدائية المتهدمة تماما .

دخل ميخائيل من الستارة الحديدية المشبّكة على الباب ، ونزل تسع سلالم منحوتة من البازلت في دَرَج معتم ضيق ، وأخذت الرمال التي سَفَتْ من الفتحة تعلو حواليه على الدرج بينها ممر صغير صخري زلِق من حبيبات الرمل عليه ، ووراءه ريّس العمال . وبقيت هي مع المسئولين والعمال فوق .

كان قدس الأقداس معتما وفيه رائحةُ جفافِ الزمن الذي توقف هنا ، كأنه لم يبدأ ولم ينته ، وسقفه عالٍ ومنقوش بقرص رع المتشعع بأصابع رقيقة ومتوترة حولها نجوم صغيرة متكررة في دقةٍ مرهفةٍ لا تأتي إلا من العشق المُوَلَّه والحِذق معاً ، بألوان زرقاء عميقة ، وذهبية ، وطوبيّة محروقه ، بينها بقع ساقطة مُشعَّثة تَرَكت الحجر الجيري عاريا محبّبا يكاد يكون بذىء الخشونة . نُوتُ التي تِلد الشمس تُسقِط أشعتها على حتحور بنت رع المحبوبة ، إيزه المتحوّرة ، في ضرعها الخصوبة ولَبَن الحب ، وعيناها خضراوان . شمس الوحشة المحرقة تُصوِّح صحراء أحشائه القاحلة .

القاعه واسعة ومهيبة وعارية ، يرتفع في الوسط تماما العمودُ الوحيد المكين يستند إليه السقف ، صلباً ووردياً وناعم الجسد معا ، وينتهي بتاج فخور من سعف النخل المقوّس الصوّان ، لايكاد يتضح في العتمة جمالُه .

كان في قاعدة العمود شرخ طوليٌّ دقيق يكشف عن شق في لحمه الداخلي ، وتحته أحجار ضخمة سقطت من كتف في الجدار ، وتركت مكانها فجوات غائرة فيها رمل وشِقاف . وعلى يمين الدرج أكوام عالية وهشة من الرمال طُمِرت فيها الدرجاتُ الأخيرة وفيها شظايا حجرية ورخامية وحطام فخار وزجاج سميك صلب أزرق غير جارح .

لم تكن ثم مشاكل في عملية التنظيف والترميم ، وقد قام بمثلها عشرات المرات ، ولكنه عندما تفحص الشرخ في قاعدة العمود ، بنظرةٍ سريعة وخبيرة ، ساوره قلق خفيف ، وفكر أنه ليس أمامه إلا عمل صَلْبة خشبية متينة مؤقتا ، وحتى هذا سيتأخر حتى يصل الخشب بسيارات النقل من أسيوط ، وحتى تمر المذكرات التي لا مفر منها ، فلم يكن سد الشرخ ممكنا على الإطلاق باستخدام الأسمنت العادي ، ولابد من حقنه بأسمنت جديد عليه أن يصل إلى تحديد مركبّاته ، ونِسبَها ، وهو ما يفكر فيه من زمنٍ طويل ، فلابد الآن على الأقل من تركيب

تقفيصة حديدية حول العمود إلى حين أن يلتئم الشرخ تماما ، إذا قيّض له أن يلتئم . وكان يعرف أن المدير العام قدري عبد الفتاح بطيء الحركة وبخيل ومحافظ التفكير ، هذه مشكلة سيعالجها عندما يأتي حينها ، هي الأخرى ، الآن ياريس طه نبدأ بالرملة" ، العمال ينزلون بالمقاطف ، واحداً واحداً ، واثنان فقط هنا بالجاروف ، البركه فيك ياريس ، أنت معلم الكل . والصعيدي الصلب العود بعمامته البيضاء المتعددة الطبقات من القماش الأبيض الناصع ، وكبرياء قامته : العفو يابيه ، البركه في نَفَسك أنت ، حضرتك خيرك علينا كلنا . أنت الأستاذ . والله المصلحه كلها مافيها خير من غيرك يا باشمهندس . صارماً وطيباً في غير نفاق . وثارت في القاعة القدسية التي تخضع الآن لإجراءات العملية ، هبوة خفيفة من غبار الرمل ، واحتكاك الجواريف بالأرض الصخرية ، ودبدبة الأقدام المنتظمة ، صفاً من الصعايدة يهبط ، ثم صف يصعد ، تملّ ذكى دؤوبٌ خشن الوجوه ، ويغنّي أيضا غناء الصبر والشجاعة وخفة القلب معا ، وكوم الرمل يتناقص ، عندما انتقل ميخائيل إلى الطرف البعيد من القاعة ، كأنه يبحث ، ويوشك أن يجد ، الكتابات السرية المنقوشة على الأساطين وحجارة الرُّقى التي تُخبأ وتحفظ في أخفى أماكن الهياكل وأغمضها . وكان على الصور والكتابات بقع سوداء ، يعرفها ، من فضلات الخفافيش .

عجيجُ العُباب يعربد في قاع القوقعة التي عصفت بها الأعاصير وعَرَكَتْها فتعرّتْ إلا من تعاشيب الربيع العافي ، لكنّ طعنةَ أعياد العطايا تتعدى العَدَم إذ تَتطاعَمُ نُعْمَى المُتع تتشعّع في عمود الضلوع . عَسْفُ العِلل والتياعُ عقابيل الرّوع عادت بعد أن كان التعرّي يلتمعُ بشِعار الأعراس . عَوّةُ الضراعة عاتية . أين العنادل عذبة الإيقاع في مناعم العشق العَجّاج ؟ تعتلج الشعاليلُ ، ولها عزيف ، وتندلعُ في العروقِ ذات العساليج التي تَنْشعِبُ في عَنان العتمات . وقعت منى دِرْعِي مِزعَاً ، في البَلْقع الوسيع ، الوَجَع العَضُوضُ يسفعُني ومالي من عُوذةٍ في الفجيعة . وعقيقةُ العين العزيزة عهْنٌ مرتعش . عرامةُ الغَيْمة إلى عُصارتك إلى عَبَق زروعك اليانعة تخلع أضلاعي . عطشان إلى مراتعِك أنا . أماأنتِ فتَعُوذين بعباءة تُهجاعك العميق . تَعْلَقُ بك عراجينُ عِمادي . لا يشفعُ لي صَرْعُ عبادةٍ صعبةٍ عنوت ، وأنا أقطع الوعورَ في الهزيع الأخير .

كان الضوء القليل النازل من فتحة الدَرَج لا يكاد يصله ، وقد انحنى يتأمل الكتابات المنحوتة ، بطول أسفل الجدار ، بالخط المقدس . وقد ابتعدتْ عنه قليلا أصوات العمال ولغط العمل .

فجأة ، صُدِمت حواسه كلها بقعقعةٍ مكتومة مُزلزِلة . ارتفعت عيناه بحركةٍ تلقائية خاطفة ، فرأى سقف القبو يتأرجح ببطء ، ويميل على الدرج ، وينحطّ عليه ، بينما ترنخ العمود ، بطيئا جدا ، ثم انهار جانبٌ من السقف على مدخل القاعة ، وهبّت عاصفة مدَوّمة من الرمل ، وتساقطت حواليه ، في الظلمة المفاجئة ، في هديدٍ يصك الأرض ويتدحرج ويرتطم بالرمل الذي يتهاوى ، في آخر ضوء ، ويتغير شكلُه بسرعة ، أحجارٌ ضخمةٌ كأنها لا وزن لها . التقطت عيناه آخر ضوء من على الدَرَج ينطفيء ، وسادت حوله عتمة كاملة وصمت تام .

في أقل من خطفة البصر انتبه ليجد نفسه في السكون المفاجيء ، يمد ذراعيه أمامه ، ويدرك أنه يُقعي على الأرض ، مُحنيا رأسه إلى صدره ، يحدق في الظلام ، وذهنه متوقف تماما .

قال لنفسه ، بآلية ، كأنه يقرر خبرا ، جانب الباب من القبو قد سقط .

ثم عرف فجأة ، بقلبٍ سريع التدهور أنه وحده في قدس الأقداس المنهار .

نهض قائما ، ببطء وحذر . فاجتاحته سعادةٌ مفاجئة وأحس نفسه يبتسم ، وخفيفاً جدا ، فقد وجد نفسه سليما ، لم يصبه خدش .

وأحس أن عفرة الرمل تهبط ، وأن أنفاسه ترتاح ، وعيناه تبدآن تُميّزان الفراغ حوله والجدارَ القريب منه ، ولكنه لايرى السقف ، ولا موقع الانهيار عند نهاية الدَرَج . وخطر له بسرعة أن الجانب الرئيسي من السقف متماسك وقوى ، وأن بناءه قد اطمأنَ وثَبَتَ بعد زلزلةِ سقوطِ جناحه الأضعف عند الباب ، وأن حوله حيزا بقدرٍ معقول ، وحسبها في ذهنه بسرعة ، ربما عشرين أو اثنين وعشرين مترا مربعا ، القاعة كلها تقريبا لم يمسها شيء ، واقتصر الانهيار على المدخل . وكان واضحا أن العمال كانوا جميعاً ، في اللحظة الدقيقة الحاسمة ، على السلم أو قريبا منه جدا ، وسأل نفسه بقلق هل جُرح منهم أحد ؟ وهل سلم الريس طه ؟ وأجاب على نفسه فوراً أن هذه أسئلة سوف يعرفها إجابتها ، فيما بعد ، وأن الاجابة أو عدم الاجابه لاتعنى شيئا الآن ، على وجه الدقة ، فليس في يده شيء . ثم خطر بباله : فيما بعد ؟ هل سيكون له فيما بعد ؟ هجس به ما يقول إن احتمالات نجاته هو ضئيلة جدا ، فهو يعرف الامكانيات المحدودة

جدا في الخارج . وجلس على الارض بهدوء تام وغريب ، وقال لنفسه كأنما يفكر في شأنِ شخصٍ آخر لا صلة له به ، أو في حل معادلةٍ هندسية ، إن النهاية تكاد تكون محتومة ، وإنها ستجيء إما من تناقص الهواء الصالح للتنفس ، ثم انعدامه . الاختناق إذن . وأبعَدَ ، بآليةٍ محكومةٍ ومن غير أدنى جهد من جانبه ، ترويع صورة الاختناق ، وإطباقها ، وقال : وإما من الجوع ، والعطش . ولكنه لم يكن يتصور أن هذا ممكن ، كأن الجسم وحده هو الذي يُقرر ، أو وحده هو الذي يُعاني ، هذه المسألة . وكان جسمه الآن مستريحاً وقويا في غير حاجةٍ الى شيء .

العتمة تنجاب من حوله قليلا قليلا ، من غير أن يحس ، وهو الآن يرى كل شيء واضحا في نور خفي وسِرّي وغريب وصامت جدا ، لم ير مثله على كثرة ما نزل الأقباء والأنفاق والممرات والأقداس المدفونة .

قال لنفسه : كأنني في العالم السفلي ، معكوس خيمي التي هي العالم ، وكأننا في عكس ٢١ مارس اليوم الواحد الذي تشرق الشمس فتبّر قدسَ الأقداس كلّه ، وتماماً ، المرة الواحدة طول السنة . ولكنه نورٌ عكسيّ ، نورٌ بالظلام .

ثم عاد إلى ماكان فيه .

لم يكن بيده شيء الآن ، أدنى شيء . مشى ببطء وتعثُّرٍ إلى موقع الانهيار . كان كل شيء قد سكن . ورأى بوضوح أن احتمال تقلقل المدخل ضئيل جدا ، بل منعدم . وتمنى فقط أن يكون الحجر لم يسد المدخل تماما ، وأن تكون هناك رمل وشِقافة ولو على مساحةٍ ضيقةٍ وراء الأنقاض العالية ، بحيث يتاح لعملية جَرْف الرمل أن تفتحَ منفذا .

كان ثم شيء ما في داخله قد قام عنه بمواجهةِ الذعر القاتل الكامن ، وحاربَه ، وقهره ، أو ردَّه على عقبيه ، على الأقل ، في مكمنه غير المحسوس . الفزع نواةٌ مدفونة تماماً كأنها لا توجد ، لكنه يعرف أنها هناك ، تفصله عنها فصلا تاما ، تلك القوةُ التي تولّت عنه حَرْبَها وردَّها وطَمْرَها تماما .

ثم أخذ يصعد ، يتعثّر ويخوّط ، فوق الأحجار المركوزة على كومة الرمل العالية ، يتحسس بيديه حوافّها ، ويجرب زحزحتها لكي يعرف ثقلها فقط ، ويزيح عنها طبقةً ضئيلة من الرمل بكفّيه المفتوحتين ، فيهبط الرمل إلى الداخل قليلا ثم يستقر على نتوءات الحجر والأنقاض .

كان ينهج في هذه العتمة المنيرة الصامتة ، وليس إلا صوت احتكاك كفّيه بالرمل والحجَر ، وهو يحسهما تنتفخان قليلا ويتوتر جلدهما ويتشقق قليلا ولكنه لا يحس أدنى ألم ، ومايزال يعمل في كسح الرمال ، طبقةً بعد طبقة ، لا يعرف تماما إن كان يمضي في الاتجاه الصحيح نحو المدخل ، كأنه يرقب نفسه وهو يعمل ، محايدا ، من مستوى آخر .

ولم يكن يحس خوفا من العقارب التي لابد أنها مختبئة تحت فُتات الحجر المدفون في الرمل ، ولا من الثعابين الطويلة الرفيعة الجسد التي بلون الرمل . كان قد ألِف أن يتوقعها ، صحيح ، في هذه الأماكن ، وعرف أن ثَم تحذيرا غريزيّا يأتيه من جسمه ، من غير إرادة ، أينما وُجِدتْ . ولكنه الآن ، بشكلٍ غير مألوف ، يعرف أنه في منطقةٍ ماوراء التحذيرات ، ووراء الخوف نفسه . كأن الخوف قد أصبح هو العنصر الذي يتنفسه ، ويعيش فيه ، ومن ثم فليس غرابة ولا ضغط ، بل لا يحسه أصلا ، لأنه هو أصبح وجودَه نفسه .

وخطر له ، ولم يتوقف لحظة ، أن تنفسه منتظم ، بل منظَّم ، في شهيقٍ وزفيرٍ محسوب ومحكوم ، مع الجهد المتصل في العمل . ولم يبتسم هذه المرة عندما اقتنع بأن هناك مصدراً ما للتهوية في القاعة الفسيحة . وقال لنفسه : إعجازٌ معماريٌّ ما ، كيف يتجدد الهواء بينما لا تبدو له ثغرة . ثم بشكلٍ عمليٍّ أكثر : أو أن المدخل لم ينسدّ تماما . هناك ، لابد ، فجوة أو حَنْية في النظام الذي اتخذه تساقطُ الحجر والرمل ، يسمح بمرور الهواء .

ولم يدهش عندما لاحظ أن الكلام قد جاء بصوت مسموع ، وله صدى . لم يكن غريبا أن يتحدث إلى نفسه بصوت عال ، حتى عندما كان في الخارج . فقال : إذن فقد أصبح هناك ، من الآن ، خارج ؟ عالم آخر ؟ وهو لم يتوقف عن إزالة الرمل عن الأنقاض ، وقد بدأ يحس أنه يصعد عليها قليلاً قليلا . وكان لاحتكاك تدحرجه أحيانا على الحجر ، في الوَحْشة ، حفيفٌ يرجع به الصدى . كان يعمل بإصرارٍ لا تفكير فيه ولا تردد ولا تراوح في إيقاعه ، كأنه

لا يقدر ، لو أراد ، أن يقف . لم يعد يحس إنهاكا ولا راحة ، لا أملَ ولا يأس ، يداه وعقله وجسمه تدور كلها دورةً لها قانونها الذي لاشأن له به . كان في بُعدٍ ما من داخله يوقن يقيناً كاملا أنه يحفر الرمل ويزيح الأنقاض في اتجاهٍ مستقيم وصحيح بلا أدنى شك ، مرسومٍ بدقة مطلقة ، ولا يفكر حتى في أن يتساءل عن مدى صحته ودقته . ولم يكن يعرف ولا يهتم أَحطَّ الليل أم انجاب . كان حلقه جافا ولكن غير مُحرق ولا مرّ ، وكأن في جسمه فجوة ولكنها تدور برأسه قليلا كالخمر الخفيفة .

يده تحفران ، بلا وهن ، وهو نائم مفتوح العينين ، كأنه ساعة لا يمكن إلا أن تدق ، وتدور .

وكأنما كان يحدث نفسه في هذا النوم الصحو : كم حياةٍ عشتُها ، كلاً على حدة ، بكل حدّتها ؟ الصبى المنزوي تحت جناح المسيح ، نَهْباً لأشباح الليل وآثام الليل ، المُراهق العابث بالأرقام والكلمات ، بالمعادلات والأشعار ، والحالم بالبنات وصُوَر النساء الحافلات،بصُوَرِ بنتٍ امرأةٍ واحدةٍ متعددة ، حافلةٍ بشبَق عريق المحتد في الحكايات ، والفتى الشاطحُ المتنسّك عن لحم الحيوان والمقتحمُ الأحرام والمسحوقُ تحت وطأة الحرمان ، والضاربُ في لَحْم المحظورات ، والثائر الثوريُّ المتحدي بالأفكار والساخر بالأخطار ، الساقطُ في يأس المثقفين المغامرُ بالهرب إلى مراوغةِ أنوارٍ دوّارة في الفراغ ، العاشقُ أبداً الراقدُ في هوةٍ من صبابات الوجدِ قُلّبِ الأرض بلا قرار ، فمهندس ترميم الآثار الذي وهب الآثار حياته ، بلا هوادة ، كأنها قضيته ، والغائصُ في نصوصٍ قبطية عويصة وعصية ، الرجل الذي رصد ، لحساب أسرته الصغيرة بلا تردد ، كلَّ الصمت المُشْفى على الانفصام ، والصدّاحُ كأنما برغمه بقصائد قصار الأجل لا تصل إلى أحد ولاتعنى شيئا ، وقال لنفسه : وفي كل حياةٍ منها ، كل حياة ، كلَّ مرة ، راهنتُ بكل شيء ، حتى حافة الموت . ولكن فقط حتى الحافة . لم أخْطُ بعدها الخطوةَ الضرورية التي تجعل لها معنى . وفي كل مرة خسرت الرهان . فهل الآن هو مابعد الحافة ؟

وفي اهتزاز سُدُف الوعى المعتم ، يأتيه وجهها المعشوق الصامت الجمال ، وحده في كل هذه الحيوات المنقضية ، ينحني عليه ، ويسقط حوله شعرُها الطويل الأسود الذي عرفه في ليلة القمر في أسوان ، بعبقه الحار ، أعشابٌ بحرية مبلولة وساخنة من الشمس ، وهو مفتوح العينين ، يحس مَسَّه الغنيّ على وجهه وعلى عينيه ، ويشرئبّ له ، ويختفي كأنه لم يوجد أبدا ، الوحيد الذي كان له وجود .

شظايا هذه الحياة الواحدة المتعددة ، متكررة . هذه الحيوات المنشقة المتفارقة ، متطايرة كالشواظ ، أظل أنمّمها وأرقق حوافّها ، ولكنني في النهاية أرضَى بتشعُّثها الخشن . أريد في الوقت نفسه أن أضع لها مساراً مستقيما ، وصيغةً لا تقبل التفتت والانهيار ، ونسقاً ، فأجده عصيّا .

حضرة والدي المحترم الخواجا قلدس

وصلني جواب حضرتكم في الوقت الذي فيه كنا نذكركم والغريب أننا معكم دائما وإن لم بالجسم فنحن معكم بالروح والقلب .

نعم مضت مدة ولم نكتب لكم لأن البنات كانوا راميين الحصبة والآن الحمد لله .

مادمت أنت موجود ياوالدي فأنا مبسوطة بصرف النظر عن الماديات لأن وجودك على الدنيا أمامي هو كل شيء ويسوع يحميك .

سلامي لأخوتي وأخواتي الأعزاء ولعل ميخائيل افندي أخذ شهادة الثقافة العامة لكي يطمئنّ عليه الله يطمئنا عليكم .

الزرابي فيوم ١٩٤١/١١/٢٤   من عند كريمتكم عزيزة قلدس

في العتمة جسدُها رمالٌ حريرية ناعمة حولَ جسمي تنفلت من يدي تغمرني وأغوص فيها وقطرات الدم تسقط من كفي بطيئةً لا ألم فيها .

من داخل العتمة المنيرة بالكتابات السرّية أقاوم شيئاً يشدني إليك . أنتِ التي على الجانب الآخر من أنقاض قدس الأقداس المستباح ، وأصدّ عنى هذا الطعْن الظامىء العينين تتلاحق هجماته مع ضربات يدى . أحاول أن أُعلّم هذا الانهمار من الحنوّ والضعف الذي تسقط معه جدراني الداخلية صفحاتٍ من الماء ، أُعلمه أن يصلب ، أن يثبت ، وأن يعرف ــ أخيرا ــ أن الوحدة نهائية وحقيقية ، وأن النهاية أيضاً وحيدة وأن تلك ربما هى الحقيقة الوحيدة التي لابدّ ، لابدّ ، من معرفتها .

« أضاءت لي الذكرى وجها أغرّ ملتبسا .. »

لكنى لاأعرف . ولا أُسلّم .

هأنذا تحت عمود الوجود الذي تستند إليه السماء ، وهو أيضا نخلة نجران السامقة الملفوفة في عيدها بشُفوف الخزّ الموصليّ ، صاعدةً من الرمل السخن الملبَّد بالحجارة والخزف المكسور ، ومُوشّاةً بحَوَاشي مفهافةٍ مسترخيةِ النسيج . القرط الذهبي الصغير الذي أهديته إياها نجمة مدورة في أذنيها ، حلى السلاسل تنوس تحت العنق الممشوق وعلى حبتّي التمر الحلو الداكن فوق الربوتين الصغيرتين المدورتين ، تاج جدائلها من الصوان الفادح المموّاج العَبَق الذي وُلد تحته أوزير وولدتْ معه ، وفيه ، إيزة عشتار العُزّى الألِف الأولى من بين الملكات .

والفينيق ، دامياً ، مهيض الجناح ، رثّ الجسم يقوم حياً من تحت النخلة بعد مَوْتةِ الظُهر ، على يده قطرة دم ، كمنْ ينهض من حريقٍ مدخّن في طيوب أعشاب المر المجففة والصندل السوداني ، أما خمر البلح الذي كان أبوه يقطّره في بيتهم في أخميم ، صافياً وثقيلا وكأن لشفافيته وزنٌ ولزوجة ، فهو يغسل به أحشاءه ، إذ تنفتح في كومةِ النيران المتهدّمة .

وجد نفسه على الأحجار ، هل كان نائما ؟ أحس عينيه مفتوحتين وأنه لم ينم ولم يستيقظ ، العتمة الساجية فسيحة حواليه ، وهو يرى في نورها السرّي عينَ رع مشيعةً فوقه ، ومسددةً إليه من السقف ، في أطراف أنامله تومض النجوم الذهبية .

صحا فجأه ، صحوةً كاملةً ، وتنبهت كل حواسه ، مرصودة . كأنما سمع دقات مكتومة من الخارج . لم يسمح لأى فَرَح أن يقترب منه أدنى اقتراب . وظلت قوةٌ ما في داخله تحميه من الفرح . وسمع أيضا صوتا غريباً عليه ولكنه يعرفه ، أجش مبحوحا وهادئا جدا جدا يقول : إذن فهم يقتربون . وأدرك أنه صوته هو . من غير أن يفكر رفع كتلةً من الصوان حادة الطرف وعريضة القاعدة ، وجدها ثقيلة ، وراح يدق بها على الحجر أمامه ، فُوجيء أن صوت الدق مكتوم وغير حاد وغير قاطع . كانت الضربات من الخارج بعيدةً جدا ، ثم انقطعت . هل كان سمعه يخدعه ؟ أهذا هو هذيان القُرب من النهاية ؟ قال لنفسه : تمالكْ فقط . إذا كانت النهاية قادمة ، فلتكن كريمة . توقف عن الدق ، لم تأت الضربات من الخارج . وعرف لماذا لم يكن قد تفجر فيه الفرح ، وعرف أيضا هدّة الصمت ، وشيئا آخر يأخذ الآن ثقل قناع الحياد .

وجد أنه ، من فترة طويله جدا ــ لايكاد يذكر متى بدأت ــ يحفر بيديه ، وهو لم يعد

يحسهما إطلاقا ، كأنهما أداتان غريبتان عنه لهما إرادتهما الخاصة ، وكان في جوفه تقبّض ، كالتشنج ، لكن لايُؤتي ألماً ما ، وهو يتتبع ، فقط ، بفضولٍ وترقب ، تلوياتِه التي تشتد وتنفرج ، على التعاقب . قال لنفسه : فقط لاينهار السقف تحت ضرباتهم فوقي . لو سقطت كتلته المائلة عليَّ الآن .. واختفى الخاطر على الفور واستمر يرقب يديه تعملان ، بإيقاع أبطأ . وارتفع التقبّض المتناوب إلى حلقه ، ولم يجد من الريق ما يخففه ، وقال لنفسه ، بصحْو : أعراض العطش قد بدأت ... وخيل إليه أن إغفاءاته القصيرة تتسارع الواحدة بعد الأخرى ، لكنه لم يكن متأكدا .

في تلك اللحظة رأى حمامة ، تنطلق كأنما من لا شيء ، ترفرف من طرف القاعة البعيد ، ثم تستقر على نتوء العمود المدوّر خلفه . ظن نفسه يحلم ، ولكنه تيقن من أنها هناك ، وبعد لحظه تبعتها حمامةٌ أخرى . هل كان لهما عش في الركن تحت السقف ؟ هل الهواء الخارجي يأتي من هناك ؟ هنا هبت به عاصفةٌ جارفة من الفرح اكتسحته هذه المرة ، ثم انحسرت مرةً أخرى . وأحس ألماً حول شفتيه ، وأدرك أنه كان يبتسم ، وأن الابتسامة قد شققت شفتيه الجافتين ، وفمه . لكن وَجَع هذه الابتسامة كان وجعا رفيقا مُرْضِيا .

وعندئذ فقط تذّكر ماكان يعرفه طول الوقت ، أن هناك في أرضية المعبد فتحة تقود إلى درب تحت الأرض ، غير مستكشَف بعد ، يقال إنه يُفضي إلى مقابر الخارجة القديمة ، صحيح أن الفتحة مغطاة بشبكة من الحديد مثبتة في الأرض الأسمنت ، ولكنها على أي حال مَخْرج ، مهما كان مشكوكاً فيه .. هل يعرفون كيف يأتون إليه منها ؟ أم هي خدعة ؟ وسأل نفسه في غير وضوح : أتكون مقبرتي أنا أيضا في قدس الأقداس ؟ وعَبَر السؤال كأنه لم يجيء .

أفاق من اضطراب وعيه ، لحظات . كأنما يحس تحته سرير صباه ، وطفولته ، في شتاء الاسكندرية ، دافئاً في الأغطية ، وهو يصحو من نومة بعد الظهر ، لكنه نفس السرير في فندق زيزينيا ، وصوت البحر له وشيش منتظم إذ يرتطم بصخور الكورنيش ، وشوقه إليها يجيش في داخله المُغيِّم .سوف تأتي له من الجنب ، وتقول له إنها خجلة ، وهو يقول لنفسه أنه لايهذى ، هو على يقين . ولايصدّق . لايصدّق نفسه : كيف يمكن لكل هذا الشوق أن يوجد ..! هذا الجموح الذي لا يكُفّ ، بعد كل هذه السنين ، في غرامٍ محتدم ، في شهوةٍ لا تنطفيء ، تزداد اتقاداً ولا تكاد تُحْتَمل . الآن أريدك . خطر له وهو على سريره الملتبس يقولون إنه عند النهاية

مشتعل الشهوة ! وقال : لماذا النهاية ؟ أى شيء هذا ؟ السكون والهدوء ينسرب إلى داخله ، قال : أريدك أن تطمئنّى أنتِ أيضا ، في سكينةِ معرفةٍ نهائية ، إلى حُنوّى إليكِ الذي يغمرك كلك . أريدك أن تعرفي . وأعرف الاستحالة . وحشية حبى أذكرها ، ومجدُه لا يغرُب . وحتى لو كانت هذه هى النهاية ، فأنني هكذا أُوجَد . بها أُوجَد .

الذين يجلسون أبدا إلى أنوال السيج المثبتة على الرمال ، يصوغون الطُرُز ، تسمع أرواحُهم صوتَ حور أينا يوجدون . حينئذ يُسمع أنين الذين أُعلقت عليهم الدوائر .

بوعي مُصِرٍّ كان يغالب الإغفاء ، يستسلم له ويفيق ، ويقول لنفسه : لو نمتَ الآن ، فهل يمكن أن تستيقظ عندما يصلون إليك ؟

وكان على رصيف المعادي الذي يصعد منه الركاب إلى القطار المتجه إلى حلوان جثتان ، لكلب ، وقطة ، منتفختان ، لم تنفجرا بعد ، مضت عليهما أربعة أيام . كان مكتب ناظر المحطة لا يبعد عنهما كثيرا .

في يوم أحد آخر ، بعد أن كانا بالأمس في النزهة ، وعبرا الكوبري الحديديّ الصغير على الترعة ، كان ميعادهما في محطة مصر . خرجا من الباب الحديدى المشبّك ، يجريان على الرصيف ، لا يباليان النظرات المستغربة قليلاً من الواصلين والمسافرين والحمالين وباعة الصحف والبيض والكُرُوريا ، منطلقين في اندفاع بهجةٍ مشتركةٍ بأنهما معا ، صديقيْن لا أكثر ، لا يعرفان بعد أن الحب مرصودٌ لهما ، كامنٌ يتربص بهما . وخرجا إلى الساحة الفسيحة ذات الأعمدة والبوابة الكبيرة الرومانية الطراز والرخام الأسود اللامع المكسوة به الجدارن المتينة ، ونشّق ريح الشجر المهتز ، وغرقا في لجَبِ الميدان ، وأخذها إلى الترام المؤدي إلى المشية الصغيرة ، كانت العربة بمقاعدها ذات الخشب المتجاور الرفيع الصقيل شبه خاوية في صباح الأحد ، والناس ينظرون من الزجاج السميك المضلع الحافة شديد الصفاء إلى سماء شتوية الزُرقة ، بعد مطر الأمس ، يطير فيها سحابٌ خفيف ملاءاتٍ هفهافةً من نُدُف القطن البيضاء .

كانت لا تعرف الطريق الذي يقطعه الترام ، بالضبط ، وتسأله عن أسماء المحطات

والشوارع ، والعجلات تدق القضبان بإيقاع متكرر ، صوت دقاتها يعلو ويخفت . وعندما نزلا بعد التمثال الأخضر الرشيق ، الفارس الملتحي ، بعمامته وسيفه وملابسه التركية الفضفاضة الذي كان يسحره في طفولته ، على حصانه المتوفز بصدره العريض وإحدى سيقانه مرفوعة أبدا ، برشاقةٍ خرافية ، في الهواء ، وأشجار النخل الملوكي البيضاءُ السوق تهتز جدائلها الغنية في رقة الريح ، وأنفاس البحر الندية تأتي من انفساحه الملتطم ، صوت الموج يرتطم بسور الميناء الشرقية الأبيض ورذاذه يتطاير على الرصيف العريض المغسول ، من بعيد ، دخلا في حواري المنشية الصغيرة ، معظم الدكاكين مغلق والشوارع المرصوفة بالبازلت متعرجة ، والكنيسة اليونانية خلفهم بجدرانها البيضاء وقبّتها الناعمة الدوران ، وصفقّت بيديها فجأة وهي تندفع إلى دكان صغير ضيق الباب جدا ، في وسط الأكتاك الخضراء القائمة الطافحة بحزم الزهور قد امتدت أجسادها النضرة مطلولة وتدلت في عنفِ ألوانها ورقتها ، وجذبته من يده وهي تدخل بجانبها إلى الدكان فيمتلىء حيّز الدكان بها ، ويقف ميخائيل نصفه بالداخل ونصفه على الرصيف ، وهي تنتقي بلا تردد الدبّ الصغير بفروه البني الناعم ، والطوق المذهب الصغير حول عنقه ، مدملج الجسم مكوّر السيقان عيناه الحَرَزتان السوداوان تلمعان بمرح وتضرّع معا ، معلقاً بخيط أصفر مضفور رقيق ، وحده ، كأنه غريب وسط العرايس والبالونات والدُمى البلاستيك المنتفخة الخدود وكُرات أديداس ومضارب الاسكواش وألف صنف وصنف .

قالت له بانفعالِ طفلةٍ وفرحها : ميخائيل .. أنظر ما أجمله !

وأنزلت الدب من على العصا الأفقية التي كان يتدلى منها ، وسط ركام اللعب والتوافه ، فأصبح له وجودٌ فجأة ، وهي تضمه إلى صدرها ، وتلاغيه بمناغاةٍ خفيضةٍ وحارة ، تهمس :
— ياحبيبي .. إم م .. ياعيني عليه .. !
ونظرت إلى ميخائيل بعينين داكنتين غائمتين وهي تقول :
— أنظر .. ألا توافق معي أنه فائق الجمال .. ياميخائيل ؟
هل صوتها هذا الذي يناديه ؟ من اسكندرية ؟

عندما رفع رأسه وجد شقاً من النور ، غير ساطع ولكنه مؤكّد ، يقطع له هباءً غائما من الرمل المتطاير الدقيق .

لغط أصوات كثيرة بعيدة ، وصوتها الملهوف الواثق في وقتٍ معا ، ملىء وبعيد وحنون ومتملّك :

ـــ ميخائيل ..!

هتف باسمها ، ولكنه لم يسمع صوته ، وجد أنه يفتح فمه بلا صوت ، ولكن صوته شق حاجزاً في حلقه واندفع فجأة ينادي .

لم يكن يرى شيئاً . كانت الأصوات تأتي من مستوى منخفض عن حاجز الرمل والأنقاض ، من آخر درجةٍ في السلم التي أحس أنها تحت كومة الأنقاض .

جاءه صوت الريس طه يصيح : يا باشمهندس .. إزيّك ؟ بخير ؟ حمد الله على السلامة ياباشمهندس ..

رد بصوت لم يسمعه إلاّه ، خافت ومتن وحميم : بخير .. بخير ياريّس .. كتّر خيرك ..

أخذ يصعد الكومة التي استنارت له الآن ، بحرص ، يرتقي ، ببطء ، الأنقاض والرمل التي تنهار تحته قليلا ، ثم يزحف نحو الشق الطولي المنير ، في الغبار الدقيق ، وهو يرى بعينيه الأيدي الكثيرة توسّع الثغرة من الرمل والشيقافة والجص القديم ، واستجمع كل قواه ليدفع بجسمه الذي يحتك بالحجر والرمل دَفعةً أخيرةً نحو النور . أحس أصابعه تلامس الأصابع المكتنزة العذبة الملمس ، خشنةً الآن وقويةً ومازالت حلوة المسّ ، وسمع صوتها ، من تحت ، من الجانب الآخر ، عَبْر الثغرة التي تتسع شيئا فشيئا ، وهناك ناس كثيرون في الحيّز الضيق للسلم ، قاماتٌ وأصوات وأيدٍ ونداءات ، وأحس الشمس من ورائهم جميعا ، هادئة النور ، على وشك الغروب . ثم قالت له في وسط اللغط وصوت تساقط الرمل والحجر :

ـــ إيه ياباشمهندس .. ؟ هكذا تغيب عنا كل هذا الوقت !

لم يكن هناك أعذب من هذا الصوت .

قال : كم الساعة الآن ؟

سمعها تسأل بصوت ملحّ ، قِلق :

ــ إيه ؟ ماذا تقول ؟

رفع صوته ، بجهد ، وقال :

ــ كم الساعة الآن؟ ؟

سمعها : ستة بعد الظهر .

قال : ليس كثيرا .. سبع ثماني ساعات شغل .. ليس كثيرا .

سمعها : هل تضحك علينا ياباشمهندس ؟ ست وثلاثون ساعة !

قال لنفسه : كان يوماً طويلا .

ولم يستطع أن يبتسم .

بعد لحظة أحس انفراجاً مفاجئا ، سقطت كتلةٌ من الحائط بعيداً عنه ، إلى الخارج ، وصيحات حاسِب .. إوْعَ .. خلّ بالك ، ثم جاءته هتافات الصعايدة ، والجماعة كلها ، وأحس الأصوات تختنق بدموع الفرح ، والأذرع تمتد إليه ، تحيط به ، ترفعه ، آمنا ، عرف كيف يستسلم لحب الناس وفرحهم . وكانت عيناه جافتين . وعندما وقف أخيراً على قدميه ، في الحيّز الضيق المفتوح ، ترنح قليلا ، ووجد نفسه في حضنها ، تلفّه بذراعيها ، وتقبّله على خديه باندفاع ، تهمس : حمد الله على السلامة ... حمد الله على السلامة ياميخائيل . والدموع تترقرق في صوتها .

عندئذ فقط انهار الحاجز وبكى ، بصمت ، وأحس نفسه يتطهر .

صعد درجات السلم يستند إليها من ناحية وإلى الريس طه من ناحية ، ولا يكاد يحتفظ بتوازنه على الرمل المنحدر فوق الدرجات الصخرية ، وفي آخر نور الشمس الناعم كانت الوجوه والأذرع التي تعانقه مختلطةً كلها ، الدفء والأمن في قبلات الرجال والنساء ، لا يعرف تماما مَنْ هم ، مَنْ ، كلهم زملاء ، والعمال ، ومعاون المركز ، وسلوى ، ومحمود ، ومدير قصر الثقافة الشاب ، وعبد الجليل ، وإلهام ، وألفونس ، وغيرهم ، وغيرهم ، في دوّامة الترحيب والتسليم والضحك والبكاء والهتاف والجرى إليه ، والتحلق حوله .

كانت أعمدة المعبد تبدو كأنها جديدة ، كأنها منحوتة الآن ، فقط،لم يكد يرتفع عنها الإزميل ، في الشفق الوديع الفسيح ، وهواء الصحراء النقيّ يملأ صدره .

قال لنفسه ، فيما بعد : الآن أعرف كيف كان لعازر القائم من الأموات ينظر إلى العالم ، كأنه في اليوم الأول للخليقة . كل شيء ، كل شيء ، جديد ومفاجىء وغير محسوب .

وقال : كل يوم ، كل يوم يأتي عليّ ، هبة ، فَيْضٌ وزيادة . لم تكن في الحسبان .

وفي اليوم التالي رجع كل شيء إلى نصابه . في شم النسيم كان لقاؤه بها ، بين الأعمدة ، بالصدفة . وكان يحس نفسه تائهاً قليلا . وفي الليل مرت القافلة الصغيرة بالفيوم ، وكانت بالليل تستند إلى كتف محمود الذي يقود السيارة ، وسألت عنه ، فجأة : أين ميخائيل ؟

بعد الظهر قال له أحمد ، بصوته الهادىء فيه غنّة خفيفة ، وهو مطرق برأسه الفضيّ الشعر :

ـــ كنتَ في مظاهرة الأزهر ظهر اليوم ، أليس كذلك ؟

قال ، مُفاجَأً : نعم . كيف عرفت ؟

قال أحمد ، محاولاً أن يُنحي السؤال بعيدا : أبدا .

قال بإصرار : ولكن كيف عرفت ؟ هل كنت هناك ؟ لم أرك .

قال : من فوزية . أنت حاولت أن تساعدها بعد أن أصيبت .

قال : آه .. هذه البنت ؟ هل تعرفها ؟ هل رأيتها ؟ هل هي بخير ؟ ثم ماهي الحكاية ؟

قال أحمد : أبداً فوزية معنا . لا ، خير ، الإصابة خفيفة . غرزتين في الرأس ، لا ارتجاج في المخ ولا شيء ..

قال ميخائيل لنفسه : معنا ؟ من هم ؟ تنظيم ، فعلاً ؟ ولماذا يقول لي الآن ؟ وهل أرسلوها ورائي ؟ هل يراقبونني ؟ يريدون أن يتثبّتوا منّي ؟

وقال لنفسه : ياه .. كأيام زمان جدا .. مازالت القواعد مطبقة .. قواعد الأمان .. ولكن لماذا يقول لي الآن ؟ إعلان بالثقة ؟ شهادة بالاعتراف يعني ؟

قال أحمد وهو ينهض : أحكي لك فيما بعد .. أستأذن الآن ..

كتب موسى بولس من أسيوط ، إلى الأهرام :

« لقيت ٩ سيدات مصرعهن في الحال ، وأصيب ٨ أخريات بإصابات خطيرة ، بسبب التزاحم على لحم العيد . توجهت السيدات للحصول على بونات اللحم المجانيّ بمناسبة عيد الأضحى ، وتجمّعَ النسوة فوق سلّم مبنى المكتب الذي لم يتحمل الضغط فانهار السلم » .

وكتب محمد على إبراهيم نجاتي يقول إن من أبناء قرية نجاتي ، مركز شبين الكوم منوفية ، يوجد ٣٠٠ تلميذ في التعليم الإلزامي لا يوجد لهم مكان ويقومون بدراسة المواد في فناء المدرسة .

كانت في البنطلون البلوچينز ، يُجسّمُها ولكن لايُحدِّدها ، تنهج قليلا متضرجة الوجه ، وكان حَبّ الرمل الدقيق الأبيض على رموش عينيها المقوسة قليلاً الواسعة ، وكان الخط الأسود العميق السواد على جفنها العلوي عريضا ، يُبرز خضرةَ ماء البئر العميقة في عينيها ، يعُود بالروح الضارية الوحشية من موطنها الغائر ، وعيناها زهرتان شرستان بشمسٍ أخرى متفجرة ، في حُميا الفقدان والنُشدان ولُقيا الطِلْبة .

وعندما أخرُج ، ويقعُ عليَّ آخرُ نور الشمس ، ينشقّ جسمي ، والعالم ، شقين ، لا جسر بينهما . في الجرف العميق صرختي الباقية من الزلزال ، من حب ميئوس منه . هل هو حب اليأس أيضا ؟ أم هو اليأس المُختَلِب الذي ظل دائما قناعا لا يُفَضّ ؟

هي صلاة الكفران عند المَمْسوسين القُدامى : أيتها الروح الشرسة ألبسيني أنانيتّك ، ليست غيْرانيّتك ما أريد ، بل التَفْريد ، بل التوحيد ، وَاحِدانِ في اثنيْن ، إثنينيّان في أنانيٍّ فردٍ ، ولم تعد هناك غيريّة .

ماأريد ، بوحشية ، أن أعيش حبي معك . وأن أُخلِص نفسي فقط لما أريد .

وما أفعل ، بصمتٍ وحبوط ، أن أظل مهندس ترميم الآثار الذي يرعى بيتاً في الاسكندرية ، بعيداً ومُنحنىً به ، ويغمر يديه في النصوص لكي يخلّصهما منها بسرعة ، في سفينةٍ زهيدةِ الخشب مختلطةِ المسار تشق طريقا متلويّة الخيوط في بحار القلب الضحلة مجهولةِ المسالك .

خيل إليه أنه قال لنفسه : تبرز من صُوف الحمل العجوز أنيابٌ لامعةٌ كالعاج ، مقوسة ومدببة ، قادرةٌ على النهش . فهل هي نهّاشة ؟

وأنه قال : أَرَجْعُ الوَجَعِ علاجٌ للذاتِ المنقسمة الجريحة ؟

لم يعد يرى وجهه الساقط داخل صفحة الماء . ذلك هو الحل الناقص . ينظر إلى الماء . فلا يَرى . نرسيس المنقطع .

كأنما فاته أن ينتهي كل شيء ، في عتمته المنيرة ، بكرامة ، ببساطة .

لا أعرف مع ذلك قراراً .

ما أريد أن تلتئم ضحكتي مع بهجتك الحسية ، وأن يستقر مركبي في واديك .

وما أفعل أن أبقى صارمَ الشكل ، ثابت الخُطى . والتفتُّت مخبوء .

المطلق سيّد ، العدالة ، والاستحالة ، والاستشهاد على الحد الأُقصى . هذا لا يُرى ، ومن ثم فهل يوجَد ؟

الأُلفة ، والحل الوسط ، والجنس ، والنقص .. هذا هو وجه الماء المتقلّب المتموج تحت شجر الشوارع .

قالت له : أنت تجمع أحسنَ مافي العالمين .

فلم يقل : وأسوأهما .

قالت : لو كنّا التقينا منذ عشرين سنة ، كان يمكن أن يلتهم أحدنا الآخر ، وأن ننجح ــ أو نخفق ــ نجاحاً مدوياً ــ أو إخفاقا مدويا ، لا أقل ، أو مزيجاً مدويا مزلزِلا من النجاح والإخفاق معا . كان يمكن ذلك . أما الآن فقد فات الأوان . تأخرنا جدا .

فلم يقل : الاختيار الآخر . الأصعب . الأبقى . لأنه ليس اختيارا ، بل استحالة . وليس فيه إمكان . لم يكن ممكنا فيه شيء آخر .

قالت : لا أريد أن أخرج في نهنهة ، بل في صخب .

فلم يقل شيئا .

قال له أحبُّ أصدقائه إليه ، مرة : لم يكن من الممكن أن تَصنع ، مع رامة ، حياة .

بُهت جدا ، ولم يقل له : إن كل الحياة معها . وإن الحياة ــ في النهاية ــ لاتُصنع بل توجَد .

لم يقل له ، ولا لأحد ، إنه معها يحدث شيء غريب . يحدث . يختفي الشخص . لايوجد الانفصال ولم يكن موجوداً . أصلا . هذه الكتلة الناعمة من جسدها ، طَيِّعة ، ومحتوية على نارها المكتومة ، ليست أُخرى . العالم نفسه ، جسد الكون ، جسد الإله . الخبز الصعيدىّ الناضج بخميرته في الشمس ، النبيذ الكثيف الشفّاف ، العذْب المُرّ معا .

الباب السادس

شمس العيون الدفينة

كان الرنين ، في صمت نومه ، عاليا ، مُصِرًا ، له أصداء تملأ غبش اليقظة . التليفون ، في هذه الغرفة العلوية ، بعيدٌ عن سريره ، معلقاً بالحائط على النمط القديم . والستارة الداكنة الحمرة ، قد خفَّ لونها وأصبحت بلون دم البرتقال الشفاف ، تضربها الشمس التي لم تكد تضيء ولكنها منذ الآن فتيّة وساخنة ، وتحجب عنه هواء الصحراء . يزيح عنه الغطاء الخفيفَ ، في غرفة ميناهاوس القديمة ، جاءته فجأة رائحةٌ من الخشب الذي ضَرّبَه الحرّ ، والرملِ الخفيف العتيق في الأركان لا تمتصه شفّاطات المكانس الكهربية .

نهض ، دون إرادةٍ تقريبا ، يستجيب دون تفكير للنداء اللجوج في وخامة صَحْوِه المختلط المعالم ، لم يضع نظّارته ، حتى ، على عينيه ، وهو يرفع السماعة ، ويستند ، قبل أن يقع على الأرض ، إلى الرخامة الكبيرة الصهباء اللون المُجَزَّعة في عمقها المحمرّ بفروعٍ بيضاء متشرّجة ، يحس برودتها المنعشة تحت مرفقيه ، ويقول بصوت مُغلَق : هاللو ، وهو مدرك ، على الفور ، وقبل أن يأتيه الصوت ، أنها هي .

النورس الجارحة الجريحة ذات الجناحين الكبيرين تطير إلى داخل غرفته المطلّة على الصحراء وتنقضُّ عليه ، ضارعةً ، قادمةً من البحر البعيد .

كان الصوت مكبوح الحرارة وهي تقول ، مباشرة ، دون تحية :
ــ لماذا لا ترد على التليفون ؟

ولم يكن هناك ، في الحقيقة ، رد . فقال : أبدا .. أصلي أنا أرجع متأخرا جدا ، وأنزل مبكرا ، ولا أريد أن أزعجك ، في وقت غير مناسب يعني ..

قالت : بذمتك ، أهذا كلام ؟
قال : كنت أنوي أن أكلمك اليوم .. صحيح ..
قالت : إذا كنت لا تريد أن تكلمني ، قل لي . ببساطة . فأعرف .
وفجأة تكسّر صوتها ، واختنق ، يغالب الدموع .
وأكملت : أنا .. مستعدة أن أفهم ..

انكسر الصوت تماماً ، وصمت . وسمع شهقة الدمع ، بعيدةً جدا ، مكتومة .
وانكسر فيه عزمٌ لم يكن يعرفه ، وتحدَّر ، وسقط .
فهتف : رامة ، رامة ، أنا ؟ لا أريد أن أكلمك ؟ أهذا ممكن ؟ كيف يمكن أن تتصوري ؟

ثم قال بسرعة : إسمعي .. سأكون عندك بعد دقائق ، مسافة السكة يعني . ليس دقائق بالضبط ، ولكن بأسرع ما يمكن . أنا نازل على الفور .

قالت وهو يكاد يراها تبتسم ، دامعة : أهلاً وسهلا .. تعالَ تشرب معي قهوة .

قال : لا ، القهوة لا تكفيني . أريد إفطارا حقيقيا .. عندك فول مدمس ؟

قالت : عندي كل ماتشتهي .. أنت عارف .

وجد نفسه يمسك بالرخامة التي فقدت كل بَرْدِها ، باليد الأخرى ، متقبضة .

وكانت حركة حلاقة ذقنه ، والدوش الخاطف ، واللبس ، كأنها تتم وحدها ، بإيقاع غائب وقصير الدقّات ومتلاحق . وكان التاكسي ، من الهرم إلى الغورية ، في صُبح القاهرة الباكر جدا ، يطير من غير وقت . لم يَعرف أكانت المسافة طويلة أم لم تكن هناك مسافة أصلاً . كان لا يفكر في شيء . وكان هناك فرح يملأ العالم ولكنه كظيمٌ ودفين ، كأنه ليس هناك ، وليس له صوت ، أبدا . بل هو لايذكر أنه لم يكن يفكر في شيء . ولكن نسقاً للتساؤل ، غير مفصَح عنه لأنه لا يجرؤ على مواجهة الاجابة ، كان يدور في طبقةٍ من البهجة والتشوف والسعادة ، تحتيةٍ وخفيةٍ جدا ، من وعيه المضطرب ، ويخيل إليه أنه كان يبتسم ، لوحده . منذ متى لم يكن معها حقا ؟ ثماني سنوات ؟ أهذا صحيح ؟ أيمكن أن يكون قد انقضى هذا الزمن ، منذ تلك الليلة في الأوبرج ؟ الليلة التي مازالت أسوأ ليلةٍ عرفها ، على كثرة ما عرف من ليالٍ سيئة ؟ لم يكن السؤال واضحاً في ذهنه ، ألم يكن قد خطر بذهنه ، مع ذلك ؟ لم يكن هناك في كل حسه ثَمّ كلمات ، ولا صُور ، ولا شيء محددا ، بل رجرجةُ ماءٍ منير ومعتم معا ، ليس فيه شكل ولا حدّ ، كانت شوارع القاهرة بِكرا ، طازجة ، ومترقرقة . فقط .

عندما نزلت الجماعة إلى المقبرة التي انفتح بابها في حوش البيت الفلاحي المزدحم ، تحت الفرن مباشرة ، على يسار الزريبة المربوطة فيها جاموسة واحدة عتيقة ، تحت النخلة العجوز المتربة المضلعة الخراشيف ، كانت قد فرغت من حديثها مع الفلاح الضاوي المنحوت الوجه من النازلت المجدور ، تحت عمامته الكبيرة غير النظيفة تماما ، قالت له إن قرار مصادرة البيت سوف يصدر قريبا ، وستعمل كل جهدها لتخلّص الاجراءات سريعا ، وأنه سيحصل على مبلغ طيب بسعر السوق وأكثر ، مع تعويض مناسب ، وقالت إنه منذ الان قد عُيّن حارساً رسمياً للمقبرة ، بمكافأةٍ شهرية قدرها عشرة جنيهات ، وأن القرار مع البيه الباشمهندس وسيسلّمه صورة ، وسألته هل يمضي أو يبصم ؟ وأجاب الرجل بكبرياء إنه سيمضي ، فقالت ماشاء الله ماشاء الله ، على خيرة الله ، وكانت زوجته قد ضمت الطرحة السوداء المعفّرة قليلا على وجهها ، حياءً من الحكومة التي اقتحمت عليها فُرنها وحوش بيتها ، وهي تجمع بين ساقيها طفلها الذي ليس عليه إلا قطعة من قميص مغبّر لا لون له على اللحم ، يزحف على الأرض ، ويقوم فيبين ذكره وعنّته الصغيرة المتربة ، والذباب يأكل عينيه ، فهشّته عنه ، ورفعته إلى صدرها بلا تردد ولا تحرّج ، ببساطة ، وأخذت تُناغيه بصوت حنون ومنخفض ، كأنها وحدها مع الطفل ، فبكى بصوت مفزَّع ثم هدأ واستكان إليها وهو يحدّق إليها ، أوقعته فجأة في سحرها الخاص ، ثم سلّمته لأمه وهي تقول ، بعفوية كأنها فِطرية : خمسة وخميسة ، اسم النبي حارسه ، ربنا يخلّيه لك ياحجّة .. ما اسمه ؟ فترد عليها بفخر وخوف مخُامر مازال من الحسد : محمد ياست . ربنا يخليك ياست ويطوّل عمرك ، ويحط في إيدك البركة يارب . كان أبناؤها وبناتها يقفون صامتين ، وتأتي من الباب ضجة الأهالي وصوت الخفير الحكومي ببندقيته الطويلة يزجرهم ويردّهم ويثرثر معهم .

قالت له ، تحت : هل تعرف أن صاحب هذه المقبرة من بلدياتك ؟

فابتسم لمفاجآتها المعتاده وقال : صحيح ؟ إسكندراني ؟

وكان يضحك لنفسه من خطأ سؤاله الواضح في نفس الوقت الذي تردّ فيه :

ــ ميخائيل ! كيف ؟ سواحلي يعني . كان قائداً للأسطول ، وحارب الحيثيّين في الشمال ، وذهب إلى بونْت جنوبا وعاد بالبهار والتوابل والخشب النادر .

قال : صحيح .. فمَنْ كان الذي يكره البحر ؟ ليس الناس ، ولا القادة .. ؟ أظنهم الكهنة ؟

قالت هامسة حتى لا تسمعها بقية الجماعة : عفارم عليك ياحبيبي .. ثم بصوت عادي : البحر عندهم حرم محظور . لا تحق لهم رؤيته ولا السكنى بحضرته .

كانت العينان ، في ضوء البطاريات اليدوية الكبيرة ، مفتوحتين على سعتهما ، تجلاوين فجأة ، أمامه ، في هبوة الغبار المعلّقة المتصاعدة تحت اقتحامهم بعد السكون دهورا طويلة . وكان إحساسه بانتهاك الحُرُم حيا مازال ، وهو يتفحص بعين خبيرة مدى متانة المقبرة وصلابة بنائها ، إذ يتقدمون وراءه بحذر .

والبنت بوجهها القبطي المسحوب ، ذهبية قديمة ونضرة ، تنظر إليه من غير عتاب ، تراه ، وتعرف عذاباته الخفية ، الصغيرة والكبيرة ، وتفهمها ، أيضا . وكان يظن أنه يموت ولا يقول عنها ، فأحس فجأة أنه مكشوف ، ولكن فقط في ضوء هاتين العينين .

قال لنفسه : أكان ذلك في معبد هيبيث في الخارجة ، أم في تلك القرية جنب الفيوم التي نسيت اسمها ؟

كان رامة قد قالت له : لا تمس علاقةً دفينة . لاتفتحْ عليها .

خطر له أنه يعرف هاتين العينين ، بموجتهما الداكنة الخُضْرة التي تضرب الى شفافية في قوام ماء البحر ، وأن دوران الوجنة السمراء الصافية مازال في راحتيْ يديه المفتوحتين تمسان نعومته .

كان للرائحة فَوْح قديم ، حرافة الصندل العذبة ولذع النطرون وجِدّة طيوب المر التي هدأت في الليل الطويل . وكانت شمس العينين تستضيئ في سماء محبوسةٍ وضيقة ، لاتضم غيرها . وكان يحس أنه يحبها جدا وأن بينهما حاجزاً لا يراه ولا يمكن أن يتخطاه . وكان يدعوها باسمها القديم وتبتسم عيناها ، فقط بحنو وعرفان ، وكانت ساقاها التى جانبه ، دائما ، ملتفّتين ومليئتين بجسدانيّةٍ حيةٍ لا غِلاب لها من وراء الكتان الناصع الشفافية يزدهر عليه سوسن الوادي الفضيّ يتفتح ويختفي ، وعندما ينحني يقبّل شفتيها السوداوين فتنتقل إليه منهما دسامةٌ فيها دفء

بعيد جدا ، كأنها ذكرى فقط ، والرعدة الخفيفة في الشفتين كأنها اهتزاز أمنية غير متحققة . وكان يعرف أنها تحبه .

كانت تصعد إليه ، ذراعاها ماتزالان الى جانبيها كأنهما بين شرائح الكتان العريضة غير المرئيّة . ولكن الذراعين ترتفعان ببطء ، وتُحيطان به ، فلا يحس إلا نفحةَ العطر الذي لايذبل ، والطيوبَ القديمة ، ونعومةً خفيّة . على صدرها الناهد الثابت عقدان من أحجار الياقوت الحمراء الباهتة وحَصَى اللازورد الأزرق ، والعقد الثالث حولهما من حجَرها الزمرديّ الخاص صفاؤه المُشِعّ محبوس ، ونوره موجَّه الى الداخل ، ولا يكاد يحس ارتفاع النَفَس في صدرها . لحمها الذهبي ناعم السمرة ، وعلى شعرها المفروق في منتصف الرأس ، إكليل من الغار ، ذهبيٌّ وقديم السمره ، ويتدلى من أذنيها قرط له ثلاث دلّايات تنتهي كل منها بكُرةٍ صغيرةٍ ذهبيةٍ باهتة ، تهتز ، ولاصوت لها . وكان حاجباها كثيفين مقوسّين باتساع على العينين المفتوحتين ، والحدقتان كبيرتان جدا ، نظرتهما إليه ، وإلى بعيد ، في نفس الوقت ، ليس لعمقها ، ولا لامتلائها ، نهاية . وكانت تقول له بلغةٍ لا يعرفها ، ولها جَرْس مألوف جدا ، ويفهمها من غير أن يكون قد سمعها : ياحبيبي . لماذا أنت بعيد ؟ لماذا لا تجيء ؟ وكان يرتعد ، ويتمنى لو يلحق بها ، ويعرف أن هذا غير ممكن الآن ، ولعله غير ممكن أبدا . وكانت غوايتها له ، في أرض ليله ، من خلفِ كتاباتٍ منحوتةِ الظلال ، عابرة ، لا يكاد يمسكها بيديه ، كانت تروده وتمضي وتعود ، على غير انتظار ، من غير ميعاد . وكأن حضورها مقيم لايرى ولا حدود له . وكان فقدانها ، في غمرةِ حبه ، يذهب معه بشمس الليل ، ويُجفف قلبه . شمس العيون زهرةٌ ليليةٌ صلبة ، حادة الأطراف ، باقية ، لا تنقضي .

قال لها : كان لي ، في الزرابي فيوم ، أخت لم أرها أبداً ، ولم أعرفها أبدا . كانت أختى لأبي الذي عاش في الفيوم ، يشتغل بتصدير البصل والبيض إلى الاسكندرية أثناء الحرب العالمية الأولى ، وبعدها بقليل . قال لي أبي إن تجارته من هذا العمل ، في العشرينيات كانت رائجة ومطلوبة ، وكان يسهر طول الليل يشتغل ، وأنه في تلك الفترة عرف كيف يشرب قهوته مع الأفيون ، حتى ينشط إلى العمل ولا ينام ، وقال لي إن زوجته ماتت في الفيوم ، فترك البلد إلى الاسكندرية ، وترك ابنته في رعاية أخوالها ، ولم أرها ولكني قرأت خطاباتها إلى أبي ، فقط ، بعد أن مات وأنا في كلية الهندسة .

في الصبح ، في غرفته المغلقة ، كانت آثار عبقها ، هفهافة جدا ، خيوط ضباب خفيف تختفي بمجرد أن يَنْشَق هَبْوَتَها ، لا تكاد تُحَسّ لكنها تترك في جسه ما يشبه ندبة أسنان رقيقة الجرح .

قال : اللحظة التي لاتُحتمل ، لحظة اليقظة في الصبح ، وامرأة إلى جانبه ، نائمة ، مطمئنة ، بعد تخدّر النوم ، واضطراب الغيبة ، والثغرات المفتوحة على نصف الحلم نصف الصحو ، وتدخل ، فجأة ، قسوة النهار ، ووحشته .

وعندما كان يستيقظ ، في تلك الأيام ، كانت تقول له ، وهي تحس الوجود الغريب معهما ، في غرفة نومهما المقفلة : هل تشم تلك الرائحة ؟ خفيفة جدا ، ولكن .. رائحة غريبة في البيت ، تأتي من عندك ، مثل رائحة الكنائس المقفلة ، كأنها رائحة الشمع المُوقد .. أو .. البخور .

فيصمت . أو يقول ، فقط : غريبة .. !

قال : كيف يمكن أن يحيا أحد .. أى أحد .. مع هذا الألم !

قال : ماالذي يبقيني ؟ ماالذي يجعلني أمضي في طريقي ؟ أَإلى طريق ؟ أمضي في سُبُل الحياة ، ككل الناس ؟ أحِسٌّ – قليلٌ على أى حال – بالواجب ؟ أحقاً قليل ؟ أحِسٌّ دِينيٌّ ما ، غير واضح الشكل ؟ أمجرد عنادِ الحياة ؟ دون معنى ؟

وقال لها : صوتك الذي فيه غُربة ، وتغريب ، عندما تتكلمين إليّ ، كأنني أى أحد ، كأنني أى شيء ، يصبح الألم فيزيقيا بحتا ، وليس فقط شعورا ، وإحساسا . بل تقبُّض ، وتَدَفُّقٌ للدمِ إلى المعدة ، وتقطيع حاد ، قلت لكِ : أى شيء إلا أن تعامليني كغريب . قلت لكِ : من أجل نعمة الله ، لا تقابليني كغريب هذا كل ما أطلب . فعندما تغرّبينني ، أنا الذي أقف دائما على حافة غُربة العالم ، أسقط على الفور في هوة الغربة الأخيرة التي لانجاة منها . عندما التقيتِ بي قلتِ : أهلا . كيف أنت ؟ ويدك في يدي غريبة ، صامتة ، فسقطتُ على الفور . مازلت أهوى . وليس هناك قرار .

قال لنفسه ، بقسوة ، وماذا تريد ؟ أن ترتمي في أحضانك ، مثلاً ، وتبثك لواعج الهوى ، والضنى ؟ كما تفعل أنت ، أو لاتفعل في الحقيقة ؟ ولماذا صبيانية الغربة هذه ؟

وقال ، عائداً : نبرة صوتك ، وماتوحي به ، هي الكمّ غير المحسوب ، دائما ، ويروعني مدى الأثر الذي يمكن أن تحدثه فيّ أيةُ خلجةٍ في هذا الصوت ، أية إيماءة منه . لماذا لا آخذك ، كما يقال ، على عِلّاتك ؟ لماذا لا آخذك موثوقاً فيكِ تماما ، ثابتة ، ودائمة ؟ هذا ماتطلبينه مني ، في الحقيقة ، فقط . ولكن أهذا ما أنتِ ؟ كيف أنسى . في أية لحظة ، نظرةَ الحب في عينيك ، وصوتك تقولين : « أنا أحبك » ؟ كيف يمكن أن أنسى ؟ ألم أعرف حبك ، كلّي ، وكلّك ، معرفةً ليس بعدها معرفة ؟ ولكنك تستطيعين أيضا أن تقولي : كيف أنت ؟ وما أخبارك ؟ بحيادٍ وعدم اهتمام ، أهذا عنصر دائم من عناصرك ؟ هذا التغيُّر ؟ وإذا لم أكن مجرد عابرٍ في طريقك المزدحم ، فهل أنا عندك مرحلةٌ منقضية منذ الآن ؟ عندما قلتُ لكِ : الناس يتغيرون ؟ نظرتِ إليّ فقط ، دون كلمة . ولم أفهم — كعادتي — نظرتك . كنت أردّ ، بغباوةٍ طبعا ، عن سؤالك لي : لماذا تظن أنني أعاملك كغريب ؟

قال : ما أكرم نفسها ! أن تقبل مني هذه المواجهة بالنكران الذي كأنه خيانة ؟

وقال : ولكن لماذا ، عندما أسألها : « ألا تعرفين أنني أفكر فيك كل لحظة ، وأنني معك في كل لحظة ؟ » لا تأخذ هذا ، أيضا ، قضية مسلماً بها ؟ بل تقول ، ساهمة متفكرة : « لا أدري » فتغوص الطعنةُ في مقتل . هي تعرف ، تماما ، كل مقاتلي . عندئذ أفقد كل توازني ، فِعلاً . كيف لم أستطع ، حتى الآن ، أن أجعلها تثق في حبي ؟ أهذا من طبيعةِ هذه العلاقة نفسها : هذا الانفتاح الدائم على رغبةٍ لا عجةٍ في التأكيد ؟ ومع ذلك فما أكثر اللحظات التي هي تأكيد كامل ، لايمكن أن يكون وراءه أي تأكيد ؟

الكُلّية ، الإطلاق ، النهائية ليست لا مبالغة ولا إغراقاً ولا صورةً من صور الكلام . هي حقيقة بسيطة ، على مستوى معين . لا تأتي إطلاقيّتها من المقارنة بل من مجرد وجودها بذاتها . ليس للنسبية هنا مجال ولا سياق .

هل مللتِ ياحبيبتي هذا التقليب المستمر للنفس وهذه الهواجس الأكّالة الأنياب ؟

هذا هو النسيج الذي صُنِعتُ منه ، لا ، بل الذي به وُجِدت .

فلا تدعيني ، لأنك تغربينني ، أمقتُ نفسي ، وأحتقر نفسي ، أكثر مما أفعل .

أعرف أن هذا كله لابد يبدو لك شيئا خاصاً بي وحدي لاشأن لك به ولاذنب لك فيه ، هذا ما قلتِه ، بهذه الكلمات . صحيح ، ولكنه لأني أحبك ولا أعرف كيف أقتنع أنك أنتِ قد أيقنتِ يقينا ثابتا بهذا الحب . حتى لو لم أرك أبداً بعد ، أريد فقط أن أعرف معرفةً نهائيةً أنك ستفكرين فيّ أحيانا بمحبة ، دون رفض ، وأن أكون غير مدان . هذا كل شيء .

ليس يقيني لموضع سؤال ، بل يقينك ، فيم تفكرين وماذا تفعلين .

قال لها : ما أسهل أن تعود الكُبُوح ، وأن تنطبق قيودُ الزمت على النفس من جديد . الخطر قريب جدًا مني . وهرولة العودة الى جُحْري مألوفة ومجرَّبة !

بعد أن عرفت انفجار بهجةَ الحرية غير الموصوفة ، وسقوطَ حيطان الكبت ، سطوعَ الفرح الجنوني بهذا التفتح ، الحس الفسيح بالانطلاق ، ومن ثم القوة .. القوة التي لاتعنى الأنانية .

قالت : أنت طُهرانيّ .

قال : الحواجز الخلُقية الموروثة والأصلية أحسها أحياناً بلا قيمة ولا ثقل . أعرف أنها في داخلي ، قائمةٌ وفعالة بشكل ما ، لاتنمحي ، ولكن الفرح يُغرقها كالسيل . والفرح أكثر خلُقيةً من كل طُهرانيّةٍ ممكنة .

قالت له : كان يجب ــ ويحق ــ لك أن ترفع قامتك إلى السماء .. لأن رامة ناجي تحبك .. أعَليَّ أنا أن أقول لك هذا ؟

قال لها : ولكن مزاجاتك المتغيرة تتضمن الرفض لي ، تنطوي على رفضى ـ وأنا عندئذ آخر ـ وتعنى عودتك إليكِ أنتِ ، كأنما في غضبٍ طفليٍّ من نفسك ومن العالم ، كأنما في عقابٍ للآخَر . كيف أقول لك ياحبيبتي إنني لست آخر ، ولست الآخَر . هذا هو كل حَجَر النواة ، ومالم نمسك به فسوف نطفو على العباب ، حطامَ خشب سرعان مايغوص .

وقال : هذه المزاجات المتقلبة لا أطيقها . بعد ذلك بكثير أُحبها لأنها منكِ ، لأنها في النهاية وجهك الثاني الذي إن أشاح عنى فلعله بذلك يقول لي إنني هنا فعلا ، وإنه يطلبني . أو هكذا أتصور . ولكنك عندما رفضتِ حتى أن تنظري إليّ ، وغرقتِ في النوم فعلاً ـ النوم العميق ـ في داخل عباءتك السوداء ومازالت موسيقى باخ منسّية ، وأنا مازلت واقفا أمامك ، بلا حلّ ، هل تعرفين معنى هذا الرفض ؟ أهذا هو الإلغاء الذى تقولين ؟ ألم يكن قد بدأ مبكراً قليلا ؟

قالت له : هل تعرف ، كنت قررت ألا أرى وجه سيادتك بعد !

وكانت تضحك من غضبها ولكنها بذلك كانت تؤكده .

ولم تقل له : ولكنّ هذا غير صحيح ـ بل هذا النوم نفسه ـ ماذا أفعل بك ؟ ـ هو قولي لك إننى أحبك ، وإنك قادر لذلك أن تغضبني . نومي وأنت معي هو كم أنا آمنة مع ذلك وواثقة وقد أسلمتُ لك كل شيء ، حتى غضبي أسلمتُه لك . لذلك لم تعد هناك ضرورة لليقظة ، ولا حتى للمصالحة ، بالكلام ، لم تعد هناك ضرورة للحرب ، ألا ترى هذا ؟ أهذا صعب ؟ ويؤلمك أيضا ؟ ماذا أفعل بك ياميخائيل ياقلدس ؟

كانت قد قالت له : ألست تقول إنك تحبنى ؟ فهذه أنا بمزاجاتي وتقلباتي .. ! الحب أيضا أن تعرف ـ وتحترم ـ قوانين الحبيب .

ولم يقل لها : ما أصعب ـ وما أسهل ـ أن أضع يدي على هذا التراوح . والانقلاب ، من محورٍ إلى آخر . وما أسرع ما تطلبين ـ وأطلب ـ الاستجابة . أنتِ التي تعيشين بمنطق التضاد في داخلك ، لا بمنطق الانصهار والاندماج الذي لا أعرف غيره . أنت الارستقراطية

صل والتربية والمزاج وبنت البلد المصرية الضاربة بكل نفسها وجسمها في طينة مصر وتراب اهرة ، أنتِ العقلانية المفكرة المدفوعة مع ذلك بحوافز هوىً لا يقف أمامها شيء ، أنت بسمُ الحافل الجميل بحمأته الحارة الغنية وحَدُّ الإرادةِ القاطعُ معا ، البورجوازية الثورية كلاهما تٌ عندك معا ، الصادقة في كل كذباتك ، صاحبةَ جسد الأعمدة وضاربةَ ناقوس الهيكل قدس والمئذنة الممشوقة المتضرعة بشهوتها إلى ماهو مستحيل ، أنت المعلّمة المضيئة المفتوحةِ كتابات أبدا ، والطِلّسم الخفيّ المغْنَى أبدا ، لكنك ياسيدتي أمْيَل منّي وأقرب إلى التركيب . أنا سيط وساذج أعيش بالتضاد والتوازي ، بكل حِدّة الانشقاق وصرامة الانفصال ، في حلم نوحّد .

كانت قد قالت له : ليس هذا كله ، الذي نعيشه الآن ، صحيحاً . لا يستقيم .

وكان يعرف أنها لا تتكلم عن الإطلاق بل عن النسبية .

وقال : مازلتِ ـ لكي لاتؤلميني ربما ، ولأنك تحبينني ربما ـ تخفين عني أشياء كثيرة . مازال يعذبني هذا .

قالت : أنتَ الذي تقول هذا ؟ أنت المطويّ على كل شيء تقريباً في داخلك .

لم يقل : معكِ وحدك مفتوح ومكشوف ومُعَرّى ، وفرحي بهذا لايقاربه فرحٌ من نوعه أبدا .. تقريبا .

بل قال مُسِفّاً ، مهاترا ، على رغمه : أهذا حقيقةٌ يهمك ؟

ثم أدرك سخافته فاستدرك : أنتِ الأقدرُ على الحب ، والأكرم ، بلا شك . أنا مع ذلك أحمل لك شيئا أعمق ، وأكثر جيشانا وغورا .. أنا أحبك أكثر ..

فقالت : بل أنا أكثر .
قال : أنا أكثر .
قالت : أنا .

ضمّها وقد صفت نفسه من كل غيمة وهمس في أذنها : أنا وأنت ، كلانا أكثر من الآخر ! أنا أكثر وأنتِ أكثر .. !

وقبّلها فلم تستطع إلا أن تتمتم وشفتاها تحت شفتيه ، وعرف أنها مصممة ولم يسمح لها أن تفتح شفتيها لتقول : أنا أكثر .. وأصرّ على قبلته حتى كادت تختنق فضربته على كتفه برفق وإلحاح ، وأفلتت شفتاها منه وهي تشهق : تريد أن تموّتني . !

قال : بعد الشرّ .. إن شا الله أنا .. !
فقبلّته هذه المرة ، هي ، حتى كاد يختنق ..

في صبيحة شمّ نسيم آخر كانت تتغطى بملاءة السرير ، مريضة ، والنافذة الزجاجية مفتوحة قليلاً على المئذنة السامقة ، والجوّ في القاهرة غائم ومحايد ، مترب قليلا بالخماسين .

كان قد قضى عيده معها – من غير احتفال ، كانت تغالب الألم ، وتتقبل حبه في ألمها ، بمضض ولكن بغير صدّ ، كان جسمها الذي سقط عليه قميصها القصير الواسع وانحسر عنه ، مثيراً حتى في الوجع ، وله رائحة غريبة حريفة وعذبة كفاكهة شديدة النضج . وهي لاتكاد تئن كلما انشعبت في داخلها طعنةُ وجع ، قالت له إنه في جانب البطن ، ولكنه كان واضحا أنه ليس من الزائدة الدودية ولا من الكُلى وليس مغصاً . كان الألم من مرض غير مفهوم . وكانت هواجس الخوف عليها تساوره وتمضّه وتُفرِغ مُنَّتَهُ ولكنه يردها عنه ويخفيها ويُهوّن من أمرها، ويقول لنفسه سوف يمضى المرض من تلقائه ، ويشعر بعجزه وقلة حيلته وعندما يهدئ من روعها ويطايبها يحس كلماته وإيماءاته قاصرة وغير كافية وكأنها مصنوعة وكأنه غير معذّب بها ، وكأنه يقول كلاماً بلا مبالاة . وكان قد طلب المصلحة وأبلغ بإجازة مرضيّة لها وقالوا له إنهم سيرسلون الطبيب ، متى ؟ ربنا يسهّل ، اليوم إن شاء الله وعلى الأكثر غدا فرجاهم أن يرسلوه بأسرع ما يمكن وقالوا مرة أخرى إن شاء الله وربنا يسهّل ، وكان متحيرا وناقما على نفسه ، وكأنه ناقم

عليها ، كأنه من غير المسموح لها أن ينال منها وهنٌ ولا أدنى عطب ، ولكن خيبته أمام المرض كانت تقليدية وعظيمة . كان يذكر أنه في صباه ، عندما مرضت أخته ، التي يحبها ، بالتيفود في ١٩٤٢ ، كان يهرب من البيت لأنه كان لايعرف ماذا يفعل ، وليس في يديه ما يفعل ، ولا يطيق ، ولأنه ، من الحب ، يرفض مَرَض مَن يحبه ، ثم ماتت أخته ، وبكاها كثيرا ، وقال لنفسه إن الحزن ورقه القلب قد فات أوانها وأنه ليس لها أدنى أهمية . وألبير أخوه الذي سقط في نفس العام وبنفس المرض ، كان قد حمله على ذراعيه ، والولد الذي كان مرحاً وملىء الجسم ولامع الذكاء قد خف وزنة كثيرا وتجعّد وجهه وسقط شعره ، من التيفود ، بقطَع من جلد الرأس الذي بدا متسلخا وبه بقع بيضاء مبللة ، وعبر به شارع راغب باشا ، بين الناس وعربات الكارو المحملة بالدقيق والترامواييات المحملة بالغرباء ، إلى العيادة الحكومية ، ليمسحوا له رأسه بدواء مطهّر بنّي اللون ، ويعود به في الزحام ، وكان ألبير واهنا على ذراعيه ، بسنيّه التسعة وصامتاً كأنه عاد إلى طفولة متأخرة ، كان يمقته وهو يضمه إلى صدره ، ويحبه جدا . ومات بنكسة قاسية أنهكته تماما بعد أن تماثل للشفاء . ولم يعد أبوه أبداً بعد ذلك إلى ماكان عليه . وكانت الضربة فادحة . وكان يقول لنفسه : أُمقت المرض ، والألم ، ولا أعرف كيف أقبله ولا كيف أتعامل معه . كأن أحبّاءه يخذلونه أو يخونونه ، فعلاً ، عندما يمرضون أو يتألمون ، وعلى كل رِفق قلبه بالخوف عليهم ، والحدب والتوجّع ، يبدو صلباً جامداً وفي كلامه لا مبالاة أو حتى برود ، الجفاء الذي يردّ به على فزعه وضعفه أمام الخطرعند ما لايعرف كيف يُلاقيه ، إلا أن يجري إلى الأمام ، أو يجري إلى الخلف ، يحتضن المرض والألم بجسمه هو ، أو ينفيه عن نفسه ، ويلغيه .

ولما دقّ الباب فتح ليجد نفسه أمام امرأة نحيلة قصيرة رقيقة الجسم ، ترتدي الطرحة البيضاء تحيط بوجهها وشعرها ، وثوبها على الزى السابغ التقليدي ، وحذاؤها رجالي منخفض الكعب .

نظر إليها مستطلعاً ، فقالت بهدوء وطيبة :

ـــ الدكتورة من مصلحة الآثار .

قال : أهلاً وسهلاً تفضلي يادكتورة .

فقالت : العنوان صعب جدا . تعبت في الوصول . إن شاء الله المدام بخير ؟ أين هى ؟

قادها الى غرفة النوم ، وألقت نظرةً ممتنةً إلى المصحف الكبير المفتوح على مكتبة الحائط الجانبية . وحاولت رامة أن تنهض فوضعت الطبيبة يدها برفق على كتفيها وقالت : لا .. لاخليكِ مستريحة ياحبيبتي .. وجلست على كرسي أحضره لها بجانب السرير ، وظل واقفا لحظة ، ولكن الطبيبة بدأت تسألها عما تحس ، وطلبت منها أن ترفع قميصها للكشف ولم يجد من نفسه مبادرةَ الحركةِ للخروج من الغرفة وقد فاتت اللحظة فبقى وهو محرَج قليلا ، وكانت ـ كعادتها ـ عارية تحت القميص فحوَّل بصره قليلاً وقد أحس بالخجل ، وبعد انتهاء الكشف قالت الطبيبة وهى تكتب تذكرتها الطبية ، برقة : لا .. لاشيء .. خير إن شاء الله .. بسيطة .. سأكتب لك إجازة أسبوع ، وبعدها سنرى .. فقط البيه زوجك يحضر هذه الأدوية ، اليوم إذا أمكن .. ويتصل بي في أى وقت إذا لزم الأمر ، في أى وقت ، ولكن لن يكون هناك داع إن شاء الله .. وهى تُغلق حقيبتها الطبية وتنهض للخروج . كانت رامة قد همّت أن تقول شيئا ولكنها استدركت نفسها ، كان شكلهما ، معا في البيت ، زوجياً جدا ، لكنها نظرت إليه ، من مرضها ، وفهم من نظرتها حس اللوم ، بل حكم الإدانة ، والغضب ، فهو ليس زوجها حتى وإن كانت قد قالت له إنها مَرْأته ، المرأة التي له ، حتى وإن كانت قد قالت له ، بصوت مِلؤه النعاس والحس بالأمان ، مرة ، عندما عاد إلى البيت متأخرا ، وفتح الباب بالمفتاح الذي أعطته له ، ووجدها نائمة ، وقبّلها على جبينها برفق : رجعت ؟ الساعة كم ؟ ياه .. أحس أنني زوجتك جدا . ونامت على الفور يندّ عنها أنينُ رضى وارتياح .

عندما نزل ، بعد انصراف الطبيبة على الفور ، كان سعيداً بمعنى ما لأنه وجد شيئاً ما يعمله لها في مرضها، بعد طول الحيرة والتّلدد . كانت القاهرة في شم النسيم خاوية ومغلقة، وكان بحثه عن صيدلية مفتوحة مغامرةً غير محسوبة ، حتى وصل إلى الإسعاف لكنها أيضا كانت مغلقة . واكتشف ، مع سائق التاكسي ، صيدلية مجهولة صغيرة في حارة من بولاق ، وعاد بعد أن دفع للتاكسي بسخاء ، وقال له الرجل : « بالسلامة إن شاء الله ، كل سنة وأنتم طيبين » ، وفكر أن حظه كان لايصدَّق أنه وجد التاكسي أصلاً وأنه وافق على عملية البحث معه عن صيدليةٍ مفتوحةٍ في فراغ القاهرة هذا الصباح الغائم بتراب الخماسين الخفيف . وعندما سمعها ، بعد ذلك ، تردّ على سلوى بالتليفون ، وتقول لها : « أشكرك ياحبيبتي ، لا يانور عيني ، أبدا ، أنا أحسن الآن بكثير ، لم تكن تنقصني الرفقة ولا العناية .. » وهى لاتنظر إليه ، ويعرف أنها تتجه إليه وحده بهذه الكلمات ، أحس نفسه ، أخيرا ، له فائدة ، أكثر بكثير من لحظة عودته ، عندما قالت له : « مدهش ، لا أعرف كيف جئت بالدواء اليوم ، لم أكن أصدق أنك

ستحصل على شيء » .. ولكنها قالت له ، فيما بعد : « لاأدري . كان عندي شعور بأنك غير مهتمّ بي ، حقا . كانت كلماتك تأتيني غريبة وليس فيها إحساس » . وكان يعرف أنها على حق . في الأزمة لم يكن يعرف أن يتكلم ، وإذا تكلم جاءت كلماته بعيدة لا صلة له بها ، اكتفى بأن قال : « لا أعرف أحيانا أن أنقل ما أحس به » ، فقالت مُنكِرة : « أنت ؟ غريبة ! » فأحس مرةً أخرى قبضةَ الذكرى ، والحزن ، والحس بالخذلان من صباه . كيف يمكن أن يُصحح القلبُ خياناتِه القديمة ؟ وكيف يعترف ؟ آثام القلب لايبرئها شيء ، ولا الاعتراف ، عليك أن تقبلها — أو ترفضها — ولكن تَحْمِلُ ثقلَها الرازح ، وتعرف كيف تحمله . فأحاط كتفيها بذراعيه ، فقط ، وكان وجهها العذب الأسيل فيه جراحات دفينة خفيّة ، قريباً جدا من وجهه ، ضمّها إلى صدره أكثر قليلاً ، فقط ، وقام فجأة وخرج مسرعا من الغرفة ، ليتمالك نفسه .

ياحبيبتي ، لا ، لست أُصر أبدا على أن أراك قوةً كونية ، حتى إن كان فيكِ هذا الإيماء بالخلود ، بالانفصال عن الزمن ، ونضارةِ الفينيقة الأبدية .

دعيني أفصح تماما ، بقدر ما أستطيع . أتهجّاها حرفاً حرفاً ، كما يقال .

لا ، لست أُحب وهماً من صنع خيالي ، ولا أنا أصغو إليكِ كما أصغو إلى « مطلقٍ » ما أُقيمه لنفسي من تصوراتي « المثقفة » ولا شيئاً في هذا السياق كله . بل أحبكِ ، أنتِ ، امرأةً غنيةً بأنوثتها الحية ، الحسية ، وكبيرةِ القلب ، وجريئة ومُحِبة وتعرف كيف تفكر وجميلة ، وتعيش في هذا الواقع الأرضيّ الذي نعرفه كلانا ، بأصفاده وفروضه علينا ، وبإمكانات الحرية فيه أيضا ، أحبك بما فيكِ من ضعف وحاجة ، ويزيد ضعفك من حبي لك ، طبعاً ، وكما هو ضروري ، وبما فيكِ من قوة وعزم وجسارة أيضا . أما تلك القوة الكونية ، أو شيءٌ ما يشبهها ، أو يفوقها ، فهو شيء ما عندكِ يستثير مُقَابله عندي ، قوةَ حبي لك . ولست أعرف ماهو هذا الشيء . المطلق ينادي المطلق إذن ، وما يجاوز الانساني يستدعى نظيرَه ، عاشقٌ أنا أعرف مَنْ أعشق ولا عِلم لي به . أفيض بالعشق إلى مالا حدود . هكذا أحسه ، ماذا أفعل ؟ ليس هذا مجرد طاقةٍ محبوسة تفجرت وفرغت ، وليست هذه مرحلةً ما منقضية ، ولا احتياجاً عابرا ومتقلبا ، هناك ثبات في هذا الحب يفوق كل مدى ، جيشان دائم لقُوَىً حميمةٍ جداً وعميقةٍ إلى غير ما قرار ، وباقيةٍ . مقوّم من مقومات الوجود ، رابطة لاتنفصم لها اليوم من السطوة والضراوة والتحقق الذي لا يُوصف ماكان لها في أي وقت ، وأكثر ، وأكثر ..

لا ، لست متواضعاً أبدا ، ولا واقعيا باثنين مليم ، ولا عاقلاً في الحقيقة ولا شيئا من هذا القبيل . وليس هذا أيضا وهماً من أوهامي عن نفسي ، أتوهم كثير أنه ليس عندي أوهام عن نفسي .

هل هي صدفة خاطفة في المكان والزمان ؟ ما يسمى بالمقادير ؟
أم على العكس تماماً ، هو حتم محتوم ؟
ولست أعرف ما إذا كان ذلك كله يصنع معنى . أثق أنكِ بحدسٍ ما ، فيكِ ، على الرغم من حواجز الكلمات التي لا اجتياز لها ، تعرفين ما أعنى .

زهرة الصبّار الحمراء ، يانعة ، وحيدة في وسط امتداد رمال الصحراء البيضاء الشاسعة ، تُزهرين يوماً واحداً وتبقين بلا انتهاء .

وشوقي إليك أعنف جذوةً الآن من أى وقت مضى . عاتٍ وطغيانهُ لاينتهي ، ليس له برّ .

اليأس أيضا قائم لايَحُول .
لن أتعلم أبدا كيف أكون واقعيا .
أُقبّلك على عينيك اللتين تروعانني ، وأنت تُفيضينهما من أجلي ، وعلى خدّك الرخيم ، على شفتيك المليئتين بماء حياتي . ولا تنتهي قبلتي .
هل هذه النجوى الطويلة مملة عندك ، وغير مهمة ، وليست صحيحة ؟ أم هي مسلية وشائقة ؟ أتخالف قاعدةً من قواعد السلامة الخلقية ، أو السواء النفسيّ ، أو معايير ما ينبغي ومالا ينبغي ؟ أهي شيء مَرَضيّ وغريب قليلاً وليس من الأصول في شيء ؟ وهل هناك بيننا لعبة ، في النهاية ، لها أصول وقواعد ؟ أنا أقول لا ، لا . أقول هذا أنا ، كلّي ، في الميزان.ودائما كفتي مرجوحة ، ودائماً لا أعرف ، ولا أهتم ، بقراءة الميزان .

في غمراته التي تعلو به وتميد ، كان دائماً يريد أن يعرف كيف تتلقى ـ هي ـ هذه الهجمات العاطفية ؟ كيف يمكن أن ترى هذه الاقتحامات ؟ قالت له مرة إنه حتى الشيخ

التَفزاوي يرى أنه في العشق من الضروري حُسْن الأدب . كيف يقول لها إن العشاق القدامى كانوا يسيئون أدبهم في حضرة الهوى بل كانوا لا يعرفون ماسوء الأدب ، وإنه اذا صَحّتْ المحبةُ سقطتْ شروطُ الأدب ، كما يقول شيخُه الذي يحبه .

أم لعلها تفكر أن هذا كله شيء لا يتعلق بها ، على أى حال ؟ كم قالت له هذا ، مرارا ، أهو صحيح ؟ لا يمكن ! هل هى تفكر ، ربما ، أن ذلك كله إنما هو من خصائص هذا الرجل ، سواء كانت هي - هى . . موجودة أم غير موجودة ؟ لذلك فهى ، ببساطة ، تُنحيُ ذلك كله عن نفسها ، وتنفيه ، ولاترى له اعتبارا . كيف يمكن لها أن تُقابل هذا الحب باستغراب ، ثم بالإلغاء ؟

قالت له : لا أدري . حتى لو لم أكن موجودة ، فأنت ملىء بالحب . أنت مخلوق لهذا النوع من الحب والألم . لي أو لغيري سواء .

فشرح لها طويلاً أن هذا من خَطَل الرأى ، ولم تجب ، ولم تقنع .

كان يحكي لها عن أخيه الكبير ، من زوجة أبيه الأولى التي ماتت في أخميم ، فترك أبوه البلد وذهب الى الفيوم . قال لها إنه لا يذكر تماما هل رأى أخاه أمين أم أن الصورة التي في ذهنه هى صورته الفوتغرافية الكبيرة ، البُنية اللون ، التي كانت معلقةً في بيتهم في غيط العنب ، وعليها شريط أسود في الركن ، حتى حال السواد ، وانتقلوا إلى راغب باشا ، ووُضعت الصور كلها في أرضية دولاب الملابس . وقال إنه ربما كان رآه فعلا ، وأنهُ كان يشتغل في السنبلاوين ، في السكة الحديد ، ولعله زارهم في الاسكندرية ، ولعله لم يزرهم . وقال لها إنه مات أيضا في ١٩٣٦ أو قبلها ، في حادث قطار . سقط بين العجلات . وقال لها إنه سيحكي لها فيما بعد ، كيف عرف بموته ، وهو طفل ، وإنه الآن سيقرأ لها خطاباً منه لأبيه .

حضره المحترم سيدي الوالد العزيز ..

بعد لثم يديكم الطاهرتين والتماس صالح دعواتكم ، أبلغ حضرتكم أن مأموريتي للآن لم يحدَّد الكشف . وذهبت يوم الخميس الماضي ، واليوم السبت ، فعلمت أن رشوان باشا

بالاسكندريه وربما يحضر الأربعاء . وربنا يجازي أولاد الحرام ، الباشا قال لمدير المستخدمين حدّدْ الكشف على أمين قلدس لأقرب ميعاد ، وحضرته يؤخّره للآن . والله ياسيدي الوالد المسلمين أحسن من النصاري لأن حضرته نصراني زينا وأنا أترجاه مع أني معى الحق ، وكثير من الموظفين سأقهم عليه السكرتير الخاص للباشا ، لحد ماقال له السكرتير : الباشا يزعل .

المقصود الله موجود حى أزلي ويجازي ..

ألتمس من حضرة سيدي الوالد وأنا في أشد حجل من حضرتكم أن ترسل لي جانب نقدية ، لأنه لا يوجد عندي نقدية بالمرة والشهيد المسيح على ما أقول وألتمس عدم التأخير .

سلامي للعموم خصوصا الست خالتنا وميخائيل باشا وعايدة الصغيرة .

واقبلوا فائق احتراماتي .

السنبلاوين في ٩ سبتمبر ١٩٣٥ ابنكم المطيع أمين قلدس.

قال لها : إذن فقد كانت الحادثة في ١٩٣٦ أو ٣٧ ، قبل أن آخذ الابتدائية على أى حال .

قال لها إن الموت كان كثيراً في صباه وطفولته ، وقالت له إن طفولته كانت مدللةً جدا .

وقالت له : تصوّر ، شجرة القشطة الصغيرة مرضت هى الأخرى ، انتقلتْ إليها كآبتى . انظر هنا ، هذه الورقة ، اصفرّت وجفّ جلدها . وجنبها هذه الصغيرة ترتعش ، ولونها يسودّ قليلا ، لم تكن في الأمس بهذه القتامة . هل تحبها ياميخائيل ؟هل تحب شجرتي ؟ ضع يدك على هذه الورقة ، نعم ، هكذا ، بحنان .. ياحبيبي !

لم يكن يريد أن يُحزنها . كانت بالأمس قد نامت نوماً عميقا ، بعد عشاء خفيف صنعه لها ، بإرشاداتها الشفوية المتصلة بين المطبخ وغرفة النوم ، من حساء ، ونسيرة دجاجة مسلوقة ، وزبادي ، ولقمة عيش محمّص ، وبعد كثير من الدواء ، وكثيرٍ من الحنو ، وقليلٍ من صنع الحب ، ولم يكن يريد أن يوافقها على أن مرضها قد انتقل إلى شجرتها أو إلى هاتين الورقتين العريضتين منها ، على الأقل ، وأنها عندما استيقظت اليوم وقد عادت الحمرة الخفيفة الندية إلى سمرة بشرتها الصبوح ، وتمطت براحة دون ألم تقريبا ، كان النبات قد تحمل عنها الفداء وقدّم نضارته قرباناً لنضارتها .

كانت نانا ميسكوري تهمس بغنائها الأجش العميق ، فقد خفض المسجّل إلى آخر درجاته ، كان ثمّ حضور بعيد لصوتها ، فقط .

قالت : ياحبيبي ماذا فعلت بي ؟ لقد شفيتُ تقريبا .. !

قال : الحب ، والحساء والنسيرة ، عملتها كلها حسب الوصفة التي كانوا يعملونها للمرضى ، من أمثال سيادتك ، في قرية أميّ ، بالضبط .

قالت ، متطلعة ، متوجسة : ماذا ؟

قال : أبداً ، بسيطة . يمسكون بغراب أسود ، غطيس .. لازم غراب نوحى ، يسلقون لحمه ، ويُعشّون به المريض ــ أو المريضة ! ــ من حسائه ، زبادي طازه .... بس .. والشفاء ، بإذن الله ، مضمون .

قالت له : يادمك ..! ولو ..! لحم الغراب كان لذيذاً جدا ، وفيه الشفاء أيضا ..

قال : صحيح .. لكن المهم هو مالم أقل لك عنه ، الحجاب !

قالت : قل ياسيدي .. حجاب ماذا ؟

قال : حجاب موصوف ، على جِلْد الغزال .

قالت : أين ؟

قال : كتبتُه لك ، وأنت نائمة .. لن أقول لك أين .. لكن الوصفة أن يُكتب ثلاث مرات في اليوم .

وكان يمر براحتيْ كفيّه على ظهرها ، ويكتب عليه بسبابته ، كتابةً رقيقة .

قالت : ثلاث مرات فقط ؟

قال : على الأقل . وكل زيادة فيها بركة .

فاحتضنته ، وقبلته .

في القديم ، كما يحدث أبداً حتى الآن ، كان مد التوتر يرتفع عنده ، كلما اقترب ميعاد مجيئها .

ولما جاءت ، دخلت عليه ، مسرعة الخطو . قبّلها بسرعة على خدها ، وفكت الكوفية الطويلة البيضاء التى كانت تدور بعنقها وترتمي على صدرها وبطنها ، وألقتها على الاستوديو ، وانحنت فأحس بحركتها المألوفة وهي تزحزح حذاءها عن قدميها منه ، ووضعت حقيبتها الكبيرة البيضاء ، وحقيبة يدها المربعة من نفس اللون والطراز ، ونظرت إلى ساعتها ، وتنهدت بارتياح .

قال : حمد الله على السلامة .. أُحضر لك شرابا ؟ سكوتش ؟
قالت : ياليت ياميخائيل . أغرِقْه بالماء ، كما تعرف .. هل تتصور أنني منذ ساعتين بالضبط كنت ما أزال في بيروت .

وهو يُعِدّ الشراب – كان ينتظرها في بيتها القديم – كانت تتكلم ، كما لو كانت تحدث نفسها عن هذا العالم المائل على غير وجهه ، عالم المثقفين ، والمشتغلين بالكلمات ، واللغات ، والتاريخ ، والكتب ، بدلا من العمل . وسألت هل صحيح أنهم وحدهم في النهاية هم القادرون على التغيير ، في المدى الطويل ، لأنهم القادرون على الفهم ، والمعرفة ، وعلى النقل والتوصيل ؟ وقال إنه لا يظن ذلك وأنه ربما ليس هناك تغيير ، وربما كان الفعل – كالقول – بلا جدوى ولا تأثير ، لأن هناك قوانين حتمية ومتكررة النفاذ ، وأن ذلك كله له حديث طويل على كل حال ، وأنت متعبة الآن ويجب أن تستريحي .

ولكنها أخذت تحكي له ، على الفور ، وهي متربعة على الاستوديو ، بعد أن غسلت وجهها ولبست شيئاً واسعا مريحا ، كيف مضى بها التاكسي في الشوارع الضيقة المرصوفة بالبازلت ، تعلو وتدور وتنخفض بين أسوار البيوت الحجرية على المرتفعات ، تتهدل عليها أغصان العنب العجوز الخشنة والخبيزي الافرنجي ، تحت سفوح ناطحات السحاب بمراياها الشاهقة ، من الزجاج المدخن وتشبيكات الصلب والالومنيوم . قال لها سائق التاكسي : أهلين .. من ذا الذي لا يعرف عنوان المكتب في بيروت كلها ؟

قالت إنها صعدت سلالم ضيقة ، ولم يكن على الباب حراسة ، ولكنها لما دقت الجرس لاحظت أنه كان مغلقا من الداخل بعدّة مزاليج سمعتها تصطك وهي تنفتح واحداً بعد الآخر .

وكان في الغرفة الواسعة مكتب واحد عريض لا يجلس إليه أحد ، زُجاجُه عليه الأكوام المعتادة ، من المجلات والكتب والأوراق ، وزهرية آسيوية رفيعة العنق من الخزف الأسود اللامع ، وفيها عيدان زهر جاف بنفسجي مُبْيَضّ من القِدم ، وكانت في الغرفة سكرتيرة تجلس إلى مائدة الآلة الكاتبة ، وبجانبها تليفون من غير أرقام ، وتلبس حذاءً عاليا إلى ماتحت الركبة ، وميني جيب ، وجاكتة كاكي ، رحبتْ بها بالانجليزية ، بلهجةِ الجامعة الامريكية ، ثم انتقلت على الفور إلى اللهجة اللبنانية . وكان الحائط مغطى بأكمله بالملصقات ، وخريطة فلسطين بالسكك الحديدية والطرق من أيام الانجليز ، وصور ليلى خالد وماركس وهوشي منّه ولينين وماو وجيفارا هائلاً ضخما ، وفتاة عربية الملامح تحمل بندقية على شكل خريطة فلسطين بحدودها القديمة سوداء مضغوطاً عليها ، وشعارات أخرى وأعلام اتحاداتَ ونقابات فلسطينية ودولية والأبيات الشهيرة : « آه ياجُرحي المكابِر وطني ليس حقيبة وأنا لست مسافر ، إنني العاشق والأرض حبيبة » قالتها كأنما تترنم ، وصورة رسمية تحت الزجاج وفي إطار أسود عريض لياسر عرفات بالكوفية المخططة وابتسامته مازالت شابةً بعد ، وصورة على ملصق لجورج حبش ، فتىً بَعْد أسود الشعر والسيجارة بين السبابة والبنصر المفتوحين ، وابتسامته هادئة لاتكاد تُرى تحت شاربه المشذَّب .

وقالت إنها انتظرت قليلا حتى دخل غسّان ، قالت إنه ثوري حقا ويعرف كيف تكون الأولويّات . قالت إنها كانت تموت شوقاً إلى أن تراه بعد أن قرأت له رواياته وقصصه ، ولكن موهبته الهائلة وصدقه مع نفسه هي التي تجعله يضع الثورة والجماهير العربية قبل الرواية والقصة . قالت إن نظرته كانت صافية وليس فيها أدنى قلق وإنها تعرف هذه العيون ، عيون الذين يسيرون إلى موتهم ، بعيداً كان أو قريبا ، مفتوحة وصاحية كالشمس . وقالت قلبها سقط عندما تعرّفت على هذه النظرة . وطردت عنها بسرعة هذا الخاطر وقالت إنه هو الذي دبّر لها الجماعة المسلحة الصغيرة التي كان عليها أن تذهب في صحبتها الى قلعة صُور على البحر ، لتصوّر كتاباتٍ فينيقية تحتاجها لبحثها للماجستير ، قالت إنهم كانوا شبابا صامتين جدا ، ولم تعرف حتى أسماءهم . وقالت إن الرحلة التي لم تستغرق إلا سحابة اليوم كانت غريبةً ومليئة . وعندما عادت كانت بيروت مضطربة ومتوترة تحت أنوارها اللامعة ، وطلقات رشاشات سريعة تتناوب مع دقاتٍ ثقيلة ، وتصمت . وكان الطريق إلى المطار ، لحسن الحظ ، مفتوحا .

وقالت إنها في طريقها في حي الفاكهاني رأت فتاةً تقف على شرفةٍ انكسرت من نصفها ، وسقط جزء من الدرابزين الحجري الذي يحيط بها ، وكانت تنشر ملاءة سرير على حبل به مشابك الغسيل ، وتحتها دكان مقفل بباب من الصاج المضلع ، انبعج طرفه العلوي ، وأمامه قضبان حديدية ملتوية ، وعلى الحائط بجانبه ، بخطٍ طفلي : ثورة حتى الموت ، مكتوبةٌ بين آثار طلقات الرصاص المدوَّرة التي نقَّرت حجر الحائط . قالت إن الفتاه ابتسمت لها ، من الشرفة ، وهي تمرّ تحتها بالتاكسي ، إلى المطار .

قال : صمت غسان الثوري والكاتب معا بلا انفصال ، بعد . انفجرت سيارته الملغومة وهو يفتح بابها ، وتتالت موجات القتلى والساقطين تحت تفجّر النار البذيئة عبر السنوات السود التي لا تريد أن تنتهي .

قالت إنها لا تثق بالثوريين العابسين الكالحي الوجوه . وإن الثورة فرح في الأساس .

قال : البهجة تحدث وتمضي كالحلم غير المتكرّر كالشمس في الليل . وشمس الحلم في الليل تسطع حارة وسوداء ، وحوافها حادة . وألم البهجة لا يُطاق . أما القتل فمتكرر ، لاينقضي . والذي يتبقى هو اللَيل الطري الثقيل . قهْر الأمم التي بلا وطن الجوع في قلب الوفرة المهدَرة ، والإنهاك ، والظمأ ، وانتهاك الأطفال ، والقلب الذي يبكي وحده لايواسيه أحد ، ومياه النيل التي تغيض وتُدَجَّن وتُلَجَّم وتتلوث قُدْسيَّتُها ، والغرباء الذين اقتحموا الديار وسحقوا فصوص القلوب في الرمل ، والزرّاع قد هجروا الأرض بحثاً عن اللُعَب والخُدَع الإليكترونية ، وتركوها للخراب والدود . التعذيب تحت الإشراف الطبي والاختناق المحسوب بدقةٍ سيكلوجية في زنازين السجون المصحّات ، والموت في المهد من الجوع ، والاختفاء وراء الأشواك الحديدية ، وملفّات العدالة على قارعة الطريق يدوسها الرائحُ والغادي وجدران الأقبية الاسمنتية حسنة الإضاءة تُطبِق علىٰ أصحاب الحلم ، الأحلام مُراقَبة والكلمات ــ كل الكلمات ، أي الكلمات ــ مهدرة وملوثة ، كالحجارة الصغيرة المكسّرة في الشوارع الغاصة بالقمامة ، طوفان التليفزيون بالهراء والخرافة والعنف الأحمق المزيّن بأقنعة الحكمة المغشوشة وغيبيات النصوص الميتة ، بينما اللصوص يصعّرون الخدّ في المرسيدس الفاجرة القبح .

كم من الجرحى والمصابين والساقطين إعياء والصامتين !
كم من القتلى ، مجانا .

قال : كنت أظن أن السعادة ممكنة ، وأن الحب ممكن ، وأن العداله ــ في نهاية الأمر ــ ممكنة . الآن فقط عرفت ، المستحيلات الأربعة .

قالت : هذه سخرية سهلة ولا تليق بك . والعَديد أصبح الآن موضة قديمة ، أليس كذلك ؟

قال : بل قديمة جدا ، جدا . بل هل أقول : قِدم الوجود ؟

قالت : هل تنكر الآن اللحظات التي فيها توجد ما تسميه بالمستحيلات ، الحب ، السعادة أقصد إلى آخره ؟

قال : بل لأنني لا أنساها أبداً يقبض على عنقي المستحيل . كم نشدت وجه الحق ، وجه العدل ، وجه الحُسن ، كم نشدت اليقين ، طول العمر ، عبثاً فيما أظن ، أحيانا . لأنها توجَد . توجد . توجد . ومع ذلك ماجدوى الكلام عنها ، حتى ؟ حصاد هذا الهشيم ــ كما يقال ــ في كل يوم . ليس له عيد . مازال الهشيم حصيداً ، ويظل ، كل يوم ، بلا توقف .

وقال لها : وهذه النغمة ، كما تعرفين ، ممجوجة جدا ، ومملّة . وليس فيها أدنى رومانتيكية أيضا .

ثم قال : حتى الحلم ، كنت أظنه ممكنا .
قالت : إمكان الحلم ــ كما أكاد أسمعك تقول ــ مطلق .
قال : هذه الهتفات كلها لاتُغنى ولاتسمن من جوع .
قال : والألم ؟
قال : والعبث .

الباب السابع

ظل الشمس المستحيل

في طراوة الصبح الأولى كان التاكسي الذي جاء به من مينا هاوس قد اخترق القاهرة ، وهو الآن يلف ويدور في الغورية التي تصطبح على يافتاح ياعليم يارزاق ياكريم ، بين بياعي البليلة والكشري والحمص المسلوق في عرباتهم الملونة بالأخضر والأحمر ، فواحة برائحة القمح المغليّ وزجاجها مغبش ببخار الأكل السخن ، واسطوانات البوتاجاز الطويلة الصدئة بجانبها ، والناس تأكل بملاعق صفيح من أطباق بلاستيك قد اجربّ لونها قليلا ، ثم تدبُّ الكوز المربوط بدوبارةٍ في برميل مملوء بالماء غير الأورثوذكسيّ ، تشرب بعد الأكل . والعيال تذهب للمدرسة ، صبيان وبنات ، بمرايل كالحة البياض يجرون ويتنادون وعلى ظهورهم حقائب للكتب من نفس قماش المرايل المصفر . والبنات المُنقّبات يجررن أذيال أثوابهن السابغة وعلى رؤوسهن الطرحة البيضاء ، ناضرات الوجوه كالراهبات ، من أمام القهوجية والحلاقين الذين يكنسون التراب العتيق وكومات صغيرة من الشعر المحلوق بالأمس من على الأرض ، ويرصون الكراسي ويهشون الذباب من الواجهات الزجاجية ، ومن بين المنجدين والاستورجية والسمكرية الذين يعكفون على شغلهم ، من الآن ، على الأرصفة الضيقة وتحت الأسبلة والقبوات وحيطان المساجد المنحوتة بالنقوش والكتابات التي لايقرأها أحد . وفي مداخل البوابات الحجرية العريقة علّق التجار القفاطين البلدية وقمصان النوم الحريمي النايلون الملونة والبنطلونات الجينز وقمصان الأولاد والقمصان النسائية المشغولة بأسلاك فضية وذهبية اللون مخرّمة وتبدو ثقيلة وموحية بعربدةٍ حسيةٍ ما . وشباب في غايه الوسامة ربّوا لحاهم وحفّوا شواربهم على السُنّة وعلى رؤوسهم الطواقي الرقيقه الخروم : والعربجية قد أسندوا عرباتهم الكارو بأذرعتها الطويلة العارية على بوابات خشبية هائلة وسوداء من القِدم وبها مسامير غليظة الرؤوس ، لم تعد تُفتح أو تغلق من زمن بعيد ، بينما أحصنتهم تقف محنية الرؤوس تلوك الفول والشعير في المخلاة الخيش المعلقة برؤوسها ، ناتئة العظام ، متهدلة الخِصيّ ، وفي دكاكين كالحقاق يشتغل الرفّا والخطاط ، عيونهم التي لم تصحُ بعد تماما من النوم قريبة جدا من شغلهم ، وهناك لمّة من الناس متزاحمة أمام بوابة الفرن التي تئزّ النار في رحمها الداخلي المتقد . وطلبة الأزهر الصبيان ، بالملابس الافرنجي والقفاطين والعمائم يمشون بسرعة ، أو بوقار ليس من سنهم ، ويفسحون الطريق للتاكسي الذي يزحف ببطء لا يرفع السائق يده عن عصا البوق المكتوم ، الصغيرة ، تحت عجلة القيادة ، ولا يكف عن النداء ، بخفة قلب وهو يتغنى : إوعَ ياسيدي .. إوعَ يابابا .. حاسب يامولانا .. خل بالك ياأختي حتى وقف أخيرا أمام الباب الخشبي وعليه رقم ٢٢ ب وشجرة الجميز الهائلة الجذع ، لفّات عضلها بارزة ومضلّعة وعلى طرفٍ خشنٍ من غصن قديم مكسور منها ، خشبُه أسود عتيق ، تحت خيمة الورق المترب

العالي الذي ضرب الجدران والتفّ على نفسه تحتها ، بزغت نبتةٌ صغيرةٌ جدا يانعةُ الخضرة ورقيقةٌ وبِكر ، تهتز في هواء الصبح ببراءة موجعة .

أُفرِغ العالم من زحمته كلها ، عندما دفع الباب الخشبي المعقود ، واجهةُ عقده محلاة بالصينج المعشّقة المركبة ، فصرَّ على مفصلاته ببطء . نَشَق ريح الحوش الداخلي المكنون الهادىء فجأة بعد الضجيج الخارجي ، وكان في وسطه مربع من بلاطات الحجر الجيري ، على أحد أضلاعه دكة خشبية تحت شَجرة الجميز الداخلية ، وأمامه زير من الفخار البنى المحروق مندّى ولامع من الماء ، وعلى غطائه المدور المصنوع من فِلَق خشبية متلاصقة ، كوب من البلاستيك .

كانت نبوية ، غامقه السواد بوجهها الطيب وشفتيها المتهدلتين ، هائلة الأرداف ، تملأ حَلّة كبيرة من الألومنيوم من حنفية مركبة على الحائط في الحوش ، نازلة من ماسورة رفيعة خارجية ، صباح الخير يانبوية .. صباح النور يابيه يسعد صباحك . والسلالم الحجرية الضيقة بين حائطين مصمتين ينيرها مصباح كهربي أصفر اللون في الصبح ، على كل بسطة منها .

لايعرف فيم يفكر . كان خفيفا وسط الناس والشجر والحجر .

فتحت له الباب ، وأغلقته وراءه بسرعة ، ووجد وجهها فجأة على صدره وهي تحتضنه ، دون كلمة ، وعندما رفعت رأسها إليه كانت عيناها تسبحان في الدموع ، من غير صوت ، ونَفَسَها متسارعا .

قالت بصوت مختلج خافت : تعال .. تعال .

الفانوس النحاسي المخرم مفرغ النقوش وراء زجاجه الأزرق كان منيرا فوقهما ، وراء الباب .

وفي البيت رائحةُ الصبح ، وكِنُّ الليل المنقضي ، وسكونٌ تام .

همس بلهفة : رامة .. !

وهو يقبلها على شفتيها قبلة ملهوجة .

كانت الدموع تنساب على صفحة وجهها الناعمة المضيئة بهدوء ، وهى تبتسم له ابتسامة صغيرة وعذبة .

قالت : لاشيء .. هذا لاشيء . من الفرح ، فقط . دموع الفرح . تعال . ادخل ، اقعد هنا ، لحظة واحدة وأجيء لك .

أشارت إلى الصوفا التي يدخل جزء منها بين بروزين في الحائط ، تحت صورة المولد ، مفروشة بالأحرمة والقصب والوسائد الصغيرة الخضراء بها خطوط ذهبية باهتة ، ورأى تحت حائط المشربية ، بضوئها المتقطر ، من خلال تعاشيق الخشب الدقيقة الناعمة ، الشكمجية المعدنية المنقوشة بزخارف نباتية ، وعليها عقود متدلية من الكهرمان واللازورد وسلاسل وحلقان هلالية ، مرمية عليها بنوع من الإهمال المترف ، والكراسي المنخفضة من الخشب الأخميمي . .

انفلتت عنه ، وهى تمسح عينيها ، ووجهها ، بيديها بسرعة ، خجلة من فرحها ومن دموعها .

جاءه صوتها من المطبخ ، كأنما تريد ألا تفقد الصلة به ، ولو كان ذلك بالكلام عبر البيت : أعمل لك قهوة .. عارفة .. تركي ومضبوط ..

فضحك : تمام .. تمام .. أنت لا تنسين .

جاءت ، ورأى ، كأنما لأول مرة ، أنها في جلابية نوم رقيقة وطويلة وتمتلىء فتحتها بصدرها الوفير الحر ، وجلست بجانبه على الصوفا ، وقد تركت القهوة في المطبخ وقالت : ثانية واحدة وأجيء إليك بالقهوة ، لا أريد أن أتركك . فاحتضنها ، على مهل هذه المرة ، وأحس مرة أخرى ، بعد السنين الطوال ، كم هى قريبة منه ، عاد إليه عطرها الخفيف الذي يعرفه ورائحة جسدها الصاحي من النوم وشفتاه تجوسان برفق على الخد الناعم الذي مازال فيه بلل خفيف ، وهى تغمض عينيها لحظة ، ثم تدفعه عنها ، بحنو ، بأهون حركة ممكنة ، وتقول بصوت حار : القهوة .. انتظر .. آتى بالقهوة الأول .

مرةً واحدةً ، وكأنها هناك طول الوقت ، يجيئه حسٌّ بالحياة معاً ، معها ، لا حساب للزمن فيه ، قديمٌ جدا ، ويحدث الآن ، كل لحظة من جديد .

هل أتذكر الحلم المراود المتكرر القديم : أنني في بيتها الذي سوف يصبح من الآن ، بيتنا ؟ أم هو حلم داخل الحلم ؟ غرفتها ، في بيتها ، على شاطىء بحرٍ غير موجود ، أصعد إليها السلّم واثقا وعارفا ، كما لا يحدث لي إلا نادرا . أعرف مَسّ الخشب الذي هو عنصر الحلم — النبوءة ، ونفح أنفاسها تحت تشابيك الشجر القديم الدفىء . أمشي ، ليس لقدمي وقع ، على السجاد في الممر الطويل الضيق . أعرف هذا الممرّ الحميم ، وأعرف الغرفة الأخرى التي لم أدخلها بعد ، في جوف الحلم . أعرف كيف تضع ملابسها وكيف تغطي سريرها ، أعرف الدولاب الخشبي الداكن اللون قليلا المقفل على أشيائها الصغيرة . وأعرفها مستريحة ، راقدة مستندة بذراع واحدة على الفراش في ثياب النوم ، تنظر إليّ نظرة فيها فهم وتَذكُّر وحزن وانتظار ، والستارة الرقيقة تهدّىء من نور الزجاج في الخارج ، وتُشيعه في شفافيةٍ مائيّة ثابتة الوقع ، أعرف الراحة الوحيدة والنهائية في هذا الحلم داخل الحلم داخل الحلم . وأعرف أنه حلم نبوءة . وغرابة . وشَيشُ موجٍ هادىء يذوب على سيف بحرٍ غير موجود ، على رملٍ أصفر دقيق ودسم الجسد تحت الشمس الخارجية في قلب القاهرة القديمة المزدحمة بالناس . هناك الموقع الوحيد على هذه الأرض الذي أعرف فيه معنى الحرية وتتوارى كل الهُولات ، تتفتح لي السماء وتأتي رفرفة الأجنحة العريضة النورانية ، تحت عينيها . الآن . حقيقتي .

لم يعرف متى وكيف فرغا من شرب القهوة ، في صدمةِ حميّا اللقاء . تدفّق الحديث بينهما ، دون أدنى حاجز ، منذ اللحظةِ الأولى . لم يكن هذا حديثا بل مفاتحة كاملة ، وحرية كاملة ، وفرحا ، وتوهجا ، تتخلق فجأة . وهي معه ، بكل ذكائها ، ولماحية عباراتها ، ودفء الكرم الروحي الذي لاحد له عندها . ووميض الكلمات التي تأتي إليه بعفوية ، كأنما تتشكل ، كاملة ، بمجرد لمسة ، وكل المخزون في داخله ، الأفكار والتعليقات والحكايات والنكت وتسميات الإعزاز السريعة الحانية ، لا يعرف كيف تواتيه من غير أن يدعوها ، تتألق وتحمي وتحلق وتنساب ، يعجب يكون الحديث وصالاً حقيقياً كأنه انثيال دفْق الحب نفسه في كلمات حارة ومُبرئة وجارية في نهر يسبحان فيه معا : كأنها حركة النفس المتجسدة الطافية بمتعة ، وهناك في داخله صفح كامل لنفسه عن كل لُوثات التخاذل والهرب والتقاعس والغضب وكل ما تنطوي عليه تضاعيف الهواجس ، صفح كامل كأنه لا يوجد ، لأنه لا يوجد أصلاً سبب له .

قالت له : فهمت رسالتك . وطلبتك . وعجبت لماذا لم تجيء ؟

قال لها وهو يضحك من غير أدنى حرج ولا أدنى ترسب إن الألم القديم كان شيئا مخيفا وإنه لم يكن يستطيع أن يدخل إلى الهلكة من جديد ، فقبّلته بسرعة على شفتيه كأنما لتسكته ، وأخذت يده إلى صدرها . فيأخذها إليه ، وذراعه حول دوران كتفها ، وهي تطمئن إلى صدره لحظة ، ووجهها مرفوع إلى وجهه ، فانحنى وقبّل أعلى كتفها .

قالت : لم أكن أعرف أنك تحب كتفي إلى هذا الحد .

واعتدلت بسرعة ، كأنما لكي لاتفوتها اللحظة وقالت : كم أنا سعيده بك .
فقط .
وقامت وقالت : قهوة أخرى ؟
قال إنه هو الذي سيصنعها هذه المرة ، على طريقته .

ووقفت تتفرج عليه ، في المطبخ ، تحت الأرفف المجوفة في الحائط الحجري ، عليها زهريات ، وطاسات ، وقماقم من الزجاج مليئة بالنور الأزرق الشفاف . وهو يبحث ويسأل عن البن والسكر والكنكة والملعقة الصغيرة ، فتدله عليها ، ويجدها ، وقالت إن البن طازج ومحوّج فقال طبعا وهائل أيضا ومن يديك زيّ العسل وأحسن ، ولم يتوقف نهر الحديث الوصال الذي انطلق يهضب بهما معا على أمواجه الخفيفة المليئة المسرعة .

قال لنفسه : ولم يتوقف أيضا طوال ستة أيام كاملة ، الزمن هو الذي توقف فيها ، لم نكن نعرف النهار من الليل ، ولم نبرح البيت ، وعرفنا من نعماء الحب والحنان والفهم والقربى مالم يعرفه أحد . وعرفت فيها أنك أنت عندي المرأة ، المرأة التي لي ، دون أدنى تحفظ ، وعرفت بين جسدينا هذا التجاذب الذي لايطاق ولايُرد ، والحرية التي لا مثيل لها . وليست حريةً فيزيقيةً فقط ، بل كاملة ، وأنك أنت المرأة التي جسمي لها بريء وفوق كل قانون . والصفاء الذي في زرقةٍ باهرة ساطعة .

وعندما عادا من المطبخ ، وكل منهما يحمل فنجانه ، بحرص ومرح ، في يده ، جلست

على الأرض ، تحت قدميه ، على السجاد . باسمة قليلا كأنها لاتشعر أنها تبتسم . وانحسرت جلابية النوم الرقيقة النسيج عن ساقيها الممتلئتين وهى تلمها تحتها ، وكانت ترفع اليه نظرةً يرفرف لها قلبه ، وترى كيف تتوتّر ذكورته ، ومازالا ،يحكيان حكايات،يبدو أن رصيدهما لايفرغ ، حتى وضعت فنجانها على المائدة الصغيرة النحاسية ، وأحاطت رجليه بذراعيها ، ووضعت رأسها على ركبتيه .

فنزل إلى الأرض بجانبها ، وضمها إليه .

وعاصفة الحب تهب بهما أخيرا ، لايوقفها شيء ، وتنشقّ عن برقها الملتهب ذى الشُعَب ، وهما جسدٌ واحد متقلب الأيدي والأطراف ، تطير اللهفة بالثياب والسيقان ، الشفاه تلتقي كما لم تلتق أبداً من قبل ، تتحد في تماس عميق وتدخل كل الحُرُم ، وتتكشف كل الأحناء ، الشوق الجسدي يحلق ويحطّ بحنو عذب ، عيناها ساطعتان تحته ، وجسمها إليه هو الكمال وتَحقُّق كل الأحلام المليئة المكتنزة الناعمةِ الطوايا ، موسيقى البهجة التي لاتوصف والعالم كله يصعد ويهبط ويصعد إلى عنان الأفلاك ، في دورات تفوق كل الأحكام ، حتى لا تطاق ، ومازال تصعد ، ولا يمكن احتمال الفرح ، وصرخة واحدة ، في وقتٍ واحد ، تنفجر مع التحقق النهائي التام . وفي السماء صفاء فجأة ، وسلام لا حد له .

قالت له ، ومازالا على الأرض وجهها قريب جدا من وجهه :

ـــ المجد القديم ، كما كان ، دائماً .

فكأنه هو الذي قال . لم يتحركا .

السنوات الطوال ، كم ؟ ثماني ، تسع سنوات ، أو أكثر ؟ من الفراق والعذاب الدفين والهواجس ، اختفت كأن لم تكن ، أبدا .

قال لها : وكنت قد قلت لنفسي ، بحماقة ، وقد تيقظت ذات يوم من النوم ، إنني شفيت من حبّك ، وأحسست قلبي صفحة هادئة ، بدلاً من التقلب المستمر ، والطعنات . وكأنما كنت أعرف أن هذه خدعة ، ولا أقول . ولم يكن اليأس مريحا ، ولكنه كان هناك . اليأس وحده كان يقول لي ـــ من غير أن يقول ـــ إن الحب موجود .

وضحك بخفةٍ لم يكن يتصور أنها يمكن أن تحدث له وقال : وكم كنت أحمق ، ولا أفهم شيئا أبدا .

فنظرت إليه نظرتها ، من غير أدنى مرارة ، وقبّلت ظاهر يده ، ولم تتكلم .
وكان حِسّ شفتيها نعمة .

عندما كانا يعودان من المطبخ ، بالقهوة ، رأى بجانب باب المطبخ الزجاجي ذى الضلفتين ، تحت الحائط الحجري القديم ، قرصاً خشبيا مدورا وكبيرا ، مقلوبا على ظهره إلى الحائط ، ولم يفكر كثيراً ماهو ، كانت إلى جانبه قوائم مائدة مخروطة السمّانة أنيقة الشُغْل ، وبجانبها مباشرةً صناديق من الورق المقوى عليها ماركة فيليبس ورسوم تخطيطية لأجهزةٍ ما ، مازالت محزومة بشرائط حديدية رفيعة ومتينة ، ومائدة المكوى الرفيعة الطويلة مطوية وقائمة إلى الحائط .

في حكايةٍ من حكاياتها الكثيرة ، وهى متربعة على الأرض ، وهو نصف مضطجع مائل على جنبه ، من فوقها ، على الصوفا ، وأمامها السكوتش والماء وسطل الثلج الألومنيوم الصغير ، في ساعةٍ من ساعات الليل أو النهار التي لم تعد تستبين أو تتحدد أيها ، وهما بين تدفقات الحب والكلام والنوم الغَرِر والأكل والمفاتحة والقربى بلا حدود ولاتفريق في عيدٍ متصل ، قالت له إن عباس فؤاد ليلتها كان جديرا بالشفقة وهو يتكلم عن أمجاده الثورية القديمة ، كأنما كان يبرر نفسه أو يبرر تاريخ شيءٍ قد انقضى للأبد .

قال لها : وزوجته لم تكد تفتح فمها ، هل لاحظتِ ؟ ظلٌ باهت لنور منطفيء بالفعل .

قالت : غائبة عمداً . كأنه قد مصّ كلّ دمها . دراكيولا ــ لا مؤاخذة ــ من نوع خاص . هذا النوع من الرجال . هل تعرف أنه يحب إلهام ؟

قال : لا ؟ إلهام ؟ الصغيرة الجسم ، الطفلية ؟
قالت : لاتخف عليها ياحبيبي . ليست طفلة جدا ، مع ذلك .. !
قال : حبّ حبّ يعنى ؟ للآخر ؟

قالت : ياميخائيل الله أعلم بما في الصدور وخائنة الأعين .. طبعا للآخر .. مالنا نحن ومالْ عبيده ؟

قال : ياستى ربنا يحنّن على عبيده .. الرجال دائما غلابة على كل حال ، وأطفال .

قالت : ليس كل الرجال .. غلابة ؟ بُرّيه منكم أنتم يارجال .

خطر بباله ، بسرعة : بِرئتْ مِنّا ؟

وحكت له حكاية قديمة ، قالت : اعتُقِل حسن ، كما تعرف ، بعد ثلاثة أشهر أو أكثر ، قضاها في الشقه التي استأجرتها لهما وهو خليل عبد المسيح ، في سيدي بشر . سافرت مع خليل إلى بورسعيد وهرّبته للخارج ورجعت ، حكيت لك هذا ؟ أليس كذلك ؟ المهم لم يرض حسن أن يهرب ، أو أن يسافر ، دعك من كلمة الهرب هذه ولا تفتح باب المناقشات فيها ، أوافقك ياسيدي ، ليس الهرب ، لم يرض أن يسافر ، كموقف سياسي ، وقُبض عليه . فذهبتُ إلى وائل نور الدين ، تعرف هو الذي شغّل حسن واعتمد عليه في الجرنال ، ذهبت إليه وقلت له ببساطة : أنت لست رجلا .

قال بدهشة : وائل نور الدين ؟ قلت ذلك لوائل نور الدين نفسه ؟

قالت من غير اهتمام ، تقريراً لواقع ، بلا أدنى ادعاءٍ لأى شيء : نعم . كان قد وعده بشرفه كرجل أنه لن يُعتقل . قال إنه ضمنه عند عبد الناصر . فخرج حسن ، وذهب للجرنال ، وقبض عليه هناك . عبد الناصر كانت له أشياء كهذه ، أو مَنْ حوله ، لا أعرف ، ليس هذا مهما الآن .

قال : وكانت له سياسة ، ماذا يهم الناس ، أو الأفراد يعنى ، بإزاء أهداف قومية ، بإزاء حركة التاريخ ، كمايقال ؟ المهم ، ماذا قال وائل نور الدين ؟

قالت : لم يفتح فمه . ولم يكن هناك شيء يقوله أو يفعله . ولم يكن هذا مهماً أو مطلوباً

حتى . المهم أنني قلت له ، وكمى . الرجل عليه أن يفي بكلمته ، ولو على رقبته . هذا ما أفهمه .

قالت : وبعد ذلك كان عليّ أن أكافح ، وحدي ، لكى أربي البنت . وأن أواجه كل شيء . لم يكن مرتب الوزارة يفعل شيئا ، بالطبع . أعطيت دروسا خصوصية لطلبة معهد الآثار في اليونانية القديمة . وترجمت نصوصا عنها لمجلة انجليزية تصدر في بولنده مرة كل عام . وناضلت للحصول على مأموريات في مواقع التنقيب في الفيوم ، وتونا الجبل وغيرها وغيرها . كنت أسافر كل يوم للقاهرة بعد عمل اليوم ، وهلاك اليوم ، في الموقع . وكنت مازلتُ نشطة في الحركة ، رغم الاعتقالات ، في الوقت نفسه . وبالليل ، وحتى ساعات الفجر ، كنت أحضر الاجتماعات . ونصدر البيانات ونعمل من أجل التوحيد ، وندبر أمور المعتقلين . لم أقبل منهم مليما . أقنعتهم بأن كل شيء تمام . المهم في هذه الحكاية ليس هذا بل هو الذي لم يأت بعد . كان أبو عقيبة صديقا قديما للعائلة . وكان يودّنا ويزورنا في البيت ، وله علاقات عمل مع أخوالي ، وهكذا ، لم تكن التأميمات قد حدثت بعد ، تذكُر ؟ وكان أسطول المرسيدس الحمراء الشهيرة ينقل القاهرة كلها ، من كل أحيائها الى كل أحيائها ، غير أعمال شركاته الكثيرة الأخرى . وتقدم الرجل إليّ ، ببساطة ، لكى يساعدنا في الأزمة . لا ، لا ، لايذهب عقلك الشغّال كل مذهب . الرجل كان شهما ، جنتلمان حقيقى من المدرسة القديمة . تكلم عن الزواج مباشرة بوضوح ولباقة في الوقت نفسه ، وبحساسيةٍ ، أيضا ،للمشكلة . قال إن المسألة متروكة لي ، وأن الطلاق — إذا قررت أنتِ ذلك — ليس مشكلة بالطبع ، مهما كان مؤلما ، وهو يقدر ذلك تماما . وقال لي : « لاتردي على الآن . فكري » بالضبط ، حسب الأصول .

قال : وفكّرتِ ؟

نظرت إليه بسرعة وقالت : ولاثانية واحدة ياحبيبي . ياخبر ! أبو عقيبة ؟ ثم أن الحكاية كلها كانت حكاية مبدأ ، وموقف . ليس سياسيا فقط . شيء أبعد . ثم أن منال كانت عندئذ في الثامنة أو التاسعة ، ذكية ، لماحة ، ورقيقة مرهفة ، وَطموحاً ، جداً ، من يومها . وقد بدأت بالفعل بتحول ، من وراء براءتها وطفولتها ، إلى امرأة صغيرة . صحيح ، كان هناك هذا ، ولكن كان هناك أيضا شيء أبعد . أخلاق . نعم أخلاق . ولا تقل لي إن الاخلاق مسألة اجتماعية حسب التفسير الماركسي . لا ليس هذا ماركسيا حتى ..

قال : ولا ماركس كان ماركسيا .. !

قالت : نعم . هناك شيء أعمق .

قال : ألم أقل لك أنت — في الحقيقه — طُهرانيّة ، وطهرية جدا . ككـــل الثـــوريين الحقيقيين .

قالت : لا أعرف . المهم أن منال عندما كان عندنا ، مرة ، بعد ذلك ، وقد اقتنع الرجل ورضى بنصيبه ، قالت له إنها تريد أتوبيس ، لعبة تلعب بها ، يعنى ، في البيت إلى جانب لعبها الكثيرة ، فقال لها ببساطة : حاضر .

وفي صباح اليوم التالي ، على طول ، كان الأتوبيس يقف أمام الباب . أتوبيس حقيقي ، مرسيدس ، أحمر ، ضخم ، جديد بشوكه . وفيه السواق . وطلع الرجل إلينا ، وقال لمنال :« جئت لك بالأوتوبيس . خلاص » . تصوّر ، الأوتوبيس واقف أمام البيت ، يزحم الشارع ، تحت الشجرة ، وسقفه يرتفع إلى الشبابيك ، والجيران يتفرجون ، وكل البوابين في الشارع اتلمّوا ، وياسيدي الله يرضى عليك الله لا يسيئك ، في عرضك في طولك ، ورأسه وألف سيف الأوتوبيس لمنال — التي وقفت مشدوهة ، مبهورة ، لاتفهم ، وغاضبة أيضا كما لو كان قد خدعها ، فين وفين ، وبعد مناهدة وطلوع الروح ، رضى الرجل أن يسحب الأوتوبيس ، جاء لها ، بعد الظهر ، بطقم « ماتش بوكس » كامل من الأوتوبيسات .

قال لها : كيف رددت عليه ، في حكاية طلب الزواج يعنى ؟

قالت : أبدا . قلت له ببساطة أن هذا غير ممكن . وغير وارد أصلا وأننا لسنا بحاجة إلى شيء أبدا . أنت تعرف أننى أسدد كل ديوني . كلها . وقبل على الفور ، وإذا كان قد صُدم فقد عرف كيف يخفي صدمته ، برشاقة . وظل الرجل صديقا ويزورنا بانتظام كلما جاءت فرصة ، حتى جاءت التأميمات وكان قد سافر إلى اليونان قبلها . جاءه خبر ، ودبر أموره ، كالمعتاد .

قال : كم كان عمره ؟

قالت ، صابرة عليه ، حانية عليه : في الستين ، يمكن أو أقل قليلا . لا أعرف . ثم تثأر لنفسها ، مشاكسة برفق : ولكنه محتفظ بنوع من الشباب الرجولي الكهل ، تعرف هؤلاء الناس ...

قال لنفسه : هؤلاء الشيوخ - الدون كيشوتات - رماحهم مشرعة مازالت ، أعرف هؤلاء الناس .

ولكنه قال لها : أتوبيس ، حقيبتي ، بحاله ، وبالسواق .. أمام باب البيت ، لعبة للبنت .. ما أظرف هذا .. !

قالت : لم تكن أزمة المواصلات وصلت إلى حدها الحرج بعد ، وإلا كنت احتفظت به ، برغم كل شيء .. وسقته في شوارع القاهرة ..

ضحكا ، ونزل إليها على الأرض ، وقبلها قبلة مخطوفة على حَنْية كتفها المليئة العارية وهي تلتمع ندية ، ونَشَق ، بعمق ، أحفَّ نفثاتٍ من عطرها وجسدها .

قالت له : هل تعرف الساعه كم ؟

قال : لا . عشرة بالليل ربما ؟

قالت : الثانية والنصف صباحا !

قال : غير ممكن .. مستحيل .. لا أصدق .

قالت له : تعال ..

ومدت يدها إليه ، وقام معها .

في الممر الضيق الطويل إلى الغرفة الداخلية ، بين الحائط الذي ينفتح فيه باب ثان واسع يرى منه العمود الرخامي المستدير ، والصناديق الكبيرة المغطاة بمفرش الكتان البنى المنقوش ، عليها أطباق من الصيني الأزرق بالأبيض وزهرية نحاسية كبيرة ، تحت المسرجة المملوكية العالية المطفأة الآن ، وبين المكتبة الصغيرة ذات الرفوف الضيقة ، بها كتبها ورواياتها وقواميسها ، وعليها

نسخة كبيرة الخط من القرآن ، مفتوحة ، وكأن كل جانب منها صدر سفينة مقوس ممتلىء بالكبرياء ، ينبثقان من محور واحد ، ويبحران معا بحركة لازمن فيها ، وحواشي كل من الصفحتين المفرودتين ، بنسيجها الممتلىء الباهت ، منمنمة بأفنان وأوراق متداخلة وهندسية وذهبية باهتة . وأمامها الحامل الثنائيّ اللوحتين ، يحمل صورة لأقرب الناس إليها ، تعرّف فيها على منال ، وعزّة التي لم يكن قد راها .

في الأعياد تُدهن كتفا حتحور بالطيوب والزيوت الطيارةِ العبَق وتُسكب دماء الأضحيات على النديين المصبوبين والبطن المسبوك، تتقطر الى وهدة الحَرَم المكنون .

سِنان حَسك الأسلاك المستحصِدة تَسُوط الجسدَ وتُسوِّر سماديرَه ، تستجيش سلاح السطوة المسنون على سَنمة ڤينوس المستديرة بين عماليج الاستسرار السليسة . الشمس تكسر الحُبوس ، ساطعةً وسوداءَ السنى . سقطت سدود السجن . الغسق العابس والسُدْف الدامسة قد انحسرت الساعة ، وهواجس السراب مطموسة . موسيقى نواقيس المَسَرَّة تنسدِر على سهول شاسعة . أي إيزيس ، ياسلطانة ، هاقد استجبتِ للاستنجاد . أساور النحاس لها وسواس على الرسغين والسلاسل تميس على الانسكاب المسبوك . انسدال الساتان الناعس من على الساقين المسحوبتين اللتين تنوسان وتنسابان من مسكته المستحكمة. يستطلعان ويستصرخان ويستهولان السَكَرات المستمرة ، تُسديه سنابل جسمها ، سائغة ، فيستطعم السُلافة إذ تسيل ويستاف النسيمَ السخن . يسفعهما السعير وهو يحسو الكأس التي تسحّ . وسنابك السيرابيوم لها سوْرة مستطيرة وسُعار التمريس على ملاسة السُمرة المَسْودة . يتلمس السحاب المتسلسل السقوط . ويسوخ السهم مغروسا في مرسانه الأسيلة . ثم انبجاس المساورة الذي يستنيم إلى الوسَن تسفى عليه السوابح المسترسلة حتى يُوسِّد الاستكانةَ إلى الحنان الأخير .

كان قميصها الساتان ، في ضوء الصبح ، خفيف الزرقة جدا ، سماويا وصافيا وناعما ، مفتوح الكتفين ، له شريطان عريضان يتقاطعان على النهدين المتنزّيين ، يصنعان مثلثين يضغطان قليلا على حشو الصدر اللين ، ويلتقيان من وراء العنق ليتركا أعلى الظهر كله مكشوفا مدورا ، باهر الجمال ، ثم ينسدل يعانق حنيات البطن المستريح . وكان له شقان من الجانبين ، عند أعلى الساقين العبلتين بسمرتهما البرونزيةِ الفضة .

وفي الأعياد ترفع السدول عن حتحور المقدسة ، عن الابتسامة العارفة الفاهمة التي فيها أقل قدر من الحزن ، ونور الألوهية .

سهم مرشوق في جسد الطلمة لاهتزازه ذبذبة على سطح الأشواق الساكنة . موسيقى صناجات النشوة تصلصل وتشرئب وتتوخ في ثَبَج البطن الوثير يَشُجُّ منه الصَّبَب تحت دمائة الكثيّب المتسايل الجسد والشَّبَق يشق شرخاً في العرش المثلول تحت شمس العطش المطلولة بين شراشيب الشعر الرقيق المبلول .

عندما كان يحدثها بالتلفون من استراحة ماريوبوليس ، في مرة ، قال لها ، كأنما بعبث العشاق الصغار : ماذا تلبسين ؟ جاءه صوتها الخفيض المشحون : القميص الذي تحبه بالشريطين . الآن أريد أن أكون بين ذراعيك . خذني في حضنك . خذني إليك .

شوقه إليها لا يطاق .

والأصفاد تعتصر حشو الأشواق وصبب سورة العشق . الصبّار الصلب مغروس في صلصلة الصرخة التي تصبّ بالصبوات والصبابات وتَسقط شظايا وشواظا شقوقها منشعبة في شفق سماءٍ مشفية على السقوط . عطشان ماأزال أسير في صحراء تُصوِّح العظامَ حتى الصُلب المكسور وليس ثم سُلافة للصديان الذي يصطلي بصَهْد الصهباء المنثالة في قفص الصدر الموصَد .

عندما كانت راقدة على الصوفا ، ملففة ، في تلك الليلة ، بعباءتها السوداء ، بعد أن تركت العشاء ، وموسيقى باخ ، وذهب يصالحها ولا يفهم عنف رفضها له ، ولنفسها ، من جراء كلام في السياسة ، وكان وجهها تحت العباءة إلى الحائط الحجري القديم ، ونـــور الشمعتين قد ذاب وخَفَت وتقطر في أحضان الليل القاسية ، جاءه صوتها مكتوما كظيما ومليئا بالبغض : لا أطيقك . إبعد عني أرجوك .

وقُرب الآخر ، قالت له : ليس هذا ، كله ، صحيحا .

وقالت له : لن أدعك تفسد حياتي ..

قال : لا أفسدها . لا أعرف كيف يمكن أن أفسدها .

وقال : ألم أوافق على طلبك المستحيل ؟ قلت لي : « عندما يأتي الوقت ، لاتقلها أنت ، ولا تفعلها أنت . هذا رجائي الوحيد . دعني أنا الذي أقول . ونفترق أصدقاء » . ألم أقبل منكِ هذا الافتراض المستحيل : أنني – في يوم ما – أكون هو الذي يقطع . هو الذي يمشي . هو الذى يقرر المضى عنك . ظلّ الشمس المستحيل .

وقال لنفسه ، بمرارةٍ خفيفة ما : ولكنها عندما قالت لي ، في اليوم الغريب الأخير :«تُقرر ، فورا ، أن تمضي الآن ، أو تنام عندي بشرط أن تمشي قبل الثامنة صباحا ! » . عندئذ كان غضبي مكتوما ودفينا إلى درجة أنني لم أعرف أنه هناك . كان في خروجي نغمة نهائية ..

وقال : لم تكن أبدا – كيف يمكنَ أن تكون ؟ – نهائية .

ويقول : في هذه المحنة المتصلة ، حيث الفرح قليل ، والكفاءة – على كل المستويات – ليست مجدية ، أحياتك لم تفسد ، على أى حال ، من غير أن يكون لي يد فيها ؟ لا . لا أتوقع أن تكون قد فسدت . وحياتي ؟ هذه العطبُ فيها من الأول . وأنت كنتِ – ومازلت – الفرح الحق فيها ، رغم العطب . كم يهزني الشوق إليك ، وأنأى . شوق مضطرب متلاطم اللجج . الآن طاحت الاحلام والمنى ودَرَسَتْ رسومُ الأخيلة . لم يبقَ إلا رَسيس الحب ، راسخا لايريم ، مركوزاً وأخرس لا ينبس ، لاعين له ، ولاشكل ، ولاقوام . حسم مظلم . وأعرف أنه مامن صوت يجيب على صوتي . حتى أنت لا تسمعينني . هل سمعتنى أبدا ؟ وعلى الأخص لا يسمعنى مَن أحبهم . مازلت أضرب في ساحة الأشواق الشاسعة لا أرى لها شطاً ولا حافة .

قال لنفسه : هذه المشكلة قديمة ومشهورة . ولها اسم في السيكو باثولوجي .

وقال : طيب إذن . جرِّدْها من كل الايحاءات الكثة والنباتات المتسلقة العنيدة ، وانزل إلى صلب المشكلة ، إلى حديدها الأوليّ ، أليست هذه القطيعة صحيحة ، في صلب عَظمها صحيحة ؟

قال : قال الخيزري : كل الهوى صعب. ولكني بليت بالأصعب من أصعبه .

وابتسم ، وقال : فماذا أقول أنا ؟

وقال : والأصعب فيه هو هذا اليأس المعاند المحايل الذي لايقبل ذاته ولايسلم بذاته ، وله وجه آخر ، هو وجه الجمال المراوغ الذي لك .

قال : رصيفي القديم ، عندما نادته رامته قائلة له : ياصَفِيِّي .. أنا لبلاك . أحابها وهو يُغِذُّ الخطى على الرمل السخن في تِيه تولُّهه الذي لانهاية له : اسكتي ياامرأة ، اسكتي . صوتك ينأى بي عن ليلاي .

يارامتي .. أين صوتك ؟

قالت له : خذ ياسيدي عندك . هذه رسالة من واحدة بلدياتك . اسكندرانية ، تكتب للأهرام اليوم ، سجل عندك هذا التاريخ ١٨/٥/١٩٧٩من فضلك :

« أنا واحدة من ملايين الأمهات المصريات . قرأت التحقيق في الأهرام عن المواطنة التي تحتاج إلى نقل كلية سليمة إليها تنقذها من شبح الموت . أقدم إليها كليتى مقابل مبلغ من المال نتفق عليه سويا . لا أطمع في الكثير بل فقط في مبلغ يعيننى على تربية أولادي الثلاثة : ١١ و٨و٦ سنوات . أنا في الثلاثين من عمري . وأعرف أن نقل كليتى قد يهدد حياتي ، لكننى أيضا لم أعد أملك شيئا أبكي عليه بعد ما بعت كل ما أملك . كنا نعيش ولكن مات زوجي ولم يعد عندي شيء يستحق أن يباع أو يجد من يشتريه . ليست بطولة منى أو ادعاء تضحية ، ذلك أننى حاولت الانتحار منذ أربعة أشهر وأرجو من الله أن يغفر لي ماكنت أنويه . قل لي أنت : هل أمامي طريق شريف آخر ينقذ بيتنى وأولادي . أرجو ألا تنشروا اسمي حرصا على سمعة أولادي » .

ولم ينشر الأهرام اسمها .

فقال : نعم .. نعم ..

ثم استطرد : وتسجيلاً بتسجيل ، هل أقرأ لك ، من بين رزمة الخطابات القديمة ، خطابا يعود إلى أول سنة لي في الكلية ، كنت عندئذ أدرس الهندسة ، وأكتب الشعر المنثور . إسمعي ياستي :

خالي العزيز قلدس افندي

الله وحده يرعاك ، ولايوجد إنسان في كل العالم يمكنه أن يدبر أمرك ، ولكن الله وحده أسأله دائما أن يبرد نارك في وفاة العزيز الغالي ألبير بعد فجيعتنا جميعا من سنين قليلة في أمين الغالي الذي لاينسى . أكتب هذا ودموعي تسيل فما من قوة على الأرض يمكنها أن ترد قضاء الله ولكنه أحكم منا وحكمته ارتضت ذلك فاترك له المشيئة .

بالحقيقية ياخالي خطابك ألهمني صراخا ليسوع أن يلاطفك .

ونعلمكم ياخالي أن ابنة عمنا هنية قد وافاها الأجل المحتوم وهي في جنينة البر التاني . أنا وبقطر وزكري افندي قمنا باللازم في الدفنة والجنازة بما يرضي الله وضمائرنا . وحكيمباشي المستشفي قرر أن الوفاة كانت بالسكتة يرحمها الله ويرحمنا جميعا .

أما أنا فباكر بإذن الله سأعمل العملية الثالثة في جسمي الذي لاهو لاحى ولاهو ميت . الله يرحمني بأحد الاثنين وله وحده فوضت أمرى . وبشارة أخى ابن أبي وأمي قد أخفى أمر العملية الثانية على أمى فلم تحضر لتراني . سامحه الله ولكن من حرصه على ألا يكدرها . وباكر العملية الثالثة بقيادة حكيمباشي المستشفى الميري . الأولى كانت في الخصية والثانية في الذراع وباكر عملية البواسير وقطع في المستقيم لأنه أتعبني جدا ولم أعد شفيق السابق بل دائما باك شاك والحمد لله الحمد لله ألف حمد وشكر .

ختاما لك ياخالي العزيز أن تتوجه إلى الله وهو وحده القادر على حمل أتعابك . ولامرأة خالي تعزيتى والله يدبرها ويبارك في ميخائيل افندي وسعدنا بدخوله الجامعة ويحفظه لكم .

أخميم في ٧ نوفمبر ١٩٤٢ . ولدك شفيق

كانت نائمة بجانبه ، وهو يقظ يدخن بتوتر .

سمعها تقول من عتمة وعيها في النوم ، كأنها تفكر بصوت :

ـــ مختار الحجار يريد أن يتشبث بآخر بقايا رجولته .

قال بصوت خافت ، كأنما يريد أن يستدرجها :

ـــ رامة .. كيف ؟

لكنها كانت قد عادت للأرض الغميقة التي اشرأبّت تشهق منها ، فلم ترد إلا بأنين غامض الغمغمة .

عندما دق التليفون في بيتها ، في الظهر ، التقطته ، وهو بجانبها . كان صوتها المدروس الحنون ، الكفء ، المحايد في وقت معا ، هو الصوت الذي عرفه منها ، منذ السنين الأولى ، حتى أنه كان يحزّ في عظمه عندما كانت تستخدمه معه في فترات التبعيد المحسوب . وضعت يدها على السماعة ، وهمست إليه بسرعة : مختار الحجار . فأومأ برأسه ، واستمر يمرر يده ، ببطء وتهجد على ساقها المكشوفة الملمومة تحتها على الصوفا ، وهو قريب منها جدا . وقالت في التليفون إنها اليوم لن تستطيع أن تخرج ، هي حقيقة في غاية الأسف لذلك ، لكنها ملحوقة ، الأسبوع القادم إن شاء الله . اليوم عندها عمل عاجل عليها أن تنجزه ـــ ونظرت إلى ميخائيل ، بسرعة ، نظرة هادئة لاغواية فيها ولاضعف ـ وشرحت طويلا مشاكل النص اليوناني الذي قالت إن عليها أن تترجمه للانجليزية اليوم وترسله غدا بالبريد الجوي إلى بولنده ، وقالت إنه نَص معقرب ولكنه لذيذ . وامتلأ ميخائيل بالشكران لأنه ظن أنه هو النص القديم المعقد المفتوح الصفحة أمامها .

كانت قد قالت له ، في وسط أمواج حديثهما المتصل ومفاتحاتهما التي ماتفتأ تتسع لها آفاق جديدة ، إن مختار الحجار صديق ، ولعله أصدق أصدقائها وأنه ـ أيضا ـ يحبها ، حب الصديق ـ حرصت على أن تؤكد ـ وكأنه يرى فيها عيون مصر . وقالت إن يوم الأربعاء أصبح ـ تقليديا الآن ـ هو اليوم الذي يخرجان فيه معا ، بانتظام ، ليشربا بيرة مثلا ، بيرة على الأخص ، في كابرى ، الذي تدخل إليه من شارع فؤاد في هذه الفسحة المرصوفة الملونة البلاط وسط جدران العمارات والبوابات التي تعود للثلاثينيات ، ملقف هواء وواحة هدوء في زحمة سرة القاهرة ، ويتحدثان . وقالت إنه ملأ دماغها بكلام طويل ـ وعميق المغزى بلاشك ـ عن الكمبيوتر واستخداماته فى اللغة ، والتساوقات المثيرةالتي كان بسببه إلى أن يكتشفها في النصوص العربية القديمة .

استمع إليها بهدوء ، ثم قال : هل تعرفين أنني أعرفه منذ الأربعينيات ؟ وأنه صديق قديم وعزيز جدا ؟ فبهتت ، وقالت : وساكت وأنا أحكي كل هذا الوقت ؟ فضحكا ، وقال إن مختار طول عمره إنسان فذ الذكاء ، وذواقة للفن أيضا . فقالت : تقول لي ؟ طبعا .. وقال إنه عبقري وليس مثله أحد في تدفّع الشباب الدائم والحيوية التي لاتغيض . كأنه يريد أن يسقها إلى مالن تقول .

وحكى لها أنهم جميعا ـ شلة جامعة الاسكندرية في الأربعينيات ـ كانوا على قد الحال ، يعني أولاد ناس مستورين بالكاد ، أو أقل قليلا في السلم الاجتماعي ، يعني ، ولكنهم كانوا جميعا خارقي الطموح ولهم شطحاتهم ، الذي فعل شيئا منهم ، أيا كان ذلك الشيء وأيا كانت قيمته، والذي اختفى . وقال إنه في أوائل الأربعينيات كانت تأتي للإسكندرية مرة كل سنة ، فرقة سيمفونية اسمها « أوركسترا فلسطين » وكان عازفوها وقائدها من الموسيقيين يهود فلسطين الصابرا الأصليين ومن اليهود الهاربين من ألمانيا الهتلرية والنمسا المحتلة أيضا . وكانت سينما محمد على المبنية على طراز أوبرالي إيطالي ــ مسرح سيد درويش الآن قال ـ مذهّبة ومنورة وباذخة أنيقة في دقتها من الداخل ، وكانت هذه السينما الأوبرا الصغيرة تسيل أيامها بالأرستقراطية الاسكندرانية مما كان يسمى الطبقة الراقية،وبورجوازية اليونانيين والطلاينة والأرمن ، وضباط الجيش الثامن الانجليز ، والعسكريين الديجوليين ، أما المصريون الغلابة فلا يحضر منهم إلا جماعتنا ، إذا استطاعوا . قال : أذكر أن التذكرة كانت ربما بعشرين أو خمسة وعشرين قرشا ، مبلغ طائل في ذلك الوقت ، كان علينا أن نحتال لتدبيره . قال : أنا كنت أبيع كتب الثانوي ، وألمّ مجموعات المجلات القديمة أيضا ، وألمّ ثمن التذكرة ، أو التذكرتين إذا كنت محظوظا جدا . أما مختار فقد كانت له حكاية ذائعة الصيت . رهن چاكتته الجديدة الوحيدة لكي يشتري « أبونيه » بالأربع حفلات جميعا ، واكتفى بالبلوفر والقميص في عز شتاء الاسكندرية ، ولا أحد يعرف كيف رد الرهن ، رأيناه بالجاكتة بعد ذلك ، بهدوء ، دون أن يقول شيئا عن الحكاية كلها . قال إنه عند سمع المأساوية لتشايكوفسكي ، لأول مرة من أوركسترا فلسطين ، وجد أن الدموع كانت تنهمل من عينيه بالرغم منه ، كان في الصّف الأول لأنه لم يجد تذكرة إلا بأربعين قرشا ، كيف دبرها ؟ لا يذكر الآن . وخيل إليه أن عازف التشيللو الأول ، مدور الوجه ، صلب العينين من وراء نظارته ، ينظر إليه بابتسامة فيها سخرية وصرامة . وأنه فكـّر بعد ذلك أن الرجل كان حِرَفيّاً فقط ، يؤدي عمله فقط ، وصهيونياً أيضا ، لايعرف إلا كفاءة معينة في كلتا الناحيتين . وأن الكفاءة هنا تساوي القتل . وقال إنه لن ينسى أبدا ــ مع ذلك ـ أول كونسير له ، الكونسير البكر .

كيف عاد بعد منتصف الليل ، والعساكر الانجليز يملأون شارع فؤاد وشارع النبي دانيال ، وقد لبسوا الطرابيش واستولوا على الحناطير يسوقون خيولها بالكرباج ويصيحون ، ولكنه وصل إلى بيته في راغب باشا ، تحت الرذاذ الخفيف ، والشوارع لامعة السواد ، وهو بالجاكتة فقط والقميص المفتوح ، كأنه كان يحلّق ولايسير . قال إن البهجة التي عرفها ليلتها لم تتكرر أبدا ، بهجة الكشف عن جمال غير مقصود ولكنه محتم الوجود ، والمشاركة في نشوة صفاء لم يكن يعرف أنه يوجد ، والاستغراق في وجْدٍ صوفيٍّ حسيٍّ معا .

ثم قال : لم تتكرر . إلا معك . وهي معك ــ كل مرة ــ غير متكررة .

كانت تنظر إليه كما تنظر عندما ينهلّ بانسكاب أسرار قلبه الساذجةِ شيئاً ما ، كأنما بشيء طفيف من الاستغراب ، بلا دهشة ولا رد فعل . كأنما هي لاتتلقى ، ولا تهتم .

وقالت : أما حكاية .. هل عندك مانع أُذكّره بها ، حكاية رهن الجاكتة ؟

قال : مندهشا : مانع ؟ طبعا لا . هذه حكاية مشهورة . كل القدامى يعرفونها .

قالت له فيما بعد إنها ذكرته بها .. وأنه قال إنه لا يتذكر .

قال : غريب جدا .. أنا أيضا لا أتذكر ، أو بالكاد . كل شيء عندي ، قبل ١٩٦٩ ، كأنما هو مِلْك شخص آخر : القرارات والقراءات ، الشعر القديم والهندسة ، المعاناة السياسية والعمل اليومي ، الأفكار والأحلام والآمال الغريبة وأنواع القنوط القديمة ، كلها غائمة بل غائبة . كأنني شخص آخر ــ أنا هو نفسي مع ذلك على نحو ما ، طبعا ــ الطفل الشاب لكنني أنا المدفون الذي أظنه مازال حيا ، أنفاسه الكثيفة على وجهي .

قال لها : عندما أنظر إلى أحلامي في تلك الأيام ــ أحلامه هو ــ أجد صورتك ونبرة صوتك ، ومس جسدك . حتى هذه الموجة من شعرك العبق برائحة خاصة ، أعرفها منه هو الذي كنت أظنه قد باد .

وقال : محال أن يواصل الظل الشمس .
وقال : ولكني أعيش ــ دوما ــ هذا المحال .
وقال : اقبلي طِلْبَةَ المعترف .

قالت : هل تذكر يوم كنا نجري عند مصطفى باشا ، في الليل وغنيت لك ياريس البحر خدني معك أحسن لي.: أتعلّم الكار يوسع البال ، أحسن لي ؟ عندما فاجأنا عسكري الداورية ، وسألته عن المحطة ؟

قال : أذكر ؟ كيف لاأذكر ؟ أنت لم تسأليه ، بل زجرته ..

فنظرت إليه بشيء من العتب ، وابتسمت ، وقالت : هل تعرف أننا كنا نجري على أضخم مقبرة من آخر العصر اليوناني وبداية الرومان ؟ وجدوها أخيرا .. منحوتة في الصخر ، بها قاعة كبيرة ذات أعمدة ؟ وسراديب مازالت مطمورة ؟

قال : متى ؟ كنت أعرف أنهم ينقبون عنها ، لكن شغلي في المتحف لم يسمح لي بمتابعة العمل . لازم اكتشفوها وأنا هنا ، في الإجازة .. عندما أعود سأزورها .. على الأقل كى أتذكر ..

قالت له : ياطول بالك ياأخي ..

وقالت له ، عابدة القمر القديمة ، كأنما بشيء من الخجل ، وحس بالذنب ، طفيف ، وبالردة : تعرف ، لم أعد ، فقط ، فضية ، وقمرية أو ماشئت . أنا الآن اسمح لنفسي أن ألبس شيئاً من ذهب .

كان ينظر إلى سلسلة ذهبية رفيعة جدا ، رآها أول مرة في الحفلة .

قبل أن يأتي إليها من الاسكندرية ، في المرة الثانية ، كان قد عرج على الصائغ القبطي ، عم فلتس ساويريس ، في طريقه إليها ، وأتى لها بسلسلة أخرى ، رقيقة جدا ، من الذهب ــ قال

له الرجل من وراء نظارته السميكة إنها عيار ٢١ لأن ٢٤ هش وسريع إلى الكسر ـ تنتهي بمربع ذهبي رقيق الصفحة عليه رسم التور القديم الذي ولدتْ تحت برجه .

وكما حدث في الزمن الأول ، فتح العلبة الصغيرة جدا ، وهو يقول : كل سنة وأنت طيبة ..

قالت ، عيناها تتقدان بنورهما الأخضر : الله ، هذه أول مرة في حياتي أضع فيها علامة برجي .

وأحنت عنقها إليه قليلا ، ولم يفهم بسرعة ، فقالت بصبر وتسليم : لبِّسْها لي .

فتح القفل الدقيق بأصابع أصبحت فجأة ، فيما يحس ، كبيرة جدا ، وأحاط عنقها بذراعيه وهو يضع السلسلة حوله ولم يكن يستطيع أن يقاوم فقبّل مؤخر عنقها .

نزلت السلسلة على صدرها العاري ، واستقرت بجانب السلسلة الأولى التي تنتهى بعلامة عنخ الذهبية ومفتاح صغير جدا ، بين نهديها .

قالت وهي تلعب بعنخ والمفتاح بين أصابعها : هذه من منال ، وهذا من عزة .

كأنما تجيب على سؤال لم يجرؤ أن يفصح عنه .

ثم أكملت : عزة الصغيرة تلعب دائما بهذه الأشياء ، وتقلّبها وتتأملها ، مسحورة ، كأنها علامات .. وتسأل دائما : مامي رامة هذه مِنْ مَنْ ؟ أقول : من مامي منال ، ثم تسأل : وهذه مِنْ مَنْ ؟ أقول : من حبيبتي ونور عيني عزة ..

فقال : وعندما تسألك . هذه مِن مَن ؟

قالت : سأقول لها : من شخص أحبه جدا ، جدا ..

أُنضِجُ تمرتيك الناهدتين عليّ فتقومان في محبسهما بتحد ، وتتكور ، على ذؤابتيهما ، قطرة في عذوبة العسل وحدة حرافته ، تمتلىء حبّة الرمان وتتقطر في فمي ، طراوة النسيج اللدن تلتصق بالخصر المطاوع وتتثنى على الربوة الصغيرة محتشدة تؤكد ذاتها ، فأفتح البئر الغائرة وأسبر عمق المتعة الخصيبة وأعتنق حرير الساقين ونقش الزهور يرتمي عليها بظلال ثابتة سوداء ومضيئة من حر شمسي خفية ، والعمود دفين في النعومة ، وأرسم النمنمة الحانية .

شفتاه على جبينها المدوّر ، على هلال رقيق مدبب الحافتين يضم قرص الشمس المحتدم بنار هي برد وسلام احتفال تشارك فيه موسيقى الأفلاك الجليلة ، زهرة الشوك البيضاء بزغبها الهفهاف على رأس ثور طيبة الأسود ، تحت تعاشيق الخشب المملوكي التي تريد أن تحصر ـ وأن تُطلِق ـ المستحيل . الذي يحملنا على ظهره الشاسع الامتداد هو أوزيريس أبيس الطفل المقرّن الذي ثلّ عرش رع يوماً وليلة لا ينتهيان في تحوله السابع . التيايتن التنانين العمالقة تنقضُّ عليه ويفور الماء الحميم في القِدر المنصوبة على الجبل الشرقي الموحش ، بين نباتات الظل الممتدة التي استطالت الآن أوراقها عريضة وملآنة ، تحت النجوم نشوة العرامة وبدائية الدم المتدفع يشجّ من المزق الممزعة بحزازات الأشواق والصبابات ، والرأس المجزوز يشب للحياة ، من إرتماض قسوة الهديان ، مبعوثا وسط تهليل الشاروبيم الممتلئين بكامل المعرفة والصاروفين المشتعلين بكامل الحب أجنحتهم لاتكف عن الرفرفة حول الثور الجعران المتجدد الحياة بالحق ابن بتاح ملك المكان الخفى . سيرابيس الفرح المجلجل والبهجة المدوية في عقيق البرق الذي يشرخ السماء . الرأس الفخور الذي يبقر أحشاء الارض باندفاعه الجَموح وبحنانٍ لاحد له يغتذي بثمر الآلهة ، ترقص حوله تسع رامات هُنّ هي في دورةٍ تشرئب إلى ذروة النصوع اللألاء ، ديونيزيوس ميثراس الشمس الثمل بروح أورفية ، أثب إليه ، في طفولتي ، عبر استحالة البئر العميقة في سيرابيوم كوم الشقافة ، فأصل ، لكي أجده يقوم حرسا لاتغمض عيناه على بوابة التنين الشامخة بحراشيفه وذيله الذي ضربته قاتلة ، ويحلق كالنسر بين عناقيد النجوم المتقطرة حلماتها الداكنة تنزّ بالمتعة ، ويرقص مع البجعة القمرية المستديرة البطن البيضاء إيزيس الفاتحة فاها بقرة القمر المقدسة . الثور الذي يثور تحت حوافره تراب القربان ، في أزقة الطرانة وشوارع أخميم حيث بؤرة النهر القديم ، مسوقا إلى الذبح أبداً عشية سوقٍ منصوبة في مولد متجدد بالذكر والبخور ، ومكللاً بأعواد الخضرة تذبل بسرعة وبالشرائط الملونة الممزقة من الملابس النسائية الريفية الحميمة الخفاء ، ثور بابل الذي تحمله عشتروت على بطنها ، الثور الذي هو أب التنين ،

والتنين الذي هو أب الثور المجنّح ، لايموت بل يحيا إلى الأبد وبه الحياة وفيه نكون . النار الماء ديونيزيوس أوزيريس أوزيريس ديونيزيوس المقذوف به إلى العباب في بطن الوادي على قارب هشٍّ يميد به الماء الخصب وينهض ويميد ويمخر فوق الطوفان مع إيزيس الواحدة الواحدة إيزيس أم الأرض الوثيرة المهتزة بالعشب الأخضر اليانع الدمث ، حتحور أُمّ النور أُمّ الأولياء أُمّ الآلهة أجمعين أمّ أبيها وبنت ابنها . الثور سيرابيس الألِف والأوميجا الحقّ الأول إله القضيب إله الحمامة التي أطلقها المخلص رع تسفّ وتسمو وتهدل بأنين المتعة . رماد الاحتراق يرفّ بالحياة وينصبّ في شرايينه دم زاجريوس الثور المذبوح أضحية وقرباناً الإله الذكر الأنثى معاً الملتحي بجدائل الشعر الضارية العبقة معا المسيح العذراء المَشْبُوح الذراعين بالمسامير رضاع المحبة ساقط يتقطر على الصليب ، تيريزياس المفتوح العينين لايبصر في النور لأن نوره الداخلي لايطاق ، وثدياه ليس فيهما بذاءة بل طهر أخير يصعد من ثَبَج المياه البدائية الحارة والمعتمة بنور يسيل على تخوم الوجود الكامل واللاوجود ، وينفجر بزئير الانتهاء .

قالت : ممن أحبه جدا ، جدا .

كانت البنت الصغيرة سمراء ذكية الوجه ، في مثل سن عزة تقريبا ، ومدت يدها إلى السلسلة الذهبية المزدوجة الآن ، بخجل ولكن مدفوعة بشيء لم تستطع أن تقاومه ، فتركتها رامة تلعب بها ، ثم رفعتها إليها وقبلتها بحنانٍ أيّ قدْرٍ مقصودةٌ هي به وأي قدرٍ مقصودٌ به إلى حبيبتها الصغيرة ؟

كانت قد جاءت مع أمها التي تحضّر الدكتوراه في الرقص الفرعوني وبينما كانت تتحدث عن طقوسه وعريه وملابسه وزينته وأحزمته وعقوده ، المقدس منه في المعابد والهياكل ، ورقص الغانيات والفلاحات في القصور وفي الحقول والطرقات ، خرجت رامة إلى المطبخ لتأتي بالتورتة التي أعدتها للبنت ، وبالشاي ، وكانت قد دللت البنت وقبلتها واحتضنتها في نوستالجيا واضحة المرجع وأخذتها معها وكانت صديقتها الذي نسي ميخائيل اسمها غائرة العينين في وجه ضاوٍ ، جافة الجسم ولكن بجفاف أنثوي يوحي بنساء الصعيد بشبقهنّ الحار الصلب العميق ، وصوتها فيه بحّة ، وكانت قلقة وتدعو الجسم للخفقان ، ذراعاها الرقيقتان تبدوان هشتين قابلتين للكسر بسرعة ، وخصرها هضيم وصلب . لم ينس هذا . واستقر بينهما على الفور فهم لا مخرج له ولكنه قائم ، وكان ميخائيل يتكلم عن الإيماء ، والمايم ، والمحاكاة والتسامي . وقال إن الرقص الكامل ،

والقدسيّ حقا ، هو الرقص الذي فيه غياب ، كالصوفية ، وأن اللاوعى الجسدي ...

قاطعته رامة وهى تدخل ، ومعها البنت،في فمها ، بلذة ، قطعة التورتة ، وفي يدها الأخرى الدب الصغير الذي اشتراه من الاسكندرية ، والمعلق الآن في سريرها بيديه ورجليه ، وقالت باسمه : ماهذا ؟ ماهذا ؟ أسمع أنا .. أسمع عن « اللاوعي الجسدى » من أول وجديد ..

قال ميخائيل : اللاوعي الجسدي .. بل اللاوعى فقط . هذه النشوة الجسمانية الخالصة حتى لاتعود جسمانية ، لايخامرها أدنى حس بالذات . أو — إذا شئت — هذا النزول — وليس نزولا على الحقيقة — بل اندماج بآليات حيّة متموجة القوة ، معذرة على آليات .. ، قُوى ، طاقات متفاعلة ، آليات من غير أى آلة أو أى أداة .. الغياب ، الذي هو التصاق أساسي بالحضور .. الرقص هنا كأنه الفعل الجنسيّ الصراح برىء جدا وليس فيه أى إضافة غريبة .

قال لنفسه : ماهذا ؟ هل أبشّر ؟ أأنا أُجنّ في سريرتي الخبيئة مبشراً لا يكل يتوق أبدا إلى أن يصعد على المنبر ؟ يائسا من البشارة مازلت أبشر .. بماذا ؟ بأشياء رثّت تسمياتها من فرط ابتذال الاستخدام . أشياء لا اسم لها . أشياء اسمها البراءة في ينابيعها الأولى هل هى القربى والرحمة والفهم وقسوة الحق أيضا ؟ هل هذه التي اسمها معت الإلهة الحقانية أُمّ العدل ؟ أين الميزان ؟ ثم .. ثم لا يحدث — دائما — إلا خذلان البشارة والتقاعس عنها ، انخزالها ، بل بطلانها أساسا . ليس إلا الحيْف ، والجُموح ، والانسداد ، والانتهاك ، ووطْأ زهرة القلب وقَمْع الوردة الساطعة . لكنني لا أضجر من التبشير ، حتى بعد أن تخليت عنه ..

لايفارقني حلم الحواري المسدودة . دائما أعود إليها وأنا نائم . أمشي بين الحيطان التي تزدحم وراءها حياة الناس المحتشدة الغاصة المتقلبة . تنضح بروائح الطبيخ وبقايا النوم وماء الغسيل وتخثّرات الولادة والموت ، الشبابيك القديمة مفتوحة المصاريع على الأثاث المهدم العنيد السخن ، والأيدي تشوّر والاطفال كثيرون يجرون بصمت . كل شيء هنا يدور دون أدنى صوت . النساء ينشرن الغسيل المطهّر من أدران الأجسام الخشنة الغليظة والناعمة والواهنة والناحلة والمليئة الأجساد التي تتزاحم حولي ولكنني لا أراها أحس ضغطها وانفراجها أعرف أنها حولي ولا أراها أونا أسير على التراب أحاذر من برك الماء الآسن العطن على جانبي البيوت والملاط الأصفر يتقشر عن الحيطان ويسقط ليكشف عن بقع الطوب الفاتحة اللون العالم مختنق الانفاس

وفجأة أجد نفسي أمام دوران مقفل الحيطان تتجمع وتلتئم أمامي كلما اقتربت من فتحة يتخايل وراءها نور حاد بعيد في الفراغ الذي يبدو أنني لن أصل إليه أبداً مهما مشيت . أقترب بخطوة عارفة ولكن يخامرها رجاء غير معترف به أقترب وقلبي يدق ، السور بعيد حقاً ولكنه هناك أراه أعرف أنه هناك . وفجأة أكاد أصطدم بالحائط الذي يلتئم جرحه أمام عيني ورأسي يكاد يرتطم به . الصمت المسدود يلتف بي ويدور بي لا ينتهي إلا بالمتر الجارح حدّ السكين يقطعه .

اليقظة في صمت الليل وأنا أدخن سيجارة حلّ حارّ ومُرٍّ .

الباب الثامن

المنار الخفيّ على الطريق

قالت له : ما أمجد هذا .. كما كان دائما .. !

كانا مايزالان على الأرض ، جنباً الى جنب . راحةٌ عميقة في كل أوصاله وهو مستند بظهره إلى الصوفا ، يدخّن ، وهي تنظر إليه .

قالت : جوعان ؟

قال : طبعا ، ميّت من الجوع !

فابتسمت له .

قالت وهي تنهض : حالاً .. في ثوان . عندي بفتيك جاهز ، في الثلاجة . أنزلته من الفريزر مبكرا . لن يأخذ ثواني . عندك مانع من المكرونة بالفرن ؟ أسخّنها لك ، بايتة صحيح ولكن تأكل أصابعك وراءها . وبيرة ، وتساعدني في عمل السلَطة . والفاكهة بلح أسود ..

قال : ياه .. كل هذا .. ؟

قالت : الخير كتير والحمد لله .. ألا تقول لي جوعان ؟

قال : ميّت من الجوع .. !

مدت إليه يدها ، فنهض معها ، ودخل معها المطبخ وكأنما يراه الآن لأول مرة ، مع أنه صنع القهوة فيه ، معها ، منذ ساعات ، صعد الدرجتين إلى الممر الجانبي ، أمام الباب ، على الأحجار العتيقة العارية لوحة تجريدية ، ألوانها الجديدة اليانعة تعطى المربعات الحجرية معنى خاصا .

كانت قد صنعت في البيت المملوكي عملاً مدهشا . ركّبت بابا زجاجيا ، بضلفتين ، بين الفسحة الصغيرة التي ينتهى إليها الممر ، وفيها القرص المدوّر وصناديق الورق المقوى الكبيرة ومائدة المكوى ، مسنودةً كلها إلى الحائط ، وبين المطبخ الذى كان في القديم مدخلاً أو رواقا ،

أوسع قليلا من الردهة الضيقة ، ومكملاً لها ، مازال نصف حائطه الأيمن ــ وأنت داخل ــ مكسواً بالقيشاني القديم اللامع ، له خلفية صفراء قديمة عليها نمنمة زرقاء بالتفريعات الدائرية المهندَسة بحسابٍ دقيق ، كل دائرة منها تحتضن في داخلها مثمّن أضلاع بالأبيض ، يمس قطرها بلا انفصال ، وفي داخله حنّو الأفنان الرقيقة المتلوية ينتهي كل منها بزهرةٍ تجريدية صغيرة جدا ثلاثية الأوراق . أما نصف الحائط فوق القيشاني ، ففيه تجويفات منقورة في الحجر ، قاعدة كل تجويف منها مبطنة بالرخام الأبيض الذي اصفرُّ قليلا الآن ، وفيها كيزان وأباريق نحاسية ، وزجاجات رفيعة زرقاء مسحوبة العنق ، ومبخرة نحاسية مرشوق فيها عود بخور غير مشتعل وله مع ذلك شذاه الحِرّيف العذوبة .

ركّبتْ أمام القيشاني حوضاً من الصلب الرمادي اللامع غير القابل للصدأ ، وحنفيات لها شكلّ كفء فعّال ، والفرن الكهربائي الأبيض الرابض ، زجاج فرنه مدخّن ، وفوقه الدوائر السوداء المضيئة بأرقام بالنور الأحمر ، وعقاربها الدقيقة المدببة ، وبجانبه الغسّالة المدورة الأسطوانية ، ثم الثلاجة الشاهقة ، تومض كلها بقوةٍ كهربية دقيقة الحسابات على أهبة العمل والأداء ، بمجرد لمسة .

وفي مواجهته ، وهو يدخل ، نافذة عريضة عالية من لوح زجاجي واحد يتحرك على محورٍ أفقي في منتصفه ، وتنسدل عليه حصيرةُ الظل الخضراء الشرائح ، مفتوحة ، تسقط من بينها خطوط الشمس الأفقية ، وحبالها الدقيقة المضفورة برقةٍ تنتهي بكرةٍ صغيرة مغرية الملمس . والحائط الآخر ، المقابل للقيشاني ، مازال على أصله ، مصمتاً أحجاره العريضة عارية ومتينة اللون ، وهو يعرف الآن أن القاعة الواسعة تقع على الجانب الآخر منه وأن لوحة المولد والصوفّا وشجرة الظل تقع على الوجه الآخر من هذا الحجر العريض ، وقد أُقيم عليه هنا الدولاب التحتيّ النصفيّ بأدراجه العريضة ، وفوقه الرفوف العلوية المغلقة ذات الضُلَف ، كلها من خشب الزان الفاتح المجزّع ، على الطراز « الروستيك » . ورأى أن كل شيء في الأدراج والرفوف نظيف إلى حد الوَرَع ، ومنسق على نحوٍ صارم الدقة .

قال لها مرة : أنا أيضا أعوّض الفوضى الداخلية عندى بنوع من النظام الجاد أفرضه على نفسى من الخارج . ولكن هذا .. عندك .. هذا مفزع . النظافة التي تقترب من الوسوسة ، والنظام الذي يشارف على الطغيان ، لابد إذن ، على هذا القياس ، لا مؤاخذة يعنى ، أن فوضاكِ الداخلية بركان رهيب الفوران ..

فقالت ، وهى تنظر إليه عندئذ ، بفتامة ، دون رفض ودون قبول أيضا : أسمعْ بقى وحياة الوالد .. دعك من معادلاتك الهندسية الآن ..

كان لوح النافذة الزجاجي العريض ـ وهو امتداد المشربية في القاعة الواسعة ، بعد الجدار الحجري الفاصل – يتناغم بشكلٍ ما مع لون الحوض الصلب غير القابل للصدأ ، ومع الأجهزة الكهربية المشحونة بقوةٍ ما ، بيضاء . كانت هذه الحداثة المستقبلية الايقاع ، في داخل سياق المعمار المملوكي الداخليّ ، تجعل المطبخ يقظا ، متوازن التوتر ، ليست فيه وخامة القدم النائمة ، ولا لمعة الحداثة السطحية الجارحة .

من النافذة الزجاجية ـ ليست نافذة ، بل فتح كامل للجدار وحاجز رقيق ثابت معا ـ الحوش الصغير ، هادئاً جداً ، أرضه الترابية مسواة ساكنة حول المربع المبلّط بالحجر ، وشجرة الجميز متربة كثّة الفروع وارفة ، على الدكة الخشبية والزير الذي يبدو صغيرا ، والكوز البلاستيك المربوط بدوبارة تلمع في الشمس من بللها ولا تكاد تُرى إلا من هذه اللمعة المضفورة بها . كانت الشمس ، في الخارج ، محايدة الحرارة بين الحيطان المسدودة المقابلة ، وجانب المشربية الداكنة في النور .

قال لها : مدهش يارامة . هذا المطبخ ، هذه البؤرة الأخرى للبيت ، إذا صح مأأقول يعنى ، في مقابل بؤرة الغرفة الأخيرة ، الداخلية ، يعنى . هنا أيضا ليس هنالك أدنى قدر من الاصطناع أو الادعاء . كل شيء حيّ ، عضويّ ، بما فيه الأجهزة المخيفة ، بل لأنها فيها . وليست الأشياء القديمة زينة للفرجة بل هى تعمل أيضا ، وفي الوقت نفسه وجدت موسيقاها الخاصة مع هذه الوحوش الإليكترونية المُدجّنة .

قالت ، فرِحة ، كطفلة : أليس كذلك ؟ يعجبك ؟

كانا وهما يتغديان على المائدة النحاسية المنخفضة مازالا محمولين على موج المكاشفة والتعرف واستعادة القُربى والحكايات ، والحديث الذي هو وصال ، والضحك لمجرد أنهما معا .

وعندما كانا يشربان القهوة كانت أغنيه نانا ميسكوري مازالت تملأ بعد الظهر المتأخر

الهادىء ، ونوره المطمئن الساجي ، بشجوها الناعم . وقالت : الدنيا حر ، وقامت ، جسدها الباذخ يهبّ معها ، خفيف الإيقاع وفيّاضا . وجَرت تقريبا إلى غرفة النوم الذي لم يكن قد عرفها بعد ، وبعد لحظه جاءت ، على شفتيها ابتسامة لاتكاد تُحَس ولا تكاد تحِس بنفسها ، في قميصها المكشوف الظهر ، والشريطان العريضان يلتقيان من وراء عنقها ، نسيجه اللامع المكتوم اللمعة فاتح الزرقة جدا ، مُحكم ، وكأنه شفاف من ملاسَة انسيابه عليها ، وجلستْ على الأرض ، فانفتح شقاه الجانبيان عن ساقيها الململمتين تحتها ، جنب الشكمجية الفضية التي اسودّت من القِدم ، منقوشةً بتشبيكات بارزه تردّ على تعاشيق المشربية ، وقد تناثرت عليها عقود من العقيق والفيروز الكبير الحبّات ، والكهرمان ، وسلاسل فضية لامعة متدلية ، كبيرة الحلقات ، وقرط هلالي كبير مخرم دفين الوميض .

قال ، باسماً إذ رأى أنها تنبهت كيف تيقظت ذكورته من جديد ، وهو يحس توتر الصلابة المرتاحة الآن الواثقة ، والتطلب في غير عجلة :

ــ تحبين الجلوس على الأرض .

قالت ، وفي محيّاها بهاء خاص ، ورونق :
ــ أحب أن أنظر إليك ، من هنا .. ألست رَجُلي ، وحبيبي ، وسيدي وتاج رأسي ؟

قال : نعم .

قالت : امرأتك التي ظلت تنتظرك .

في البقعة الأولى من مساحة هذا النهار ــ الليل المتصل ستة أيام كاملة بين اليقظة المنورة والنوم الغَرِر والامتزاج بينهما ، وتيار الحب المتصبّب قد كسر كل السدود ، قالت له فجأة : ياه .. ! هل تعرف الساعة كم ؟ قال باسماً : لا ، لا أعرف أين ساعتي . قالت : هل تصدّق ؟ الثانية والنصف صباحا ! قال : غير ممكن ... مستحيل .. أبدا .. كنت أظنها التاسعة أو العاشرة مساء .. قالت : لم يحدث لي هذا أبدا من قبل .

قالت : لامعنى لأن تعود إلى ميناهاوس الآن ، أليس كذلك ياحبيبي ؟

فابتسم ، ولم يقل شيئا .

قالت : خذ ، أمامك الكيمونو أو جاكته البيجاما أو القميص .. وتعال ..

في نصف اليقظة ، عندما كانت المآذن الرشيقة قد تحددت خطوطها في أول نور ، من بعيد ، من وراء النافذة الكبيرة ، على تقلّبات الجبل الغائمة ، وقد انحسرت سُدُف الليل عن شَفَق الفجر خفيف النسيج ، قالت : كنا نكتّ بالعرق طول الليل .. نحن الاثنين .

فيما بعد ، وكانت نائمة إلى جانبه ، تعطيه ظهرها ، في وهدةِ راحةٍ بين عواصف عشقهما المتلاحقة ، قالت ــ كأنما تحدث نفسها : لو كنا تزوجنا من عشرين سنة . كنت أخذت بالك مني ، وَرَعَيْتني .

وكان أنينها الخافت ، من غير وجع ، فيه قبول .

قال لنفسه : لم أعرف الحرية الكاملة معها ، والانطلاق الكامل ، إلا عندما رضت نفسي على أنني قد فقدتُها بالفعل ، فقداناً كاملا . ومن كثافة اليأس ،حين أوقن أنه ما من ألمٍ يمكن أن يكون أكبر ، وأوجع ، عندما لا يعود شيء يمكن أن يكون أفدح خسارة ، عندما لا يصبح لشيء ــ أى شيء ــ أدنى معنى أو وزن ، عندما كنت أعرف أنها لايمكن أن تكون حبيبتي ، أنها لا تحبني أبدا ، وأنني أيضا على أى حال لا أحبها ولا شيء ، فماذا إذن ؟ عندما ينتهي عندئذ كل شيء ، عندئذ أجد فجأة أن مسوخ الكبت والتزمت والتحوط ومفازع المُنْبتّ ، كلها ، تنْحسر ، وتنْكسر كل الحواجز في انصبابٍ عارمٍ للحب والشبق ، ونتساقط ، بصمتٍ على المتعة ، على جسدينا ، ممتزجين معا في تجاذبٍ لايُرَد ، وينبجس حنانٌ جسديٌ ، كالدموع ، ويرتفع كالسيل ، ويستأثر بكل سريرتي ، مامعنى هذا ؟ الفقدان شرط للوجدان ؟ اليقين بالانقطاع هو مقوِّمُ تداعيِم النياط وانكسار الجوارح في انهلالِ همْي طامٍ لسنا فيه إلا فلكا واحداً يتطوح في طوفان حُب لارحمة فيه ، وكله حنان ؟

كانت عيناها الخضراوان مشتعلتين ، وكانا في العتمة ، في وهدةٍ أخرى مطمئنة من الشبع الوجيز ، تحت شجرة القشطة الظليّة التي تتنفس بهدوء مستندة أوراقها إلى العمود اليوناني القديم الرخيم ، وقالت له :

ــ أصبح صديقك هذا ، تلميذك ، مزعجا ..

قال : من ؟ وكان يعرف طبعا .

قالت : بشاى أبسخيرون . يطاردني بالتليفون ، يلحّ ، أنت تعرف . قال إنه يريد أن يريني أفلامه على الفيديو ، عنده ، ويشير إلى أفلام أخرى تعرف ما أعني ، أو ما يعني هو ، على الأصح . ممل جدا ، وصبياني ، هل يظن أن في ذلك ، حقا ، إغراءً لي ؟

قال : لا أعرف .

قالت ، متجاهلة : أوه ياميخائيل .. الولد يظن نفسه دون جوان . وهو ، مسكين ، ليس دون كيشوت حتى ! ولا أى شيء قريباً منه ، لأ ، بجد !

قال : أنت التي قلتِ ليس في عظامه ذرة من شرّ .. !

قالت : ليس شرا ، ليس ماعنده شر .. نعم . هذا صحيح . ماعنده هو الحماقة ، ببساطة ، وسوء تقدير . هذا طبعا منتظر جداً في بلدنا ، في ثقافتنا ، وهو يرتدي مسوحَ رجوليةٍ يريدها أن تكون مؤثرة ، يعني ، ومُغْوية ، تعرف : اللحية ، والصوت ، والخشونة في الكلام ، واللامبالاة بجنس النساء قال يعني .. ، في نفس الوقت مع نغمة توسلٍ وإلحاح مستمر .. هذا الصنف ياحبيبي عندما ينكشف ، ينكشف عن طفل هش قابل للكسر جدا ، وواضح الاحتياج .

قال : ربما هذا يحبّب النساء فيه .

قالت : ربما .. بعض النساء في حاجة ، هنّ ، إلى هذا الاحتياج عنده.لم يعد عندي صبر على الرجال الأطفال الواضحين .

قال : هذا يذكّرني .. أين القطط ، والكلاب.؟ تذكرين كلابك القديمة ، عندما رجعنا ، إلى بيتك في الفلاحين على وجه الفجر ، بعد أن راجعنا كتابك عن اليونانية القديمة في المطبعة .

قالت : كتابي أنا ؟ كتابنا معا ..

قال : صحيح ، أين حيواناتك هذه التي كانت تموت فيك ، وتموتين فيها ، حبا ؟

قالت : لا ، هذا شيء آخر . هذه مازلت أحبها جدا ، هذا أيضا حرمان آخر عليّ أن أحتمله . أنت تعرف ، وأنا الآن مراقب عام في المصلحة ، المهمات والبعثات والمأموريات ، من أول ماريوبوليس شمالا إلى آخر أبو سنبل جنوبا إن شاء الله ، طولاً وعرضاً ، في كل أرض هذه البلد الكنوز المدفونة على بعد سنتيمترات أو أمتار تحت أقدامنا ، في كل خطوة .. كيف يمكن أن آخذ إليّ رفاهيةَ هذه الحيوانات ؟ هذه ... حاجتها إليّ حاجةٌ حقيقية ، أصيلة ، وبدائية وصريحة جدا ، ليست طفلية . لا يمكن أن أعهد بها إلى أحد في أثناء هذه الرحلات المتعاقبة . ياخسارة .. أفتقدها جدا ..

قال ، متذكرا : نعم .. القطة التي جئت بها إليّ صباح يوم .. ثم ..

قاطعته : لاتذكّرني . ياأخي ، لك عبقرية خاصة في استجلاب ذكريات ليست ظريفة ، كأقل ما يقال ..

قال ، مصمماً : لا .. دعكِ من هذا .. على فكرة أيضا ، كنّا ، زمان نقتل مَن يأتي بالموت إلى القطة .. عامداً أو غير عامد ..

قالت مستسلمة وباسمة : ياعينك ياأخي .. ياجبايرك .

قال : أنا ؟ ياجبايري أنا ؟ وضحك .

قال : صحيح ، الحكاية المشهورة عندما ثار الاسكندرانية وقتلوا أحد الجنود الرومان ، لذلك ، بالضبط . كانت أمي تقول لي : إوعَ القطة . لاتمسها . قل لها فقط : بِس .. ولاتزِد . إياك أن تضربها أو أن تطردها أو تمسكها حتى . وكنت أهاب القطة التي تدخل إلى شقتنا في غيط العنب ، سوداء ، غطيس ، ناعمة الشعر ، كلها توتّر واثق لدن ، وأحبها جدا في نفس الوقت . وقال لي أبي إنهم في أخميم ، في صباه الأول ، في نهاية القرن الماضي يعني ، كانوا يعرفون . كانوا يعرفون أن شباب البلد عندما يبلغون الحلم كانوا يأخذون شكل القطط الذكور في الليل وينزلون الى الشوارع ، ويدخلون البيوت . كان البنات محرماً عليهن أن يلمسن قطاً بالليل . وقال لي إن القطط كانت تقذف بنفسها إلى الأفران المتقدة المتلظيّة بالنار ، وأمهاتنا فقط يسمين باسم الصليب وشارة الصليب ، وكانت القطة تخرج من الفرن تجري مضيئةً مشتعلةً كأنها ازدادت حياةً وسطوة .. قال لي أبي إنه كان ينتظر تلك اللحظة عندما يأتي التحوّل .. قال لي إن ذلك حدث . وسَكَتَ فلم أجرؤ أن أسأله شيئا ..

بِسّت ، قطتي الإلهية التي تقذفين بنفسك إلى نيران العشق ، مرةً بعد مرة ، تلتمعين بالنُعمى والنعومة وتفوحين بالتوابل الحارة المحرقة والعقاقير المُحيية ، فحيح شهوتك يقتل التنانين والثعابين ، بنت رع وامرأته ، رع أبوك ، ابنكِ ، رجلك ، زوجك وعشيقك الذي تنتظرين تدفعين عنه تلويّات الثعبان أبيب الشرير الحراشيف يا أمّ حور أم الصقر ياسوسنةً تحمين الأرضين أنتِ التي تشخّصين القمر المضيء على جلد السماء في قلبي ، لك رأس سخمت اللبؤة التي تفيض بالدفء على عينّي ، تتصببّين بالإخصاب المهدور على رمل القاهرة على سِيف بحرٍ خفيٍّ بل غير موجود ، تأخذين إليك وجه حتحور وترقصين حولي في اخر العمر وموسيقى البهجة التي لاتوصف تملأ ماكنت أظنه صحراويٌ فإذا هي ترفّ مونقةً بأفنان الشجرة الوارفةِ الأفياء ، ياإلاهة بوباستيس الشرقية التي تُسدَى إليك العبادة ، مرة بعد مرة ، طول الليل والنهار ، من المشرق إلى المغيب ، ومن مغرب الشمس إلى تفطّر الفجر الندى ، لكن الليل ساحتك تقودين مواكب السفن المرحة تحت أنوار الشموع وقناديل الزيت ومشاعل الخشب على طوفان النيل ، مع صنّاجات الترانيم ، جسدك يتلوى في عربدات أعيادنا ، ورأسك ، بعينيه النجلاوين المشتعلتين ، تنوس تحته ، على عنقك التلعاء ، السلاسلُ الذهبيةُ الرفيعة وعقودُ الفيروز والكهرمان المتعددة المنصبّة إلى بؤرةٍ واحدةٍ في مركزها الحميم بين نهديك ، تومض وتضوء وتومىء

إلى نضارةِ اللحم في قبضةِ المعدن والحجر الثمين بصلصلةٍ مرهفةٍ وصغيرةٍ على الصدر الملىء تحت شريطين لامعين من اللازورد المنسوج ، أنتِ التي تحتضنين في عمق عينيك شمس رع غير المنطفئة ، قاهر ست ، من لبن حنوِّك ترضَع السمكةُ أخت إيزيس التي ستدبر كل ما سيكون ، ياحارسة الجسد المقتول ، تحت سفح شجرة الجميز الواحدة في الصحراء من بين أربعة أعمدة ، ساهرة على رأسه ، حتى يُبعث حياً حين تستضيء سماء عين شمس القديمة الباقية إلى أبد الآبدين . أومن ، أومن وأصدّق ، أنك أنتِ حقاً جسد القطة الإلهية تفيضين بالخير والنعمة ولا يمسك سوء .

لم يقل لها : هل تلقيت مثل هذه العبادة من غيري ؟ نعم ، بلا شك ، من كثيرين . هذا أعرفه ، ولكني أُوفَى المؤمنين . فلعلك تحسبينها رُقىً وتعاويذ ، تتملقك ، تداجيك ، أو تدغدغك على أقل تقدير ، لكنها على كل الأحوال لا تصل إليك ، ربما ، ولا يرتفع إليك البخور المشتعل بالوجد المكتوم .

دخان شواء ذبيحة القلب لا يصل .

القلب المعلق في الظلام .

لم يقل لها - لأنه لم يكن صحيحا - ما يصل إليك هو ما ينبع عنكِ أنت ، هو الذي تريدين أنت . وماتريدين هو الرغبة بنت اللحظة ، بنت الساعة ، أو بنت المرحلة .

قال : لم يكن هذا صحيحا .

قالت له مرة : هذه ، عندك ، مرحلة سوف تنقضي ...

أكانت تسأل ، أو تطلب ؟ أم تقرر ؟

قال لها : أمقت حكاية المراحل هذه ، وأبغض اللحظات .

ولم يقل لها ، لأنه لم يكن يطيق أن يصدقه : قلب السماء باق ، لا ينقضى . وإنما كان يحكي لها حدوتة .

قال لها : لم تحضري معنا ، أنت ، ندوة الاسكندرية ، لا أعرف أين كنتِ ، خلال السنوات العجاف الطويلة . كانت الندوة عن حفائر ماريوبوليس ، تطور المدينة ، ومعمارها ، وعلاقتها بالرهبنة المصرية ، والأديرة القريبة ، وهكذا ، عقدناها في فندق سان استيفانو ، وكنت مسئولاً عن الإعداد الفني ، كالمعتاد ، وصنعت من مخزن مهجور مهمّل قاعةَ مؤتمرات حديثة ومجهزة ، معماريا وهندسيا واليكترونيا ، ومَعَدّةً بالكامل ، من المنصة إلى المقاعد إلى الإضاءة إلى مقاصير الترجمة الفورية إلى آخره ..

قالت : طول عمرك ياحبيبي تصنع من الفسيخ ...

قاطعها : عليك نور .. شربات ياحبيبتي .. المهم .. تذكرين طبعاً مَنْ كانت ضيفة الشرف في هذه الندوة ؟ هكذا ، لأنها كانت في زيارة قصيرة وأعطت المصلحة المليون جنيه استرليني الشهيرة لإصلاح وترميم مقابر وادي الملكات ، وتسرب المليون الله يعلم أين .. لاتذكرين ؟ جيرالدا . هى الرئيسة طبعا وليس زوجها ، ولها الكلمة الأخيرة .. ليس بجمالها فقط ، بل بيدها القاتلة ، المهمّ .. تعرفين مَن جاء معها ؟ شيريهان طبعا .. أقل منها ؟

قالت مرتعدة : ياساتر ... بروووه !

قال : الشيء الوحيد الذي لم أصنعه ولايد لي فيه كان صورة ضخمة تملأ الحائط وراء المنصة ، تعرفين لمن طبعا .. هائلة ، بشعة ، ألوانها الفجة تدير الرأس .. مثل صور هتلر في زمانه ، أو ستالين .

قالت : وبعدين معك ؟ ما الذي جاء بستالين هنا ؟

قال : طبعا .. لكن فوّتيها الآن ، فوّتي .. ما أريد أن أصل إليه من هذه الحكاية هو أن

جيرالدا .. هل تتصورين أنها كل نصف ساعه ، وهي في جلسة التكريم الافتتاحية المخصصة لها ، ووراءها يقف ثلاثة من الياوران ، شباب في ملابس الضباط الأنيقة ، فارعي القامة ، في غاية الوسامة ، رافعي الهامة .. معلشّ ، فَوِّتي السجع أيضا ، عَدِّي .. كانت كل نصف ساعة بالدقيقة ، على الساعة ، كان يمكن أن تضبطي الساعة عليها ، تقوم ، بكل هدوء وتمالكٍ للنفس وللأمر معا ، وتخرج ، ووراءها الياوران . وتعود بعدها بعشر دقائق ، بالضبط أيضا ، على الساعة ، بفستان جديد ، وعطر جديد ، بينما المتحدثون يتحدثون والخطباء يخطبون والمصَوِّرون يصورون وهكذا وهكذا . حسبتها أنا ، خمسة فساتين ، وخمس تنويعات على البارفان .. والفساتين كلها ..إيه ؟ لامعة ياستي ما إلا أنت ، تخشخش ، قوية النسيج ، مفصّلة .. مفصلة يعني بمفصلات واضحة ودلاديل صلبة ، كالدروع ، من اللبنى إلى البرتقالي ، ومن البنفسجي إلى الرمادي المفضض ، ثم الضربة القاضية .. أحمر رُمّاني داكن فيه أشياء تبرق ..

قالت : يعني كرنفال وليس ندوة عن الآثار والرهبنة ..

قال : عرض أزياء على مراحل ، مرحلة بعد مرحلة ، وعلى مستوى رئاسيّ ..

قالت : وأتصور أن شيرِيهان كانت زرقاء من الحسد والغيظ .. لابد أنها كانت ستموت ، طبعا ...

قال : ولولا كُورَسْ الكوسه المعتاد ، في الخطب يعني ، يمكن كانت ماتت منّا على المنصة ..

قالت : تاني .: المنصة ؟

قال : أوّلاني .. هذه كانت بشارة .. المهم ، هذه المرأة التي ظلت تتحصن ، وتنتقل من قلعة إلى قلعة ، بالمعنيين ، وراء متاريس ثيابها اللامعة ، ممّ كانت تختفي ؟ وماذا تُخفي ؟

قالت : أبداً ، بسيطة . هل أنت ساذج ياحبيبي أم تتظاهر ؟ الحكاية التقليدية .. من تيودورا حتى إليزابيث الأولى وانت نازل .. أليس كذلك ؟ التفتّت الداخليّ له وجه الحصون ، ألم تشم رائحة الفساد الغائر وراء البارفان ؟

سوف تقول له ، في نوع من النوستالجيا : هل تذكر تلك الأيام ، عندما كنا في اسكندرية ؟ لم أكن أستطيع أن أحتفظ بيدي بعيدا عنك !

في المدينة العظمى التي ولد فيها التنين والتي قالت له : مدينتنا ! ، كانت النوارس تتجمع في الصبح ، سحابةً بيضاء متقطعة ، تحط ، لكل مزقةٍ منها حياتها الخاصة ، تربض على الصخرة النقيةِ الحواف الناتئة من البحر الأزرق الشتوي ، ثم تهبّ فجأة ، من وراء الزجاج الذي يرقبانها منه ، بلا صوت ، فى انطلاقاتٍ متعاقبة مصممة لها هدف لايعرفه ، وتمضي .

ومن أمام زجاج هذه النافذة العريضة نفسها ، المطلة على البلاط الأحمر القديم في الشرفة الكبيرة على الكورنيش ، كانت تمرق عصافير الجنة السوداء ، مستدقة الذيل رفيعة الأُجنحة ترفرف بنوع من اليأس ، هل تريد أن تدخل عليهما إلى الدفء والكِنّ الكنين ؟ بينما يتقلب الجسد بين اليدين الحاذقتين المُحْبيتين ، تجوسانه وتتكشفان من جديد أغوار معرفةٍ لاتنتهي ومتعةٍ لاتغيض . وكانت القربى التي لايمكن أبدا أن تكون أوثق ولا أعمق ، في الغرفة العلوية المنيرة من الفندق الاسكندراني على البحر ، حيث كان الجسم الواحد المُثنىُّ الذي لانهاية لأطرافه وجذوعه المتحركة التي تماس وتتعانق وتتمرغ وتقوم وتتصلب وتتموّج ، ويسيل الحجر في رفرفة الألوهية نفسها .

قالت له مرة وهى على حافة النوم ، في البيت الذي قالت له : بيتك ! :

— ميخائيل ، اقفل الدولاب ..

قال بشيء من التعجب ، وبعطفٍ أيضا :

— لماذا ؟ هل البابُ المفتوح ينتهك قاعدةً جماليةً ما .. أو قانونَ النظام ؟

قالت ، بجدّ : حتى لاتخرج منه العفاريت بعد أن تنام ..

فقام من جنبها ، وسوّى الملاءة الخفيفة على كثبان الجسم المنهالة في أول النوم ، وأغلق الدولاب بعناية دون صوت ، وكانت قد نامت .

كتب فؤاد فواز إلى « الجمهورية » يوم ٧ نوفمبر ١٩٧٩ : « نزل مأمور الضرائب وسط مقابر الامام الشافعي للتأكد من عدم وجود أنشطة متهربة . ورحّب التُربية في البداية بمأموري الضرائب اعتقاداً منهم بأنهم طلبة طبّ جاءوا للبحث عن جثث . ثم لزم بعضهم الصمت ، والبعض الآخر حاول تضليلهم ، وعمدت بعض النساء الى الصراخ وسط المقابر لإرهاب مأموري الضرائب ، اكتشفت مصلحة الضرائب وجود أنشطة متهربة من الضرائب في المساكن الموجودة وسط المقابر منها ورش للنجارة وترزية »

أما في بلدة دست الأشراف ، كوم حمادة ، فيروَى محصول الأرز ويصرَّف الماء داخل المقابر حتى أصبح الموتى عائمين ..

قال لها إنهم عثروا ، في محطة مهجورة من محطات الترولي في نيويورك ، على تمثال لسائق عربة رمسيس الثاني . قال إن تمثال مينبتاح السائق الامبراطوري كان قد اختفى من المتحف البريطاني في لندن . وقال إنه رأى صورة التمثال في مجلة للآثار ، وأن وجهه يذكره بوجه حسين افندي الذي كان يسكن تحتهم في غيط العنب ، وكان ملاحظ الكوبري على المحمودية ، مدور الوجه وطيبا وله عينان منتفختان ، وقال لها إن ست وهيبة امرأته ، كانت تحنو عليه وهو طفل ، وكان يحب منها حنوّها وجسمها الطيّب .

وقال لها إن شيئا غريبا يحدث له ، وإن العلاقات بين الداخل والخارج تتغير ، وإنه عندما يعود إلى الاسكندرية ، يلتبس الأمر عليه ، ويوقن فجأة أنه إذا خرج من الباب فسيجد السلم الحجري بين حائطين مصمتين ، ويمر بالحوش وشجرة الجميز ، ويسلم على نبوية ، ويجد نفسه في شوارع الغورية المزدحمة الغاصّة بالناس وحرافةِ حياتهم ، وإنه من شوقه إليها يظنها بل يؤمن أنها هناك ، هذه الحياة كلها ، على بابه ، ويهم بالخروج إليها ، كأنما هي حركة نفسه للدخول إليها ، في بيتها الذي قالت : بيتنا . قال إنه في قلب هذه العلاقة كما هو في قلب القاهرة بعيد ولكنه في داخلها مهما كان بعيدا . قال تتصورين هذا ؟ أنني على يقين كامل إذ أفتح باب شقتي في اسكندرية ، إنما أفتح باب هذا البيت ، كأن هذا البيت قد تلبسّني ، وأصبحتْ حدوده هي نفسها حدود جسمي .

جاءه صوتها من القاهرة ، على تليفون المصلحة في استراحة ماريوبوليس : هل وصلتك الهدية ؟

كان في الصوت تحفظ ، وإيماء . وفهم ، بعفوية مباشرة ، أن المسألة لاتتعلق بهدية من النوع المألوف . وكان قد بدأ يعرف أن ثم شيئاً ما ـ له خطورته الحقيقية ، يدور بينها وبين مصطفى وأحمد ، وربما آخرين أيضا . وكانت الاعتقالات قد خفت وطأتها قليلا في آخر هذا الصيف المضطرب ، ولكن الصحافة والإذاعة كلها تفيض بخطب الرجل التي فقدت كل اتزان ، وكان مصطفى قد سافر ، وانقطعت عنه أخباره . ووصل بعد سفره مفتش للآثار ، مهذب جدا ، وغريب ، قال له إنه كان في بعثة للخارج ، وعرف ميخائيل على الفور أن لا علاقة له بالآثار ، ولم يلح ، وفي غضون حديثه سأل عن مصطفى وأجاب ميخائيل على الفور أنه فعلا كان هنا ومضى من يومين وقال إنه لا يعرف إلى أين مضى وإنه صديقه وأنه قال إنه منتدب من المصلحة لمهمة يومين في ماريوبوليس ، فلم يسأل المفتش الغريب أكثر ، واكتفى بهز رأسه والابتسام ، ثم سافر بالليل بعد أن سأل عم شعبان وفتح المخزن ونظر إليه كأنما بلا اهتمام ، ولم يقل شيئا . وتذكّر ميخائيل وكيل النيابة الذي حقق معه في الأربعينيات ، وكان مهذبا جدا أيضا ، وسأله عدة أسئلة كأنما بلا اهتمام ، ثم عرف أن القضية أو التحقيق ، لايدري ، قد حُفظ ، ولكنه اعتقل في ١٥ مايو ١٩٤٨ ، دون أن يوجّه إليه اتهام . وخطرت بذهنه شوارع الاسكندرية بعد منتصف الليل ، وهو يلصق منشورات على حيطان محرم بك ، ومعه فرشاة صغيرة وسطل صغير جدا به غراء صنعه بنفسه ، وأنوار الاعمدة الطويلة تسقط عليه في الشوارع الخاوية ، وقد انقطعت الرجل وفات ميعاد الترامواي ، وهو يحاذر من عسكري الداورية القادم من أول الشارع بحلته السوداء ، وقلبه يدق ، وحيدا في المدينة التي يدعوها بحروف صغيرة ملصقة على الجدران ، إلى الثورة وإلى الكفاح من أجل الجلاء ، وإلى إسقاط الاستعمار والاستغلال .. وفهم من نبرة رامة أن ثم هدية في طريقها إليه ، فقال بنفس التحوط أن شيئا لم يصل إليه بعد ، فقالت : خلاص . ستصل غدا أو بعد غد ، وأضافت لصالح الرجل أو الجهاز الذي لابد أنه يسمع ويسجل : وكل سنة وأنت طيب ، وإلى اللقاء . وعندما وضعت السماعة سمع الطقطقة المألوفة التي كان يترقب حدوثها ، وقال لنفسه : لماذا لايستخدمون أجهزة حديثة لاتفضح نفسها ؟

تذكر أنها ، في خلال أيام أربعة قضياها في هذا الفندق الاسكندراني الذي تحولت غرفتهما

فيه إلى بيتهما الخاص أيضا، قطعًا مساحة شاسعة مضيئة بنور يكاد سناؤه لاينطاق . وركبا قطار أبو قير إلى محطة مصر ، وعبرا من تحت نفق الحضرة ، وقد أسندت رأسها إلى كتفه كأن هناك مكانه الوحيد . وجلسا في كافتيريا المحطة ، يودعها إلى لقاء قريب ، فسوف يلحق بها في القاهرة ، في رحلته الثالثة والأخيرة ، بعد أيام . كانا يشربان بيرة من زجاجتي استيلا ، في الكوب المضلّع الزجاج ببرودته الكبيرة ، والزبد المرغّى على كهرمان البيرة الصافي المثلج ، يومىء بحيوية إلى سعادةٍ متقلبة الموج ومتساوقة . قال لها إنه شرب معها بيرة ، مرة ، في القطار الآتي إلى الاسكندرية ، بعد أن عرف أنها مسافرة ، واستطاع أن يحجز مقعدا لنفسه بجانب مقعدها ، هكذا مفاجأة ، في اللحظة الأخيرة ، فقالت إنها لاتذكر ، ولكنه نحّى ذلك كله عن نفسه بسرعة ، ولم يتلبث . كان سعيدا معها ، فقط ، بين الركاب المنتظرين الديزل الفرنسي الجديد ، في الكافتيريا . وكان منهم فوج من السياح بملامح اسكندنافية وجوههم مسنونة وجافة وقد احمرت من الشمس ، ونساؤهم في الصبح الشتوي الدافىء عاريات الأكتاف محترقات البشرة تحت البلوزات العارية والجاكتات الخفيفة ، قال لها إن شتاءنا صيف لا يرونه أبدا عندهم ، وأنهن يتعرين له ويصطلين بشمسه ، فقالت له إنها بدأت تكتشف في نفسها أهواء جديدة أو لعلها كانت كامنة ، وإنها تحب جدا هذه الثياب الخفيفة ، كما تحب اللانجيري الأنيق المفهّاف . فقال في همس مفاجَأً إنه لم يكن يظن أنها تعني أصلا بالثياب ، مع أن لبسها كله أنيق ومنتقى وحسن الذوق جدا وأنه كان يفكر ، بالضبط ، في أن ذلك ماكان لابد أنها تحبه . قالت : ياخسارة لماذا لم تقل لي ؟ . قال إنه مع هذه النفثات المتطايرة من عطر النسيج الرقيق في الإيشارب الحريري التي تلف به عنقها ، يَنْشقُّ من شعرها الوحف القوى رائحةً حريفة حارة ، عَبَق البهارات والتوابل والبخور والصندل الهندي القديم والمسك وفَوْحَ جسمها الشفاف الذي لا مثيل له ، فقالت : كل هذا ؟ وضحكت وقالت هامسة ياحبيبي أنت تصف رائحة لبؤة حارة ، فقال لها : في المحطة ، وسط الناس ، دون أن يراعي : ياقطتي الوديعة المشمسة .

الجوهر الواحد الذي يحمل المغايرة ولا يحتمل إلا الواحدية . النقيضان اللصيقان لاقيام لأحدهما من غير الآخر ، أما سفينتي فهي شديدة الهشوشة يتقلب بها عباب الموج العاتي لكن قشرتها صلبة جداً والذي يدرّ به قلبي من الحنو أمواجه أعلى وأعتى ، ولا شاطىء لها ، ولا مرساة فيها . لاتقولي لي : إرسَ على بر .. فماذا أفعل مادامت هذه المركب المشقوقة البطن لاتغرق ولاتصل ، لامناعة فيها لكنها لاتنكسر ..

هأنذا أجمجم في أحبولة العيّ والاستحالة ولاأسكت . أنين الرومانتيكية بلا شك عَيِي يحيق به الحَصَر لكنه تراوِحُ أغنيةٍ بلغة لاأعرفها وأفهم غنّتها ، يخدش لحم القلب المكشوف ويحز فيه عميقا ، كأني يجب ألا أحاول أن أقول الذي لايمكن أن يقال . وليس ما أحاول إلا غمغمة غائمة ملتبسة .

هتفْتُ : صف لي على الطريق منارا .

قال : مافي طريقنا من منار .

قلت : إنه ، من وضوحه ، في ظلام .

قال : ويُرى ، من خفائه ، كالنهار .

يافريد الدين ، ما أقساك .. !

حكت له حكاية عن عملها ، في حفائر إدفو ، قالت إنه كان عليها ، في عز الصيف ، أن تترجم نصا بالديموطيقية ، وكان عليها أن تنقله أولاً من على جدار مقبرة مازالت مغلقة للجمهور . كان النص مضيئا لبحثٍ تقوم به في ذلك الوقت . وكانت مصابيح غاز المغنسيوم تضيء بقعا في الجدران ويقع ضوؤها الأصفر الموحش على أكوام متناثرة من الشقافة والرمل وأدوات التنقيب المركونة على الحائط ، وكان الهواء المحبوس جافا ولكنه ثقيل الوطأة . وكأنما كانت دوامات صغيرة وبطيئة من الهواء الجديد النازل من الفتحة ، تضطدم بها ، تكاد تمسكها بيدها .

وكانت تعمل ظهرا ، بينما الفريق كله قد خرج للراحة في الاستراحة المبنية من الخشب والخيام ، والصعايدة قد استسلموا للقيلولة تحت النخل . قالت : واستأذنَ الريس محمد ــ أنت تعرف هذا النوع من الرجال ، جافا كأعمدة النخل القديمة ووجهه منحوت ، عمامته بيضاء كالفل ، صارم جدا وعطوف جدا ــ قال : « تسمحين ياست أتركك تعملين على راحتك » . فقلت له « طبعا ياريس اتفضل أنت » . وخرج من على السلم الضيق ووجدت نفسي وحدي في القبو الواسع الخاوي . لم يكن في صحبتي إلا الكتابات والرسوم ــ بحضورها القويّ دائما مهما عاشرتها ــ ونور المغنسيوم يبعث الحياة فجأة في أوزيريس القائم المكفن بالبياض ، ومعت الحقانية صاحبة الميزان ، والصحبة كلها : الكلاب السلوقية الممتدة الرؤوس إلى الأمام والوحش مَغْمَع الفاغر عن أنيابه وهكذا وهكذا، ومن الناحية الأخرى أهل البلد مازالوا يزرعون حقولهم وراء

ثيرانهم ويحصدون في الوقت نفسه ونساؤهم عاريات الصدور تعجن وتخبز وتصنع البيرة وعَرَق البلح ، كانوا منشغلين جدا عنّي ، ولكنهم معي وبدأت أحس بالحر ، لايكاد يحتمل ، خلعت حذائي أولا دون أن ألقى بالاً للعقارب المعتادة أو الثعابين ، كنت أعرف بحدسٍ ما وخبرة غير واعيةٍ ما أن المقبرة نظيفة وجافة . نظرت حوالّي ، كل شيء هادىء وخاو ، الباب الخشب المصنوع ارتجالاً مردود قليلاً على فتحة السلم الضيق لاتدلّ عليه إلا كوة من نور الظهر غير محددة ، وأعرف أن الريس محمد يحرسه من الخارج . فخلعت البلوزة الخفيفة بسرعة دون أن أفكر وواصلت نقل النص على كراسة الرسم الطويلة ، بجد واستغراق ، لكنني مازلت حرانة فلم أجد بداً من خلع الجيبة الواسعة أيضا ، الآن أحسست بالراحة ، وقد تجردت تماما إلا مما يمكن أن تسميه الجوهريات العارية كما يقال ، وأنا أنقل ترنيمة إلى أوزيريس ، أكدح وأكتّ بالعرق ولكن براحة ، لم أنقل نصاً في حياتي وأترجمه ، بمثل هذا الاتقان والراحة والجمال أيضا .

كانت قد كتبت هذه الحكاية ضمن كتابٍ تنوي أن تنشره عن عملها وأسفارها ، وقالت له أريدك أن تقرأ هذه الحكايات وأن تقول لي رأيك . أخذ الورق منها ووضعه على مكتبها الصغير المستند بركن منه إلى خشب المشربية الداخلي ، تحت العمود الأبيض وشجرة الظل ، ثم شُغِل عنها ، بها ، بقية اليوم . فلما قالت له : « هيه ما رأيك ؟ » قال : « لم ألحق أقرأ بعد » ، فقامت فجأة وأخذت الأوراق ومضت عنه تخفيها ، وألح عليها أن تأتيه بها فرفضت ، في مزيج من الغضب والدلال ، حتى استطاع أن يجد الورق تحت صفٍ من ملابسها المطوية بنظام في الدولاب ، ولم تكن تعرف أنه وجد الورق وأنه قرأ الحكاية ، وغيرها من الحكايات ، من ورائها في عمق الليل ، وابتسم ، بمرارة ، من ذكاء حكاياتها ، وجرأتها ، وتوشيتها ، وبراعة اختيارها ، كانت الحكايات الأخرى في كتابها ترجعه وتمضّه ، فلم يقل لها شيئا .

قال لها فيما بعد ، إنها تعمل أحسن ماتعمل وهي متجردة ، إلا من الجوهريات العارية . فضحكت بكرمٍ وصفاء ، ولم تذكر المرارة الطفيفة في لحظة الغضب .

في النهار ـــ الليل الأول الذي مضى بهما دون زمن ، كانا قد وصلا من غير اتفاق معلن ، إلى صيغةٍ من حرية الجسم والروح لا وزن فيها للمواضعات . كان البيت المملوكي دافئا من غير أن يكون رازح الحر . وكانت قد قالت له :« عندك هنا القميص ، وجاكتة البيجاما ،

والكيمونو ، البس ماتشاء » . فاختار قميصا خفيفا ، صيفيا ، رجالي التفصيل ، من قمصانها ، مفتوحاً بلا أزرار ، محايدا . ولم يكن يدنيع شيئا غيره .

كانا يقرآن معا ، أو يعملان في المطبخ ، أو يشربان ، ويأكلان ويتحدثان ، يتحدثان ، يتحدثان ، ويصنعان الحب ويقتربان ، ويبتعدان ، لكي يقتربا من جديد ، لايثقلهما شيء. لم يكن الخفاء يعني شيئا ، ولم يكن العرى نفسه مهمّاً بل مايعنيه ومايدل عليه ، في تجسده ، هكذا ، وتجردّه ، وبساطته الأولية . دوران كتفها الراسخة وانسدالها ، استسلام ذراعيها وإيقاعهما : حركة الصدر الناهد بجماله الصافي دون أدنى بَذّاء ، الطيّة السفلية من الفخذين ، باكتنازهما الندى ، ربوة البطن المطمئنة وجوهرته الغائرة المستديرة ، واكتنان وهدة الكنز المَدخَل المأوَى هادئاً ومعتماً قليلا ، كلها ، منيرة وواضحة وبريئة براءةً كلية . أما هو فيحس نفسه يتحرك ، حرا ونقيا وخفيفا ، ساقاه مرنتان مطاوعتان وصدره ممتلىء بهواء طَلْق .

كان بوسعه ، بلا أدنى حرج ، بل كأن الحرج شيئا غير متصور ولا معنى له من الأصل ، أن يراها في قميصها النايلون القصير ، شفافاً ، ومفوفا بتوشية ملفلفة صغيرة من نفس نسيجه ، مفتوحة على صدرها الوثير ، ويلف على أعلى ساقيها باتساع ، ورحابة ، وهي جالسة أو واقفة أو تسير ، وهي تطل من داخل المشربية على الفناء الداخلي النائم في الشمس ، وهي تمر في الظل المتحرك المتموج تحت دغلة شجرة الظل الوارفة الخضرة ، وهي تقرأ له في كتاب من شعر الحب المصري القديم ، من ترجمة إزرا پاوند ، وتصحح الترجمة عن الأصل الهيروغليفي ، وهي تأتي له بشراب ، أو تطبخ له ، كانت ، هنا ، في عنصرها الحقيقي ، متطهرة وأساسية . كل مايأتي إضافةً على ذلك هو مجرد إضافة وتزيد ، وثقل وحشو وعائق ولا ضرورة له .

قال : ليس في هذا ، بأى حال ، عود إلى ميثيّة الانسان الأوّل ، البرىء ، عند عمنّا روسو أو من لَفّ لفّه ..

في الحضور الدائم للزمن الآخر أراها دائما في نقائها .

كانت قيمة عرى جسدها الأسمر الصافي تتجاوب بشكل حميم مع قيمة جسد الخشب

الداكن الخفيف الدّانة ، الحيّ ، في المنمرنة ، وتتراسل بين النغمتين موسيقى حميمة . وكان جمالها مُضْمَراً في العرى ، غيرَ مبذول بل مكنون .

أغصان شجرة خضراء ناعمة ، تأتي في ضوء مصباح الشارع الكهربائي يسقط عليها بين جدران البيوت الحجرية العارية ، تهتز على قطعةٍ من سماء الليل الزرقاء الدقيقة .

قالت له : ماتراه ليس أنا . أنت لا تحبني في الحقيقة . أنت لا تتحدث إليّ ، أنا ، في الحقيقة . هذا كله هنا ، في رأسك .

قال : اسمحي لي أن أختلف . أنا أعرفك . وأحبك . كما لا يعرفك ويحبك أحد .

قالت : لاأدري ، ربما . أنت تريد شيئا مطلقا ، أبديا ، دائما . هذا ليس أنا . ثم كيف يمكن أن نصون هذا ؟ كيف يمكن أن نصون حبنا ؟ الزمن يغير كل شيء .

قال لها : قلب السماء لاينقضي . وأنا أضم عليه ذراعيّ . عندما أرفض قبول التغير ، والمراحل ، والرواسب ، فإنها تنتفي . عندما أجد أن الدائم والمطلق الثابت هو الوجود ، فلست لا خياليا ولا رومانتيكيا ولا هي أشياء تدور هنا في رأسي .

قالت : ياميخائيل ، ألا تريد أن تكون واقعيا أبدا ؟ هذا غير معقول .. وغير صحيح . لاشيء طبعا دائم وثابت . وهذا لا يعني أنني لاأتمنى ــ مثلك وزيادة ــ أن يوجد ، أن يكون ، هذا الدائم الثابت الذي فوق الزمن . لكن علينا أن نتصرف داخل الزمن .. هذا هو الشيء الصحيح .

لم يقل لها : في هذه العلاقة حزن ضروري . هو الوجه الآخر للبهجة التي لاتُعْقَل . الحزن ، والحب ، لاأعرف ماذا أفعل بهما ؟ ليس هنا ماسوشية ، ولا انصياع لآلام طفولية قديمة . ليس هذا . أساساً . بل هو ضروري .

ولم يقل لها : لأنك .. حتى عند كمال التحقق ، تبقين شوقاً غير متحقق تماماً ، وفي أضوأ

لحظات المجد تظلين صبوةً غير قابلة للتمام ، فيها آفاق أبعد ، لا وصول إليها . لذلك أنت دائما متقدة ، متوهجة في سريرتي .

بل قال : أعرف أنه دائما مصون . لاأعرف الزمن .

ولم يسأل ، لأنه قال لنفسه إنه لن تكون هناك أبدا اجابة :
ــ وأنت .. هل تعرفين ؟

قال لها مرة : غريبة جدا حكاية الجسم هذه ، ومافي داخله إذا أمكن ــ يعني ــ أن نقول هذا .

قال : لا أستطيع أن أنسَى قصة قصيرة قرأتها من سنين وسنين ، أظن كاتبها أمريكيا ويهوديا على أى حال ، هل اسمه بن هِشت أو شيء من هذا القبيل ؟ قصة خياط يهودي أمريكي ، قصير ، بدين الجسْم جدا ، دحداح متراكبُ اللحم بعضه على بعض ، وكان الرجل رومانيتكيا جدا ، ويحب فتاة رقيقة كالهواء ، ناعمة كأنها بيت شعر ياباني ــ ليس هذا في القصة أظن ، بل مابقى في نفسي منها ــ وكان الأمر كله مضحكا جدا بالطبع ، قاسيا جدا . ومرض الغلبان ، وشفَّه المرض ، والحب ، واليأس ، بلا شك ، وإن كان هو لا يعرف ، حتى لم يعد له ثقل على سريره . جاءت البنت تعوده ، لم تكن تعرف أنه يموت حباً ، بالمعنى الحرفي ، ورأت وجهاً في غاية الجمال مضيئا بنور الموت ، وكان هذا الذي على السرير رجلا في غاية الرشاقة ، والاكتمال ، جسما كأجسام آلهة اليونان الذين في عز الشباب ، وعندما اندفعت إليه تقبّله وقد تفجر في قلبها حب لا وصف له ، كان قد مات . لم يعرف أبدا أنها كانت تحبه ، على ماكان عليه ، بكل ماكان جسمه عليه من ثقل .

قال : ألا يذكّركِ هذا بشيء ؟

قالت ، بحزن وغضب : طبعا سلّام شاهين أيضاً مات . ولكنه موت على العكس تماما من هذا .

قال : امرأته نحيلة ورقيقة جدا أيضا . وصوتها ـ أظن أنها سوبرانو في فرقة الأوبرا عندنا ـ ثاقب ومتسق معها .

قالت : آه طبعا . يموت في حبها ، ترك زوجته أمَّ أولاده من أجلها . وهي ، ولا هي هنا . لكن لماذا تبعد عن الموضوع ؟ ليس هذا ما أقصد . كما تعرف .

قال ، مسلّما وبألم : نعم أعرف . هذا الشرخ عنده ، وعند الآخرين . الشق بين الفنان الموهوب والحساس ، وبين ذلك الجانب الآخر الأساسي عندهم ، الجانب الذي يجري ، دون رحمة ، وراء القوة ، وراء السلطان ، وراء الشهرة أو ماشئت . الجانب الذي لابد أن يبيع الكلّ ، غاليا أو رخيصا ، غير مهم ، في سوق السلطة . المشكلة عندهم أنهم لا يستطيعون أن يلائموا بين الجانبين . الشرخ موجع وعميق وقاتل أحيانا ، انظري كيف مات سلّام عبد الغفور .. مأساته أيضاً شديدة الإيلام .

قالت : لا أفهم . لا أفهم لماذا ؟ كان سلّام شاهين صديقا حقيقيا ، ونادرا . وكنت أحبه ، صحيح . مازلت في الحقيقة ، لكنني أحس أنه مات . لم يكن هناك من هو أرق منه ولا أكثر موهبة ، في الشعر ، في الرسم ، وفي الحياة أيضا .. هو موهوب للحياة .. أنظر كيف يمتهن نفسه .

قال ، بغضب : الشيء القديم ، المأثور ، المبتذل حتى لا أكاد أستطيع أن أكرره : السلطة مفسدة حتى النخاع . وقد أفسدتنا ـ إلا من عصم الله . إحساسهم أنهم أيضا ، هم ، سلطة ، وزيغ أنفسهم بانحيازهم للسلطة . يخجلني ، صحيح ، ترديد هذه المأثورات . لكنها ، في صميمها ، أليست صحيحة ؟ صحيحة بعد أن ننحّى عنها مسوح الحكمة ، وسلطة التقاليد ، بدورها ، صحيحة ومحزنة ؟

فلم تقل شيئا . كان في حزنها على صديقها ، ما يستعصى على التقنين والتجريد .

وأحس هو ، على يقينه من أن كلامه صحيح ، أنه لم يقل شيئا .

في استراحة الآثار في ماريوبولس ، وحده ، كانت مائدته العارية عليها كتب قليلة ، ولفّة ورق الرسم الأسطوانية ، ومصباح مكتب قديم . وكانت أمام النافذة ، في مواجهته ، حديقة رملية صغيرة مسوّرة . شجر الزيتون الداكن الورق ، وخضرة شجيرات التين على الأرض . تلتصق بالسور الحجري المنخفض صبّاراتٌ قوية صلبة العود ، وامتدادات التين الشوكي المغلّفة على ثمراتها الصعبة ، ثم تمتد الصحراء أمامه ، والأطلال المحفورة الواطئة ، يلوح بعدها بناء الدير الصغير المربع ، مسدوداً في لألاء الشمس ، يرتفع منه برج الكنيسة المربّع الاضلاع ، سامقاً من بين السحاب الرمادي الفاتح ، اللؤلؤيِ النصوع ، الباهتِ الرقيق الشتائيّ . السماء الزرقاء الناعمة وراء البرج الذي يكتسب منها نعومة . البرج القديم نفسه يصبح ناعما ، جسديا ؛ ولكنه يطعن الزرقة التي تكاد لفرط شفافيتها أن تكون مشتعلة بيضاء . وهج الشمس منعكساً على موج الرمل يحمل إليَّ وجهك . يطفو ، في سكون . تنظرين إليّ. وصفحة الرمل كصفحة البحر . رصاصية . صلبة . جسمي لايغوص ، بل أراه ، من هنا ، يتعثر ، يتدحرج ، كومةً من الحصى ، على سطحها الصلد المشع ، تحت وحشة سماء الألم الشاسعة . وهذا النداء المضلّع الجوانب، قائم أمامي ، في الصفاء المطلق ، صامتا . وجرم الجرس يبدو صغيراً محدَّد الجوانب قائماً في الضوء الذي وراءه كأنه لن يقرع أبداً بصليله البهيج .

الباب التاسع

الأبواب المفتوحة على العراء

كان الباب مفتوحا ، ودخلت عليه تسبح ، نازلةً إليه ، في الهواء ، جناحاها مطبقان إلى استدارة الجسم المرمري المجرّع بخيوط بيضاء . كان يحس هذا الجسم المنحوت ينقضّ عليه ، دافئا ومدوّر الجوارح . عيناها ثابتتان . وكان يعرف وجهها . هذا اللمعان الأسمر الوردي ، مصقولا وفيه ماء الحياة . تذكّر أنه رآها في الميتروبوليتان ، وأنها سحرته ، وهي رابضة ، صغيرة القد ، على منصتها الحجرية الرشيقة ، بمخالب نسرية مسنونة ملتصقة بالحجر . هُولة أُنثى من الأسرة الرابعة . وأنها كانت جميلة جدا ، ومُنادية . جسم القطة الكبيرة وديعٌ وفاجرٌ معا ، وشعرها الجَثْل الرخاميّ ثابت التموج في جدائل عريضة منتظمة في انصبابها ، تدور بالجبهة الصغيرة المدورة ، وتنزل إلى الكتفين من أمام ، حتى الصدر الناهد الممتلىء بنبضةٍ واحدة من النَفَس المرتاح ، نبضة واحدة وإلى الأبد . وهو يعرف طعم شفتيها ، مازال يذكره ، عندما كانت تبتسم ، بالكاد ، تحت قبلته . اللبؤة المجنّحة الحارة بوجهها الإنساني الحنون والمغلَق . كانت معلقة فوقه ، عالية ، تحت سقف غرفته المقفلة ، والنور غير محدد ، كأنه عتمة شفافةمستضيئة ، وهي مازال تهبط إليه ، ساكنة الجناحين ، وجهها له وهج مكتوم ، مُطايِب .

تحرك الهواء المعلق فجأة ، واهتز ، وهو يراها ، مفتوح العينين في رقدته ، مكشوفا ، لا مناعة له ، ترفرف بالجناحين الممتدين ، وللهواء زفيف كبدء عاصفة ، وهي تنقضّ دون أن تختلج لها جارحة ، وتحتشد بها الغرفة كلها ، وتمتلىء ، وتغص ، ثم تُطبق عليه .

كان على الباب دق عال متصل . عندما نهض ، رأى أنه في فراشه ، في غرفته العلوية في ميناهاوس القديم . أحس العرق باردا على جسمه ، والبيجاما الخفيفة تلتصق به . كانت امرأة الغرفة بالفندق على الباب ، ووراءها العربة التقليدية الجرارة بعجلات ، المحملة بأدوات التنظيف وغيار المناشف والملاءات ، وفي يدها المكنسة الكهربائية . قال لها : الساعة كم ؟ قالت : الساعة اثنين بعد الظهر يابيه ، متأسفة ، صحّيتك . قال : أبدا أبدا . تفضلي . فدخلت وأزاحت الستارة الداكنة الحمرة ، عن شمس بعد الظهر ، ودخل الحمّام وتركها تشتغل .

كان قد جاء من الغورية في الحادية عشرة صباحا ، على ميعاد للعودة على الثالثة . قالت له رامة إنها فقط ستذهب للمصلحة تأخذ أسبوع إجازة من إجازتها السنوية ، وتعود على الفور . وقالت له : على فكرة .. لماذا تذهب لمينا هاوس وتعود ؟ ماهذا ؟ لماذا لا تأتي بأشيائك ؟ فقال : صحيح . طبعا . ماهذا ؟ سآتي . وترك الفندق .

قالت له : خذ هذه سلسلة مفاتيح الباب . لا ، لا ، عندي نسخة أخرى . أنظر ياسيدي ، هذا .. العريض اللامع الحاد السن . مفتاح الكالون ، أما هذا الصدىء الغليظ ، فيرفع سنّ المزلاج من الداخل ، إلى أعلى . المفتاحان الصغيران لدولاب الملابس ، ودرج المكتب . خذ جربها .

أحس دفء السلسلة ، وهو يتناولها ، من دفء يديها . كان معلقاً بها رأسُ ثورٍ كريتيٌ صغير جدا ، من الفضة القديمة مسودةً حول العينين البارزتين ، وتحت الخطم الدقيق بشفتيه القويتين ، وعند منبت القرنين المعقوفين ذؤابتاهما المسننتان تدوران على الرأس وتمسكان به بصنعةٍ في غاية الدقة .

لاحظ ، بسرعة ، أن نسختها ، هي ، ليس فيها رأس الثور .
قالت له : كلّمت نبوية وأنا راجعة.. قلت لها إنك أخي وإن معك المفاتيح .
ورددت ساهمة بحزن خفيف ، كأنما لنفسها : أخي ، ومعك المفاتيح ..
ثم رفعت نفسها من بحيرة الأسى الصغيرة الهادئة ، وأكملت ، تحكي ، بخفة :
ــ وقالت نبوية ، وعيناها الطيبتان الماكرتان كأنما تقولان لي : إنها فاهمة ، وعارفة ، قالت لي : « وماله ياحبيبتي . ربنا يخلّيهُ لك ، ويروّق لك أيامك يارب ، ويحبّب فيك خلقه ياست رامة ياسُكّرة » .

هل احتضنْته عندئذ بخفة وسرعة وهي تهمس في أذنه : ربنا يخلّيك لي ياأخي ، ياحبيبي . ودارت عنه ، بسرعة ، عيناها مبلولتان في لحظةٍ من اللحظات النادرة التي تُسلِم فيها نفسها إلى جيشان قلبها ؟ أم أنها اكتفت بهذه المرارة الطافية في همستها لنفسها : « أخي ، ومعه المفاتيح »، زَبَد مرارةٍ متطايرةٍ على بحرٍ مكتوم ؟

وعندما خرجا أخذ يجرب المفتاحين ، يخلط بينهما أولاً ثم يعرفهما ، ويعرف أن دورة هذا إلى اليمين ، وأن دورة ذلك إلى اليسار ، ويجرب مرة أخرى ، وينجح ، وكان فوق الكالون الأصفر الجديد بشكله الفعال المحكم ، قبضة يد نحاسية قديمة ، مضمومة الأصابع ، مكورة بقوة كامنة ، ترتفع وتنزل لتدق الباب من مفصّلةٍ بطيئة التحرك .

كانت السماء الخريفية ، تبدو من وراء تعاشيق جدار المشربية العريض ، ناعمة تريق ضوءا ليّناً ، كأنها جسد أنثوي ، فيها سحابات خفيفة على المآذن العامضة اللدنة الحجر .

كان ممدّداً على الصوفا العريضة ، تحت ذراعه وسادة طرية ، ليس عليه إلا قميص واسع رجاليّ الزيّ ، بنصف كم ، من نسيج خفيف دمث ، مفتوح بلا أزرار . أمامه كأس الويسكي المشعشع نصف مليء ، وهو يقرأ ، بهدوء ، من كتابها الذي ترجمه إزراباوند لقصائد الحب المصرية القديمة ، تهتز للشعر في نفسه مياه رقيقة إذ كأنه يسمع نفسه يحدثها عبر كل هذه السنين ومن خلال تقلب كل هذه الحضارات ، ويجد صوته المهموس كأنه باللغة القديمة نفسها التي لاتحتاج للكلمات ، ومع ذلك فالكلمات ضرورية ومحتومة . كانت قد أخذت كأسها وذهبت إلى المطبخ وكأنها مازالت معه ، في قميصها الأزرق الفاتح ، المفتوح عن صدرها الوثير وبطنها المدور المسبوك وعمودي ساقيها المتينتين ، كانت قد قالت له إنها ستطبخ له على الغداء بامية ، وأيضا سيأكل أصابعه وراءها ، وضحكا ، وكان البيت دفيئا فيه بخار خفيف عبر مرئيّ . وشيش ماء يغلي على الفرن الكهربائي الفيليبس الكبير يصل إليه مع موسيقى دينية قديمة من عصر النهضة نزل بها حتى أصبحت خافتة جدا ولكنها تملأ الهدوء المبطنّ العميق الصدر ، ونداءات بائع جوال تأتي معها بعيدة جدا من وراء الجدران الحجرية الكثيفة ، لاتكاد تُسمع ، شجية وغامضة . وكان في جسمه رضا الراحة ، وأوصاله كلها مازالت تتذكر ، من غير تلهف ولا حدة ، انفجار النشوة الصباحي المبكر وسورة المتعة وحُميّا العشق المفاجىء الذي أتى وذهب كعاصفة غير محسوبة وتركتهما ، من غير كلام ، من غير حاجة للكلام . خطر له أن هذه التنعّمات الساجية كلها تتآلف بشكل نادر ولكنه طبيعي جدا ، وأن كل قسوة العالم وسطوته قد سقطت في الخارج بل كأنها لم تكن قد كانت هناك قط ، وأن الجفوة والغلاظة والقبح قد فقدت كل خشونة أسنانها ، وأن تربصها قد أصبح ، على الأقل ، مؤجلاً ويكاد يكون لاوزن له .

جاءت إليه من الباب المفتوح مبتسمة ، مضرّجة الوجه ، باذخة وطبيعية جدا في انكشافها للنور الصباحيّ الهادىء ، وجلست إلى قدميه تحت الصوفا ، قرعت كأسها بكأسه ، وقالت : تسمح تروح المطبخ ؟ تركت لك هناك رسالة ..

واستندت إلى المخدة ، براحة .

فدهش ، وألغز عليه طبعا ، وقام نصف قومة ، وأحس نفسه يبتسم ابتسامة متحيرة . فقالت تحفزه ، بغموض : « قم .. اذهب هناك ، وسترى » وهى تنظر إلى يقظته ، بابتسام .

لم يملك ، وهو يقوم ، إلا أن ينظر إلى ساقيها المتمددتين وسمرة جسمها المرتاح . وجرى حافيا إلى المطبخ . البلاط الرخامي القديم دمث وحلو تحت باطني قدميه .

كان المطبخ أكثر دفئا ، وفيه بخار خفيف ، وأنيسا ، وفيه أمن وراحة ، ونشيش الغليان ، وعبق رائحة التوابل والطبيخ يفتح النفْس ، كل شيء كان بيتيّاً جدا . دار ببصره على الحائط الضخم الحجر ، والطاقات المحفورة فيه ، بأباريقها النحاسية ، والدواليب الخشبية الريفية الطراز ، يبحث عن رسالة ..

كان زجاج النافذة العريضة المطلة على الحوش المغلق ، مغبشا بالبخار . ورأى وسط الندى الخفيف كتابتها إليه ، بإصبعها ، بخط كبير طفليّ « أنا أحبك » وقد بدأ البخار يغشى أطراف الحروف الكبيرة الصافية بالبلل ، فبدأت تتسايل قليلا ويزحف الغبش الغائم إلى صفائها المقطوع .

فكتب بإصبعه على الزجاج ، تحتها « أنا أحبك أكثر » وكتب اسمه .

وجرى راجعا إليها ، وهو يقول لها : تركت لك الرد .أنا أحبك أكثر .

ولكنه لم يسمح لها لا بالرد ولا بأن تذهب لترى رسالته .. انحنى فضم شفتيها اللتين تهمان بالردّ ، بشفتيه ، وكانت تموء تحت قبلته بالرد المكتوم : « أنا أكثر » ، وضع كأسه على المائدة النحاسية بحركة خلفية من ذراعه وهو يحيطها بذراعه الأخرى . وكانت يقظته الآن كاملة ، ويحس ذراعيها خلف عنقه فيهما طزاجة ولدونة ، بطنها تحته ، وثدياها في حضنه . نسيا تبادل الكلام ، وكانت المتعة ، دون كلمات ، متطاولة ، متقلبة الأدوار .

عندما عادا إلى المطبخ معا ، كانت اللحمة التي تغلي في صلصتها قد نضجت جدا ورائحتها المحموشة تعِدُ بلذةٍ أخرى ونعمة أخرى . وكانت الكلمات على الزجاج قد ساحت بنداوة البلل الدفيء ولم تبق منها إلا آثار باهتة . كلماته مع ذلك أوضح قليلا ، والندى الذي عليها أقل ، قليلا جدا ، بما لا يُحس ، مما يحيطها . قرأت نظرته ، وفهمتها ، وقالت بسرعة :

ـ لم تكن فقط كلمات على زجاج النافذة ياحبيبي .

قال ، وفي بقعة بعيدة بعيدة من داخله سؤال غير متشكل ولا منطوق ، وإجابته غير مطلوبة الآن : أعرف . أعرف ياحبيبتي .

هذه الهدية منها إليه ، لم تكن منتظرة ولا سبب محدداً لها . واضحة وصافية . تتبخر وتتطاير ولكنها تجعل قلبه ، الآن ، أخف ، وتأتي إليه ، بابتسامة ، في صمت الليل ، فيسعد كطفل . ولا ينسى الرسالة الطفلية . نقاؤها دائم ، لا تقوى عليه الغِيَر ومِحَن الشوق وشوكة الأسئلة .

قال لنفسه : « الحب دَهش في لذة ، وحيرة في نعيم » .

ثم قال : الحب الذي لا جدوى فيه

ليس للنعمة من جدوى .

ثم قال : الحياة مصنوعة من حقائق الرحمة الصغيرة لا من أوهام الميثيات الكبيرة ، قال ماذا يجديها أنني أُسْدي إليها ؟ أنني أسأل في كل لحظة تقريبا ، دون سؤال : « ماذا تفعل الآن ؟ وبم تهجس خواطرها ، حتى ؟ » أنني أصحو من النوم فأقول : « صباح الخير ياحبيبتي » وكأنها تسمع تحيتي وتسمع محبتي ؟ ماذا تجديها ـ وتجديني ـ صَبَوات كأنها مراهقة ثابتة ، متأخرة جدا ، وأنني أحارب شوقي إليها ، وأصدّه ، وأخفيه أيضا عن ذات نفسي ، لأنني لا أحتمله ؟ وأنني أنساه ، كل يوم وأذكره ؟

قال : أين عمل المحبة ، وتعبها ؟

عندما تتيقظ في الصبح ، كانت نقلتها إليه ، من نومها ، إقبالاً عليه ، وحنانا وطلبا للحنان في الوقت نفسه . كانت قريبة من باب المطبخ في الممر الطويل ، وهو في الحمام ، عند البؤرة الأخرى ، المقابلة ، من البيت . وقالت له : عندما تقترب أن تفرغ من حلاقة ذقنك ، نادني فقط ، حتى آتي اليك بالإفطار ساخنا . كانت تشرب قهوتها باللبن ، هذا كل إفطارها ، تجلس أمامه ، ترعاه وهو يأكل البيض المقلي بجوهرتيه الصفراوين الذائبتين وبياضه المتشعّب

الأطراف بلونة ، وعليه الجبن المتبدل بنعومةٍ حارة ، وملعقتيْ فول مدمّس بزيت الزيتون والكمّون ، والتوسْت بالزبد وعسل النحل ثم الشاى باللبن تعقب مباشرة القهوة التركي المضبوط .

اكتشف ، وهو يصحو من النوم ، أنها تيقظت قبله . خرج بسرعة وناداها ، وجاءه صوتها من الغرفة الكبيرة : ياصباح الخيرات . أسرع إليها حافيا ، فوجدها جالسة على الأرض ، وظهرها إلى الباب . اقترب ، وانحنى عليها من الخلف . فُزِّع إذ رآها تمسح حذاءه ، بحركة هادئة منتظمة ، بخرقة صفراء ، نظيفة ، كثيفة الوبرة . تدهور قلبه ، وسقط بكل جسمه إلى جانبها ، يمسك بيدها بقوة : ماذا تفعلين ؟ فقاومته يدها ، وأصرّت . وقالت له ، بعينين محتشدتين : ماذا ؟ ألست أحبك ؟ أحب أن أعمل لك هذه الأشياء الصغيرة . هذا أحبه ، فلماذا تريد أن تحرمني منه ؟ كان صمت تقبيله ليديها أكبر مما يطيق ، لكنه استطاع أن يتحمله .

انفلتت عنه ، في أول الليل ، فلما تأخرت عنه قليلا ، ذهب يبحث عنها ، وجدها في الحمام ، كانت قد أخذت قميصه ، والجورب ، والفانلة ، ومنديله ، ووضعتها في طشت بني صغير من البلاستيك ، نقعتها في الماء والأومو ، وكانت تدعكها قليلا حتى ترغّى ، وبياض الرغوة على يديها ، وملابسه ، والماء الذي راح لونه يدكن قليلا في البلاستيك البني القاتم ، قالت وهي تلتفت اليه : سأتركها الآن ، حتى الصبح ، حتى تذهب رائحة العرق . وقالت : « أنا صحيح أحب رائحتك .. لكن .. » وهو واقف يرقبها ، مشلول الحركة ، صامتا ، لايكاد يعرف ماذا يقول ، وماذا يفعل بنفسه . كان كرمها يحاصره . كانت يداها المكتنزتان اللتان يعرف هو كل مافيهما من حنان ، ومقدرة ، يغمرهما زَبَد الصابون الأبيض ويسيل ، وتنفجر الرغوات الصغيرة من غير صوت وتذوب على أصابعها الحاذقة التي تعرف كل جزء من جسمه وتعرف كيف تُشكّله ، والتي يريد الآن أن يقبل أناملها إصبعا إصبعا ، وأن يضمها إلى قلبه ، بمائها ، ورغوتها ، وتعب محبتها .

عيناى الآن حجريتان ، وجافتان .

أذكر الشوارع الهادئة الخاوية في مصطفى باشا ، الشوارع تصعد ، برفق ، وتهبط بي ، وتدور . وقد خرجتُ في أول الفجر من المبنى الذي أخذته هيئة الآثار أمام الثكنات . كان العمل في التنقيب يدور عندئذ ليلا ونهارا ، استعدادا لحضور الوزير الجديد ، لافتتاح الكشف

الجديد ، في أعياد ٢٣ يوليو ، من جديد . وكان المبنى مظللا بالشجر الكثيف الندي الذي ما تكاد تستبين خضرته اليانعة المبلولة . والبحر قريب ، صوته يزيد من وحشتي . وأذكر الدموع غير المطلوبة وغير المفهومة والتي لاسبب محددا لها ، تسيل بصمت ، وأحس وجهي تحتها صخريا وجامداً وأنا أسير بين الجدران المكللة بالنباتات والأغصان الوارفة الرطبة ، الأبواب الحديدية المشغولة تنفتح قضبانها عن حدائق غامضة في أول نور السماء الصحو ، الغبش بالندى الخاثر الملح .

أذهب إلى مكتب التليفون والتلغراف الذي يسهر طول الليل ، يضيء فيه مصباح فلورسنت شاحب في الفجر ، عليه ذباب نائم . والموظف متلفف في البالطو الميري الداكن الزرقة ، ذقنه خضراء ونظارته الطبية السميكة مدورة ، ينظر إليّ نصف نعسان ، وأنا أطلب الرقم . يدير الرقم ، بصمت ، ثم يقول : الرقم لايرد . ويترك لي السماعة أضعها على أذني لأتأكد . ويأتي الرنين من القاهرة ، طويلاً ، وملحا ، ولايرد . كنت أتصور أنك قد عدتِ من رحلتك إلى إدفو ، قلتِ إنها لن تستغرق أكثر من أسبوع . وطلبتك من السويتش ، في مبنى الهيئة ، ليلتها ، عدة مرات . وطلبت من عامل التليفون أن يتأخر معي قليلا ، بعد ميعاده الرسمي ، وكان الرجل يحبني فبقى حتى الواحدة صباحا ثم لم يطاوعني قلبي أن أبقيه بعد ذلك فمضى إلى بيته وأهله ، وترك السنترال في المبنى ، وانقطع الخط . لم أنم ليلتها . لماذا ؟ وخرجت في أول الفجر أطلبك . ومرة بعد مرة يأتي الرنين ، قاسيا ، يتردد صداه في البيت الذي أعرف دفئه ، وغبش الفجر فيه ، ولايرد . وتدور بي الشوارع وهي تستضيء قليلا قليلا ، والسماء تصحو ، جامدة وغير رحيمة ، وساكنة . وأعود إلى مكتب التليفون ، مرة بعد مرة بعد مرة . يقول لي الموظف : على الله تجيء بهذه المرة . نجرّب تاني .وهو ينظر إليّ بشيء من الضيق وشيء من التساؤل وشيء من التعاطف والمشاركة أيضا ، وقد أحس إلحاح الطلب ، وأدرك ، بغموض ، دلالته . قلت فقط إن المسألة عاجلة جدا ، واعمل معروف . اصبر معي .. ظل الصمت طول هذا الفجر الغريب هو الإجابة الوحيدة ، والدموع الغريبة .

قالت له : تأخرت يوما واحدا . واحدا فقط . وليس هذا جديدا على شغلنا . فماذا كنت تظن ؟ كنت تظن أنني أسرح على حلّ شعري .

قال : أنا أيضا لا أفهم . كأن حياتي كلها كانت معلقة بأن أحدثك ، فقط أسمع صوتك في هذا الفجر الغريب .

قالت له ، برفق ، وبشيء من الغضب : أنت مجنون .

قال لنفسه : لماذا ؟ لماذا يحدث لنا ذلك ؟

ورد على نفسه : ليس هذا سؤالاً ، بالطبع . هو مجرد صرخة . وما أكثر الصرخات ، وأوجعها . وما أقل قيمتها . صرخة تصادر عن الروح ، عندما تصبح الروح ، في المحجر ، حيواناً مضروبا .

وقال بسخرية خفيفة : وارحمتا للحيوانات المضروبة . مضروبة منذ وُجدتْ حتى تموت . ولاينتهي موتُها .

وقال : أعني أن هذا كله قضية مفروغ منها .وفارغة ، مكرورة . واقع رثّ قديم مازالت تبدي فيه وتعيد . دورانٌ وحُشيٌ شيخ ، مثير للسخرية قليلا ، بلى جسده في قفص لاقضبان فيه ولاباب .

وقال : اصرخْ . اصرخْ ، ماشئتَ . لامانع من ذلك طبعا ، ولا معنى له كذلك . أنت ــ أنت وروحك المضروب إذا شئت ــ معا . حيوان مضروب ؟ طيب ياسيدي .. ما أكثرها .. ألسنا جميعا مضروبين ؟ فماذا ــ يعني ــ في أن تصرخ ؟ أو أن تصمت ، من أجل ذلك الأمر ؟ سيان . ماذا في ذلك كله ؟

يجيئني نداؤك ، وأنتِ نائمة ، بصوت شائق ، طفليّ : ميخائيل .. أين تذهب ؟
ويشق النداء قلبي شقين لا التئام لهما .
ومع ذلك ، فعلى شفتيك ، أنتِ وحدك ، اصطلح مع اسمي .
لاصلح لي مع غربتي عن نفسي .
إلاّ ولحم ذراعيك حول عنقي ، وصدرك الناعم في حضني ، وأنت تنادينني باسمي ، الحب يتقطر من شفتيك . في غورك وحده أعرف أنني أنا ، ولست غريبا عني .
ولكنه قال : إذا هربتَ من الرحمة ، فالرحمة سوف تهرب منك .
كانت يصمت عنها ، وهو بعيد عنها ، في اسكندرية . ولايكتب ،ولا يتصل ، ولايتكلم ،

نوبات فرار إلى الأمام ، متكرر ، دون تفسير . كأنه يعاقب نفسه .

قالت له : اكتبْ ، ولو مرتين في السنة . اجعلها مرتين .. بدلاً من مرة واحدة .

قال : هذا في مقتل .

قالت : نعم . أليس كذلك ؟

قالت : كل يوم أنتظر منك كلمة . كل يوم . ولا شيء يأتي .

قالت : عندما دخلتَ ، بعد كل هذا الصمت ، كنت خائفة من أن أنظر في عينيك . كنت أخشى ما قد أجده فيهما .

فأُرتج عليه تماما . ماذا كان يمكن أن يقول ؟ كان غضبها يفور في عينيها . ومن رفقها به ، وحنان قلبها ، كانت تكتم الغضب عنه فيقع في تلك الهوة الغائرة المعتادة التي لاقاع لها ، من الصمت الكامل ونفاد الحيلة تماما . ويقول لنفسه : يأخي تكلم . افعل شيئا . وهو يتدهور ، لاإملاك له لنفسه .

قالت له : طلبتك في اسكندرية ، على تليفون المصلحة العمومي ، ثم على رقم المدير ، ورقم الاستراحه ، ورقم المتحف اليوناني الروماني . واحداً بعد الآخر ، وأنت غير موجود . كنت أعرف . قلت لنفسي : « حبيبي له أشياء مثل هذه . عنده تكّات كهذه » . كنت تعرف أنني سأطلبك ، لماذا تفرّ مني ؟

قال ، بعد لحظة صمت وتردد : أنا عندما أفرّ منك ، أفرّ إليك .

قالت ، ضاحكة ومداعبة وجارحة بعمْدٍ قليلا : ياحبيبي على هذا .. ! ياسلام .. ! دعك والنبي من الكلام الحلو الذي لايؤدي ولايجيب . ألست أعرفك أنا ؟

قال ، صامتا ، لنفسه : هل تعرفني ؟

قال لها : خمس سيدات ملقى بهن في وسط الرمل ، في صحارَي سيتي . الحلىّ والمجوهرات الذهبية اختفت . المومياوات الخمسة مصفوفة على أرض الصحراء ، بانتظام ، في انتظار الشحن إلى الخارج . من العصر اليوناني في الفيوم ، إلى الأرض بالقرب من الفندق الجديد الذي يعيش على أفواج السياح المنقولة بالطائرات والاتوبيسات المكيفة ، عبْر المطارات والجمارك

والمطاعم الجماعية ، إلى أسواق « العاديات » والمزادات السرية في أوروبا وأمريكا واليابان . تباع السيدات وتُشْرَى ، بعد موتهن بألفى عام . قال لي ، عم شعبان ، ببساطة : ترى ماذا فعلن . هاته السيدات ، حتى يريْن ، بعد السنين الطويلة ، هذه الفضيحة على الرمال ؟ هذا المنطق لايُقاوَم طبعاً ياعم شعبان . ولكن أين المنطق في أى شيء ؟

« الأحياء الشعبية بالاسكندرية كغيط العنب وكرموز وغبريال قد مُنيت بعدد وافر من الكلاب تحتل كل شارع وزقاق .. ومايكاد الناس يستسلمون للنوم حتى تبدأ وردية الكلاب » .

أما زينب عطية ، إخصائية اجتماعية بالجيزة ، فتقول :

« أبكاني الياميش وانهمرت دموعي مدرارا : عندما رأيت ، وأنا أزور إحدى صديقاتي صاعدة درجات السلم إليها ، أطفال أحدى الأسرالفقيرة يبحثون في قشر الياميش على باب الشقة المقابلة لهم ، لعلهم يجدون ما التصق بقشرة أو بأخرى ، لكى يذوقوا طعم الياميش » .

حضرة المحترم الأخ العزيز ميخائيل افندي قللدس

أهدي اليك أطيب تحياتي وأتمنى أن تكون مع العائلة في أطيب صحة وعافية .

الرجا إفادتنا عن أحوالكم في أخميم وطرق المعيشة عندكم وشدة الحرّ طبعا ، والعلاقة مع الجيران . وهل أن والدك العزيز سافر معكم أم لا من شدة الغارات على بلدنا المحبوب .

واليك أخبار الغارة التي حدثت يوم الاثنين الماضي الموافق ٢٣ يونيو ، وعدد القنابل ، إذا أمكن حصرها ، والمناطق التي ضربت في هذه الغارة راغب باشا وغبريال وغيط العنب ، وهذه القنابل كلها محرقة ماعدا قنبلة واحدة متفجرة وطوربيد : قنبلة على منزل ستّي بغربال في المنور الخلفي وانفجرت وأحدثت حرقا ولكنها أطفئت بمعرفة الجيران ولم يكن بالمنزل أحد ولم تحدث أى خسارة مادية .

قنبلة على قمة منزلنا . ومايزيد عن عشرين قنبلة في ترعة المحمودية .

اثنين في شارعنا ، واحدة خلف منزل ستي وأخرى بعده بثلاثة بيوت .

خمس قنابل بشارع الترامواى من الكوبري إلى تقابل شارع ايزيس بشارع راغب باشا .

واحدة على مخازن الخشب على المحمودية وواحدة على كوبرى راغب باشا . وأخرى على وابور الدقيق الذي يوجد على المحمودية بعد الكوبري وليس الذي أمام منزلكم القديم .

وقنبلة متفجرة على نقطة بوليس غربال وذهب ضحيتها الجندي المنتدب للحراسة بأن قطعت رقبته .

قنبلة على منزل خالتي بغيط العنب ولم تحدث خسائر في الأرواح .

قنبلة محرقة بغيط العنب أحدثت حريقا في إحدى الحظائر ، والتبن ، وذهب ضحيتها ٤٧ جاموسة.

أخرى على المخبأ .

كما تعرّض حي أمبروزو إلى قنابل الطائرات هذه الليلة وحدثت عدة حرائق ولم تلب فرقة المطافىء نجدة الأهالي لقطع المواصلات التليفونية .

وهذا ما أتمكن من سرده لك الآن . وسمعت أن المدرسة ستتحول إلى مستشفى . منتظر الرد بفارغ الصبر ولا مؤاخذة لركاكة الأسلوب حيث أنني لست أديبا مثلك . وعوض الله في مخزنك الذي فيه مجلات الاثنين واللطائف المصورة والمقتطف والهلال وعشرين قصة وغيرها الذي كان في منزل خالتي .

بلغ سلامي للجميع وفي الختام تقبل تحياتي . صديقك المخلص

الاسكندرية في ٢٤ يونيو ١٩٤١ فرنسيس أنطونيوس

قالت له : قم البس شيئا ياحبيبي . عندنا زائر . سوف يأتي بعد نصف ساعة .

قال : من ؟

قالت : لن يستغرق أكثر من ساعة ... ساعة وربع بالكثير .

قال : من ؟

قالت : مدرس السيريانية .

قال : السيريانية أيضا ؟ لغة أخرى مقدسة ؟ كم من اللغات المقدسة تعرفين ؟

قالت : أبداً . عنَّ لي أن أتعلمها . هكذا على كِبَر . طلع في دماغي لازم أتعلم سيريانية .

قال : لم أكن أعرف أن عندنا من يعرفها ، دعك من أن يعلّمها .

قالت : توني ؟ طبعا يعرفها ، وخبير بها . أنطون أفيسيان . لاتفزع . مصري بن مصري أبا عن جد . ومدرّس في الجامعة أيضا . ولكن أرمني . أنت تعرف الأرمن . وحارب — يعني كان في الجيش على كل حال — في ١٩٥٦ أيضا . اختصاصه الأصلي هو العبرية يُدرّسها في عين شمس . السيريانية هي هوايته . كان أبوه عنده محل اكليشيهات ، وحَفر وجرافيك ، في

الرويعي . ومازال العجوز يشتغل في دكانه القديم وراء الأزبكية ، زرته هناك في حارة جنب المطابع القديمة ومخازن الورق والكرتون .. وصاحبي جدا الروح بالروح ..

قال : من ؟ العجوز ؟
قالت : الاثنين .

وترددت لحظة ثم قالت : أريد فقط أن أنبهك حتى لاتفزع مرة أخرى . هو من نوع خاص .. ليس لأنّ عند أى شيء ضد هذا النوع الخاص يعني ، أبدا ، على العكس . هو في غاية اللطف ، ومهذب جدا ..

وتردد هو في أن يفهم ، وعندما دخل ، وفتحتْ له الباب ، هتفت به : توني دارلنج .. واحتضنته بخفة وقبلته على خده .. وهي تقدمه له وتقول في نفس الوقت : ماذا أستطيع أن أقدم لك قبل الدرس ، بسرعة ؟ شاي ؟ سكوتش ؟

سلم عليه بشيء من الحرج سرعان ما انجاب ، وجلسوا يشربون ، لحظة ، قبل الدرس .

دهش ميخائيل لأنه يرى ، ربما لأول مرة ، عن كثب ، مصداق النمط . طبعا كان قد لاحظ ، هنا أو هناك « هذا النوع الخاص » . ولاحظ هكذا من بعيد ، أنهم غير واضحين ، وكأنهم يتسترون ممّا تعتبره الثقافة السائدةخللاً يكاد يُشفى على الجريمة ، أو على الأقل ما يقترب من العاهة المثيرة للسخرية والحرَج . لكن هذا الذي يجلس أمامه الآن هادىء ومتمالك نفسه تماما ، بل لا يكاد يعي بذاته ، بريء تماما . فلعل في انتمائه لثقافة فرعية ، داخلية وضيقة ، مايحميه أو مايضرب حوله نطاقا من الأمان يلوذ به ، من غير أن يدري . كان ناعما جدا ، لايصدَّق . وكان أحيانا ، أثناء الكلام والتعرّف ، يرفع يده ليسوى خصلة من شعره المنهمر ، بحركة نسائية لاخفاء فيها ـ كأنه كاريكاتير . ولكنه جاد جدا وطبيعي جدا ، ويبتسم بحلاوة مفرطة ، ويهتز في جلسته أحيانا دون أدنى وعي بأن في ذلك كله شيئا غير معتاد . كل المواصفات هناك ، ولكنه مع ذلك كان حاد الملامح ، في وجهه رجولة كأنها من تماثيل الرومان المتأخرة ، صلبة الخطوط وإن كانت غائمة قليلا كأنها على وشك التسايل والسقوط ، ولكنها تظل هناك بمجرد إرادة خفية ملتبسة .

نهضا إلى مائدة الطعام المستديرة الصغيرة في الركن القبلي ، من وراء العمود الرخامي ، في آخر القاعة الكبيرة ، يدرسان نصا صغيرا من الأبوكريفا غير الذائعة ، وهو يسمعهما يرددان الكلمات والجُمل ، ويصحح لها نطقها ، ونحوها، فتردِّد وراءه بطاعة واجتهاد . كان يعرف كيف تستطيع أن تمحو ذاتها ، وتسلم نفسها ، وهي تتعلم . بينا هو قد التقط كتاب إبراهيم نصحي عن تاريخ البطالمة ، ويتعرف من جديد إلى شارع بانوب ، والمسرح الكبير الذي كان يقع في مكان المستشفى الأميري ـ المستشفى الجامعي الآن ـ ورأس لوخياس عند السلسلة ، حيث عثر على التنّين ذات يوم ، ومعبد قيصر ، والمركز التجاري الأمبريون ، ودار الموزيون والمكتبة والسيرابيوم، وتلّ البانيون في كوم الدكة إحلالاً للإله بان، حيث هتف في قلب المظاهرة الكبيرة : « يسقط الاستعمار والاستغلال ، يسقط عبد الهادي وصديق عبد الهادي » ومزّق صور فاروق ، معالم مدينته القديمة الجديدة المحفورة في وعيه ، متراكبة الطبقات . وعند دقة الساعة بالضبط نهض مدّرسها صديقها ، واستأذن ، ومضى ، بعد أن قبلها قبلة صغيرة على الخد .

بعد أن أغلقت الباب وراءه ، جرت إلى ميخائيل وهى تضحك ، وقبّلته في فمه ، وقالت له :

ـ مارأيك ياحبيبي ؟

قال : لا أكاد أصدق . نموذج ناطق . وكامل . كأنه مصنوع ، وليس موجودا . لكن طبعا واضح أنه ذكي جدا ، ومهذب جدا كما قلتِ .

قالت : والمهم أنه يقبل نفسه على علاته أو على غير ذلك ، ببساطة ، وهو سعيد . « الأخت توني .. » ليس في عظامه ذرة شر وله صديق ، اسمه طرزيان ، أرمني طبعا ، ومن طنطا ، رأيتهما معا ، ليتك تراهما ، في غاية الانسجام معا . الآخر نموذجيّ أيضا ، أسمر وقوى خشن قليلا ، أظنه مدرّس علوم في التوفيقية الثانوية ، عقلية علمية عبقرية . وكما ترى من الاسم عائلته ترزية بلدي افرنجي ، من أيام العثمانيين ربما .. معظم أهله سافروا الآن ، وذهبوا بعد الحرب مباشرة عندما فُتح باب الهجرة إلى أرمينيا السوفيتية ، ذهب لزيارتهم أخيرا ، ولكنه صمم على البقاء هنا . ابن بلد حقيقي أيضا .

كانت قد ردت مزلاج الباب ، وتخففا من ملابسهما ، وهو يتحدثان ، وكان لصنع الحب ، بعد ذلك ، طعم خاص .

وحدث أن آخر النهار كان يوشك أن ينجاب ، وهواء الصحراء ، رخيا ، صافيا ، مريحاً للصدر بما لايُتصوَّر ، بعد الحر ، كان يأتي إليه من نافذة الاستراحة المفتوحة في ماريوبوليس ، وأمامه فنجان القهوة التركي المضبوط ، عمله لنفسه ، والماء المثلج ، والسيجارة الهادئة ممتعة بعد التدخين العصبي الطويل طول النهار أثناء العمل . وكأنه كان قد اتخذ نوعاً من القرار السلبيّ فلم يكن يريد أن ينهض ليضغط على زر النور . كانت هيئة الآثار قد مدت الأسلاك إلى الموقع ، وكان عنده الثلاجة والراديو والتليفون ، أما المياه فكانت سيارات الصهاريج تأتي بها كل صباح ، من معسكر الجيش القريب ، باتفاق خاص . ولكنه كأنما كان يُؤْثِر أن يزعم لنفسه أنه في الصحراء . كأن نوعاً من حصار المدينة يقترب منه فيصده دون جهد . وكان يحس قلقا غير متحدد المعالم ليس إلا الهواء الصحراوي يخففه .

كان الريس محمد ، وعماله ، قد عادوا إلى خيامهم الحكومية غير المحكمة ، وفرشوا أمامها ، وأوقدوا نيرانهم الصغيرة التي تهتز ألسنتها الدقيقة المدخنة تحت كيزان الشاى المتخذة من علب المربى واللبن المجفف ، أمام براميل الماءالمستديرة المضلّعة مغطاة بألواح من الخشب . ولغطهم وحديثهم يأتي اليه عَبْر الهواء النقى المخلخل مخففاً وفيه فجوات يطير بها الهواء .

سمع صوت عجلات سيارة على الطريق ، من بعيد ، من وراء مبنى الاستراحة . خطر له : من الذي يأتي في آخر النهار ؟ عربة التموين ؟ ليس هذا موعدها الأسبوعي .. أم لعله المفتش الذي هو بالتأكيد ليس مفتش آثار ؟ مرة أخرى ؟ ماإسمه ؟ نسى .. ذكّره بوكيل النيابة القديم في الاسكندرية . كان الرجل مهذباً جدا في زيارته الأولى ، فالمفروض أن ميخائيل يعلوه في السلم الوظيفي درجات ودرجات . ولكنه تقريبا ، لم يكد يخفي عنه مهمته الحقيقية . احتفظ ، فقط ، بأقل المظاهر إنقاذاً لماء وجه التنكر الذي ليس فيه حرص كبير ، في الحقيقة ، على التنكر .

كان مازال يرشف آخر قهوته ، ومازال هادئا ومتعبا بنوع من التعب القَدَري ، عندما ظهرت السيارة الفولكس البيضاء العتيدة . لم يكن ليخطئها . كأنه ينْشَقُ الآن رائحة البنزين ومايشبه اللبن المتخثر في جوّها الحميم القديم . فنهض ، بلهفة . ماذا حدث ؟ لماذا تأتيه حتى هنا ؟ وفي آخر النهار ؟ وكان عم شعبان قد انفصل عن الصعايدة البعيدين الذين ابتدأت جماعاتهم الصغيرة المتقاربة المتمزقة ، من بين فجوات الخيام ، أن تظلُم وتزول حدودُها ، وجاء

يجري ، بحركةٍ ثقيلة ، حاملاً بندقيه الحكومية العتيقة الطراز على كتفه ، إلى ناحية العربة التي ألقت أنوارها الأمامية الكاشفة قوية ومحددة ، فجأة ، في نور الغروب الذي يختفي سريعا ، فيثبُ رملُ الصحراء ، والطريقُ الحجري ، وحوافّ الحفر البعيدة ، إلى النور في حُزّم هذا الضوء غير الساطع الذي يفرش على المشهد كله بُعداً جديدا

وقفت السيارة أمام الباب . ورآها من النافذة ، تدير مفتاح الكونتاكت بحركة كفء حاسمة ، فصمت المحرك ، وأحس هدوء الموقع يعود من جديد ، بعد الطنين وجرش العجلات للحصى الدقيق على الطريق . يهبط عليه ، حسيًا ، مطلوبا .

نزلتْ من السيارة ، رأى جسمها المليء المتنزّي المتحرك بقوة وحيوية داخلية ، وفستانها الخفيف واسع يطير به الهواء فيلتف حول ساقيها بانسياب ، ورأى أحمد ينزل من جانبها ، بنحوله ، وملابسه الأنيقة المحبوكة عليه ، وشعره الأبيض المصفف بعناية ، ولم يستطع أن يرى تفاصيل وجهيهما وهما يتجهان إلى الباب ، صغيرين فجأة في سعة الصحراء ، كان آخر نور النهار الخافت الذي يكاد ينطفيء يأتي من خلفهما ، فيجعل منهما قامتين قاتمتين ، من وراء السور ، ليس فيهما وضوح . فقط أحمد كان يحمل حقيبة يد مما يُتخذ للسفر ، متوسطة ، منبعجة قليلا من جانبيها ، وكأنها ثقيلة في يده ، ويسير ، بحرص ، بخطوات ليست بطيئة بل دقيقة الحساب .

ولحق بهما عم شعبان ، لم يكن ينهج من الجرى ، كأن في جسمه القضيف الجاف قوة خاصة .

كانت هتفات الترحيب وأهلا وسهلا ونوّرتم الموقع تختلط بالأسئلة عن كيف هو ؟ وكيف يسير العمل ؟ وهل تقدم الحفْر ؟ وما أخبار الطريق التحتي المثير للاهتمام ذلك الذي يقع تحت أنصاف الأعمدة المكسورة، أنت حدثتنا عنه ؟ وياعم شعبان أعمل ثلاثة شاى ، أم تأخذوا سفن أب ، كوكا ؟ مثلجة والله ، وترد الروح ، كما تقولين .لا . . شاى كفاية ، وأنه ليس ثم جديد حتى الآن في الحفْر ، فريق الأثريين ورئيسهم الذي يدرّس في الجامعة يسافرون كل يوم بعد الظهر إلى الاسكندرية ، قالت وأنت الذي تهوى الشقا والغلب في الشغل ؟ قال وأهوى الصحراء أيضا ، وحياتها الغامضة ، ثم أن السرداب خطر وعمل الترميم فيه دقيق ، ولكن الموسم مازال في

بدايته وأنا متأكد آننا سوف نجد أشياء مهمة ، يعني لا مهمّة ولا حاجة ، هل هناك أشياء مهمة ؟ ولكن على الأقل جديدة . ولا ياشيخ لا تقل هذا ، مهمّة طبعا ، وهكذا وهكذا .

كان الشاى قد جاء في الأكواب الزجاجية الثلاثة على صينية صفيح يعرف أن عم شعبان قد استلفها من عم محمد رئيس العمال ، فليس في الاستراحة كلها صينية . وقام يضع خُرَط السكر المكعبات الذي جاء في علبة صفيح من علب المربى الفارغة ، اثنين لها وخمسة لأحمد ، وقال لعم ياشعبان أنْ تفضل انت ياعم شعبان وتسلم إيديك وكتر خيرك وأنه سيناديه إذا احتاج إليه . فمضى الرجل ببطء هذه المرة كأنه لايريد أن يمشي . وسأل عن مصطفى فأجاب أحمد باقتضاب مَنْ لا يريد ، بوضوح ، أن يخوض في التفاصيل ، إنه بخير وإنهم على اتصال ، فقط .

في فجوة الصمت الوجيز الذي كان لابد أن يحدث ، جاء الآن الوقت للإفصاح عما جاء بهما . كانت رامة ، بمفاجأة حضورها وبقوة هذا الحضور ، قد ملأت وعيه . وكانت هي التي بدأت مباشرة . قالت : اسمع الآن . دون لف ولادوران ، ودون أن نخبط حول الشجر كما يقال ، بل ننفذ إلى الموضوع مرة واحدة . نحن قد قررنا . اتخذنا القرار ، ووضعنا كل الترتيبات ، خلاص . ولم يبق إلا تحديد اليوم . وهذا سيتحدد . وسيكون على أى حال خلال أسبوع واحد ، لا أكثر . لم يعد هناك الآن مجال للنقاش ولا للتفكير ياميخائيل ، لا للنظريات ولا لدراسة الاحتمالات ، ولا للعودة إلى الأصول الفلسفية . هذا كله فعلناه وتخلصنا منه . وقررنا . طبعاً لانريد ولا يريد أحد أن يدخلك أنت في الموضوع إلا بقدر ما تريد ، وعندما تريد . هناك فقط قدر من التوريط ــ التوريط بالمعنى الصحّ ، الحلو ــ نطلبه منك . وأنا واثقة ، نحن كلنا على ثقة ، أنك لن ترفضه .

سكتت لحظة ، لتلتقط أنفاسها كما يقال ، ولتحكم بنظرة سريعة على استجابته . وكان أحمد صامتا ، مطرقا برأسه ، لاينظر إليه كأنه لايريد أن يتدخل . ثم استأنفت :

ــ أن تحتفظ بهذه الحقيبة . فقط . عندك . حتى يأتي أحد منا لطلبها . ستعرف مَنْ الذي يأتي طبعا في الوقت المناسب . هذا كل شيء .

قال بهدوء ، كأن الأمر كله لاصلة له به ، وكأنه يسأل سؤالا نظريا بحتا :

ــ هذه إذن هى الهدية التي سألتِ عنها ؟ لم يأت بها أحد آخر . جئتِ بنفسك .

ولم يجد أنه من الممكن ، حتى ، أن يناقش ، أو أن يسأل عن شيء آخر . فقط حكى لهما عن المفتش الذي جاء يوم الأربعاء الماضي ، وقال إنه لم يستطع أن يقول لها عنه في التليفون ، ربما كان هذا قراراً منه غير سليم ولكنه كان يحس أنه يتكلم في التليفون ، على المَلأ ، في العراء . وكان هذا على أى حال هو القرار الذي اتخذه ، هو ، وماعاد يمكن أن يناقش الآن ، هو أيضا . بل المهم أن نتصرف ، فقط ، على ضوئه . وَصَفَ شكله ، وسلوكه ، ولم يقل ، حتى ، ما يظنه بل مايكاد يوقن به ، عنه . لكنه ماكاد ينتهي من حكايته حتى أحس أن الموقف قد تغير على الفور . كانوا يواجهون ، هنا ، مأزقا . وساد صمت قصير آخر .

قال أحمد : نرجع الآن بالحقيبة إلى مصر ، إذنْ ، مهما كان . ونتصرف من هناك .

وقالت رامة : صحيح . تصوّرْ أن حضرة المفتش ـ مفتش الآثار آخِر موضة هذا ـ طبّ على الموقع الآن أو غدا ؟

وقال ميخائيل : أو تصوري لو أنه كان مازال هنا ، عندما شرفتم ...

فقالت إنها كانت ستتكفل به ، وضحكوا جميعا بتوتر . ولم يسأل أحد كيف كانت ستتكفل به .

وكان هو الذي تقدم بالحلّ البسيط العملي الذي أبرق في ذهنه فلم يناقشه مع نفسه ولا معهما ، ولم يفكر لحظة واحدة في صحته أو عطبه .

قال إنه مهما تكن الاعتبارات النظرية ، ومهما يكن موقفه المبدئي ، رفع يده مقاطعا ومعارضا قبل أن يتكلم أحد ، لا .. لن أدخل الآن في مناقشة . فقط ، فلنعتبر المسألة منتهية . ولا يسألني أحد ماذا سأفعل . أحتفظ بها ، في الأمان ، حتى تُنسب مني . خلاص . هذا من الآن شغلي أنا ونقفل الموضوع على هذا . لاتحملوا هَمّ الحقيبة .

ثم سأل أخيراً : وبالمناسبة ، ماذا فيها ، هذه الحقيبة الظريفة البريئة الشكل ؟

قالت : حقك ، أنْ تسأل .

قال أحمد ، كأنه يستظهر ، بصوته الخفيض البارد : ١٩ طلقة مللي للرشّاش القصير ، ٨١ طلقة ٧,٦٢ × ٣٩ مللي للبنادق الآلية ، ٤ قنابل يدوية صناعة روسية ، واحد رشاش قصير ، ٣ بنادق آلية ، مفكوكة ومزيّتة وموضوعة في أكياس بلاستيك ، ٣ قنابل صوتية ودخان .. حبس نفسه عن أن يقول : ماشاء الله . ذخيرة حملة كاملة .

ولم يقل شيئا ، نهض ورفع الحقيبة بيده . كانت ثقيلة فعلا ، ولكنها محتَملة ، وأحس أنها محكمة التعبئة ، ليس فيها أشياء متخلخلة . ووضعها ، ببساطة بجانب الثلاجة ، بالقرب من الجدار .

قالت رامة ببساطة وحسم : أحمد ، هيا بنا .

لم يعد هناك معنى لبقائهما . وكان عم شعبان مازال يقف غير بعيد من الباب ، بجانب السور الحجري المنخفض ، بين النباتات الصحراوية والصبّارات المبهمة في الليل ، بينما السيارة الفولكس تبتعد ، أنوارها الخلفية ، فقط ، حمراء متقدة صغيرة في الظلام ، كأنها غير مهمة أبدا .

من زمان ، في آخر العمر الأول ، كان قد دعاها للغداء في مطعم الأونيون القديم ، قبل أن يتحول إلى وكالة لبيع السيارات . كان الجو كله ، في المطعم ثلاثينيًا : المرايا أمامها زجاجات الخمر ، والمفارش الناصعة البيضاء السميكة القماش على موائد خشبية مربعة ثقيلة ، والنوافذ الكبيرة العالية ذات المصاريع الخشبية مسدلةٌ عليها سُتائرُ رقيقة تحجب القاهرة التي لم تكن قد انفجرت تماما بكظّة ناسها وضجّة سياراتها .

وعلى الأكل قالت له إنها تحس نفسها كالشجرة الكبيرة الوارفة الظلال ، تفيء على من تحبهم بالوفرة والعطاء .

قال لها واجفا : وأين أنا من هذه الشجرة ؟

قالت ، بعد هُنَيْهةٍ تأملٍ واحدة : كالولد الذي تسلق فرعا منها . ولم يعرف أن يصعد إلى أبعد ، ولم يعرف أن ينزل .

لم يقل لها : عبء الوجود كله يهتز وهو يحتضن الغصن الغضّ الدسم الذي يتأرجح له ، في وسط دغل من ورقه المترب الغنيّ بخضرته ، تحت شبكة السماء البعيدة الزرقاء الثقوب ، هَبْوة التراب الناعم الدقيق في الظهر تهبّ على وجه الطفل الصبي المَـهل الذي لا يعرف حاجز الزمن ، معلقا على الفرع القوى الذي يتأود ويهدّد بأن يميد ثم تتجمّع له لدونة التحدي والإطاقة ويميس بحمله الهيّن وزنه عليه مضبوط ودقيق لو زاد شعرة ، فيما يخيل إليه ، لانقصف ، ولو كان أقل بمقدار شعرة ماجاء هذا الحس النبوءة بالخطر والإنجاز والتحقق .

كنت قد أخذت الفأس الحادة المرهفة الشباة ، أقطع آخر أطراف فروع شجرة الجميز ، سوف تجف في الحر والشمس وتتخذ منها جدتي حطبَ الكانون والفرن . وكان البيت تحتي بعيدا ، وبيت عم أرساني يلاصقه وكأنما يستند إليه ، مسدوداً بسقيفته وعليها صفوف من حزم حطب القطن الجاف تعلقت به ، مازالت ، ندف قليلة صفراء يابسة ، ورصّات الجلة الرمادية المدورة الهشة الشكل . الأرض تحت سفح الجميزة الهائلة عليها أكوام صغيرة من التراب ومن هشيم أوراق الذرة تجري بينها الفراخ وتنقّ وتنقر بلهوجة ولهفة . وكنت أرى ، من فوق ، مبروكة ، بجسمها المضلّع الناتىء المسودّ وضروعها العامرة لم تخرج للرعى اليوم وتضع خطمها عميقا في كومة من الحشّ الأخضر وضعتها لها جدتي تحت الجميزة بعد أن فرغت من حلبها وربطتها بالجذع العريض ، وجدتي في الحوش تخضّ اللبن في القربة المنفوخة ، لتصنع منه الزبدة التي أعرف أنها سوف تعطيني صفوتها الطازجة اللذيذة على لقمة بتّاو سخنة طرية خارجة من الفرن . المسامير الغليظة الرؤوس قد غاصت في خشب الجذع المفتول الطيع عليها شرائط الخِرَق المشبعة بالدم الشهري القاني طلباً للخصوبة واسترحاما ، وغوصا غائرا بعيدا عن قبضة الجدب الغليظ الأصابع . وقد صعدتُ عَضَل الجذع المتين الحنون في يسر ، وتجاوزت المهد الذي يصنعه انشعاب فرعين قويين كأنه مُعدٌّ لي ، أجلس عليه وأنام أحيانا ، ساعاتٍ متصلة ، بين حفيف الورق الذي كأنه يسرّ لي بلُغيّةٍ لا أعرف شفرتها تماما ولكني أفهمها وأستريح إليها . وارتفعت على الأغصان ، أقطع بالفأس الحادة ذؤابات الفروع وأقصف النتوءات التي جفّت من غصن عتيق مضروب يسهل كسرها وإسقاطها بأهون ضغط ، على ماقي شكلها من شرّ .

السماء الإلاهة نوت القديمة الحية المتجددة تصبّ على جناحيّ الممدودين ماء الهبة والعطيّة الأبيض من فوق الورق الأثيث ، ذراعاها السمراوان تحملان شُعَل اللهب المتراقص على الصينية النحاسية والإبريق الذي يميل على صدرها العاري . جدائل شعرها السَّبْط ساقطة على كتفيها المدورتين . حديقة العالم . تُسكر وتُسكرني بالخمر التي تصنعها بيدها ، هذياني وهلاوسي بلحمها الأسمر الغضّ الوثير ، وجهي على بطنها ، أستاف سُلافة الرحيق المتصبّب يلتطم وجهي بموجاته الصغيرة الطرية .

وتُغويني الغضارة الغضة البعيدة المنال ، عالية في الهواء ، فأتسلق إليها الفرع الأخير الرقيق ، أعرف احتماله وقوته ومتانته وأخشاها في الوقت نفسه من لدونته ومطاوعته ، إغراؤه لأيقاوَم لا يمكن أن يُرد .

ويأتيني صوت جدتي العجوز الثاقب ، مروَّعة ، وهي تدق صدرها الضاوي بيدها النحيلة :

ــ يالهْوى .. ! باسم الصليب وشارة الصليب .. ! انزل ياواد ياميخائيل ، انزل . حاسب ياضناى إوعَ تقع . ماذا يفعل بي أبوك ، وأمك ، لو وقعت ياولد .

أضحك بمتعة التوتر . تعلُّقي به هو التشبث بالحياة في هذا العلوّ الشاهق المتشابك بوفرةٍ من الخضرة أستروح فيه أنفاس الصفاء الرخية على حُميّا جسمي المتقد ، والفرح المستبد يجري في دمي ، على حافة الانهيار الذي أعرف الآن أنه لن يجيء ، وأعرف أيضا أنه قد ينفجر فجأة ، ويتركني إلى الهُوِيّ بين الأغصان والأوراق وخشونة النتوءات التي تحك الجلد وتدق العظام في انهمار جداول الدم الرفيعة على دسامة ثمرات الجميز الخضراء المتورمة بعد بعصيرها المكتوم لم تنشقّ أرحامها بعد فتتفتح لي عن عذوبتها السكّرية المتوردة الجِلْد .

موج السماء في عينيها لازوردي الخضرة من عمقه العميق العلوي . وشعرها ملموم بعصابة لونها طوبي محروق ، ونطاقها العريض من نفس اللون يدور ببطنها المقبب ، تتدلى منه حاشيتان ناعمتان على إزارها الابيض . الماء اللبَن الخمر عَرَقي البلح الكثيف القوام الشاهق الرائحة ينصب عليّ من إبريقها المخصَّر الدقيق القاعدة ، عَبْر ألسنةٍ صغيرة من اللهب الأخضر ، في خَمْوة الظُهر ، شفتاى ترشفان عذوبةً ليست من هذه الأرض .

ولكنني أنزل إلى الأرض . آكل من طعامي ، للبصارة على لقمة البتّاو السخنة التي ساحت عليها الزبدة نكهة خصبة ، وأشربُ من ماء النيل المروّق بنوى المشمش في الزير، في مكان نظيف مسوّى تحت الشجرة التي تملكها سيدتي حتحور سيدة الجميزة القِبلية ، هناك حيث كنت ألعب مع لنده ، نجري من البيت وحول الشجرة وفي المداخل الواسعة ، حيث لحقت بها ، وأحطت خصرها بذراعي وكان حس ثدييها لدناً ومتماسكا فوق ذراعيّ من وراء جلابيتها الصفراء المشجّرة بأزهارها حمراء صغيرة ، التي تنتهي بكرانيش ملفلفة على قدميها الحافيتين ، وهي تنهج متوهجة العينين ، متضرجة .

لم يقل لها إن رحلته بين الصعود والنزول ، لاتنتهي .

كان طعم النبيذ في الأونيون ، وأنا أرفعه اليها ، وهي تبتسم ، جافاً يخفّ مع القلب في نشوةٍ صاحية ، مثل الهواء في ذؤابة الجميزة العالية في السماء .

قال لها : مامن أحد يجعلني أشعر بقبطيّتي ، مثلك . في العادة أنساها ، وأنسى أنني قبطيّ ، لا أكاد أحس بذلك حساً واعيا ، على الإطلاق . لكنني معك ، أعى فجأة أنني قبطي .

قالت ، تتأمله بشيء من الاستغراب والمفاجأة : لماذا ؟

قال : لأنك مصرية . لأنك أنتِ . .

قال : المهم . أحس معكِ ، فجأة ، أنك أنت قبطيّتي ، لاأعرف كيف أقول هذا .

وحتى في أقسى الأيام الغريبة ، أيام التغريب ، والاستغراب ، أحس معكِ بهذا الانتماء الذي لايكاد يكون له اسم . انتماء لا أحس شيئا يقترب منه ولو من بعيد .

قال : هل قلتُ لها ذلك ؟

قال . ومع ذلك يظل السؤال معلّقا ..

قال : مامعنى هذا كله عندكِ ؟ ومأأهميته ؟ قليل فيما أظن ، إنْ كان موجوداً ، أصلا .

قال : هذا طبعا مُوجِع ، وربما غير صحيح تماما . ولكن ماذا إذنْ ؟

صرخات الليل ، وحبّ الليل والنهار ، شهوتي ووجاي ، يقيني وعطشي ، توحدي وانشقاقي ، عَبْر السنين التي لا عداد لها ، همّي وحياتي الخبيئة ، مامعناه أيضا ؟

قلتِ لي إنك كنتِ موضع الحب والشهوة من كثيرين ، وأنك عرفتِ السعادة والوفرة ، في البيت والعمل ، في الرعاية والحنان ، في المغامرة والسياسة ، في الرفقة والأمومة ، وامتلأتْ سنواتك بالخير .

ثم اكتفيتِ ، في الآخر ، بهذا ؟

بأنك تحبينني ؟

بأن هذا مستمر ؟

لا ، طبعا .

قال : هذا أيضا موجع جدا ، ولايُطاق . لايطاق .

ولكن ماذا إذن ؟

هأنت ترين أن ميخائيل القديم مازال .

عندما تعيشين على بعد خطوات مني ، أو على بعد سحيق ، في واقعك الخاص ، عندئذ يتم تمام البعد ، والافتراق .

هذا أعرفه ، سواء كنتِ هنا ، أو في آخر أطراف الحياة .

الجنة المفقودة ؟

لكنها وجدتْ ، أليس كذلك ؟

على رغم كل شيء وُجدتْ ، قامت ، أزهرت بنوّار المجد ونوره الذي لايوصف . هي مايبقى ، بعد انحسار كل شيء . حتى لا أكاد أصدق أنها حدثت لنا ، بل أزداد يقينا ، يوما بعد يوم ، أنها من صنع قلبي وحده ، ولكنني أعرف ، مع ذلك ، أن هذا الذي حدث هو يقين ، آخر ، أساسيّ . يقين أول ، وأوليّ .

قالت له أنا الآن قد عرفت نفسي ، اشتغلت على نفسي كثيرا ، وعانيت كثيرا ، وخرجت سالمة . لذلك يمكنني أن أفهم . لذلك أمكنني أن أتغلب على نزوات غضبك ، وأمكنني ـ لا أقول أن أقبل ـ بل أقول أن أفهم ، على الأقل ، شطط هذا الشك عندك ، لا يريم ، أعرف ، أعرف . لاتقولُ لا . لاتقلْ قد برئتَ منه ، .ميخائيل القديم مازال .

قالت : كان من الممكن جداً ألا يحدث هذا مني . لماذا أقبلُ منك ، لماذا أسمع إليك ؟ أليس كذلك ؟ ألا تعرف ماذا يعنيه هذا ؟ ميخائيل ، ميخائيل ، ماذا أصنع بك ؟

لم يقل : نوستالجيا ـــ رَجْع الألم ـــ غامضة ، نصف معتمة ، نصف مضيئة . لأن الأشياء الواضحة المحددة لا أطيقها ولا أحتمل الحلم بها . بل أدفنها ، دون أن تُحَس ، لكى أستطيع المواصلة ، والاستمرار .

قال : يعني .. ! ولماذا المواصلة والاستمرار ؟

وجه الجريمة جَهْم ، والجور البرجيّ ، ومجازر الجحافل وجيوش الجُباةِ المدجّجة ، متى تنجاب ؟ وكيف تُجابَه ؟ الدُجُنّة تُجرجِر جناحيها على جوانب الجنادل ولكنْ لاجَزَ عَ ولا جُثُوَّ أمامها ولا أمام الجلّادين وخناجرهم الجائفة . جناياتُ جَناني محجوز عليها في جِذْر جُحري الداجي . أُجالدُ هَوَج الهواجس وأُجأر من الوجع . تلِجُ بي اللواعجُ جذوتُها تؤجُ أجّاً . هاجتْ بي حشرجةُ الوهيج في جحيمِ الجفاف وجوع الجدب وجمجمةِ الجراحات . أتجرّعُ جامَ الجوى . تجاليدُ جسمي التي كانت تموج بالشجن من جفوة الهجران يجترفها الآن العجيجُ الأجشّ الجائع ، جلاميدُ جاسيةٌ تترجرج تحت جنون أجراس البهجة والصنوج المجلجلة . أريجُ الجلّنار في جَنّة وجنتيها المضرّجتين يجاوِبُ شجْوى ونجواى . أضجُّ بجموح جوادي في غُنْج جمالها وتنبلجُ لي ديباجةُ جيدها تجودُ لي بالجَنَى ، وفي دَعَج محجريها أجَمةٌ غير مُدَجّنة . أجوس وألجُ المجْرَى الزلِج بين أحراج العساليج الجَثْلة إلى الجُرف اللُجّيِّ الدُجّةِ الذي يختلج في جَهْشةِ جَيَشان النضج ، ما أمجد .. ! ما أمجد هذا ..! ياحلّاج .. جادَ الوجدُ بي ، وأنا أحجُّ معكِ إلى جوهر الوجود .. ياسراجي أنتِ في الدُجُنّة . لهجْتُ بكِ ، جبروتُ جنوني بكِ فُجور . نسجْتُ منكِ أمشاجي . فلتُجَلّي لي نَهْجي . وَشَجي لي هَزَجي وتَبَجي ، وتَبَوّجي لي .

وَرَقة الصبّار ، مفلطحة ، عريضة الوجنة ، في أطرافها أشواك دقيقة مدببة صغيرة متتابعة ، عين عميقة الخضرة ، من غير حَدَقة ، أرشُقها في شعر عشتروت إيزيس . عروسة المولد الحمراء السكرية الهشة . عروستيَ التي لم أستطع أبداً أن أعدو عليها ولم أستطع أبداً أن أضعها في فمي وأن استطعم سكرَّها المصبوغ بالحمرة اليانعة ، احتفظت بها ، كاملة ، في غرفتي ، حاميت عنها من إخواتي والأقربين إليّ والغرباء جميعا ، لم يقترب منها أحد ، وهي تنظر إليّ بعينين مفتوحتين لاتطرفان أبدا . موج الخضرة العميقة ثابت لا يترقرق . إزارها الفضيّ يُخشخش في نغم الورق الصفيح الحاد ، على الساقين العبليتين الداكنتين ، زهور فُلّ محنطة من بدء الزمن ، صعدت على الكرسي ، وكان الدولاب عالياً جدا ، ووضعتُها بحرص على طرف سطح الدولاب جنب الألحفة المطوية المربوطة ، وعلبة الكراملة « نادلر » الصفيح المدوّرة البطن المزوقة بالأحمر والأخضر الناصع ، وتساقطَ عليها تراب الاسكندرية القليل ، وكنت أنظر اليها كل يوم ، وقبل أن أنام ، حتى صحوت ذات يوم فوجدتها قد تهشمت فجأة ، وحدها ، وانقصفت منها شظايا حادة من السكَّر الأحمر المطبوخ الجاف ، مال التاج الفضيّ أيضا على الحطام ، وقد صدِيء وتغضّن وتَحَيَّفَه عَوَارٌ من البقع الدقيقة السوداء ، وقد انكسرَ الخصر الهش وتحاتَّ مع الزمن . ومازالتْ ناضرةً ومُحرقة الحلاوة .

عقد ياسمين مجفف مازال فيه عبقٌ بائد ، أعطيته لي مرة في فجْر يومٍ من رمضان ، وأنا أخرج من عندك قبل السحور ، إلى الشوارع المضيئة المزدحمة بالوحشة والوحاد والعَراء ، ووضعتُه ، كالصبيّ الذي كنته ومازال ، بين دفتيْ « مختار الصحاح » الذي رافقني منذ الطفولة وحتى هذه الطفولة العاطفية المتأخرة جداً التي لا تليق .

الصبّار المعبود العنيد الذي يشق صخر الرمال العتيق ، ينبثق من بين غدائر الشعر الناعم الوحف الغزير المنسدل على صفحة خدك المسطَّح الأسيل ، أراه بجانبي ، وأنتِ نائمة ، قد عَهدتِ بنفسك وآلامك إليّ ، وتركتِ لي عبئها ، ولم أستطع احتماله .

الباب العاشر

وجه الحنان الصارم

قالت له ، باسمة ، سنها الأمامية الصغيرة تبدو له بارزة قليلا جدا وهى تنحني عليه ، قم البس شيئا . سنخرج نشتري وحشا .!

ابتسم ، وهو يطفيء سيجارته في المنفضة البللورية المنحوتة ، بدقة ، على شكل ورقة شجر شفافة ، يعرف شطحات خيالها :

ــ وحش مرة واحدة ! وتأتين به إلى هذه الغابة الآنيقة وراء البيبان المملوكية ؟ ألا يكفينا ماعندنا من وحوش ؟

قالت : والنبى دعك من اللعب بالكلام .. على الصبح .. يالله قم البس ..

ولم تمسسه ، ولم تقترب منه . كان يعرف حرصها على الابتعاد عنه ، وعن خطر الاشتعال الفيزيقي السريع ، مادامت تهمّ بالخروج من غابتها الداخلية .

التفت عليهما القاهرة القديمة الحية بألف ذراع غير مرئية ، وهما يمران من أمام المسجد ، عبر الخيامية ، تحت النور المترب الذي يهمى ،طلّاً جافا وحريفا ، من السقف الخشبي العتيق جسده مطعون بشقٍ طولي ومنعّم الشعَث تحت السماء ، بين دقات المطارق ونداءات الشغالين ولغط الناس وحشد الجلاليب والعمم والبنطلونات الجينز والملاءات اللف القليلة . في الأركان الضيقة تُنسج الآيات والتمتمات والتشكيلات النمطية والقالبية على الأقمشة الخشنة وعلى القصب الهفهاف ، بالمسلات الطويلة ، وبالإبر الدقيقة التي تتعلق بها خيوط ذهبية تومض في نصف العتمة .

كانت ذراعها العبلة ، في الزحمة ، تأتي إلى جنبه فتمسه وبحركة هينة تبتعد عنه .

قالت في تضاعيف الثرثرة المتقطعة التي تعود فتلتئم : كان مفرش السرير القصب ، من سنين قليلة ، يكلف خمسمائة جنيه أو أكثر قليلا . من يعرف كم يكلف اليوم ؟

قال : ألف .. ألفين . ماذا يقولون ؟ باكو .. اثنين باكو ؟ فقط من يحرؤن الشفرة ، ويستخدمونها ، هم الذين يدفعون . ولكن حتى هؤلاء .. من يشتري الآن مفرش سرير قصب ؟ الذين معهم الباكوات يذهبون ببساطة إلى لندن ، ليجهزوا بناتهم من ماركس وسبنسر غالبا .. أو هارودز حتى ..

كانت عجلة عربة الكارو مفصولة ، وحدها ، مسندة إلى حائط الجامع القديم ، مدورة وعالية ، فيها قوة دائرية جائحة ولكن مكبوحة ، دوارة بثبات واستمرار ، مبتورة .

وكان الفرن الصغير يتقد بنار المازوت ، نفاثة ورصاصية الرائحة ، في داخل الجامع ، يؤج من وراء الباب الحجري المنتهك ، تحت مستوى الشارع قليلا .

قال : هل لاحظت ؟ الرائحة .. لاحظت الرائحة ؟ حلوة جدا وعبقة ، من خلال التراب ، ونفح المازوت ، وحرافة الاقمشة المفروشة ؟

قالت ، وقد تمهل خطوها قليلا ، واشرأبت بوجهها الذي بدا له كله تطلع وفيه انفعال : رائحة ؟ نعم .. انتظر .. نعم .. رائحة حلوة صحيح . !

قال : رائحة المسك .. بعد أكثر من ثمانمائة سنة . !

فنظرت إليه كعادتها ، دون أن تبدي أنها تستطلع شيئا كأنها تقول إنه من الصعب أن يأتيها بخبر لاتعرفه . ولكنه كان قد تعلم أن يقبل منها هذه الكبرياء الخفيفة ، دون حرج فقال :

ــ الحكاية ياستي أن نصير الدين طلائع بن زريك ــ اسمه كذا .. ماذا أفعل ؟ ــ بن زريك ، مرة ، دفع ٣٠ ألف دينار ، في رأس سيدنا الحسين ، ليأتي به من عسقلان ، خوفا عليه من الصليبيين ..

وسأل ، دون أن يكون لسؤاله ضرورة ما : ترى كم تساوي ٣٠ ألف دينار الآن ؟ فلم ترد ولم تنظر إليه .

قال : وغُسل الرأس ، رأس الشهيد ، بعد وصوله من الشام ، في الجامع ، ففاحت رائحة المسك منه . وظلت الحارة تعبق بها مدة عام كامل ، حتى نقل الرأس إلى قبّته الشريفة ، عبر سرداب طويل محفور من تحت باب زويلة ، سرداب لم يعثر عليه أحد أبدا بعد ذلك . هل تحسين العبق الذي يغلب الزمن ، ويغلب فُحّة احتراق المازوت ويغلب روائح الناس ، مازال ، بعد ثمانمائة عام ؟

الأبواب الخشبية الضيقة ، مغروزة في التراب ، مفتوحة أبدا عن ممرات ضيقة معتمة تفضي إلى الأحواش الداخلية . والعيال تجري بمرايل المدرسة ، والبنات ، بشعرهن المنكوش المجعد ، والفساتين على بنطلونات بيجامات ، في لعبة خاصة لاتعرف إلا قواعدها وحدها ، لا شأن لها بالعالم . والغسيل ، جلاليب نوم بيضاء ، وملاءات سرير ليست نظيفة جدا ، وبيجامات صغيرة ، وسوتيانات كبيرة الكؤوس من قماش أصفر باهت ، وكالسونات عَبَك واسعة الساقين ، كلها مبلولة وتبدو ثقيلة بالماء منشورة على حبل مشدود على الأحجار العتيقة ، النبيلة التشكيل ، عليها كتابات كوفية ، بين عمودين رخاميين لهما تيجان كورنثية ، تحت عقود شاهقة رقيقة الجمال . وهما يخطوان يحاذران سربا من كتاكيت البط مازال أصفر الزغب بصفرته البهيجة الناصعة ، بمناقيره المحمرة العريضة ، يتدأدأ بين الأقدام ويلقط رزقه من التراب وبرك الماء المسودّ الساكنة . وكانت تقف بعد الفرن بقليل سيارة ملاكي منوفية ، وتمر بجانبها امرأة بجلباب أسود مطرز ، حول تقويرة الصدر المربعة ، بخيوط ذهبية اللون باهتة ، وعلى رأسها المرفوع بثبات وخيلاء بقجة كبيرة . قال ، كأنما يقتفي حوارا مع نفسه :

— أما البنادقة فقد سرقوا رأس مار مرقس الشهيد ، حتى أعاده البابا كيرلس على أيام عبد الناصر .

وقال :

— الأرض المخصّبة المرشوقة برؤوس الشهداء ..

وقال :

— فهل يقوى العبق القديم على البقاء تحت الثقل الجديد ؟

وقال ، دون كبير اقتناع ، في وجه الإنكار العنيد :

— سيبقى .

— سيبقى ..

ثم قال ، أخيرا ، كأنما لينهى كل الأقوال :
ـــ كل التقرير ، وإنكار التقرير ، عبث ومضحكة .
ولكنه قال أيضا :
ـــ بالطبع لم يُنهِ هذا التقرير الجديد ، بدوره ، شيئا . وظل دائريا .

كانت سيارتها الفولكس العتيدة عطلانة ، ذهبا بالتاكسي إلى صيدناوي القديم .

كان النور يتقطر من القبة الزجاجية الواسعة القديمة المستندة إلى بؤرة متشععة من قضبان الحديد الصدىء ، والسلالم الخشبية العريضة تهتز تحت أقدامهما ، وهما ينظران ، من فوق ، إلى طوابير الكستور الممتدة ، متلوية ومضطربة ، في الدور الأرضي . الدلّالات بالجلاليب السوداء الرسمية وعيونهن الحاسبة الجشعة ذات الحنكة ، والافندية المتعبين بكروشهم الصغيرة ووجوههم المتهدلة وبنطلوناتهم الفضفاضة ، وستات البيوت بالفساتين القديمة ومعهن أولادهن يتعلقون بأيديهن في الزحمة ، كلهم يمسكون بالبطاقات في يد ، والفلوس الجاهزة في يد ، في انتظار البونات المطلوبة العزيزة ، واللغط والضجيج والنداءات ذات الصدى ، وصوت المقص الجاف في القماش ، فجأة ، في وهدة من الصمت ، حادا ونهائيا ، ثم هتافات مختلطة بأرقام وأسماء وصراخ طفل يلعب بالصراخ في هذا العيد المضطرب من الأصوات .

في الغضب والضيق والوجع ، وهما يصعدان السلم ، رأى في الواجهة الزجاجية على الحائط الذي يرتفع معهم على السلم ، بين جرادل البحر الصغيرة الحمراء ، وجواريفها والكراسي القماش ، وشمسيات البحر الملونة ، وكل عينات حواشي الوعد بإجازات الشاطىء ، ماءها وأمواجها المزدحمة ، رأى مايوه بيكيني مختزلاً جدا . فقال ، يعاكسها قليلا ويهرب من غضبه السخيف قليلا :

ـــ أنظري .. مارأيك ؟ هايل .. أليس كذلك ؟
فقالت : أعجبك ؟ هو حلو صحيح .. خلاص سأشتري منه .. مادام قد أعجبك ..
قال : لأ .. رجعت في كلامي .. لاتنظري .. ليس هناك شيء ..
قالت : أبدا .. صحيح .. حلو .. ويليق لي جدا على البحر ..

قال : ياستي أنا رحعتي ، وغيور ، ورجعت في كلامي خلاص .. حرّمت .. ! فضحكت ، وضحك ..

كانت قد قالت له : أريد أن أصنع الحب معك على البحر . على الرمل الأبيض الناعم الواسع الذي ليس فيه غيرنا ، تحت الشمس ، كما نحن ، من غير شيء ..

قال ، والحلم المستحيل يُخايله : نعم .

قالت : ثم آخذك إلى البحر بعد ذلك . وأغرقك .
فقال : أغرقيني .. كم مرة تغرقينني ؟

الغرق اختناق سلس عذب المذاق ، والتطام أمواجه لايُحس ، رقيق ومرحِّب ولايُقاوم إغراؤه .

الآن أمواج ثبج ليلى لاتحمل لي إلا جسمكِ الذي يطفو ويغوص أمام عينيّ الغارقتين وفمي الذي يملؤه عباب الرغبة المِلْح والاشواق المنهكة . أشهق بندائي . ومهما جالدت الموج أسعى إلى شمس عينيك الخضراء فليس هناك حولي إلا ظلام المياه المرتطمة التي لاقرار فيها ولا راحة . هل الشمس غابت إلى الأبد ؟ ألن يشرق عليّ نهداك ، ساطعين بمجدهما وأمجادي ، أبدا ؟ وفوْح القرابة والفهم والفرح بك ؟ هل غاب ، ولن يعود ؟
كان قد قال : الشمس لاتشرق مرتين .

وكانت قد قالت له : أحس إنني أتوهج من السعادة ، هذه الأيام . كل الناس قالوا لي اليوم إنني أتوهج ، وأضيء .. سلوى اليوم قالت لي : « ماذا حدث يارامة ؟ هل هو حب جديد ؟ أنت تحبين .. ! تلمعين ، وعيناك جديدتان .. » ياحبيبي ، فضحتني .. !

كانت تتألق من البشر والسعادة ونوع خفيف من الخجل .
قال لنفسه : هذا ، على الأقل ، كان صادقا ..
ثم قال : ماأقساك .. يأأخي إرحم نفسك !

عندما وصلا إلى الطابق العلوي كان جهاز الستريو الضخم ، بأجزائه الثلاثة ، يتربص .

قالت له : أخي أرسل لي ، من السعودية ، المكبرات . رأيتها ، يمكن ، في الردهة الصغيرة قبل باب المطبخ ، في الصناديق الورق .. نعم .. ألا تذكر ؟ سألتني عنها وقلت لك : سرّ .. !

انتهت كتابة الفاتورة ، على ورق هش ، من ثلاث صور بألوان مختلفة ، وعدّت النقود ، وقال البائع ، بلا مبالاة ، إن الموجود هنا نموذج للعرض ، فقط ، وإن عليهما احضار البضاعة من المخزن ، في المعادي . وأعطاها النسختين الزرقاء والحمراء ، واحدة للمخزن للاستلام بها ، وواحدة لها وكتب لها العنوان على ظهر النسخة الزرقاء .

على الباب ، في فسحة الميدان الضيقة المتربة ، كانت سيارة الأجرة ترجع ، وتتقدم ، وتزحف دائرةً ببطء ، تريد أن تخرج ، كأنما من مأزق من بين سيارات النقل الضخمة العالية والسيارات الملاكي المتزاحمة النافدة الصبر ، والمارة يمرون من غير اهتمام أمامها ، ويتسللون بهدوء من بينها ، على أقل من مهلهم ، وبنوع من التحدي غير المكتوم . أشار للسيارة الأجرة وهي تدور ببطء ، وتزحف ، فاكتشف أن السائق سيدة في منتصف العمر ، قوية اليدين وواثقة ، وشعرها خشن وقصير ، وحركت ذراعها بسرعة تدعوهما للركوب دون أن تتوقف ، فأسرعا يخترقان حصار السيارات والناس المتراكب الوثيق ، وينفذان من بين سككه الضيقة المتغيرة الملتوية باستمرار ، حتى نفذا إليها . فتح لها الباب الذي مازال يتحرك ، وارتميا في الأمان المؤقت ، وقال : « المعادي ياأسطى من فضلك » همس لها ، بالانجليزية : « الاسطى ، تعود لمعناها القديم . ! أظن أن ألمظ كانت تسمى الأسطى ! » واستمر : « هذه إذن سائقة التاكسي الشهيرة في القاهرة ، كان في الأهرام تحقيق صحفي عنها ، ورأيُ زملائها بين محبذ ومعترض ، أظن أيضا إنها عضو في إدارة النقابة أيضا » .

وحدست السائقة أنهما يتكلمان عنها ، فالتفتت إليهما التفاتة خاطفة وهي تبتسم .

كان إلى جانبها ، في مقدمة السيارة ، كلب وولف ضخم ، وديع العينين جدا ، ينظر إلى الزحام والناس والسيارات من غير اهتمام .

قالت السائقة : على فين في المعادي ؟
فشرحا لها العنوان ، كما يفهماه . لم يكونا يعرفان أين بالضبط .

رُكاب السيارات الملاصقة ، والأوتوبيسات المطلة عليهما ، والمارة المتزاحمون حولهما يشوّرون أحيانا ، ويستغربون ويعلقون أو يحدقون ، عساكر المرور يرفعون أيديهم بالتحية والمعرفة القديمة ، الكلب الوولف يسند رأسه الكبير على حافة نافذة التاكسي ، بجانب العداد الذي يطن بصوت تروس صغيرة شغالة ويشير إلى رقم يتجاوز الالآف ، يتحرك بسرعة خاطفة ، لمجرد إبراء العَتَب . أجراس مزلقان تصلصل وأنواره الحمراء تومض بإنذار كأنه يائس من الاستجابة ، وتنطفيء . عجلات التاكسي تصطدم بقضبان المترو وتهتز السيارة فتأتي بيده على فخذها المسترخية التي يحسها عارية تحت النسيج الخفيف . ثم النيل المصقول المياه تحت الشمس بلون الصلب الداكن ، وأعمدة دخان ثابتة وطويلة في الهواء لاتتحرك ، من بعيد ، على الضفة الأخرى . الخرابات المعشوشبة تحت ناطحات مربعة تربض عليها أوناش برجية صفراء أكالة الأنياب . الست السواقة تحكي لهما عن « وولف » وكيف إنه يكلفها خمسة كيلو لحمة في اليوم وخمسة لتر لبن . قالت إنه عطشان وأوقفت التاكسي عند شجرة عريضة قديمة تحتها زير ، وأخذت معها طاسة عميقة ملأتها من الزير وعادت بها . صوت الكلب يلعق الماء ، لسانه الطويل يرتطم بالماء بانتظام ، هواء الظهر النيلي الرخو يندفع إلى حيّز السيارة المليء بحرارةٍ جسدية وفوْح عضوي متعدد الطبقات ، فيخفف وطأته .

تَرَجَّت رامة الست السائقة أن تنتظر ، فردت عليها : عينيّ .. بس لأجْل عيونك الحلوة !

كان المخزن على النيل ، بعد الفناء الوأسع المترب الذي تناثرت فيه صناديق ضخمة خشبية ومعدنية ومن الورق المقوى ، بأحجام مختلفة ، وعليها أرقام وأسماء الشركات والماركات ومدن التصدير بحروف انجليزية كبيرة . وكان الوحش يرقد في صناديقه الثلاثة ، واحد كبير واثنان أصغر منه، في العنبر الرطب الواسع المظلل بسقف من الصاج المموج، بين رفقائه وأقرانه، وفتح لهما المخزنجي الصناديق لإلقاء نظرة ،كان الستريو الضخم، بأجهزته الثلاثة الفضية اللون والأزرار والعدادات والعقارب الكثيرة ، وخزانته الخشبية الموجّنى الثقيلة وأرففها الزجاجية ،مفكوكة ومتراصفة في صناديقها الكرتون ، فأغلقها المخزنجي وربطها بحبل أبيض مضفور ونقلها على عربة

صغيرة بعجلات كعربات المطارات ، يساعده عامل عجوز سمح الوجه على رص الصناديق في حقيبة السيارة ، وبقيت كرتونة صغيرة نسبيا وضعها على المقعد الخلفي فكادت تشغل نصف حيزه . وكانت رحلة العودة الطويلة تتقلب بهما ، في الشوارع الغاصة ، تحت ظل الكرتونة المُحايِدة الرقيقة التي تحجب عنهما وقدة الشمس المنصبَّة من نافذة السيارة ، وتميل عليهما قليلا في توازن حرج ولكن مستقر . وهو لايكاد يحس للشوارع والناس وحارات القاهرة القديمة بينها الوولف بأنفاسه الهادئة ولسانه المتدلي يبعث في داخل السيارة حضورا حيوانيا وديعا ومحكوما لا يأتي منه فقط ، والست السواقة تحكي عن أسعار البنزين التي زادت ، ونظام المرور الذي لا إصلاح له ، وأخلاق الناس التي راحت ، وقسوة الحياة ، بصوتٍ ملىء بالثقة والاستبشار والإقبال على الحياة .

وقف التاكسي ينتظر وراء صف طويل من السيارات من كل الأصناف ، في الشارع الضيق ، تحت سور حديدي عليه نباتات كثيفة ومتربة ، أمام دكان فيه آلات موسيقية نحاسية ضخمة البطون ، وعود واحد في الواجهة الزجاجية ، نحيل وقديم ومطعم بالعاج المصفر ، كأنه يكتم في بطنه الرشيق موسيقى لن يقولها أبدا ، وتتدلى من سقف الدكان في العتمة الداخلية حزم من شعر الخيل . على الدكة الخشبية الممدودة بجانب الحائط الحجري ، وقد توقف التاكسي أمامها طويلا ، وعبر دمدمة المحركات المتربصة ولهاث أنفاس الكلب الحارة المنتظمة ونفث دخان العادم ينبض ويقف وينبض ، كان الصوت العجوز الفاني يصل إليه ، خشنا مبحوحا من الحشيش والسهر والنشوات الجافة المنقضية ، يتغنى خفيفا : « كل السيوف قواطع إذا جُرِدت .. جردت .. جردت .. وحسام لحظك قاطع في غمِده .. دهِ .. دهِي .. كل السيوف .. كل السيوف .. » كان جسدها الممتلىء بجانبه ، يغلّف ، بدسامته الراضية ، توترا فيه ، متصلبا ، متطلبا ، يبتر منه حساً فاصلاً بينه وبين كل العالم المحتشد بوجود آخر محطوم .

ومضى التاكسي ، بطيئا ثم سريعا ثم بطيئا ، حتى وقف في قبضة زحمة جديدة أمام جمعية استهلاكية أُخرى ، السيارة النقل الضخمة قد ركنت أمام كومة صغيرة مفروشة من الزبالة الجافة والطرية ، والتباع يُنزل منها أقفاص الطماطم والخيار والجزر وكراتين الجبنة الهولندي والفراخ المجمدة البرازيلي والمجرى يتناولها الناس منه ويحملونها إلى باب الجمعية ، والدلالات الدائمات ، والستات ، والرجال بالقمصان والبنطلونات ، والبوابون النوبيون والصعايدة بجلاليبهم البيضاء ، وفي أيديهم

الاكياس والحلل والسلال البلاستيك ، في طابورهم القلق المليء بالحركة والكلام والخناق والضحك والتلقيح والغمز السريع طيب القلب ، صابر ونافد الصبر ، مستوفز ومستسلم ، صامت حينا وصاخب أحيانا ؛ ومر من جانبة ولد ، بجلابية وطاقية ، يدفع عربة فارغة مربعة مصنوعة من خشب الصناديق وهو محصور بين الذراعين الطويلتين الخشبيّتين للعربة ، وعجلاتها الصغيرة مغلفة بالمطاط المأخوذ من إطارات السيارات . والتاكسي يزحف تحت الحيطان الضخمة القديمة المنقورة عن فتحات معتمة تشتعل فيها قضبان الفلورسنت ، وبين حديد التسليح الممدد جنب الأرصفة الضيقة المزدحمة ، والسيارات المفتوحة الأحشاء يرقد تحتها صبيان الميكانيكية بأقدامهم الحافية السوداء البارزة في الشارع ، وأمام مطاعم الفول ودكاكين النحاسين والمنجدين والمقالي ودكاكين رَجوع الصحف والمجلات القديمة والورق الدشت ومحلات الصاغة والجواهرجية ، والواجهات الزجاجية المتربة المنقطة بنقط دقيقة من ونيم الذباب الأسود والمزحومة بالأحذية والملابس الداخلية الحريمي ، ودكاكين البقالة الضيقة المقفلة بمنصة رخامية قديمة تسد الباب ، والعميان القاعدين على ورق الصحف على الرصيف يتغنون بآيات القرآن لايسمعهم أحد .

حتى وصلوا إلى البيت .

صعدا السلالم الحجرية يحملان الوحش المحبوس في صناديقه ، بحرص ، يصعد بظهره إلى أعلى يمسك بطرف الصندوق وهي تصعد إليه ممسكة بالطرف الآخر ، مرتين . واشتغلا طويلا ، معا ، بعد الظهر ، في فك الصناديق ، وتركيب الجهاز ، بالاستعانة بالكتالوج ، وسمعا ، بالليل أرغن باخ القوطي العميق العذوبة ، وتقدّسا به .

إذا استطعت أن أقهر الذاكرة ، فكيف أفعل بذاكرة الجسم ؟ شفتاى وحدها ، لا أملك لهما ردا ، تتذكران جانب عنقها الخفي النعومة ، ويداى وحدهما ، تتذكران دوران النهد وثقله الهين المطواع ، وانحدار جسمها إلى الخصر المليء الذي يضيق ، بإحكام ، ويتهضم ، لكي يزدهر ويتفتح ببذخ الردفين اليانعين . فوضى الذاكرة الفيزيقية ، وحدها ، حاضرة أبدا ، تستعصى على التناول وعلى التحكم وعلى الإرجاع إلى الوراء ، وفيها تمرد وصلف لايُستذَل .

أشواك الصبار تخترق سياج الجسم النابض المرهق وتحزّ فيه خطاً وراء خط ، تتقطّر بالدم الصعب . ولكن السور الحيّ يلتف ويلتوي ، يتحوط على زهرة الصبار الحمراء اليانعة ، ولا يريد

أن يتخلى . ثقوب شوك الصبار موجعة لاتلتئم ثلمتها في سور البستان الأشعث يتفطر عوسج الحسك وتتهدل عليه أغصانه اليائسة المسننة الورق . والسور مضروب حول كل العالم ، ليس للتنين الراقد وراء السور ، صاحي العينين ، إلا جسم واحد يغص به كل العالم ، من غير شمس .

في نصف النوم ، بين أعمدة الليل التي يتوجها سعف النخيل الجرانيتي ، في بيت السلالم الصاعدة إلى القبة المفتوحة على الورقة الحريرية العمق ، تأخذه بين يديها الناعمتين ، برفق ، وهي تبتسم ، وهو هادىء مرتاح ، وتصب عليه ، بحنو ، من أنبوبةٍ ورديةِ البلاستيك ، طِيباً منعشاً منسالا ، المسك السائل المعلب ينثال ، وذوب العنبر المطهّر ينسكب عليه من يديها ، وهي تفرشه باردا ، ومفاجئا ، ولدن القوام عليه ، فيتكهرب فجأة ، ويرتعد بالتوتر ، قال : « ماذا تفعلين » ؟ قالت : « إنتظِر ، سوف ترى » . قال : « ياساحرة » . قالت : « أسلِمْ نفسك لي ، تجد نفسك ، وتجدني » . حاب يرفع نفسه إلى السماء في عبق البخور والطيوب وحرارة الأنفاس عن الشفتين المفتوحتين والتعاويذ القديمة لايخيب سحرها على طول أبد الآباد وقد لفظ الحوت ما التقمه من بين مياه النيل ووقف الدليل يشير إلى تقاطع الطرق نحو العالم المجهول أبداً ويعد بالخلاص من ربقة الأمواج اللجُيّة ، فضحكت العابدة وكان لضحكتها النادرة جرْس رقيق قبل أن تحتدم الرقية وقبل أن تلتف اليدان بالطلب واقتضاء القربان وقالت : « هانحن قد عرفنا كيف يأتي الغائب وكيف يعمل السحر » . كم تعرفين كيف تُسْدين التمجيد إلى السر المحتشد بمحبتك فيصير مجدا .

في عودتهما من ميدان الحسين ، وتحت مسلات المآذن البيزنطية الدقيقة ، قررا معا أن يأخذا معهما للبيت سندوتشات الشاورمة ، وطحينة ، وسَلَطة بلدي . وبينما السكين العريضة تشق الشرائح الرفيعة البنّية المحمرة التي تكاد تكون شفافة ، من على جسم اللحم الدوار تلعَقُه ألسنة النيران الطرية الخجول وتتكوم على الورقة الكرتون رقائق الخيار الطازة والطماطم والفلفل الأخضر والبصل التي تكاد تكون كلها ، لفرط دقتها ، مهروسة ، قال لها البائع ابن البلد ، بجلابيته الواسعة الخفيفة الزرقة والخفيفة النسيج ، ولاسته الصغيرة الأنيقة ، وهو يبتسم ويغمز في إيماءة هينة كلها كياسة وتلطف : « بالهَنا والشفا إن شاء الله.على مهلك ياسلطانة .. ! » وهو إذ يشير إلى الأكل بلباقة ، واضح جدا مَن يعنيه فضحكا معا . ردّ عليه : الله.اصْحَ ياريس .. قدها وقدود بإذْن المولى .. إن شاء الله .. تسلم إيدك .. !

كانت سعيدة بالليل ، وهى تردد كأنما لنفسها : على مهلك ياسلطانة ! الآن صمتت الأحلام والذكريات معا ، والوقائع ، وإن لم تنحن قاماتها ، ظلت شاخة العيون ، بليغة النظرة ، ولكنها مطبقة الفم ، لاتجد لها صوتا .

ومازال الحب بنفس عرام حب المراهقة ، مطلوبا ، عزيزا ، لاينال ، فوق كل شيء ، وينقطع له القلب الشيخ الذي لايشيخ ، ولا يريد أن يستنيم .

قالت له : لن أغيب أكثر من ساعتين ، بالكثير . أذهب إلى بيت مصطفى في شبرا ، كنا قد حددنا الميعاد من أسبوعين ، قبل أن تجيء وتقلب عليّ الدنيا . سيكون عنده أحمد أيضا ، وعبد المنعم ، وأرجو أن ننتهي من موضوع سأقول لك عليه فيما بعد . هل أضع لك موتسارت على الستريو قبل أن أنزل ؟ والمطبخ عندك ، وفيه بيرة ، تعمل ماتريد .. لن أغيب .

وقبلته ، ونزلت

كان يسمع موتسارت ، ويقلب في طبعتها لأغاني حب مصرية قديمة مزدوجة اللغة ، بالهيروغليفية على صفحة ومقابلها ترجمة إزرا باوند بالإنجليزية ، وكان على النسخة إهداء كبير الخط ، بالإنجليزية ، : « لك دائما .. ريتشارد » وهو يتأمل رموز الطير والوز والصقور والريش والرجال والأمواج والثعابين والعيون والسمك التي تصنع رقةَ قلب ، وصراحةَ شهوانية معا ، وجَوىً نيلياً مترقرقا . ويتذكر ، دون أى انفعال تقريبا ، قصتها القديمة التي روتها له ؛ قبل أن يعرف إنه يحبها وإنها تحبه ، عندما كانا صديقين جدا ، وحبهما كامن فعّال في خفائه ، عن هذا الأثريّ من ماساشوستس الذي خطبها للزواج بينما كانت متزوجة فعلا ، في الخمسينات ، وقالت إنها قضت معه ستة أيام لم يغادرا الفراش ، ثم طرده عبد الناصر من مصر ، وكان يكتب لها كل يوم خطابا ثم انقطع . وقد عاد الآن يدرّس في الجامعة الأمريكية بالقاهرة . وقد ناقش معها بعد ذلك ، الدلالة الإشارية للأيام الستة ، ولم ينتهيا إلى رأى قاطع . وقام يصنع لنفسه فنجان قهوة تركي . محوّج ، ومضبوط . ولما انتهى موتسارت لم يبال أن يغيره أو يضع شيئا آخر ، فقد كان يخاف أن يفسد أجهزة الستريو الدقيقة ، والوحش الموسيقى يظل ينظر إليه بعيونه السوداء الضخمة الاستدارة ، وقال لنفسه إنه كان دائما يخاف الأشياء الميكانيكية ، ودائما يخاف ، فقط . وقال إنه يظلم نفسه دائما ، وإن الخوف عنده قائم ، صحيح ، ولكنه طرف آخر لشيء يقبل أن

يسميه الصدق مع النفس ، مثلا ، أو شيئا من هذا القبيل ، مهما كلف هذا من تضحية ، يعني ، إذا لزم الأمر ، وكانت قد قالت له إن أوهامه عن نفسه كثيرة ، وإنه يجب أن يسمح لنفسه بأن يعترف إنه لاتعوزه ، عند الحاجة ، مقدرة الشجاعة ، والنزاهة ، والتصدي ، وإنها لاتغازله في هذا ، ولا ضرورة لأن تخدعه فيه . وكان الليل قد دخل وأوغل ، ودكنت خروم الخشب المعشق واسوّد لون الفراغات المنمنمة الدقيقة فيها ، وسئم النظر إلى ساعته ومازال ينظر إليها وكأنها لاتتحرك ، وشجرة الظل الوارفة قد جمدت أوراقها العريضة عليه متهددة وخبيئة المقصد .

دار المفتاح في الباب الثقيل ، ودخلت تنهج قليلا من طلوع السلالم جريا ، وغمرته على الفور ، حتى قبل أن ينظر إلى ساعته ، بحكايات كثيرة عن المواصلات والناس الذين رأتهم عند مصطفى وكيف أنها اضطرت أن تأكل معهم لقمة ، وكيف حاولت أن تخلص منهم ، عدة مرات ، فلم تستطع ، وشقّت بإصبعها حافتى حقيبة يدها الجلدية السمينة المفتوحة دائما ، لكى تسقط فيها مفتاحها ، وضحكت وهى تُخرج ، بين إصبعيها ، من الحقيبة ، الكولان البيج الشفاف المتلوىَ بعضه على بعض بنسيجه الهفهاف وقالت له إن الدنيا حر جدا وإنها ذهبت للحمام في بيت مصطفى وخلعت الكولان وكومته ورمته في حقيبتها ، ونسيته ، ونظرت إليه بسرعة نظرتها التي فيها تحدٍ وطلبٌ للفهم معا ، ولم يتكلم ، وقبلته في فمه قبلتها الخاصة السريعة ، مبلولة بخفة ومتطلبة دون إلحاح ، ثم قامت بسرعة وقالت له : تعال معيَ نعدّ شيئا لك تأكله ، لابد إنك جعت ..

كانت تتأمله ، ثم قالت فجأة وكأنها تحدث نفسها : أريد أن أصورك هكذا ، من غير شيء ، وأحتفظ بالصورة .

وقالت له : أنا لك . في أى وقت . في أى مكان .. هذا يبقى لنا .

كان على الستريو ، عندئذ ، مغنٍ لم يكن يعرف اسمه ، صوته شجى وأجش وفيه نعومة شاكية ستتمنتالية في الوقت نفسه ، ولكنته متوسطية ، فقال : من هذا ؟ قالت : اسمه خوليو . إسباني . ظهر حديثا جدا . خوليو ايجلسياس .. ونسي الاسم بسرعة ولم يتذكره إلا بعد سنين ، وقال عندئذ : ماهذه الاغنية التي يقولها ؟ قالت ، باختصار : دون كيشوت .

دون كيشوت مازال .

ويقول : أريد أن أموت . أفي هذا رثاء للذات لايحتمَل ، ولايصحّ ؟ واستدرارٌ للتأسي ، وسخف ، وضعف نفس ؟

في الخفاء ينزف وجهك ، ياقديسة ، بالدم وزيت الزيتون ، قسماته الندية ملتمعة بالألم السري الثابت ، وأنت تنظرين إليّ ، بلا اتهام ، لم تعودي تنتظرين شيئا .

قال لها : هؤلاء الأولاد الذين رأيت وجوههم النحيلة الملتحية المطبقة الفم ، صارمة الحنان ، بلا اسم ، هذه الوجوه المقطوعة ، وراء لومومبا ، وجيفارا ، وراء كاپرال ، وياسر عرفات ، أبكار السلاح القاسي ، المقضيّ عليهم لفرط طفولتهم بالشهادة المهدرة بلا معنى ولا أهمية ، القَتَلة القتلى ، جنود سبارتاكوس ، جنود الحسين ، حاملي الحراب حاملي الأوهام حاملي الكلاشينكوف ، عجلة العالم الباردة تدور في سياق آخر . أحبائي الذين أمقتهم وأبكي لأنهم موجودون ، مجرد بقائي حياً خيانة لهم وعهد منكوث . ومانتنفسه ، يارامة ، في كل لحظة ، هو الهواء العبق بموتهم الذي لا جدوى فيه . الهواء المضرج بلوثة حياتنا ، بنشواتها المدانة أمام وجوههم المسحوبة .

قال لنفسه : الجسم الذي يُبتذَل الآن للشهوة ، يُبتذل أيضا للقتل .

وقال لها ، في غمار مناقشةٍ طويلة : أليست هناك علاقة وثيقة ما ، بين هذا الشيوع الجنسي المتفشي هذه الأيام ، هذا الاستخدام للجنس بضاعةً وسلعة مزجاة ، حيث يصبح الجسم مجرد أداة ومجرد شيء ، وبين التعذيب السياسي والقتل السياسي المستشري ؟ هل فقد الجسم حرمة ما ، كانت تحتاطه وتمنعه ، وأصبح نهبا ، ومباحا ، للذة المصنوعة صنعا أو للتشويه المصنوع صنعا ، سواء ؟

وقال : أفي الثقافات التي يصبح فيها الجسم آلة ، أو مطية ، أو يلقى طعمة للأسود في الاستاديوم على الملأ ، أو تستباح شهواته حتى تصبح المتعة الجنسية ألما وواجبا مفروضا وعبئا مملا ، في الوقت نفسه ، أعندئذ ، تصبح تصفية الجسم أيضا مجرد تكرار يومي مقنَّن ؟

فقالت : أو على العكس ، عندما يصبح الجسم حراما ، وعورة ، وقذارة دنيوية ، فأى فقر ، وأى جفاف كامل في الروح .. وأى قسوة للعقل وصرامة للقتل باسم الطهارة الشكلية ، باسم نسك مزعوم إنه مقدس .. !

قال : أما الوسط الذهبي ، والاعتدال المتزن المتسق فهو تجريد ، وخرافة ..

وقال لنفسه : أسيرٌ روعة هذا الجسد ، ولوعته معا ، أن حبه يُعطَى ولايُكتسب ، ليس فيه جهد مبذول ولا صناعة ، بل يأتيك مجانا ، موهوبا ، عطية بلا مقابل ولاثمن ولا انتظار . ولايتغير ، حتى عندما يتغير الحبيب ، ذلك أن الحبيب ، دائما ، لايمكن أن يتغير . وعندما يدخل فيه الحساب يناله العطب . عندما تتألق اللحظة ، فهذه هى . نعمة غير محسوبة ولا مطلوبة . فوق الزمن . وعندما تسوّدّ الشمس فكل الحسابات باطلة وليس لليأس قرار .

قال لها : هل تعرفين أن بعثة الآثار الإيطالية كشفت عن منزل لأحد الكهنة بالبر الغربي في الأقصر ، يبدو أنه يرجع إلى عصر تحتمس الرابع ، يعني كما تعرفين في القرن الرابع عشر قبل الميلاد . منذ أربعة وثلاثين قرنا يعني .. والبيت يبدو تماما أنه مثل بيت جدى في أخميم ، فيه أفران للطبخ والخبيز ، وزريبة للمواشي طبعا ، وأربع حجرات .

وقال : كتب أحمد شفيق أبو عوف رئيس معهد الموسيقى العربية ورئيس اللجنة الموسيقية العليا ، للأهرام ، اليوم ٩ يوليو ١٩٨٠ : « أكداس من التبن وقشر البطيخ والشمام وسائر الخضروات والفاكهة الفاسدة تغطي أرض سوق الخضار بروض الفرج ، وتغوص فيها الأقدام .. الرائحة العفنة تفوح من كل فج .. ولا يوجد عسكري مرور واحد ينظم سير العربات الملاكي واللواري والعربات الكارو والبغال والحمير والشيالين والشيالات .. قطيع الفئران يسير جنبا إلى جنب مع القطط والكلاب فإن الألفة جمعت بينها جميعا في السوق التي يأكل منها كل انسان يعيش في القاهرة . أما أكداس وتلال الزبالة فتدعو إلى النفور والغثيان .. »

وحكت له حكاية عن موظفة كانت تنتظر الأوتوبيس ، فلما جاء وجدت الباب الخلفي مزدحما غاصا بالناس . جرت الموظفة وطلبت من السائق ، وهى في الشارع ، أن يفتح لها الباب الأمامي المخصص للنزول ، أخذت تشور له ، وتترجاه . نظر إليها ، وانفتح الباب ، بجانبه ، عن

هذه الشهقة الكهربائية التي تتفتق بها الأبواب في الأوتوبيسات . صعدت الموظفة ، تنهج ، وتبتسم للسائق فقد أنقذها من عذاب الانتظار . ولكنه مد يده فجأة ، وجذبها من ذراعها ، وشدها إلى جواره خلف عجلة القيادة . فنترت نفسها مندهشة ، مفاجَأة ، وقالت له ، مثلا : اختشي ، عيب .. هو انت ليس عندك أخوات ، أو شيئاً من هذا القبيل . وظل الركاب ساكتين وهو يرد عليها بما يحبه قلبه ، ينهال عليها بالسباب والشتائم البذيئة ، بالكلمات المنتقاة ، الفصيحة .. بهتت البنت ، وأرتج عليها ، لم تستطع أن تفعل أو تقول شيئا . يبدو أنها كانت ، مسكينة ، بنت ناس . حتى جاءت محطتها .. تصور .. صبرت وسكتت حتى جاءت محطتها ، ولكن السائق رفض أن يفتح لها الباب ، لا لها ولا للركاب النازلين .. حتى تدخّل أولاد الحلال يترجّونه ويقعون في عرضه ، وتنازل أخيرا وفتح الباب ..

قال لها : تصوري الغلب الذي نحن فيه .. !

قالت : طبعا الحكاية ليست حكاية أخلاق . ليس فقط على الأقل . بل حكاية القيمة السائدة ، قيمة الهبش والنهش والجشع ، لكل شيء ، للنقود ، للجنس ، للقوة .. ليس هناك شيء آخر .

فصمت . لم يقبل ، ولم يستطع أن يرفض .

لن يكون في هذا شيء جديد ، عندما أقول أنني قضيت الساعات الأخيرة الطويلة أفكر فيكِ .. وأن الشوق إليك كان يختلط بالغضب ، واليقين بالحيرة ، والحب بالاضطراب وتوزع القلب . ليس فيه جديد . ربما كان الجديد هو أن اختلاط الكشوف بالهواجس ، وأن ثبات الإيمان في عمق لا أملك فيه شيئا ـ وكأنه هو الوحيد الذي أملكه ويملكني ـ أمام إحباطات الإنكار ، والإخفاق ، والتردد ـ كانت كلها من القوة بحيث لم أعد أعرف ماذا أقول ، في الوقت الذي أريد أن أقول لكِ فيه شيئاً ما . أريد في الحقيقة أن أوجد ـ من جديد ـ هذا النوع من الوصل الذي يتأتى وأنا أقول ، أقول لكى تسمعينى ، ثم يخال إلى ـ بحماقة طبعا ـ أنك لاتسمعين ، لاتريدين أن تقولي إنك تسمعين . بل تقولين ، بالفعل ، إنك لاتسمعين .

من الأشياء التي تذكرتها الآن فجأة ـ وهل أُنسيتها في الواقع أبدا ؟ ـ أنك قلت لي

مرة ، تسألين : هل أنت تحبني ؟ أم إنك تحب فيّ الحب نفسه ؟ أنت مخلوق لهذا الحب ، وليس لأنك تحبني .. أم أن هناك شيئا آخر : هل تعوض فيّ شبابا ضاع منك ، لم تعشه ، بملئه ، كما ينبغي أن يعاش الشباب ؟ وهذا ، كله ، استدراك لما فوّته على نفسك ، أو فات منك ؟

ثم أنك قلتِ لي مرة ، بغضب ما من إلحاح هذا الحب عليك : أنت عشت من غيري خمسين سنة .. تستطيع أن تعيش من غيري البقية الباقية .. !

وأنك قلتِ لي : أنت لا تحبني حقا .. أو ربما كنت تحبني ، بطريقة ما ، بطريقتك .. وفي الوقت نفسه ، في اللحظة نفسها ، معا ، تذكرت أنك قلتِ لي : أنت تراني هكذا ، ياحبيبي ، فقط لأنك تحبني .. ! بصوتك العذب الحنون الناعم الذي يحتاط عليه قلبي إذ يحتاط على سر حياته .

أحقا لاتعتقدين أنني أحبك ؟ هذا مالا يمكن أن أفهمه ، لايمكن أن أقبله .

أم أنه سيناد لك ، لأنك تعبت . قلت لي أنك تعبت ، بعد أن حشدت مايملأ عشر حيوات ممتلئة حافلة في أقل من ثلثي حياة واحدة .. وقلت أنك لاتريدين أن أكون مهمّاً — جدا — في حياتك .. لاتريدين مني ، بكل هذا الحب والتطلب الذي لابد أن يستدعي نظيرا وإجابة ، أن أفسد حياتك ..

هذا ممكن أن أفهمه .. ولكن هل يمكن أن أقبله ؟ لا أظن .. لا أعتقد .
المحبون ، كما هو ذائع ومستطار — لاتعوزهم الأنانية .

فإذا حاولت أنا ، من جانب آخر ، أن أجعل من شيء معقد جدا ، وكثيف جدا ، شيئا يمكن اختزاله بأي قدر من الاختزال ، فأسائل نفسي : لماذا أنا ، هذه المرة ، لاأصدق حبك ، في الوقت الذى فيه لكل جارحة من جوارحي — على المستوى الفيزيقي وعلى مستوى كل الوجود — يقينٌ أوّليٌّ بتلك القربى بيننا ، الحميمة التي لامثيل لها ، يقين يجاوز كل الأسئلة ، ولا صلة له بكل الوساوس والهجسات والإخفاقات والاختناقات .. تقولين أحيانا ، وتفعلين ، كما لو

كنت تريدنني ألا أصدق حبك .. في الوقت الذي أعيش حقا ، ويرف قلبي ، ويرتفع بي موجٌ طامٍ من سعادةٍ ما أعمق غورها وما أعظمها ، بكلمات حبك ، بأفعال حبك ، بنظرة حبك ، من هاتين العينين اللتين تملآن عليّ كل شيء .

قالت له : لم تكن هذه الرسالة لي .

قال : ألم تكن — حتى — عنك ، أيضا ؟ ألست أنت هذه الرسالة ؟

فلم تقل شيئا ، وعيناها واضحتان .

قال : أهي إذن أنا ؟ فقط ؟

فظلت عيناها واضحتين ، لاتُقرآن

سأل نفسه : هل كنا ، طُول الوقت ، ندفع أنفسنا ، عمدا ، بعيدا عن أحدنا الآخر ؟ بينما كنا نندفع ، بشكل لايُقاوَم ، نحو أحدنا الآخر ، وفي هذا التوتر المستمر من التنافر القسري والتجاذب القسري كانت الحكاية كلها ؟

كانت مستندة إلى وسادة الصوفا الطرية ، وضعت ساقها تحتها ، وجانب سخي من فخذها مكشوف لعينيه اللتين لاتشبعان ، ووجهها مشوب بخمر هادئة من الرضى والنوستالجيا ، عندما قالت :

— أليس من المخيف أن يكون سامع ، ليلتها ، فهم أنني أحبك ، أنك أنت الذي أحبك ، وأنت لم تفهم ؟

كان في صوتها ، بالمفارقة ، حنان صغير قديم .

واستمرت : كانت قسوة مني عليه ، لم يفهمها في الأول . لم يعرف ما الحكاية . ولكنه عرف تماما أنه كان موضوعا في شيء يدور من حوله .

قال لنفسه : أهذا ممكن ؟ .. لماذا سمحتْ لي ، أولاً ، أن أدخل عليهما ، أن أراهما بعيني ؟ كان من الممكن جدا ، بالطبع ، ألا تفتح لي بابها ، في الاوبرج ، فلا أعرف أبدا ماذا حدث .. كأنها فتحت لي لأنها كانت تريد ذلك . كانت تعرف أنني سأطلبها في التليفون الداخلي وانتظرتْ ، وكأنها كانت تريد أن تقول لي : أنظر ماذا أفعل ! ليس بهذه العمدية ولا

بهذا التدبير الواعي طبعا ، وإن كان فيه قدر منه ، نصفه مقصود ونصفه غير واع ، ربما . ثم لماذا تأتي إليّ ، بعد أن سقطتُ في غرفتي ، تأتي إليّ في الفجر ، لم أحس دخولها وأنا في غيبوبة الرحمة الأخيرة ، ثم تبعث لي بمحمود ، تقول له إنني مريض ، ثم تأتيني في هذا الفجر الغامض الغريب ـ المفروض أنها كانت قد قضت ليلة حب ، فماذا تفعل في غرفتي ، ولم تكد تمر ساعاتان أو أقل ، وتجلس في آخر عتمة الليل ، والنور المعتم يأتي من البحيرة عبر النافذة المغلقة ، تجلس في صمت ، طويلا ، وتودعني بكلمات لم أعد أذكرها وإنما أذكر فقط نغمتها التي لانهاية لحزنها وحنوها ؟ ماهذا كله الذي حدث ؟

قالت : وأنت ، ألم تفهم حتى الآن ؟

قال : هذا احتمال ، غريب جدا على أى حال .. وهناك احتمالات كثيرة .

في موجة الحب والتصافي ، قالت له ، كأنما ترجو ، كأنما تتوسل ، من غير أن يكون في نبرة صوتها أدنى اعتذار : قل لي إنك فهمت ، قل لي إنك عرفت ، أنت الذي أحبك ، عدنى ألا يرجع ميخائيل القديم ، أبدا .

ابتسم لها ، وأومأ برأسه ، في قلبه فرح ساطع . كان لايريد أن يرى النواة المظلمة في عمق بؤرة الفرح المتوهجة .

قالت : صافي يالبن ؟

قال : نعم . نعم . نعم .

بعد ذلك ، عرف أن ميخائيل القديم مازال .

قال لنفسه : هي دائما تُوقِف كل حوار ليست على ثقة أنها ستكسبه . لاتجيب على أسئلة بعينها ، لاتواصل حجةً بعينها ، إذا استشعرت أنها خطرة . يجب ، عندها ، أن تكسب الجدال ، أن تظفر بالحجة .

وأجاب على نفسه : غير صحيح . عندما يحدث الحوار ، يصبح عظيما . ليس هناك في العالم كله من يعرفنى ، ويفهمني خيرا منها .. هذا قد حدث ، قد حدث ..

وقال : والحوار الفيزيقي أنقى وأصدق . أوليّ ليس فيه جدال ولاحجج ، لامكسب ولا خُسران ، لاأخذ ولا رد ، عطاء كامل من الطرفين وفوري ، ومتبادل حتى لايدرك أنه عطاء .

كان صوتها قادماً إليه من القاهرة في التليفون ، وهو في استراحة ماريوبوليس ، كله نعومة ، أنوثة ، ورغبة . كان هواء الصحراء الجاف يأتيه ، معها ، على وجهه الحار ، وبرج الكنيسة الصغيرة القديمة يطعن سماء الغرب الصافية ، والهدوء الخارق لاتقطعه إلا غمغمة عمال الآثار ، من بعيد ، يصنعون الشاى ويثرثرون بنغمة رتيبة غير واضحة الكلمات ..

قال لها : ماذا تلبسين الآن ؟

قالت : القميص الساتان الذي تحبه .

قال : أحبك .

قالت : وأنا أحبك ، أموت فيك . أذوب فيك . صوتك يأتي إلى في التليفون فأذوب ، التليفون أداة ظالمة ، محبِطة ، أحضني . خذني اليك ..

سمع تهدُّجَ أنفاسها في التليفون ، وكان توتره عذبا ومؤلما معا ، ورأى عينيها تسيلان له ، بهذا الخضوع والتسليم والاستنجاد الذي يعرفه ، وأحس ، على البعد ، بكل جسمها المطواع المفتوح . وجاهد نفسه حتى لايأتي اندفاع قذيفة الاستجابة المحتومة .

قالت : حبيبي .. أنت هناك ؟

قال ، بصوت سمعه أجش مكتوما : نعم .. نعم .

قالت : أنا آتي معك .

قال : وأنا .. نعم .. نعم .

قالت وهي تتنهد : هذا غير معقول .

وفي لحظة من لحظات العتمة المتكررة الكثيرة التي كانت تجيئها ، قالت له :

ــ هذا كله غير معقول . هذه الحكاية كلها مستحيلة .. غير صحية وغير سليمة . مقفلة على نفسها ، غير حقيقية .

كانت تتحرك بسرعة ، بين المكتب الصغير والاستريو ، تحت شجرة الظل ، لاتعرف كيف تتوقف .

قال ، وهو مثبت بمقعده المنخفض الوحيد : لا ، هذا حقيقي ، ببساطة . كل شيء آخر ليس حقيقيا .

قالت : ليس هذا ما أعني .

قال : أرفض مايسمى بالواقع ، لانه أولاً غير حقيقي ، وثانيا غير محتمل .

قالت : ترفضه هنا ، معي . لأنك تعنو للواقع في كل حياتك ، حياتك الحقيقية النهارية ، هي حياة حقيقية فعلاً ، لا إنكار لهذا ابدا . اهتماماتك الأخرى كلها حقيقية ، في وضح النهار ، أما هذا ؟ ألا ترى كيف أنه يدور في الظلام ، في السر ، مغلق عليه ، خفي .. ؟ هذا غير صحيح ..

قال لنفسه : لا أسلم بالواقع .. ولا أسلم له .. لم أكن أظن نفسي مراهقا — حتى في الشيخوخة ، حتى إلى حافة الموت — إلى هذا الحد .. واقع الاشياء هو الحلم الرديء ، الواقع اليومي ، العملي ، الوظيفي ، السياسي ، الاجتماعي . ما الواقع ، وما الحلم ؟ كلاهما غير مقبول ، وغير سائغ في روحي . حلم أمجاد السياسة والثورة والعدالة واعتناق المستضعفين والمستذلين ؟ قد شاه ، واعتورته الثلمات والجراحات الصدئة ، أما زال قائما برأسه ؟ واقع الضجر ، والتقاعس ، والسكوت في المضض ، أهذا ما عليّ أن أسلم به ؟ هناك ، سوف تقول لي ، واقع المجابهة ، والمعرفة ، والعمل الإيجابي السليم ، بين الناس ، في النور .. واقع الشجاعة ، والأمل ، وإعلاء الحقيقة ..

نعم ، هذا هناك ، سوف أقول لها .

مازال فعل الحياة ، مع ذلك ، مجرد فعل العيش ، والتنفس ، توقّلاً صعبا لأكَمَةٍ عَنُوت ، يخيل إليّ إنها قاحلة ، مع كل انفجارها بالورد الحبيس . ومضروب عليّ أن أصعدها ، أخوض في رمل الجفاف ، بعناد .

قال : أخوض في دم الحجر .

لاأريد ، مع ذلك ، أي لَبس . كل شيء ملتبس في هذا الحب ، صحيح ، كما هو ملتبس في كل شيء . ولكن هذا الحب نفسه — أريدك أن تعرفي — غير ملتبس . أريد له نعمة الوضوح والرشاقة ، ولكني أجد كل شيء فيه بدائيا عنيفا مضطربا ووحشيا أيضا . هو داخليّ جدا ، هذا صحيح ، ومغلق عليه ، ولكنه يتخلل كل شيء ويغمره . أعرف أنك تمقتين هذا النوع من الكلام ، وهذا النوع من الحسّ ، وأنا أيضا أمقته ولكن هذا هو . كل شيء يخونني . وأنا أخون كل شيء أيضا . لأن الالتباس خيانة لا مفر من اقترافها ، مادمنا نقترف أنفاس الحياة . فأين النِطْع والسيف لرأسي ؟ من هو الجلّاد ؟ ومن هو الضحية ؟

قال : ياللكِبْر .. ! متى — وهل — تعرف التواضع أبدا ؟ وعقْلَ القبول ؟ وأن تتسامح مع نفسك ، معها ، مع الناس ، والأشياء ؟

قال : مللت . مللت كل شيء .
ليس هذا ممكنا ، ولا هو يحدث .
ولاشيء .. لاشيء .

في غبشة صبح سفره الأخير ، عائداً إلى الاسكندرية ، ووجد أنه قد تيقظ مبكرا ، فتركها نائمة . وخطر له أنها ربما لم تكن نائمة تماما مع ذلك . نهض من جانبها بهدوء ، ومشى ، خفيف الخطو جدا ، محاذرا ، صامتا ، في البيت الذي أصبح جزءاً من لحمه الحي . وفي حركات بطيئة ، شديدة الحرص ، حزم حقيبته ، وذهب إلى الحمام ، فتح الحنفية ، وحلق ذقنه ، وغسل وجهه ولبس ملابسه ، كأنه في غير زمن ، وفي غير واقع ، وعندما خرج من الحمام وجدها أمامه ، على الباب ، شعرها القصير مهوش ، وعيناها منتفختان قليلا ، وفي جسمها بقايا النوم المضطرب غير المستريح . كانت تلك الليلة الأخيرة كلها إخفاقا ولجاجة وخصاما وصلحا غير مستقيم . وكان نومه ، هو ، كأنه يقظة سيئة بالتهويم . قال لها : صباح الخير ، قالت بنبرة اتهام لاتكاد تلحظ ، دون أن ترد التحية : مبكر جدا ، أليس كذلك ، مستعجل جدا .. وخلصت كل شيء ؟ تركتْ له خدها ، لقبلة خفيفة غير مرفوضة تماما .

أعدت له إفطاره ، ولم تأخذ إلا قهوتها السوداء باللبن ، وهو يأكل البيض المقلي بالجبن ، وتوست الزبدة والمربى ، ونفسه مفتوحة . قال لنفسه ، بضيق ، ومن غير سخرية : « من آيات السنتمنتالية عندي أنني لا آكل الجبن المقلي بالبيض أبدا ، إلا من يديها » . وهى تنظر إليه ، كما تفعل دائما عندما يفطر وحده ، معها ، نظرة زوجية ولكن فيها استغرابا قليلا وحنوا قليلا . وكانت آخر كلماتها له ، تقريبا ، ذلك الصباح ، قبل أن ينزل يبحث عن تاكسى :

ـــ لاتفعل شيئا غير معقول . مللت من إلقاء الأشياء على كاهلي ، ووضعى أمام الأمر الواقع .

ثم قالت ، برصانة ، كأنما بعد تفكير : حاول ألا تكون غير سعيد جدا .

كانت قد قالت ، في لحظة من لحظات الصفاء الغريب الهادىء ، بعد اندلاع الحب وارضائه إلى حين ، والأوبة إلى حنان الصمت :

ـــ لي عندك رجاء واحد ، عندما تجيء اللحظة ، لاتفعلها أنت . لاتقلها أنت . دعنى أنا الذي أقطع .

نهض مروعا ، وقبل أن تنطلق منه هتفة الاحتجاج ، والاستنكار ، والرفض ، بادرته :

ـــ لا . لاتقل شيئا . لاتقل أى شيء ... أعرف ماستقول . فقط اسمعنى .. من غير غضب .. اتركنى أنا أقطع . فليكن عندك هذا الحنان الأخير . هل تعدنى ؟ عِدْني . أريد وعدك .

صمت . لم يجد مايقول . وأومأ برأسه ، دون أن يتكلم .

قالت ، بإصرار هادىء : عدني .

خرج صوته خفيفا جدا ، كأنه لا يسلم أبدا بمجرد الإمكانية : أعد .

فابتسمت ، وقبلته في فمه بسرعة ، ووضعت رأسها على كتفه ، حتى لايراها .

الباب الحادي عشر

ورقة اللوتس المحبوسة

قالت له : خلّ بالك ياميخائيل . هذا كل ما أصررت على الاحتفاظ به من ميراث جدى ، جدى لأمّى الحاج سليمان . إوعَ يقع منك .

كانا يرفعان معا ، بحرص ، القرص الخشبي الثمين ، مدورا واسعا ، يعبران به ردهة الممر الصغيرة ، من الباب الداخلي إلى غرفة الجلوس . وضعاه على البساط ، وهو يفلت أصابع يديه بسرعة ، لحظة واحدة قبل أن يرتطم القرص ، بنعومة ، مقلوبا على ظهره ، بالبساط ، ارتطاما هينا رفيقا ، ويرقد أمامهما ، بكل إتقان جماله . لونه داكن ولامع ، زنجيّ ، نضر وعريق ، وحافته الناعمة التقويس ، كأنها أنثوية متماسكة اللحم ، مشغولة بزخرفة خافتة ودقيقة ، يحددها حز رقيق كامل الرقة ، ويمتد فوقها جسم القرص ، بشرته مصقولة وملساء في ذروة إيناعها وغضوضتها ، لن ينالها عطب أبدا . وهو مقلوب ، بطنه في الهواء تفتحت فيه الفجوات الصغيرة المربعة المدورة التي سوف تدخل فيها رؤوس سيقان المائدة .

ذهبا يأتيان بالسيقان المفكوكة ، قصيرة ، مدملجة ، بسمانة محتشدة هيّنة التكوير ، دفيئة الخشب ، تنتهي إلى أقدام مكتنزة راسخة التكوين . حمل إلى صدره ، بين ذراعيه ، السيقان الاربعة يحتضنها حتى لاتتدحرج وتسقط منه على أرضية الممر المصنوعة من الرخام الخردة ، خشية أن تنكسر أو تتخدش ، فتقع الكارثة .

وهى تقول له إن هذه المائدة قطعة نادرة الان ، وهى التي بقيت لها ، كان جدها الحاج سليمان قد أتى بها من انجلترا في زمانه ، وإنها لاتعرف أين ذهبت بقية الغرفة التي عرفتها في بيت أمها في الشرقية ، عندما كانت تلعب تحت هذه المائدة بالذات وبين المقاعد التي تكمل الطقم . قالت : لا والله .. مازال عندي أيضا بضع ملاعق وشوك وسكاكين ، مشغولة وثقيلة الوزن من السيرفيس الفضة الذي تذكر ثقله في يديها جدا ، وهى تأكل عند جدها ولاتكاد تعرف كيف ترفع الملعقة لتشرب الشوربة لا من ثقلها وكبرها في يدها الصغيرة ، فقط ، بل من رهبتها أيضا . وقالت إنها كانت تحب أن تقعد على الأرض تحت ساقى جدها ، بقفطانه الشاهي وحذائه العالي المحمر الجلد تفوح منه رائحة رجولية خاصة ، وقالت إنه كان قد درس في الأزهر ، وكان الناس يتبركون به ، وبكلامه ، وكان فيه شيء لله ، ولكنه كان مهابا وقويا ، وعلى كل طيبة قلبه طاغية أيضا ، قليلا . قالت متى كان ذلك ؟ وقالت ربما عندما كنت في الخامسة أو أقل ، حتى .

وقالت إنها صناعة ڤيكتوريّة ، ولكن ألا ترى كيف تتسق ، بشكل غير معقول ، مع بقية الخشب في الغرفة ، كله ، الكراسي ، والمشربية ، والمكتب وكل شيء ؟ نفس قيمة اللون ، مع تنويعاته وظلاله ، أليس كذلك ؟

ذهبتْ إلى المطبخ وجاءت بأنبوتين منبعجتين من الصمغ القوى طلاؤهما أصفر معدنّى وعليه كتابات بالألمانية ، وملعقة خشبية طويلة اليد مسطحة الكأس تقريبا ، وفرشاة عريضة الشعر ، وكسرولة صغيرة من الألومنيوم ، قالت إنها ستمزج الآن محتويات الأنبوبتين وتقلّبهما في الكسرولة بالملعقة الخشبية ، وإنه يجب أن ينتهى العمل قبل مرور خمس دقائق على الأكثر من مزج السائل اللاصق وإلا جمد وتعقد وماعاد يصلح . وجلست القرفصاء على الأرض وكان جلد ركبتيها مشدودا في سمرته تضرُّج خطوطٍ محمرة من احتكاكه بالبساط ، وانفتحت أمامه ساقاها المليئتان اللدنتان في عتمة تحت الفستان البيتى الخفيف الذي بلا أكمام يترجرج تحته ثدياها ، بحرية وتوفز ، وهى تقلّب السائل اللاصق ، وركع هو بجانبها أمام قرص المائدة المقلوب ، وسيقانها الخشبية الأربعة جاهزة ، وهو في بنطلونه الجينز الأزرق ، ممتلىء عليه ، في ركعته ، ولكن من غير ضيق ، قالت له : لبستَ ملابس الشغل ! وهى منهمكة في عملها ، ولكنها ابتسمت له عندما لاحظت امتلاء البنطلون عليه ، دون كلام ، واستمرت تقلّب ، بسرعة وقوة ، عجينة السائل المتميعة الضاربة إلى الصفرة الداكنة ، ولها رائحة كالبنزين ، في الألومنيوم الذي تكونت على سطحه الداخلي حلقات متموجة تنعقد وتنفك وتنحل وتسقط ، مائيةً ولزجة ، على جسم السائل الذي تكونت فيه فقاعات صغيرة . وفكّر ، خطفا ، وهو يُركّب السيقان في فجواتها فتلتصق بجسم القرص بصوت فيه طراوة كثيفة ، كصوت العجين الذي كان يرتطم بخشب طاولة الفرن عندما كانت أمه تصنع أقراص الملاك ميخائيل في طفولته ، أن المائدة ، عندما تقوم ، سوف تشغل بالضبط تلك البقعة التي كانت هى تجلس فيها ، تحت قدميه ، وتنظر إليه من تحت ، وتضم ساقيه إليها ، وعندما يهم بالنهوض تقول إنها تحب أن تجلس هكذا ، تحت قدمى حبيبى وسيدي وتاج رأسى ، فلا يستطيع أن ينزل إليها إلا بعد مجالدة رفيقة ، رغما عن احتجاجها الواهى الصوت ، لكي يعانقها على الأرض في صبابة حبٍ كله عرفان وكله مجد ، عندئذ ترك المائدة ، وسيقانها وكل شيء ، وخطا من فوق طرف القرص الممدد ، وانحنى فقبل دوران كتفها العارية قبلة سريعة أعطته مرة أخرى نعومة هذه الانحناءة الكاملة ولدونتها المتينة في وقت معا ، وهتفت يامجنون .. ! حاسب .. ! ماذا تفعل ؟؟ إرجع . إلحق أحسن الرِجْل تنفكّ .. ! ولكنها لحقت بيده الراجعة فأمسكت بها لحظة خاطفة من ثانية ، ووضعت عليها

فمها في أقل من خطفة ، ونهضت ، وكلها وهج الحيوية وموسيقى الخفة والتوازن ، ووضعت الساق الأخيرة في فجوتها من قرص المائدة ، وضغطت عليها ، منحنية عليها ، بيديها كلتيهما ، وهي تنظر إليه ، صدرها قد انهمر إلى الأمام بتماسك ، بعينين فيهما وعود لانهاية لها .

النخلة الرشيقة المحصورة بين جدران البيوت الخلفية ، يراها من شرفة بيتهم القديم بالاسكندرية ، مستندة بسعفها النوّاس المتأود على الحائط المصمت المقابل ، بين عناقيد الثوم المتدلية من الشرفات تجف في الشمس والهواء وبين سلاسل اللبلاب العميق الخضرة صفحات أوراقه تهتز بمائها الداكن على ضلف خشب النوافذ ومواسير الصرف تنساب على الطوب المقشور الطلاء وعلى أنابيب الحديد تتلوى ، ثابتة العظام ، وعلى ألواح الزجاج المترب الباهت العيون ، سعف النخل المخصوف والمضفور على شكل صلبان وعقود وحلقات بيضاوية متداخلة ومتشابكة ، غضة البشرة ، بخضرة فاتحة كأنها بيضاء ، مرشوشة بقطرات من الماء المبارك الذي صلّى عليه القسيس ونثره على المصلين بين دقات الصناجات والنواقيس والترانيم ، هَلِلّويا .. هِلّلويا ..

قال : ومع ذلك ، فإن الوحش المحبوس لم ينطلق حقا ، أبدا من قضبانه .
قال : هل هو يريد البقاء داخلها ، أهذا مايريده ؟
قال : لايرفع مخلبه ليكسرها ، بل ليخمشها ، فقط .

ثم قال : ليست القضبان مفتوحة ، ولا سهلة الكسر ، هذا صحيح ، ولكنها ليست مستعصية كل الاستعصاء على الانقصاف ، لو كان قويا ، ومجنونا ، بما فيه الكفاية .

وقال : أريد أن أغوص في عُرْيِ الكون . حتى من داخل الحبس .
قال : من غير أن أسميه .

قال : لبِنة الحجر الملقَى ، والمعطَى ، والمصنوع ، والمرمَّم ، وهي تحتى بين يدىّ ، أدمّثها ، أمرّسها ، أدسّرها ، أدكّها ، أصقلها وأنَعِمّ حوافها ، وهي عصيّة ، ولا أستطيع ، إلا بالكاد ، تذليل عنانها الجَموح .

لماذا لاتكفيني ، وتفيض ، هذه المادة الأولية الدسمة ، خام الصخر ، وخام الحب ؟ فليتني أتعلم القبول الذي يأتي من سلام القلب ، كاتضاع الرهبان الذي يأتي من معرفة النعمة ، عندما تنزل النعمة . هذه التي بين راحتي ، وملء حضني ، ما أندر ماعرفتها ، ما أندر ماقبلتها .

لماذا البشماس ، والحَزْن ، والأشواك المرفوعة ؟

ولماذا أريد التشكيل ، والصياغة ، وبناء الرقة المرهفة ، وتثبيت الألم ، كلها لاتُحتَمل ، حجراً هفهافا فوق حجر ؟

كأنما لا أريد فقط المتعة بجسد المعمار ، والمتعة بجسد الحب ، بل لابد لي أيضا ، معها وكأنما رغما عني ، من أن أعرفها ، أحددها ، أشيدها ، أجمّدها في إسار صيغة . لماذا لابد لي من أن أسجن المتعة والألم ، وكلاهما بلا حد ، ولا قانون ؟ كأنما لابد لي ، وأنا أغوص في حشد اللحم الوثير ، أن أصل إلى منطقةٍ منيرة الحدود ، قاطعة ، منطقة أعرف بالحتم أنها هناك ، في غوص اللامتشكّل ، وهي على أطراف أنامل أصابعي المتوترة المتطلبة ، ما أكاد أمس تخومها حتى أتوه على الفور في فيافيها ، وقد اختفى الأفق الداخلي .

مسعاي أن أتسرب من سجن الاسماء كل الأسماء وأن أسري في ساحةِ سماءٍ سرمدية شاسعة بلا أسوار لايُسبر سرٌّ واحدٌ من أسرارها ولاتُكسر بكارتها أسعى أن اكتسح صَلَفَ التصريف والتعريف وأن أخلص من إسار التسمية التي أرست ، في صميمي ، سلاسلَها تصلصل بسَوْراتي وتُصفّدها .

قال : سراب الدوام ، سديم الثبات ، والخلود ، ليست كلها إلا خدعة من خدع الآلهة التي تمكر بنا ومكرها غير حميد .

فكيف تطلب الدوام ، وتطمح إلى مقام الآلهة ؟
أليس التقلب ، والانحسار ، والنكوص ، هو جوهرك الباقي ؟
في وسط طيش القلب صخرة راسخةٌ ما ، لاتطولها يده .

وأنت تعرف أن التكرار مستحيل ، وتنشد ماهو أكثر من رحمة رجع الصدى ، مرة ، ومرة تنشد الصرح الذي لايعرف البلى ولا الدثور بل يدوم ، رَيان الجسد ، نضر الإهاب ، يدوم ..

ليس شوقا عضويا ، حسيا ، ثقيلا بالدم ذى العُقَد والتخثّرات ، فقط .

ليس الحنين في أطراف الأصابع ، ونُوَيّات العصب ، مشدوداً ، متكهرباً ، إلى مَلاءة الثدى ، وتوتر الحلمة المترعة ، واستدارة الساق الرابية ، فقط .

ليس طعم أنوثتك الخصيب على جِلد شفتي ، فقط .

ليس في مسامعي جَرْس هسهسة هَمْسك من بين أسنانك المفتوحة بحبك وبرغبتك . فقط .

وليس صراعا بين جسدين ، وراحة الروح في حضنك ، ولا قبلتي على كتفك المستديرة الناعمة ، فقط .

بل هو أيضا ، هو أساسا ، توق أساسيّ إلى أن تستحيل زهرة الجسم الزائلة عنقاء ألفيّة تشتعل بلا انتهاء .

آلخلود خدعة ؟ والديمومة حلم طفولة لاتريم ؟ هما معى . بلا انتهاء .

هو أيضا مثول الصمت ، وسقوط الكلام ، والحيطان القديمة لاتنهار .

وهو الانقطاع ، الانقطاع ، الانقطاع .

فما طريقنا إلى أحدنا الآخر ؟ بل كيف تنتفي الطريق ، فلا يصبح هناك أحدنا أو الآخَر ؟ بل أنا واحد وأنتِ هو الواحد نفسه ، ومازال هناك الآخَر مِنّا ، من كل واحدٍ مِنّا ، وليس هناك ، في وقت معا .

دَرَسَتْ الطريق ، واندثرت معالمها .

قال : القسوة سخيفة ، وغير مبررة . فقط تأتي من الوجع . ولكن الدم الكثيف القوام يجب أن يتحملها ، ويتمثلها .

وقال : هل الحنان ، أيضا ، شيء سخيف ، فات أوانه ، عفى عليه الزمن ؟

قال : بل وفخور ، وفي أطراف دمائته التي لاتُطاق مرارة مقبولة .

كان يجلس ، نصف مضطجع ، على الصوفا الوثيرة ، يرتفق المسند الصغير ، وقد ثنى ساقيه تحته في راحة . كان في جسمه حرية ، ورضى ، واطمئنان عميق . أماهي فقد كانت قد تركت جسمها له ، ممدداً على الصوفا بجانبه ، طوت ساقيها إلى فخذيها أيضا ، وهدأت تماما . رأسها ، بشعره الخشن العبق الفواح ، على حِجْره ، يحس على جلده دغدغته الناعمة المستكنّة ، ويحس وجنتها المضرجة سمرتها بدفق التحقق الساجي ، عيناها ترتفعان إليه بنظرة وامقة مليئة حتى الفيض بعمق الرضى ، والامتلاء ، ثم أدارت وجهها إليه ، مغمضة العينين ، وسمعها تهمس كأنما لنفسها ، بصوت نصف نائم ، متمدد ، ينتهي إلى خفوت بطيء :

— إمْ م — أنا الآن سعيدة .. سعيدة تماما ، الآن لا أريد شيئا أكثر .. أبدا .. لاشيء .. يمكنني أن أموت الآن ، في هذه اللحظة ، وأنا راضية تماما حتى الشبع .. ليس في العالم كله شيء آخر أريده .. خلاص .

ثم فتحت عينيها لحظة ، ومازال صوتها خفيضا ، كسولاً : بنفسي أن أفعل الآن كالقطط عندما تأكل ، وتشبع ، وتموء ، وتقرقر .

وهبط صوتها ، ووجهها ، باستسلام كله أمان : هل أنت سعيد ياحبيبي ؟

أحس نَفَسها يهدأ تماما ، ثم ينتظم ، كل الحيوية المكنونة فيه قد سكن جيشانها الآن ، ووجهها الثابت الصغير يترقرق ثم يسكن في إغفاءتها القصيرة على حجره .

كانت يده على أجَمة شعرها الوحْف ، فتركها ، لم يرفعها ولم يضغط بها ، ولم يردّ . وكان التواصل كاملا ولا يحتاج إلى كلمة ، ولا إلى نَفَس .

وكان السكون كاملا .

فتحت عينيها بعد لحظة ، وابتسمت ، تعرفت عليه للفور ، وقالت :

ـــ نحب.. ! ثم نحب وننام .. هذه هي النظرية .. ! ديالكتيك الحب والنوم .. !

ودفنت وجهها فيه ، فقد كان قد بدأ يتيقظ ، حتى وهي نائمة في تلك اللحظة الأخيرة التي كانت بلا زمن .

الغوص ، والانفجار العذب يقذف لجة الاحشاء في العمق المتحرك المضموم حول عمود النّدّ القائم الملتهب ، ودفقة سعادته مليئة وكاملة ، صرخة يجأر بها جسمه المبذول الشرس الازدهار ، كأنما رغما عنه ، كأنها لاصلة له به .

قال : إنني كامل . إنني كامل . ليس هناك نقص . لم يعد يعوزني شيء . . لم يعد يعوزني شيء في هذه الحياة ولا في الأخرى .

قالت : لاتتحدَّ ... ياحبيبي ، إنهم أقوياء .

هل سأعرف أبدا ، مرة أخرى ، تلك القيمة التي لاتوصف من السكينة والسلام ، وقد برئ الروحان وصَفَا الجسمان من كل لوثة ، صفاءً كأنه من غير هذا العالم ؟ وأنا أنظر إلى عينيها الصفراوين الآن ، تتقدان بنارٍ باهرة ، لاحرارة فيها ، بل نور ؟

قال لنفسه : عيناها الآن فيهما نور ذهبي دفيء ! وفي غوره إبَر خضر داكنة مشعة ، أحتمل جمالهما من غير أدنى جهد ، جمالهما لي .

قال لها : هذه النشوة ليست ترفا حسيا . هي أكبر من ذلك . هي حال . هذا التحرر من كل رصانة ، واطّراح كل تحوط . وانتفاءٌ لكل المعايير . هي جذور صفاء لاوصف له .

وقال : ليس صحيحا أن الوحدة أعمق ماتكون في الجنس ، هذه خرافة .، أو قصور .

قال : لم أعرف أبدا قهر الوحدة ، نهائيا ، وازدهار الروح على أفق شاسع وساطع في صميمي ، إلا في انصهار النشوة الجنسية التي هي ثمل خمر القربان ، وصلاة . توحُّدٌ بجسد المطلق ..

كانت تحدثه بالتليفون ، وهو في ماريوبوليس ، كان يطلبها يوما ، وتطلبه يوما ، وكان أحيانا يغالط ، فيطلبها في اليوم مرتين ، أو ثلاثا ، فتقول له هذا النوع من المغالطة ، هو النوع الوحيد المسموح به ، وكان قد تأخر يوما ، قالت له إنها ستستقبل أصدقاء في المساء ، وتأخر الوقت به ، وناوشته الهواجس ، وتأخر الوقت . دق التليفون بصلصلة بهيجة ، وثب لها قلبه ، كان يعرف إنها هي . قالت له : لماذا لم تحدثني ؟ قال : أبدا .. تصورت أنك مشغولة .. أنك ربما الليلة ، أعنى .. وسكت ، فقالت : يعنى ماذا ياحبيبي ؟ قل ؟ .. قال : يعني .. أنت تعرفينني ، هذا جزء من تراثي النفسي ، والتركيبة التي فيّ . صحيح أن تركة ميخائيل القديم قد تلاشت ، تقريبا .. ولكن بقى منها هذا الجزء الضئيل . قالت : هذا الجزء تمزقه ، تُقطّعه أجزاء صغيرة وترميه للعصافير التي تجيء أمام نافذتك . تتخلص منه نهائيا ، ويطير به الهواء عندك . قلبه نقىّ ، قال : قد أكلتْه العصافير ، وطار به الهواء .

قال : أنا عرفت معنى السعادة ..

عندما جاءها من الاسكندرية ، في رحلته الثانية ، وفتحت له الباب ، كانت عندها إيفيت طوسون ، جالسة على الكرسي الصغير أمام الصوفا . لم تكن المائدة قد أقيمت بعد . كان جسم ضيفتها النحيل ، غامضا في المقعد ، فستانها الحريري ينزل على بطنها المدور المكتوم وينسدل على الساقين السمراوين بعظامهما الحارة . وكانت عيناها ، بسوادهما العميق الحالك ، مشحونتين بطاقة ملجّمة ، محكومة .

وسلّم ، وقال : كيف حال مصطفى ؟

فأجابت إيفيت ، دون احتجاج ، أنه بخير ويمكن يأتي بعد قليل .

كانت في يده هديته الصغيرة ، ملفوفة ، لايدرى ماذا يفعل بها . ولكنه قرر فجأة أن يعطيها الهدية ولو كان ذلك أمام إيفيت .

فك الورقة الصفراء الملونة بأزهار حمراء صغيرة ، وقال لها : رامة ، هذا شيء صغير لك ، وللبيت ، من اسكندرية .

كان الطبق النحاسي المشغول يومض في نور الشمس المهتز الداخل من خروم المشربية ، على كتابات كوفية بلون داكن الصفرة مفروشة ودائرية على الطبق ، وفي قلبه تعاشيق رشيقة ورصينة .

قالت ، بحرارة ، وهي تتأمل الطبق المنقوش : الله .. ! أشكرك يا ميخائيل . جميل جدا

ونهضت على الفور ، كأنها ترقص ، وتطاير فستانها الخفيف حول ساقيها ، بموسيقى جسدية ، فأتت ، بسرعة خاطفة ، من الدولاب الذي يقع أمام ردهة المطبخ ، بمسمار وشاكوش ، وعلّقت الطبق فورا على الحائط الغربي البارز تحت شجرة الظل التي كانت ماتزال جديدة وصبيّة ، وأفنانها وأوراقها العريضة مازالت قليلة وشُجاعة ويافعة .

قالت وهي تنظر إليه ، وقد خطت إلى الخلف : كأن كل شيء ، الحائط ، والفراغ ، الذي فيه ، والشجرة فوقه ، كلها ، كانت تنتظره .

كأنها رأت ، وصدّقت ، الرأس الذي يدور في قرص الشمس . كأن قربانه كان لانهائيا .

قالت له ، فيما بعد : تعرف عندما أعطيتنى الطبق ، ماذا قالت إيفيت ؟

قال : لا ، ماذا قالت ؟

قالت : كنت أنت قد نزلت . فقالت لي ، فجأة ، دون مقدمات : « هذا الرجل يحبك .. خلي بالك عليه .. ! »

قال : ياه .. كيف عَرَفْتْ ؟
ثم ضحك ، وقال : وماذا قلتِ ؟
نظرت اليه ، ولم تقل شيئا .

في جملةٍ لاحقة من موسيقى زمانهما المتقلبة الأدوار ، عندما استيقظت من نومها الكَدِر القصير في عباءتها السوداء السابقة المكومة عليها ، بعد مناقشة جاءت فيها حكاية أقباط مصر ، فجأة ، وقالت فيها إن البابا شنودة رجل عنيد ، لايتفهم الوضع ولايقبل التنازلات الضرورية في بعض الأحيان حفاظا على هذه الوحدة الأزلية لشعب مصر ، وقال هو فيها إن الرجل بلا شك سوف يدخل السنكسار الحديث ، وإن إصراره إنما هو لأنه ينافح ـ كما يرى وكما يستطيع ـ عن كرامة مصر كلها ، وليس فقط عن كرامة شعبه ، وقبل أن تستنكر قال لها إن « الشعب » هنا تعبير كنسي وليس قوميا ، وقال إن القضية ليست قضية أقباط أو مسلمين ، بل هي في الأصل قيمة التاريخ كله في مصر ، وعندما تصورت أنه يحتقر ذكاءها ، أو معرفتها ، ونامت ، انعزلت ، انفصلت ، كان هذا أكثر ما روّعه ، وسمع صوتها النائم ، غائبا ، في حلم ردىء وأساسي :

ــ كم أنا خائفة .. ووحيدة .. !

كان صوتها الآخر ، صوت الأخرى منها ، عميقا ، خفيضا ، طفليا ومحملا بتراث فادح منكور ، وليس فيه أدنى شكاة ، ولا استنجاد . وكان عجزه أمام هذا الصوت ، أمام هذا النوم ، مطبقا وكاملا .

نهضت جالسة ولملمت العباءة الداكنة عليها في الغرفة التي ليس فيها ضوء ، كان في صوتها الصاحي شحنة مرعبة من الطاقة والتفجر الشائك الخشن :

ــ أنت أناني . تقول الحب ؟ تقول إنك تحبني ؟ هذه خيالات ، وأوهام .. كيف تجرؤ ؟ نعم كيف تواتيك الجرأة ؟ تقول إنني التي في كلامها امتهان لك ؟ لك أنت ؟ أنا ؟ امتهان ؟ كل هذا الكرم وتقول هذا ؟ ليس هناك من هو أكرم لك مني .. وأنت .. أنت لاتقدّر شيئا ولاتفهم شيئا .. أنت حتى لاتستحق .. نعم لاتستحق .. !

كانت عندئذ، في العتمة، حضورا مفاجئا ومنذرا لم يتوقعه أبدا . عرف هوة صامته لاقرار لها في داخلة ، وعبّر الغربة ، والغرابة الشاسعة الموحشة ، فهم أنها قريبة إليه جدا ، أقرب جدا مما كان يتصور في أى وقت .

قالت له : لا .. لاتلمسني . ابعد عني .. إنني أمقتك .. أمقتك ..
قال : أنت .. أنت تعرفينني .. تعرفين أنني ..
فقاطعته ، بصوت أخفض ، كأنما لنفسها : لا .. أخشى أنني لا أعرفك .

صمت . كانت الصدمة أكبر منه ، وأكبر حتى من فهمه الجديد الغض العود ، وكأنه يرى ماتقول وهو بعيد جدا ، محبوسا في كرة مغلقة عليه ، شفافة ولكن لانفاذ من سطحها المحكم الدوران ، المصمت دون أى شرح .

وهجس بنفسه أن هذه الصلابة ، هذه القسوة ، هذا العنف في صوتها ليست كلها إلا حيلة دفاعية ضد الرقة العميقة التي فيها ، ضد الضعف العميق ، حاجزاً يحول دونها والانهمار .

وقال ، فيما بعد : ليس بالضرورة . ليس هناك ما يجعلني أقبل هذا أو أرفضه . مادليلي على الإثبات ، أو النفى ؟

وقال : أما براهين القلب فليست ، بالضرورة ، بمنأى عن كل عطب .
قال : وكما قيل ، ويقال دائما ، براهين القلب وحدها هى البرهان .
ثم قال : والغربة بيننا ، هل هى التي تدفعني ، ولعلها تدفعها أيضا ، تدفعنا معا إلى التخطي المستميت ، إلى التعدي الذي يحدث في قلب الإنكار ؟

المعرفة أن لحظة المجد ، لحظة سقوط الحاجز ، لحظة الانصهار المحترق العينين بعد التوفز الحميم ، ليست - ولايمكن أبدا إلا أن تكون - خاطفة ، كانشعاب البرق ، وثابتة ، ثابتة وخالدة ودائمة كالفلك الذي يحمل ثقل كل الأجرام المضيئة أبدا بلا انطفاء .

قالت : حتى ما أسميه « خناقاتنا تقريبا » سوف تبقى لنا ..
« تقريبا » .. فهى ليست ـ ولا يمكن أن تكون ، أبدا ـ انشقاقات ، أو انفصالات .

مجالدتي حبك صراع مع الملاك الأسود المرفرف حول عينى بمنقاره الذهبي في الشمس ، بجناحيه الفاتحين الهائلين يضربان جوانب وجهى ، ويذوبان كالشمع .

قالت له : أفتقد لمستك الناعمة ، وحبك الرقيق .
والنشوة صارمة الحنان ؟ وعنف الحلم الصلب ؟
ألا تفتقدينها ؟

سيدي المحترم وولدي العزيز (ابن ستي المحبوبة) ميخائيل افندي
أهديك وحضرة السيدة المحترمة والدتكم وأشقاءكم كثير سلامي وأشواقي وأرجو من رب القدرة والعظمة يحافظ عليكم وينجيكم من كل سوء ويوريني وجهكم بخير .
سيدي وصلني جوابك ، وكامل شرحكم عُلم ، وتطمنّا على غالي صحتكم ، وكان سبق أرسل لكم جواب بداخله خمسون قرشا ليدكم بالسلامة .

عزيزي الليلة الماضية كنا بايتين بالاسكندرية لأننا تأخرنا على المواصلات للمحمودية ، وضربت صفارة الانذار الساعة ١١,٤٠ وبعدها الأمان الساعة ١٢ طوالي ، غارة بسيطة وألقت قنابلها بجوار العامود والقباري وهدمت بعض منازل والخسارة بسيطة ، وعند حدوث غارات ننزل في الجامع بجوار البيت أحسن من المخبأ والحمد لله والمنظور لم يحصل غارات ثاني . أمس توجهت غيط العنب لمنزل عبد المسيح، ووجدته غسل الهدوم وكلفته بمكوة القفطان وينتظرني في الغروب مع العلم بأني أدفع أجرة الغسيل والمكوة بزيادة قوى قوى والحمد لله . واستحميت وغيرت الهدوم . أرجو أن ترسلوا لنا بطاقة صرف الجاز لكى بموجبها نتحصل على تذاكر سفر بالسكة الحديد للحضور طرفكم في أخميم إنشاء الله في آخر الجاري ، وأرجو أن توافوني بما يلزمكم من هنا لاستحضاره ووالدتكم تنظف البيت كويس وتحضر وتزغط ذكر بط وعسى يكون باقي من الفراخ وختاما دعواتي وأشواقي مبعوثين إليك من صميم الفؤاد .
الاسكندرية في ١٩٤١/٨/١٥ . والدك قلدس قلاده

عندما دخلت عنبر الحوادث في المستشفى الأميري الجامعي في الاسكندرية وجدت موظفا يجلس أمام منضدة داخل العنبر ، كان يقرقز اللب بينما على المنضدة « السجل » يحتوي على أسماء المصابين .. أخذ ينادي في منتصف العنبر عن المصاب الذي يحمل اسم مسعد عبد السلام عمران ولما لم يجب أحد أخذ يوقظ المرضى واحدا واحدا يسألهم عن أسمائهم حتى وصلنا إلى السرير رقم ٧ حيث اكتشفنا أخيرا المصاب يرقد عليه تغطيه أغطية قذرة متسخة تقرز النفس على الرغم من أنه أجريت له عملية جراحية يجب ألا تتلوث .. وكان يصل إلى مسمعي صوت راديو أقسم أنني لو كنت جالسا على مقهى بلدي ماكان المذياع سيرتفع فيه إلى هذا الحد . ثم هذا هو غلام صغير يرقد على سرير مجاور يصرخ من الآلام بينما الممرضة تنهره لكي يصمت بل تكاد تضربه .. ذلك كله خلاف ما يغطي أرض العنبر من قمامة تتمثل في قشر البرتقال مع قشر اليوسفي مع مصاصات القصب إلى غير ذلك من الخيرات .. ا

نقيب فتحي محمد حسن
ادارة البحث الجنائي اسكندرية

الأهرام في ١٧ فبراير ١٩٧٦

وقالت المساء في ١٤ يناير ١٩٧٧ إنها نشرت في عدد الجمعة السابق أن بوللي ، أشهر موظفي النظارة الخاصة للملك يطالب بزيادة معاشه ، وأن حسنين محمد على الحلاق الخاص للملك السابق أرسل التماسا إلى العميد ن . أ عبد الحي هيمي مدير عام ديوان المظالم برياسة الجمهورية يطالب فيه بزيادة معاشه أيضا وقال : « كنت أعمل في خدمة الملك السابق كحلاق خاص له . وكنت أتقاضى مرتبا يكفي أسرتي كبيرة العدد ولما قامت الثورة المباركة انتهت خدمتي وقررت لي الحكومة معاشا بسيطا يبلغ ستة جنيهات ونصف جنيه إلا أنها لاتكفي أسرتي التي تزيد على عشرة أبناء وبنات وفي مراحل التعليم المختلفة . فهل تأمرون بزيادة معاشي حتى أتمكن من مواجهة مطالب الحياة وخصوصا وأن السن تقدمت بي وأصبحت غير قادر على مزاولة المهنة »

قالت له : أنت مهندس جيد ، أنت ذلك تعرف ذلك .

فلم يقل لها : ربنا يخليك ويطوّل عمرك .. المهندسون الجيدون ، بارك الله فيهم ، كثيرون ، والدستة منهم بنكلة ، مع كل الاحترام . لا ، لست مهندسا جيدا .. أتمنى لو أنني كنت مهندسا خارقا ، حتى لو كنت رديئا .

ولم يحس لما إن القليلين من أصدقائه الذين يعرفون عمله قالوا عنه أشياء عظيمة ما ، لم يكن يصدقها تماما ، ولكنه كان يريد أن يقتنع بها ، قالوا له إن بعض أعماله في ترميم الأعمدة ستظل باقية ، حتى لو لم يعرفها أحد الآن ، باقية على الزمن ، قالوا .

ولم يقل لها : لماذا لم تقولي أنت شيئا كهذا ، لي ، وأنت الخبيرة بهذا العمل ؟
ولم يشأ أن يقول حتى لنفسه : كأنما كل قيمتي ، منها هي .

قالت له : هل تذكر يوم أن جئتني ، مرة واحدة ، في شقة العجوزة ؟

قال : أذكر ؟ وهل يمكنني أن أنسى شيئا عنك ، حتى لو أردت ؟

قالت : خلنا في المهم ، الآن .. كنت أيامها قد تركت حسن ، وتركت له كل شيء في البيت ، حاول كثيرا معي ، في الحق ، ولكني رفضت ، خرجت بملابسي وملابس البنت . لم يكن من الممكن أن أدخل في تسويات ، ومن يأخذ ماذا ؟ كان الطلاق نظيفا ، وافترقنا أصدقاء ، ومازلنا أصدقاء . الحكاية التي أريد أن أقولها لك الآن ليس هذا ، كنت أعمل كالزنوج ، كما يقال ، وأشقى صحيح ، فقط لكي أقيم أود منال . هل قلت لك هذا ؟ ترجمت إلى العربية فصولاً لاتنتهي في التاريخ المصري القديم وفي التاريخ اليوناني ، وصححت تجاربها ، وتنازلت عن كل حقوقي في الترجمة لكل يضيف الوزير السابق بضع كلمات ، ويحذف بضع جمل ، ويعيد ترتيب الفقرات ، ويضع اسمه عليها باعتباره المؤلف ولكن على الأقل كنت أقبض منه مرتبا شهريا . لاتتصور مدى غضبي لهذه الجريمة .. لا .. دعني أكمل .. جريمة بكل المقاييس ، ويجب أن تُفضح .. هأنذى أفعل ذلك .. ويجب أن أُعاقب أنا ، أولاً ، والسيد الوزير السابق ، وكل من يعرف بوقوعها أيضا ، ويسكت .. هذا ليست مسألة أخلاق بورجوازية مثلا ، ولا شيء من هذا القبيل ، هناك نوع من الشرف ، في كل الأخلاقيات ، فوق كل الأخلاقيات ربما ـ وليس هناك أى تبرير ، أى عذر ، حتى لو كان في مقابل بقائنا أحياء والحصول على لقمة العيش بعيداً عن السرقة والتعريص ـ لا مؤاخذة ـ وكل شيء يغضب الله كما كان يقول الحاوي ، زمان ، الله يمسيه بالخير بقى ..

فكان نقاشه معها عن الخير الأسمى والخير الأقل غير مقنع تماما ، حتى عنده .

قالت : هل تذكر الغرفة الصغيرة في تلك الشقة ، في العجوزة ؟ طبعا تذكر ؟ قلت لك إن عيسى أخي الله يرحمه كان يسكن معنا ؟

قال : طبعا .. النافذة كانت تطل على أرض فراغ بين العمارات ، وأكوام من الطوب والخيش وحديد التسليح وبراميل ، وباب خشبي على الأرض الفراغ ، مربوط بسلسلة حديد ..

قالت : اسم الله عليك !

قال : لم يكن في الغرفة سرير ، مرتبة فقط ، على الأرض ، والبطانية ودولاب صغير . ورأيت على المشجب الكاب العسكري ..

قالت : لكنك لم تلاحظ الصورة الصغيرة ، في الحامل الخشبي ، على الكومودينو ؟ سأعترف لك ، وحدك ، هذه الصورة أعتز بها ، كما أعتز بصورة منال ، وعزة ، وأكثر ..

نظرت إليه قليلا ، وأكملت : حبيبتك سنتمنتاليّة أيضا ..

قال : هل . هل كان أخوك شقيقك ؟

قالت : لا ، ليس لي عندي أخوة أشقاء .. هو وعمر في السعودية فقط .

قال : أعرف أنه .. أنه استشهد في اكتوبر ؟

قالت : ولم يُشفَ الحزن الذي تركه ، ولن يشفى أبدا ، الآن على الأخص ، لن تنطفىء لى نار ، حتى آخذ بثأري ... ليس بيني وبينهم ، بيني وبينه هو على الأخص ، إلا الدم ..

كان جسمها عنيفا .

وقال لنفسه : طبعا . منطقها هو الأقوى ، هو الوحيد ، برغم كل صحة أي منطق آخر ..

وقال : عنف هذا المنطق هو صحته النهائية ، وتبريره . ولا يمكن أن يُناقش ، ولا أن يدحض .

وقال : عنف هذا البغض ، لا انفصال له عن عنف هذا الحب . هو وجهه الآخر .

كان مصطفى قد قال له : أهذا يمكن أن يوجد ؟ أهذا العنف يمكن تصديقه ؟

قال : كم منا ، نعيش ، ونموت دون أن نعرفه ، ولا نعرف وجهه الآخر ؟

قال : كم من الناس عاشوا وماتوا ، أيضا ، دون أن يعرفوا نشوة هذا العنف ؟ جماح هذه الخيول المنطلقة إلى عين الشمس ؟

أجاب : كثيرون ، وربما الكل .. لعلهم فقط لايعرفون أن يقولوه ، أو لايعرفون الوعي به ، فقط ..

قال : مامن أحد يعرف أن يقوله . وهل أقول أنا شيئا ؟

قال : ولكني اخترت . اخترت أن أضع عنف الحب في هذا الاطار . ضربت عليه الحصار . هذا اختيار جارح حتى آخر غور ، لايطاق . ولكني اخترته .

وسأل سؤاله القديم المراوغ الوجه : ماذا لو أصبح هذا الحب حياة يومية ؟ ماذا لو صنعت منه الحياة ، بعبارة صديقه القديم . لو أصبح شيئا أعيشه في حدود كل يوم ؟ أكان يتغير ، أكان يصبح مللا ومشاحنة ؟ أو على الأقل ألفة باهتة ؟ أكان يفقد سحره ، إذ يفقد خفاءه ، وصفاءه القاتل ؟ هل كان يطفىء الصدأ وهجه ؟

كانت قد قالت له : هذا كله غير صحيح ، غير حقيقي ، حُلميّ وداخلي ..

وقالت : هذا غير صحيح .. هل لو قلت لك الآن ، مرة أخرى ، أترك كل شيء ، وتعال ، ماذا تفعل ؟

قال بهدوء ، فجأة ، من غير تفكير لحظة واحدة ، كأنما عن قرار كامن لم يكن يعرفه أبدا :

ـــ أقول نعم . فورا .

كان الهدوء في الغرفة الخفيضة الضوء كاملا .

كان يعرف أنه خطا خطوة نهائية . كأنه قطع ، مرة واحدة ، كل السلاسل ، ووقف دون أدنى سَند ، دون أدنى جهد ، فوق هاوية ساطعة الظلام .

القرار قد اتخذ .

أُخِذَتْ ، بُهتت لحظة ، اتسعت عيناها من المفاجأة والدهشة والروع قليلا .

قال لنفسه : لم تكن تنتظر أبداً ، هذه الإجابة .

قال : كل الأوراق قد قُلبت ، مكشوفة الآن .

كان القرار قاطعا . لم يشأ أن يؤكده حتى لايُبتذل ، حتى لايوضع أبدا موضع سؤال أو مناقشة . كان تأكيده نهائيا . وكانت تعرف : فسكتت .

سكتت ، ولم تقل كلمة واحدة ، في نظرتها شيء لم يفهمه .

نظرة ناضجة ، مليئة بحكمة الدهور ، فاهمة ، لا وهم فيها ولاحلم ، يائسة ، من الناس ، من الزمن ، وصاحية ، مع ذلك ، نظرة غير أنثوية ، ومع ذلك ففيها المرأة كلها .

وكان هذا القرار بينهما ، حتى النهاية ، لم يعد يمكن أن ينال منه شيء .
لم تقبله أبدا ، هذا القرار ، لكنه كان موجودا ، ولم تنفه ، ماكان يمكن أن يُنقض .
قالت : لو كنّا عرفنا أحدنا الآخر ، من زمان ، فإما كنا قد مزقنا أحدنا الآخر ، تمزيقا ...
قال : أو ..
قالت : أو كنا وصلنا إلى مالم يصل اليه أحد من قبل ، أبدا .
قال : الاختيار .. بين شيء وحشيّ ، مطلق ، وجسديّ معا ، ومن كثافته المحتشدة ، شفافٌ حتى لايكاد يُرى له قوام ، وكأنه لا يوجد ، من فرط ثقل وجودة ونصاعته ؛ وبين كل ما يحيط به من حجر خشن معتم ، ويدفنه .

كان ثلاثتهم في سيارتها الفولكس ، أحمد معهما ، والطريق الأسود غير المطروق يشق الغيطان ، وإلى يسارهم حافة ترعة واسعة تنمو الحلفا والهيش على جدار جسرها الرملي المرتفع الذي تتابع عليه أكوام من الرمل الجاف الصلب القوام ، لونه داكن ، وموحش ، وأشجار التوت والكافور مائلة عليها بجذوعها العريضة المتلوية وورقها الكثيف والخفيف بالتراوح ، وكان الماء في الترعة العريضة رصاصيّ اللون ، وثقيلا كأنه لا يتحرك .

كانت هي التي تقود السيارة ، بثقتها وتمكنّها القديم ، وكان أزيز المحرك عاليا ، والهواء يندفع إلى داخل السيارة من النوافذ المفتوحة ، جافا ، وقويا على وجهه ، وهو إلى جانبها .

وكان يواصل مناقشة عقيمة ، مسدودة الباب ..
قال ميخائيل : طبعا ليست المسألة كلها أنني أرفض هذا العمل . ليست المسألة أنني موافق ، أو غير موافق ، لم يعد لهذا معنى الآن ، لست أوافق ، بالتأكيد ، نعم ، ولكن كما ترون هأنذا الآن معكم ، بغض النظر . المسألة أنني متأكد مع ذلك أن هذا العمل الذي يبدو الآن ، ونحن في هذا المأزق ، ضروريا ، بل ومحتوما حتى ، خاطيء . أكثر من خاطيء . ومناقض في المدى البعيد لكل المعاني ، المبادىء ، القيم أو ماشئت ، التي باسمها نفسه يُعمل هذا العمل .

لاأريد الآن أن أذكركم ، في هذه الساعة المتأخرة جدا ، بكل ما اعتنقناه ، وتعلمناه ، على اختلاف آرائنا وتفسيراتنا ، من سنين طويلة ، أن يأس العنف الفردي ليس فقط غير مجدٍ بل هو – ضروري – ينقلب على القائمين به ، يعمل ضدهم . ولكن لابد أن أذكّركم به . ألم نناضل جميعا ضد الإرهاب الفردي ؟ وقلنا – كم قلنا – إن لعمل بين الجماهير – هكذا كنا نسميه ، أليس كذلك ؟ والتنظيم الصبور لطاقات الشعب ، كشف الحقائق والوقائع الصغيرة ، واحدة بعد واحدة ، بإصرار ، وتحليلها ، بإصرار ، حتى يتم التغيير الكيفي في وعى الطبقة وحلفائها ، في وعى الجماهير يعنى .. أهذا كله نعيد طرحه من جديد ؟ أهذا ممكن ؟

قال أحمد : هذا صحيح . كل هذا صحيح . لكن الواقع تغيّر ..

قال ميخائيل : المبادىء لم تتغير .

قال أحمد : لم تتغير ، تطورت .. الجماهير ليست فقط مكبلة ، ومغللّة ، بل مضللة أساسا . أجهزة القمع الأيدلوجي أصبحت الآن رهيبة ساحقة ، لم تكن أى شيء قريب من هذا في القرن التاسع عشر . لم تعد تحدي الآن إلا زلزلة .. اللحظة الآن هي المهمة ، وليس التاريخ ، حتى ، بمعنى من المعاني . مادام الوعى قد أُوقف ، فلا بد أن يُصنع التاريخ من لحظات . لحظات حاسمة .

قال ميخائيل : لن أقول لك إن هذه ، بالضبط ، هي عقيدة الآخرين ، إن هذا إنكار لطاقة الشعب الخلاقة ، الجماعية ، التي وحدها هي القادرة على الاختيار ..

قالت رامة : الشعب صامت .. مكتوف اليد . ومادمنا قد حرمنا ، رغما عنا ، من بهجة العمل بين الجماهير ، في النور ، مادمنا نعمل في السر ، في الخفاء ، في الوحدة والوحشة ..

نظر إليها ، كانت عيناها معلقتين بالطريق ، قال لنفسه ، بسرعة : عمّ تتكلم ؟ وقال :

– ولكن أى نوع من العمل .. ؟ هذا هو المعيار . وليس العلنية أو السرية ..

قال أحمد : لهذا يجب ، يجب أن نعمل ..

قال ميخائيل : نعمل ؟ من أنتم ؟ من نحن ؟ كنا ، ومازلنا ، حفنة من المثقفين كما تقول أنت ، نضرب صخر الناس الهادىء الثابت ، من غير جدوى ، بأفكار تبدو لنا واقعية علمية إلى آخره ، ولكنها لاتمس أحدا ولا تهز أحدا ولاتثير أحدا .. ولكن ..

قاطعه أحمد : بالضبط ، ولذلك نكسر قيد الصمت . نحن ؟ ، نحن ، أنت تسأل ؟ نحن ، ياسيدي ، إذا شئت ، أبناء الذين وقفوا أمام السلاطين وباعوهم في السوق ، أبناء الذين صنعوا الميثاق الشعبي الأول مع محمد على ، أبناء كل الذين ماتوا ويموتون من أجل أشياء كالحرية والكرامة والعدل بين الناس ، نحن ياسيدي ، أبناء الفلاحين ، مادّة مصر الغنية المتجددة ، الذين قاتلوا من على أبواب اسطنبول إلى درافور ، ومن المورة إلى نجد ، والذين ماتوا في القنال ؛ وفي القرم ، وفي المكسيك ، وفي فردان ، وفي فلسطين ، ثم قطعوا السكة الحديد ورفعوا علم الجمهورية في وجه امبراطورية لم تكن تغيب عنها الشمس ، والدين ضربهم الرصاص في شوارع قاهرة آخر السلاطين وآخر الباشوات . ماذا تريد أيضا ، قائمة آبائنا طويلة ، وقائمة زملائنا أطول ، الدين شربوا السل من غبار محالج القطن ، والذين جاعوا في حقول القمح الوافرة ، زملاء خميس والبقرى وشهدى وحداد والمئات الدين امتهنوا والآلاف الذين لم يسقطوا .. هذا نحن ..

قالت رامة : نحن الذين نعرف حركة التاريخ ، ونفهم سرّه ، ونصنعه . نحن الذين نصنع التاريخ عندما نتسق مع قوانينه ، وندفع بحركته ، نطاوعها ونطوّعها في اتجاهها الأصيل نفسه ضد الطغيان ، ضد القهر ، مع الأطفال الذين يموتون بلا سبب ، مع الذين يكدحون ويعانون طول عمرهم ، ويموتون صامتين .

قال ميخائيل : لن تنتهي معاناتهم ، مهما كانت النسب الحسابية . مهما صغر العدد أو كبر ، المعاناة قائمة . وستظل الحياة .. حتى في الجنة الأرضية لو تحققت — مادامت أرضية — ستظل معناها الألم . طفل واحد يموت بلا سبب يعدل كل الاطفال الذين يسعدون ويزدهرون ويحيون ويشيخون ويموتون ميتة ربهم . وسيظل هناك دائما طفل واحد يموت بلا سبب ، على الأقل . الألم يستحيل أن ينتفي . وفي أعدل الطوباويّات الأرضية هناك قطرة ظلم . وقطرة دم واحدة تجعل كل محيطات العالم آثمة ملوثة مهما بلغ من نقاء ملحها الشفاف .

قالت رامة : ماهذا ؟ هذا عظيم ، جدا . ولكنك تتكلم عن عدلٍ كونىّ ، مطلق ، إلّهىّ ، نحن أكثر تواضعا . نريد عدلاً اجتماعيا ، نسبيا . أكثر مايمكن منه ، ودائما . هذا كل شيء ..

قال ميخائيل : العدالة ليست شيئا إنسانيا . وليس الحب إنسانيا ، وليس الجمال

إنسانيا . هذه أشياء نقية بطبيعتها ، صافية وطاهرة ، مطلقة إذا أحببتِ مادمت قد ذكرت هذه الكلمة . أما كل ماهو إنساني فهو ملتبس ، وملوّث ، المشكلة أنني لاأعرف ولا يمكن أن أعرف للمطلق وجودا إلا بما هو إنساني ، إلا بما هو داخل الإنسان . ولكن شهداء العالم الذين بلا اسم سوف يظلون يسقطون ، عن رضى وطواعية ، والجلادون سوف يظلون يسقطونهم ، عن متعةٍ أرضية أو باسم مطلقٍ ما ، أيضا ، مطلق يرونه أعلى من كل الآثام والجرائم .

قالت رامة : أعرف ، أعرف أيضا أن الفرد ليس هو صانع التاريخ . تعلمنا ، من زمان ، كما قلتَ ، أن عمل الناس ، العمل الجماعي هو الرد الوحيد . هل تأتي الآن لتعيد لنا هذه الأبجديات . ولكني أعرف أيضا أن الوضع يتغير ، أنظر .. أنت الذي تمجّد الفرد ..

فقاطعها ميخائيل : لا أمجّده ، بل أعرف فقط أنه ..

فقاطعته بدورها : بل تمجّده ، نعم، ولا ترى غيره في نهاية التحليل، ومع ذلك فها هو ذا الفرد الآن مطالب بالعمل ، مادامت الجماعة صامتة ، أو مخرسة ، غائبة أو مُغيّبة عن الحل . ليست النظريات القديمة صحيحة إلا بقدر مانغيّرها ، حسب الظروف الجديدة ..

قال ميخائيل : ما أصح هذا .. نعم ، على مستوى ما . ولكن نغيرها في أى اتجاه ؟ في أى اتجاه ؟ .

قال أحمد : الرجل هنا هو الرمز .

قال ميخائيل : الرمز تجريد . الرمز فكرة . لا يمكن أن تقضي على رمز وعلى فكرة . ماتقتله ليس الرمز بل الرجل ، مهما قلت .

قال أحمد : أنت الذي تتكلم عن المطلق ، تنكره . أما أنا فلا أعرفه . المطلق عندي شيء غيبي ، وغير علمي على الأقل . في مقابل هذا المطلق العلوي الذي به القانون العلوي ، والذي يرجع - ويرجع بنا - إلى غيبيّات وسيطيّة عفى عليها الزمن، فليس عندي إلا الإنسان الذي صنع مصر ، الكادح الذي صنع هذه الأرض وأسلس للإله النهر مجراه ، هو الذي صنعه . وهو الذي صنع المطلق ، وليس العكس ، أول ماصنع . هذا الإنسان اذن هو المطلق الوحيد الذي تُسدَى اليه العبادة - إذا صح هذا - لأنه هو الذي يصنع ويغير الأرض والمستقبل ، نفسه ، بحرية ، ووفقا لقانون التاريخ . والتاريخ إنساني ، ليس علويا ، كما يُفهَم منك . لا .

حتمية التاريخ ، حتمية القانون العلمي ليست مطلقة ، طبعا . المستقبل لنا ، ولن نسمح لأحد ، لأى أحد ، أن ينتهك المستقبل أو حتى أن يعوقه . هذا العمل إنما هو من أجل تحرير المستقبل ، من أجل تحرر الإنسان ، من أجل العدل الإنساني . المطلق عندي ، هو فقط العقل الإنساني . المطلق يجد سياقه في التاريخ ، ليس خارج التاريخ ، في هذه الأرض وليس فيما قبلها ولافيما بعدها .

قال ميخائيل : صحيح ، صحيح . معك أنا في هذه الجملة الأخيرة . ولكن ألا ترى ، ألا ترون ؟ كلامك عن حتمية التاريخ ، حتمية القانون العلمي ، أليس هذا مطلقاً جديدا ، يتسرب إليك تحت أردية أخرى ، وممزّقة جدا لو سمحت لي . مطلق أرضيّ وقاصر ، وله وجه مظلم قاتم أيضا .

قالت رامة : وهل تتصور أن ثم سعادة وبهجة في أننا نقوم بدور الجلادين ؟ ولكن الجلاد هنا له وجه البراءة الكاملة ، الجلاد هنا هو الضحية . وهو الذي قَبِل الموت . الموت للقاتل وللبرىء معا .

قال ميخائيل : باسم أى براءةٍ يُرتكَب العنف .. !

قالت رامة : العنف سائد . يتفشى في كل شيء . في كل مسام حياتنا . ليس العنف غريبا ، ولسنا نحن الذين نصنعه . أنت قلت مرة أن كل نَفَس نتنفسه يتضمن العنف والقتل . أى انكار لهذا هو مرة أخرى تواطؤ معه . العنف من أجل القضاء على العنف ، حتى هذا ، على ضرورته ، ليس كافيا . لكن العنف من أجل الحب ، من أجل الإخاء ، من أجل الحرية والعدل ، هذه ديناميكية ضرورية . لم أصنعها . لم نصنعها نحن . فُرِضت علينا .

قال ميخائيل : ما أشد عذاب هذا . هذا صحيح مرة أخرى ، صحيح . ولكن كيف .. كيف نفصل بين العنف الذي هو نفسه من قانون الحياة ، وهو بهذا المعنى خير ، والعنف الذي هو من صنع أيدينا نحن ، بلا ضرورة .. هذه هى حجّتكم أنتم .العنف الكوني والعنف الإنساني شيئان مختلفان . كيف نفرق بين العنف من الناس ، على الناس ، وبين العنف الواقع على الناس من خارجهم ؟ لأن الناس مولودون من أجل الموت ، والألم ، والمرض ، مهما استخدمنا المبيدات الحيوية ، والجراحة بالليزر والذرّة ، مهما أنفذنا العدالة والإنصاف ؟ ولكن أن نقتل ، نحن ، بأيدينا ؟ كيف يكون العنف هو صرخة كل مافي داخل الإنسان ضد الظلم ،

كيف يمكن أن يكون سلاح العدالة ، سلاح الحرية ؟ ألا ترين التناقص الأساسي ؟ كيف يمكن أن يكون العنف أداة للقهر ، باسم عدالة وهمية ؟ العنف الإنساني معناه القهر ، مهما كانت التبريرات .

قال أحمد : نحن نقبل أن نكون مقضياً علينا ، من البداية . نحن نرفض الارتباط بأية عاطفة شخصية ، نحن نفصل بين الحب الشخصي والكره الشخصي من ناحية ، وبين الحب العام ، الإنساني ، الذي هو نفسه قانون التاريخ .

قال ميخائيل : وهذا هو الذي يؤدي إلى نتيجته الحتمية ، أن الدولة ، الجهاز ، اللجنة المركزية ، المكتب السياسي ، ثم الزعيم الذي تتجسد فيه قوانين التاريخ ، يغتصبون لأنفسهم الألوهية . من قبلهم الفرعون الإله ، والكاهن الإله ، والعراف الإله ، والكنيسة التي هي جسد الله السرّي ، والكرادلة ، والطاغية ، كلهم ، ماداموا هم السلطة ، فهم قد اغتصبوا الألوهية . لكن الألوهية لايمكن أن تُغتصب . وباغتصابها يصبحون أقل من الإنسان ، أو أكثر من الإنسان ، كما تشاء ، ولكنهم يدّعون الخروج عن السياق الإنساني وهم في قبضته . ألا ترى ؟ إذا كان العدل مطلقا — وإذا كانوا هم الذين يرونه وينفذونه وحدهم ، وفقا للقانون المطلق ، أي قانون ، فإن الحرية تنتفي . الحرية تُسوَّى بالقهر المطلق تحت اسم العدل المطلق . كيف نعرف أنفسنا إلا إذا عرفنا أن العدل ، والحرية على هذه الأرض ، ظلال . وأنها لذلك وحده جديرة بأن نعمل من أجلها ، في تراوح النور والظلمة . النور التام هو العمى التام . والحقيقة الحكر ليست حقيقة .

قالت رامة : يعني أن نيأس ؟ أن ننفض اليد ؟ أن نخون ، مادام كل شيء نسبيا ، مادام المطلق مستحيلا ؟

قال ميخائيل : بل يعني أن نعرف — وأن نعمل من أجل ألا يكون هناك جهاز أو تنظيم أو عقيدة مطلقة الصحة ، مطلقة العدل وبالتالي مطلقة القهر ، ساحقة ، وكاذبة . يعني أن نقاتل بالأسلحة الوحيدة الحقة ، أسلحة الإقناع وقبول الحدود من أجل تجاوزها وتوسيعها ، في نور اليأس العارف الصاحي الذي له وحده وجه الأمل الممكن الوحيد . يعني أن العمل السياسي ليس عملا عقيديا ولا يمكن أن يكون . بمعنى العقيدة التي تملك وحدها سر الحقيقة وسر القانون .

قالت رامة : نحن هنا لسنا بإزاء سياسة، ولا بإزاء فلسفة أو عقيدة ، مؤقتا . هذه اللحظة من حياتنا حاسمة . وتتطلب العمل الفذ الذي يتجاوز النسبية ، الذي يضع كل شيء في الميزان .

قال ميخائيل : ليس في هذا المجال عمل بهذا المعنى . عمل مطلق . ليس هناك عمل مطلق من الأصل . كل عمل ، باعتباره عملاً ، هو نسبي وزمني . المطلقات لاتجد صورتها في العمل ، أبدا . هذه هي مفارقة الاستشهاد ، التي لاحل لها .

قال أحمد : هذه مجرد طوباوية . هذه مثاليّة تلعب في أيدي أعداء الإنسانية أنفسهم ، وتخدم ، موضوعيا ، كل ما تزعم أنها ضده .

قالت رامة : الثورة ليست عاطفية بل علمية . ليست من باب الرحمة ولا الأُخوة المجردة ، بل من باب الضرورة ، والمشاركة في إنفاذ القوانين التاريخية حتى تتحقق . ومع ذلك فإنها هي القيمة الوحيدة ، لأنها تتضمن كل القيم ، لا لأنها تنفي كل القيم . قيمتها كلية .. العنف مبرَّر ، بل ضروري ، لأنه الوجه الآخر للرحمة والأخوة والانحياز للمستضعفين والمحبة ، كما تقول . القتل الضروري هو نفسه الحب الضروري ، مادام على استعداد لأن يكون قيمة مندمجة في القيمة الكلية ، مادام على استعداد للتضحية بنفسه . الثوري عندما يضع ذلك في داخل القيمة الكلية التي تحتوي كل شيء فهو يحقق ذاته في الوقت نفسه الذي يحقق فيه حركة التاريخ ، والإنسانية كلها .

قال ميخائيل : هذه القيمة الكلية تنتهي في الواقع ، عمليا ، إلى أن يصبح الثوري نفسه ، وطبقته ، وشعبه والإنسانية كلها مجرد أدوات ، مجرد عناصر في تركيبة تجريدية . ليس هنا إلا ماهو عناصر في معادلة حسابية ، حدود نظرية في فكرة مجردة ، ولكنها أفظع ، وأرهب ، لأننا هنا بازاء ناس ، حيوات ، حقائق أساسية عينية ، حيوات متحققة ، وليس أدوات ولاعناصر ولا كميات . هذه القيمة الكليّة تتحول بالضرورة إلى سلطة .. والسلطة لاتوجد إلا في أيدي أفراد، أجهزة مكونة من أفراد، قوة مطلقة مخيفة وقاهرة لايمكن أن توجَد إلا بأن يملكها أشخاص بذواتهم ، أو شخص بعينه ، أو جهاز هو ليس إلا أفرادا ، واحداً واحداً ، يملكون القهر لأنهم يملكون القيمة ويملكون الحقيقة . ألا ترين هذا ؟ ألا نرى هذا من حولنا ؟ السلطة هنا بالذات تردٌ مروع إلى تمجيد بل تأليه الفردية باسم نكران الفردية ونكران الألوهية .

قال أحمد : إذا كانت الثورة هى القيمة الكلية ، وضمانها هو قوانين التاريخ الثابتة والمحققة بالطريقة الوحيدة التي نعرفها ، بالعقل وكل أدواته وترسانته ، فليس هناك إلا واجب واحد ، واجب الولاء لها . واجبنا الآن أن نطهر أرض الوطن ، أن نطهر الشعب من غير كبرياء ، بل هبة متواضعة. هذا هو فعلا إنفاذ للقيمة العليا التي تجبّ كل القيم . هذا ، باللغة التي تحب أن نستخدمها ، هو المطلق .

قال ميخائيل : ولكن المطلق ، كما تقول أنت ، في داخلي أنا ، ليس خارجيا عني . و« أنا » ، هذه معناها أنت ، وهو ، وهى ، كلنا . نحن لسنا مجموعا حسابيا ، صحيح ، وكل « أنا » تظل وحدها في النهاية ، المجموع هو المصالح والتصالحات ، هو التصارع أيضا والتوافقات ، هو تناقضات الأهداف وحل التناقضات ، أما أنا ــ « أنا » بهذا المعنى ــ فلا أعرف إلا نور اليأس المطلق ، ولكنى أعرفه ، في داخلي ، ليس غائبا عنى ، أعرف هذا النور من داخل الظلام ، يعنى ، ليس ثم شمس كلية . شمسي ، شمسنا كلنا ، ملتبسة ومحاصَرة ولكنها ليست من جراء ذلك بأقل سطوعا ونفاذا . سطوعها هو الوحيد الذي أعرفه .

قالت رامة : في مقابل القهر الجماعي لانفعل إلا أن نزيل مصدر القهر ، وليس التعلل بأفكار سامية عن الإخاء الانساني ، والحرية الانسانية . لا . الحق الوحيد في مقابل هذا البطلان هو أن نضع نحن قانون العدالة ــ قانون الحق ــ موضع التنفيذ ، وأن نرسى ، بعمل واحد ، مدوٍّ ، مهما كان غير نهائي ، قانوناً جديدا ، أعدل ، وأحقّ . الموت مقابل الموت ، ببساطة . بل الموت من أجل الحياة . هذه هي قوانين الحق .

قال ميخائيل : بدأ النقاش يدور حول نفسه . ما تسمينه قوانين الحق هو في الواقع نواة قوانين الجهاز ، قوانين السلطة . لا أحد ينوب عن الشعب . لا أحد يملك الكلام والفعل باسم الشعب . أليس هذا هو أول البديهيات ؟ ماتسمينه قوانين الحق هى القوانين التي لا تعرف الإنسان ، ولا الشعب ولا الطبقة حتى ، بل تعرف تجريدات ، ومعادلات ، وحسابات . القوانين التي اعتنقها قديسوها ، من روبسبير إلى دچيرزينسكي ، وجعلوا منها لا قوانين عدالة بل قوانين إيمان . القوانين التي باسم عدالة الثورة ، اجهضت الثورة ، وباسم الملايين قتلت الملايين . كل هذه الشجاعة ، كل هذا الاحتراق من أجل العدل ، ليست إلا صلف القديسين ، ولابد أن تسقط في أيدي رجال يطبقون نفس المبدأ ، ويُنفذون نفس القانون ، ضد الأخوّة وضد الناس .

من ذا الذي يحكم حكماً نهائياً بأن هذا عدالة وهذا جور ، هذا من الشعب ، وهذا عدو الشعب ؟ مَنْ عنده الميزان الذي لا يخطىء بأن هذا حق وذاك إثم ؟ من يعرف الحقيقة ، ومن يفسر العقيدة ؟ العنف دائما هو سلاح المطلق ، أيا كان المطلق . أما التسامح ، والاحتكام إلى قوانين وضعية ، إنسانية ، متغيرة وقابلة للتغيير ، بمجرد الاحتكام إلى الأغلبية والديمقراطية ــ وقوة الديمقراطية أنها ليست مطلقا ، بل هى نسبية العقل ــ فهو الملاذ الوحيد . السياسة ليست دينا . للمطلق ميدان آخر وسياق آخر ، المطلق ، والكليّ ، والقيم العليا هى في النهاية أمر شخصي جدا وحميم جدا ، وليس سياسة .

قالت رامة : أنت تعطي السياسة هذا المعنى المبتذل الذي أعطته إياها أحزاب الباشوات في عصر الليبرالية المصرية . « لعن الله ساس ويسوس .. » إلى آخره . نفس المعنى الذي يريده لنا أن نفهمه الاستعمار وأجهزته الأيديولوجية . السياسة ياحبيبي هى الحياة كلها ، هى العمل الوطني إذا شئت ، والعمل الطبقي أساسا ، بل هى أنفاس الحياة نفسها ، من لقمة العيش حتى ممارسة الحب ، السياسة تدخل بل تتحكم في كل شيء ، من قبل أن نولد حتى نموت .

كان أحمد قد سكتَ ، من زمن ، وخرج من النقاش . كان ينظر إلى الغيطان ، صامتا ، جامداً حول قرار داخلي لا يهتز ، وإيمان داخلي لا يهتز .

قالَ ميخائيل : نعم .. لن أختلف ، بمعنى ما . ولذلك بالضبط فهى ليست عقيدة . وليست هى ما يتناول المطلقات أو يتعامل معها . وليست الحقيقة مجالها . ليست القوانين الكلية المتعدية هى التي تحكمها . هى صنعة تسيير الحياة . مجرد صنعة ، مهما كانت تؤثر على كل مجريات ا لحياة ، هى فنّ النسبية ، وضرورة الاحتكام إلى النسبية . الديمقراطية هى النسبية أليس كذلك ؟ وليست فرض القانون الكلي ، باسم الحقيقة الكلية .

قالت : نحن نفعل هذا ، إذا شئت ، من أجل الديمقراطية ، والبلد التي أحبها كثيرا . كثيرا . من أجل الحب القادم ، إذا كنا نفتقد الحب الآن ، إذا شئت .

قال :أنا أعرف أن كل هذه المجادلة ليست طبيعية .. وليس طبيعيا أن تحدث ، حتى ، ونظريةً جدا . مامن غنى عن النظر مع ذلك ، ما من غنى . ولكن ألا ترين معي أننا ننسى ذلك

الجانب الآخر من واقعنا . نفس هذه الحجج ، نفس هذا الموقف ، نفس هذه الشجاعة ، نفس هذا الاستعداد للاستشهاد ، نفس هذه البراءة الكليّة ، هي التي تحرك تلك الجماعات التي تتحرك الآن بالفعل ، العنف والقتل هو الشكل الوحيد لإيمانها الكليّ . الرفض ، والإنكار لما يطلقونه مطلقا غيبيا ، يسمونه الجاهلية . الثورة عندهم هي هذا ، هي العمل الفردي ، المستند فقط إلى قانون علويّ ، مسطور منذ الأزل وإلى الأبد ، لا يلحقه ولا يمكن أن يلحقه البطلان . الثورة عندهم كما هي عندكم هي هذا ، فقط مع اختلاف نوع المطلقات . المطلق عندهم هو الماضي وعندكم هو المستقبل . كلاهما حلم مستحيل .

قالت : بل أنت الذي تحكي عن حلم مستحيل ، فيه شريان عقلانيّ وشريان مسيحي ، ملتبسان ، كما تقول . بل أكاد أقول ـ لولا أنني أعرفك ـ إنه حلم التواطؤ مع القَتَلة . أنت تحكي عن حلم مستحيلٍ بقدسيةٍ ما وحرمةٍ ما ، لايمكن أن تُنتَهك ، للجسم البشرى ، مهما كان ، وأيا كان . أنت تقول ، باختصار ، إن القتل ، والعنف ، أى عنف ، لامبرر له ، وجريمة . هذا مستحيل ، أنت الذي ذكّرتني بحكايةٍ من ألف ليلة وليلة ، الرجل الذي قعد يأكل تمرا تحت نخلة ، أهناك فِعل أشد براءة من هذا ؟ أن تأكل تمرا ، في الخلاء ، لأنك جائع ؟ ولكنه عندما رمى نواة الثمرة وقعت على طفل الجنّى ، غير المرئيّ ، فقتله . قتله بمجرد أن لفظ نواة الثمرة . وعوقب . كان لابد أن يعاقب .

قال : دعكِ من هذه الحكاية . الوعى ، القصد ، هو المعيار ..

قالت : أنت تقول هذا ؟ أنت الذي تعاقب على اللاوعى ، وتدين آثام القلب نفسها ، ولاتعرف عنها تكفيراً ، أبدا ؟

وكان هذا هو الباب المسدود .

ليس مسدوداً عليّ أنا ، ولا علينا نحن الاثنين ، بل علينا كلنا ، نحن المحاصَرين بصحرائنا ، متشبثين بقشرة أرضنا الناعمة ، محتشدين نلتصق ونصطدم ونرتطم ونتعلق بأحدنا الآخر ، كالذباب ، بجدولنا العريض المريض المدجّن الداكن الخضرة الآن ، فقد سطوته وذكورته ، يعضّ بنا ويكاد ينهار الجرف الذي طالما وشّيناه بالتعاشيق والمعاشق وشطحنا منه إلى الشط الغربي

وأقمنا على حرفه الصروح بينما صخرةُ يميد ويتحلل، أرضه الآن بلا رحمة ، نطرد منها الهداهد كما طردنا الإيبيس القديم نطفىء أفرانها الصغيرة الوديعة لنشتري الخبز الأجنبي الميّت ، ونتركها للبواشق والقتلة لكي تبوء بالبوار والمبيدات التي تنتشر بينها الأسلاك والبطاريات ومَكَنات صناعة النقيق .

يا إيزيس هل جف نهدك يا إيزيس ؟ أحقا نضبتْ حلمتهُ ؟
بل قوتك وخصوبتك وحنانك ، لاتغيض .

حطام حجارة الحيف ، والبواشق صفيقة المناقير تنقضّ على الأحلام المذبوحة ، واحتكاك محركات المرسيدس والبيجاسوس — في جِرَانٍ وحميمٍ آن — بالحديد والأسفلت المحروق ، زحام الهموم والهدوم والأطراف المنهوكة بين عواء الأبواق وبصاق السباب المجاني وتدافع الأجرام والأجسام تحت انذياح الجرائد المدمّاه بجرم قابيل الذي يقصف بالبازوكا والكلاشينكوف. مقابل القنابل العنقودية وحرق النابالم المدفون في العمق وانطلاق الصواريخ كالبروق المُنْعَقّة الثقيلة من منجنيق القلق المشقوق ، وعجيج الأوناش والبلدوزرات تقيم الصروح بينما يصطلي على الفحم الشحيح صعايدة أسيوط وسوهاج المحرومون من سوقِ النخاسة في ليبيا والكويت ، حيتان الانفتاح تتدحرج إلى أفواهها المفتوحة محاصيل الوادي الحزين وحصاد التراث وحضارة المواويل وطِحْن الجسوم والعقول ضمائر رؤساء التحرير ، وفي الحرم الجامعي ، محطة فسيحة ، وحيطان الحرمات تتحطم ، وأجساد النساء والرجال تشري وتباع في مسارب الشقق المفروشة ذات ربع المليون . ووطء الحصون الأحشاء وسحْق جِرْزها الحريز لتحسين نسل كمبيوتر الصناعات والمخابرات الحاذق الحصيف ، واستثمار تروس الروبوت كاستغلال حدقة قلب الانسان سواء بسواء في سُعار السماسرة وفُحش الوسطاء والكومبرادور . ليس نوستالجيا لمصرّ وهميةٍ بل استيحاء للبذرة المخصبة أصل الاشياء . لقد سقط ست غريم أوزيريس ألم يسقط ؟ وصعد مارِ جرجس إلى صهوة حصانه وانحسرت مجازر البيزنطيين واستحصد إيمان الرهبان الأورثوذكس القديم في صحراء سقّيط وانقصم الجُباة الأمويون والعباسيون ، أعمدة بن طولون السامقة الوثيقة قائمة ، وبروج المماليك . وانجابَ جدبُ العثمانيين . شهداء دقلديانوس باسم المسيح وتحت شارة الصليب في صلصلة النواقيس ، والتجريس بتحميلهم شعاراً بوزن خمسة أرطال وتوجيه وجوههم صوب كفل البغال والحمير وهم في المسوح السوداء والعمم السوداء . ونصوع الجدل السفسطيّ وشرح الشروح

والحفاظ على الكنوز عند الشافعي والقلقشندي وابن منظور على العرصات المطهَّرة المفروشة بالحصير ، أمجادك ، يا إيزيس تستعصى على الاحصاء . الدم المسفوح من أجل التنوير والتحديث على السهول والسهوب ، من براري القوقاز إلى أحراش المكسيك ، ومن صحارى نجد إلى ضفاف النيل في السودان ، أول وآخر أوبرا وأول وآخر دستور في الشرق ، جمجمة جحافل الذاهبة أنفسهم ، والذاهبة أنفسهم حسرات ، تحت سنابل ديلسبس وسعيد وإسماعيل ، والمحتضرون يتحيَّفهم الجِمام في سخرة القطن وسخرة الترعة . وبوارج الانجليز صقور متجردة الأنياب والأظفار . وتجمُّد نوّار الضلوع المُزْجاة أمام المحالج والمغازل والمناسج وفي أقبية المصارف المصقولةِ الرخام . العيون الجافة والصدور الجافة تتسرب إلى مدن الصحاري الجديدة وتستبدّ بها سورات سردِ الأساطير المصطَنعة سيئة النوايا تتراقص في سفاهة المسلسلات على الشاشات الممسوحة وعجيج الغثاء الاليكتروني البذىء في كل حوش على كل مصطبة في كل قاعة على طول الوادي المسحوق ، حمأة المنيّ الشحيح الممتزج بوهيج الغِلّ المحبوس ، ينفثىء في الحشيش ونفث الدخان المعسل الأجش والسعال الذي يأتي بالدم من الطحال المهروس بالبلهارسيا والكبد المقرّحة من سمادير الخَدَر والكدح والتطوّح في مطارح الطموح المحبوط . لكنك يا إيزيس ، كما كنتِ في القديم ، صارمةٌ وحنون ، تدوسين العقارب بقدميك الطاهرتين العاريتين وابنك زوجك أبوك حور محلّق بجناحيه عليكِ إلى أبد الآبدين .

الباب الثاني عشر

أشواق الصبار الوحشية ، فات أوانها

كانت الساحة مزدحمة وبهيجة ، تحت المئذنتين الناحلتين برشاقةٍ فيها نَفس بيزنطي، وكل الدكاكين مفتوحة ومنيرة ، الكتب الجديدة والقديمة في الواجهات الزجاجية ، مفروشة على موائد على الرصيف ، والجلاليب البلدي الرجالي المخططة والسادة ، والقمصان الحريمي الملونة والمشغولة بالسلك والترتر المهتز ، معلقة من خطاطيف كأنها لحم مفرغ ، والجموع تزحف ببطء ، متلاحقة ومتلاصقة بين عربات السندوتشات ودكاكين الفول والطعمية وباعة البخور والسِبَح ، والمَقْلَى الفواحة برائحة اللب والحمّص المحروش الذي تنزلق حبّاته على الصينيّة السوداء الساخنة المائلة على الفرن ، ومحلات النحّاسين والجوهرجية والورق الدشت . وكانت تسبقه ، أحيانا ، في الزحمة ، ويكاد يفقدها ، فيدافع الناس بصعوبة وهو يضغط نفسه بين الأكتاف والأجسام حتى يلمح ظهرها القوى الملىء فيلحق بها ، ويمسك بيدها الرخصة المليئة ، والميكروفونات تدوي بالتراتيل . القفاطين الناحلة والعمم السوداء والرايات الخضر تخفق وترفرف في هواء الليل المنير وقرْع الأجراس وضرْب الصناج والمدائح بأصوات نسائية مبحوحة ومليئة بأنوثة خشنة ، في هذه الساحة وفي قلبي تراكب أجساد كل الأعياد المقدسة والمجدِّفة عبر كل الأزمان ، والأهازيج بأمّ النور على إيقاع أجشّ ، والنداء من صدورٍ غضةٍ ، كيريا ليسون كيريا ليسون ، تتضرع إلى سيّد شباب الجنة وسلطان الشهداء ، والمرأة الشابة بجلباب بلدىّ رجالىّ تظهر من ياقته حمّالات القميص البمبي الرفيعة وهيَ تحمل فصوص اللبان المصْفَرّة الهشةِ الحَجَر في يديها العاريتين وتنادي اللِبان بصاغ ، على المدّاغ ، في اتجاهٍ واضح ، وطسوت الفتة وهُبَر اللحم الضأن بالخل والثوم ، وتمايل الصوالج المشعة بالأقواس المفضضة بينما الزجاج المدور يلمع ويومض فوق الوجه المُحِبّ الحزين المكلّل بتاج الشوك ، والمسوح السوداء ، وخبطة الطبل العريض تُردّد اسم الله ، وخَفْقُ الرؤوس الثملة ثابتُ الاهتزاز ، والطيالس البيضاء المطرزة بصلبان الذهب ، والرقص بأجسام سمراء محروقة واهتزاز النهود الضيقة العارية والضفائر الجَعْدة المجدولة تحت قدم الإله الضخمة الأصابع وبدنه الجرانيتى سامق في أعالي الأعمدة المدورة المعتمة الجِرم ، والشفاه الجافة تنسحق على الشبّاك وتهمس حارة بالأشواق والحسرات والمظالم التي لاتنقضي ، والأيدي تمسح الوجوه باستغفار وتوسل ، وارتطمت فخذها اللّينة به وأحس دورانها الباذخ لِصق ذراعه ورفع يده يحيط بخصرها المستدق الملىء يوجّه خطواتها ويحميها ، والإبحار في الفلك الصغير حتى الرسوّ في البركة المربّعة ، والغطس بعد الوسم بالزيت المقدس في الجرن الرخامىّ ، والمياه والتمتمات تطسّ الوجوه والأيدي والأقدام وتمسح ما وراء الأذنين ، ونقطة النبيذ الأحمر حلوة على طرف اللسان بعد اللقمة الطيبة الرائحة من القرص المخبوز المنتفخ بخميرته كلوا واشربوا هذا لحمي المطعون وهذا دمي المهراق ، وبخور النّدّ والصندل والجاوي تتلوى بعبق حرّيف في رائحة الشمع والدهن المصفّى

الخفيف ، أبواق السيارات وجلجلة أجراس العربات وصلصلة الرماح تصطدم بالدروع ، ونظرتْ إليه بعينين مزدحمتين بالبهجة والطلب وقلق التشوف في نظرتها صرخة النفير النحاسيّ ، الأحزمة الخضراء العريضة والمفاتيح الرصاصية الضخمة والأطواق وسلاسل الرُقَى الطينية اليابسة والاحجبة المكتوبة بماء البصل والجعارين المنتفخه البطون .

كانا يزحفان الآن معا ، وسط الجموع التي لامنفذ منها ، ساقه تحس ساقها العبلة الدافئة تحت الجيب المنسدلة عليها من غير إحكام ولكن من غير سعة وهى تقف فجأة ، في غمار الزحام ، أمام عربة البطاطا ، الفرن الأسطواني بحديده السخن إغراؤه واضح ومباشر ومدخنته القصيرة يصعد منها دخان أبيض رقيق ، وهمست له : الله ، البطاطا السخنة . منذ كم لم أذقها .. تعالَ ، تعالَ ، وهى تَلقُط حبّة البطاطا المنبعجة الرقيقة الجِلْد وقد حمشت النار طرفها وتقطّر الرحيق الداكن ، ونبت ، على القشرة التي تكشف جانباً من اللحم الكهرماني الفاتح والبائع يقول : عسل ، والنبى عسل . وهى تبتسم له في امتنان التواطؤ الصريح .

السرادق المنسوج قماشه من خيوط اليأس العريضة ونقوش الخياميّة الملونة بالتحدي الزاهر ، مضروباً على الحصير وبلاط الرخام في الصحن الواسع تحت القبة الشامخة ، والخفافيش التي تصأى بصوتها الثاقب القصير في مسقط المنار الحجري الشاهق المربع الحيطان ، ونجوم نوت العتيقة أمّ الأرباب تومض على الشرفة الخشبية الضيقة التي تستدير حول أضلاع القبة تطل ، من سياجها النحيل الأعمدة على الهيكل وصوَرِه المتزاحمة بوجوه مسلوبة في فنّ الملكوت ورهبة الجلجثة والمجد المتجمد أبدا في داخل إطار مفضض عريض والبشارة المعلقة أبدا في الزمن لاتتحقق ولاتنحسر ، وتمايُل الرأس المعصوب بشعره الخشن والبطن المكوّر الأملس والأرداف الغنية تحت القَمْطة المحبوكة مع دقات الصاجات وقرقرة الماء في بطن الجوزة المقوّرة الصغيرة تقبض على الأنفاس وتطلقها براحة النسيان وامتلاء الدماغ بهدنة الليل الحبيس ، والهداهد الرشيقة الخطى بتيجانها المفرودة تنقر ، في الليل المشع ، حَبّاً لا يُرى من فوق أحجار الأسوار العريضة ذات الأبواب الحديدية المنقوشة المغلقة ، والإبر المُضَمَّخة تنقر على الأذرع الصلدة وجوانب الجباه الصخرية والصدور المجوفة البارزة الاضلاع أسوداً تُشهر سيوفها القصيرة التي تشق صفحة العالم ، وصلباناً لها أغصان مورقة خضراء ، واسم الله بمآذنه الصغيرة تطعن الجِلْد ولا تمّحي والصقر الذي يحمل السماء على جناحيه . .

كانت قد قالت له : أنا لك ، في أى وقت ، في أى مكان .

وكانت قد قالت له : لا تلقِ بالاً إلى ما أقول ، بل إلى ماأفعل .

ولم يقل ، عندئذ ، إن الكلمات عندها ليست مطلقة ولا مطلقة الصحة ولا تعنيُ عندها شيئا إلا في سياق الفعل .

أما هو فقد كانت الكلمة عنده ـ وماتزال ـ هى الفعل ، أو على الأقل لها قوة الفعل .

لم يقل إن الصيغة الحق عندها ليست كاملة لأنها فِعْل ، متحرك ، متغير ، وليست كلمات ، لذلك ناقصة دائماً بالضرورة .

أما هو فعنده كانت ـ وماتزال ـ الحلم ، والإيماءة ونبرة الصوت ، كلها ، فعل لا نقصان له .

وفي أعمال الترميم الأثري للأعمدة والجدران ، وفي إقامته لها ، كان حرصه على الكلمة المنقوشة والحرف البارز أو المنحوت ، بقدر حرصه على سلامة المعمار .

ولم يقل : « أنا لك ، في أى وقت ، في أى مكان » ليست صيغة للمستقبل ، ولا تعِدُ بشيء ولا تتضمن التزاماً في الزمن ، بل هى صيغة اللحظة التي قيلت فيها فقط ، تؤكد معنى اللحظة التي صيغت فيها فقط ، لا معنى ماهو قادم . هى تقول « أنا لك الآن ، لذلك يمكنني أن أقول لك : « أنا لك في قادم الازمان » فقط .

لم يقل .

بل قال : الماضي والمستقبل عندها ليسا إلا بُعديْن وصيغتين ، وخصّيصتين من الحاضر فقط ، لا وجود للماضي ولا المستقبل عندها خارج اللحظة الحاضرة ، وبهذه المعنى هى حقاً واقعية وعلمانية .

أما أنا فأومن ، كأنما رغما عني ، بالبعث والتكرار الأبدي .

ومسيحيّ أيضا ، كأنما رغماً عني ، لأنني أؤمن بأن ملكوت السماوات - مهما كنت أحماه في دخيلتي - فهو مايزال بَعد ، على بُعد متناول الذراع ، قريب جداً من ناصية الشارع القادم ، عند مطلع الصبح غدا ، حتى ولو كان هو الكائن قبل الدهور والباقي دائما ، ملكوت أرضيّ وليس من الأرض يحدث مرة واحدة ، ويتكرر بلا انتهاء .

وقال : إلا انني وضعت حياتي كلها ، فيما أظن ، في نقوش ورسوم . لاأملك ، حقاً ، إلا الورق والمساطر والصياغات ، معادلات وتخطيطات ، مساقط رأسية وأفقية وكليّة ، لا أمسك بيدي عجين الأسمنت ولا أنحت بأصابعي حَجَر الحياة ، بل أنقش فقط الرموز .

قال : هذا تبسيط مخلّ .
وقال : أنتِ نقشت صورتك ، ومعمارك في داخلي ، أنا لم أخطّ شيئا .
قال : هذا أيضا مجرد نمنمة .

كانت قد قالت له : كل شيء عندك يدور هنا ، في الرأس .
قال ، بتسليم : لا رأس لي ولا قدم على الأرض .
قالت : غير صحيح . ألا تريد ، أبداً ، أن تصحح أوهامك عن نفسك ؟
قال : أهذا تقديس للجسد ، لا مبرّر له ؟ لأن الحكاية لا تساوي ؟
قال : الحب الذي مازلت أحلمه ، وأخطّ نقوشه ، لا وجود له ، والمعرفة مستحيلة . حلم أنشب مخالبه مع ذلك ، ومهما جاهدته ، لا يُنتزع .
قال : التوحّد معها بالجسد مطلق .
قال : المطلق ليس جسديا .
قال : يحترق قمركِ في داخلي .
قال : وهو حيوان غريب لا أعرف قانونه .
قالت : ضمنّي إليك ، فقط ، لاتقل شيئا ، لاتفعل شيئا أريد أن تضمني إليك فقط .

عندئذ كان حنانه لا يُحتمل ولا يجد صوتا .
وكانت الوردة الواحدة القانية ، وحيدة ، قائمة في القارة الطويلة الزرقاء ، تضرب حمرتها إلى البنفسج الممتلىء وعليها قطرة طلّ صافية مدورة .

قال : هناك شيء ما ، في داخلي ، عميقا ، لم يقتنع تماما بحبك لي ، ماذا يمكن أن أفعل ، وماذا يمكن أنت أن تفعلي ؟ أنت صنعت كل ما يمكن أن يقنعني وزيادة . برهان جسدك وحنوك لا يُدحض ، لا يمكن أن نفعلي أكثر . فلماذا لم أقتنع ـ تماما ؟ مِن أنا هذه الشوكة التي لا نريد أن تُخضد ؟ أم أشواك هدب عينيك اللتين لا أسبرّ لغورهما ؟

الحنان الذي يغمرني منها ، حينما تحيطني بذراعيها ، يوقعني في حبالةٍ لا مخرج منها .

قال ، وهو يمقت نفسه : هل نصيبي نصف سرير وجرعة ويسكي ، قطعة موسيقى وفنجان قهوة ، وقطعة حبّ ؟

وقال على الفور : ما أظلم هذا وما أشد ظُلمته .
ثمرات الصبّار الوحشيّة المتفجرة بالعنفوان .

الجيشان الفوار الذي لا يمكن أن أحبسه لأنني لا يمكن أن أطيقه ، دَفْق تحت الأرض متقلب يمور بالطين والأغصان الساقطة ولفّات الأحراش الحيوانية مغلق عليه بطبقات السدود الثقيلة يهزّها ويهدد باكتساحها في أية لحظة ويكتسحها ، فعلاً ، لحظة ، فيتحطم العالم وينقضّ حواليّ ويتلاطم الحطام ثم يعود إطباق السدود .

أما جمال الشجر والسحاب الأبيض القليل في سماء القاهرة الشتوية ، والنخل ينوس بسعفه الرشيق في نور الصباح ، فهي لحظة أريد لها أن تخلد ، وأن أكون خالداً من أجلها . هذا هو حنان الجمال الذي في وجهك . هو أيضا توق عندي لأن أكون خالداً فيه .

قالت له : أحب أن أسمعك تضحك .. أحب ضحكتك .
قال : أنتِ الفرح الذي لي في هذه الحياة .
قالت : الله يخليك ويطوّل عمرك .

كانا عندما ينزلان من فندق زيزينيا يقطعان الشارع الجانبيّ الطويل الهادىء ببيوته الحجرية العريقة ، حتى ينتهيا إلى حلواني ستافروس العريق . كان المحل دائما خالياً تقريبا ، وفيه سكون

قديم ، وستائر خميفة مسدلة على نوافذه الزجاجية . كانت صاحبة المحل اليونانية العجوز قد آثرت البقاء في اسكندرية رغم كل الأحداث والتقلبات . كانت تأتي إليهما ، بخطواتها القصيرة النشطة تخدمهما بنفسها ، وقد عرفت طلباتهما ، بنوع من الودّ الذي ليس تجارياً بحتاً، تجيئ لهما بالقهوة الفرنسية السوداء واللبن والجاتوه ، وتتركهما لتتخذ مكانها على منصة « الكيس » تنظر إلى الخارج ، بهدوء ، مستغرقة ربما في ماضٍ لا يعرفه أحد سواها . وكان سقف المحل عاليا ، وتحته ، على ارتفاع كبير ، رفّ يدور حول الجدران الثلاثة الداخلية ، عليه أباريق نحاسية قديمة للقهوة والشاي وأطباق صيني دائرية منقوشة بالأزرق ، ومفاتيح حديدية كبيرة صدئة ، معلّقة بمسامير ضخمة ، وفازات زجاجية بيضاء عليها تطارير خُضر مورقة ، موضوعة ، كلها في حنانٍ مستسلمٍ قد قبل الهزيمة وجعل منها جمالاً خاصا ، مخادعا ، ولكنه صادق ولا يطلب شيئا .

وفي ستافروس كانت رامة تستعيد دورها . شهر زاد القديمة ، وتحكي حكايات، كان قد اشتاق جداً إلى حكاياتها ، يعرف إنه شهريار الذي يصدّق ولا يصدق ولكنه نزل عن السيف والنطع ، من زمان . قال لنفسه إن أخلاقيات شهريار ، بإزاء امرأته الغريبة ، كانت ملتبسة ، بينما كانت واضحة وقاطعة قبل أن تأتي إليه .

حكت له أن جدها فوزي باشا ، عم أمها يعني ، كان على النقيض تماما من أخيه الحاج سليمان . كان نَمَطاً للباشوات في أيامه ، تَذكُر وجهه الأسمر الصلب الحدود الذي يخفي طيبة قلب نادرة ، وشاربه ، تماماً كما يقول المثل ، يقف عليه الصقر ، والطربوش الأنيق ، قالت إن الوزراء والأمراء والأعيان كانوا يحتشدون في صالون بيته في الحلميّة ، تحت القلعة ، بحديقته ذات أشجار التوت والمنجة وأيضا التين البنغالي ، والنخل الملوكي ، قالت إنه أبداً لم يذهب لزيارة إنجليزي واحد ولم يدخل بيته إنجليزي واحد لذلك لم يدخل الوزارة أبداً ولا سعى اليها ، قالت إنها تذكر أنها ركبت معه العربة الكوبيه ، والحصانان الرشيقان يدقان بسنابكهما شوارع الحلمية المشجرة الهادئة المضاءة بالفوانيس المربعة الزجاج بالغاز ، ناعمة الضوء ، تلقي بظلال ورق الشجر بين الأنوار على أرض الشارع ، وكانت الشوارع رائحتها نفاذة من روث الخيل على الحجر البازلت المضلع مختلطة بعبق أشجار الحِنّة والياسمين البلدي ، قالت لا أذكر هل أنا الذي كنت في العربة الكوبيه أم أميّ هي التي حكت لي عن طفولتها ، وقالت إن فوزي باشا ، بعد أن شبع من النسوان في آخر عمره ، كانت عنده عشيقة واحدة يذهب إليها عصر كل يوم ، ويقضي سهرته معها ويعود لبيت الحلمية في آخر الليل ، وكان قد كتب لها خمسين فدانا من أرضهم في

الشرقية لكى تترك الرقص ، وكانت ترقص له وحده ، وبقى معهما من أيام الحظ والفنّ طبّال نوبي وعوّاد اسكندراني ، شاخا واستقرا في بيتها الذي اشتراه لها فوزى باشا ، مع قطتها البيضاء وخادمتها السمينة الثقيلة الجسم . وكان البيت في حارة من حواري شارع محمد على ، بدوْر واحد وله حوش صغير جدا وراء سور حديدي ، وفي الحوش نخلة واحدة . وقالت إنها رأت هذا البيت قبل أن يُهدم بعد أن ماتت الأوسطى منيرة من غير وريث ، وراح البيت الصغير لبيت المال . قالت إن زوجته الحاجّة التركية البيضاء الوجه الرقيقة الجلد الرقيقة العظم الرقيقة الصوت ، كانت قد قبلت هذا ، لم يعد أحد يتكلم أبداً عن سهرات الباشا وإن كان الجميع يعلمون أين يذهب كل ليلة تقريبا ، وكان الباشا حصيفا إذ لم يتزوج الأوسطى منيرة وكانت المرأة تحبه حقيقة ، فيما يبدو ، فرضيت بما ارتضاه ، قالت : أترك لك أن تتصور كيف كانت ترقص الأوسطى منيرة للباشا ، وحده ، في آخر عمرها . ورآها لنفسه ، الغانية المُحنّكة بالحبّ والشهوات وقد امتلأ جسمها الآن ، ترقص في تموّج الجسد الشبعان تحت الكلوبات البلورية المشتعلة بالغاز ، مُزخرفة بالحديد الرقيق المشغول حول الزجاج ، والنافذة الكبيرة الطويلة المفتوحة على النخلة الواحدة ، وهناك فقط دقات الطبلة وحنين العود ، وهي تمسك بين أصابعها بالرق الصغير ذى الصاجات ، بإيقاعاته السريعة ، وقد ربطت على بطنها الكامل الاستدارة قمْطتها الحريرية ذات الشراشيب ، وبين الحين والحين ترتفع سنابك خيل عربة تمر بالحارة ، تعلو في خبطاتها الجافة الرشيقة ثم تخبو في الظلام ، والباشا يقرقر بالنرجيلة الطويلة الباى ، المذهّبة الفم ، وقد خلع طربوشه واستراح إلى موسيقى الجسد الذي يعرف كل حناياه ولا يشبع منها . دوران هذا الجسم ، بكنوزه الأنثوية الراسخة ، حوله ، ليس فيه إغراء بل بذْل وعطاء لايرجى له مقابل ، والعينان الممتلئتان بعجين أسود خمران ، والفم المكتنز بلحمه الغاصّ بشهوات منقضية ولا تنطفىء .

قالت له : الباشا مات عندها فجأة ، وهو يدخن نرجيلته ، أحنى رأسه وأسنده إلى وسادة الكنبة الاسطمبولي ، وتنهّد براحة ، مِيتة الأبرار ، ونقله العربجي والطبال ، بينهما ، إلى العربة الكُوبيه ، أجلساه فيها كأنه متعب ، يستريح ، وذهبت به العربة إلى بيت الحلمية ، وتلقّته الحاجة صافيناز بلا كلمة ولا صوت وأرقدته في السرير ، ونامت جنبه طول الليل ، وفي الفجر أيقظت أهل البيت بهدوء وقالت إنه مات جنبها على السرير . قالت إن جنازته خرجت من بيت الحلمية ، ولم تمْش فيها منيرة . قالت إن منيرة لم تفتح بابها لأحد ، ونسيها الجميع ، ولا يعرف أحد ماذا حدثْ لها وظلت مستورة ، حتى ماتت بهدوء ، عجوزاً جداً لا يعرفها أحد ولا يذكرها أحد .

وكانت هي التي قالت : هذه الحكاية جميلة جدا .

خرجا من عند ستافروس ، وركبا ترام الرمل ، وسارا قليلا حتى المتحف اليوناني الروماني .

في رحلته الثالثة إليها ، كانا يجلسان على البساط الكثيف على الأرض في غرفة النوم ، أمامهما كأسان ، يأكلان من صينية عليها طبقان . موضوعة مباشرة على البساط .

كانت قد قالت له إنها ستعمل له باميه خضراء سوف يأكل أصابعه وراءها ، وكان اللحم لم ينضج تماماً وهو يمضغ بقوة ومثابرة ، ولكنها قالت له إنها كانت جائعة جداً لم تصبر عليه حتى يستوي تماما وينعم ، وقالت إنها على كل حال من قبيلة آكلي اللحم . وهما يرقبان معا ، بغياب قليل ، الصورَ المتعاقبة في إحدى حلقات مسلسل فرنسيّ تاريخيّ ، في التليفزيون ، كانا يستندان بظهريهما إلى السرير وقد مد ساقيه أمامه وصينية الأكل بينهما ، وجلست هي على فخذيها المليئتين وكان قميصها الخفيف مفتوحا عن ثمرتيه الناضجتين ، متجاورتين ، وإلى جنبها خشب الدرسوار الصقيل الذي تنعكس على لونه البني العميق ، كأنه مرآة داكنة ، خطفات النور المشعّ اللون من شاشة التليفزيون تتموج وتخبو وتلمع ، وكان يعلق ، وهو يضع كأسه على الأرض ويتناول ملعقته المُحمّلة بالأرز الأبيض السخن ، عن براعة التصوير وانفساح المشاهد الريفية في الشاشة ، وكانت مستغرَقةً تماما في تتبّع ماترى ، أخلصت للأحداث وللحوار الذكي المحكوم كلّ نفسها كعادتها عندما تعكف على شيء ، أى شيء ، فلا يكونُ أدنى ما يشغلها عما أعطته نفسها .

وليس في الغرفة الحجرية العريقة إلا ضوءُ الليل من النافذة الواسعة ، تتخايل المئذنةُ السامقة من إطارها المفتوح على هضبة المقطم التي تومض فيها الأنوار كنجوم أرضية ، وإشعاعُ التليفزيون ، ودفءُ السرير المرتَّب خلفهما .

فجأة دون أن تكون عنده فكرة واضحة مسبقة فيما يخيل إليه ، دون أى إعداد ، وكأنه منذ لحظة واحدة قبل أن يتكلم لم يكن عنده أدنى معرفة بما سيقول ، قال بصوتٍ هادىء تماما محايد تماما :

ـــ رامة ، فلنتزوج .

هكذا ، في لحظة عادية ، هادئة حتى الركود .

نظرت إليه بغموض ، وقد خرجت تماما ، مرة واحدة ، عن استغراقها ، ودون أن تتردد ، كأنما كانت ــ هي ــ تعرف مسبقا ، ومستعدة تماماً . قالت :

ــ أشكرك ياحبيبي ــ ولكن لا ، أشكرك .

قالتها دون غضب ، دون اهتزاز ، وبرفق .

ــ أشكرك لأنك طلبت . هذا غير ممكن .

كانت كأسه نصف مليئة بالويسكي الأصهب يهتز في الزجاج بقطعة ثلج بيضاء قد شفّت حوافيها تذوب على مهل ، السائل السحري أسير ولكنه يَعِد بخفّة الانطلاق ولا يفي بوعده .

ثم قالت : لا تتصور كيف هزّني هذا . لن أنساه أبداً .

لم يتكلم ، وعاد ينظر إلى التليفزيون ، لا يرى شيئا وليس في ذهنه شيء .

قالت : هذا كريم جداً منك .

وعادت تنظر إلى التليفزيون ورفعت كأسها إلى شفتيها ببطء .

كانت فوق السرير ، على جنب ، لوحةٌ من القماش الكثيف الوبر ، فيها ديك أحمر على أرضية صفراء كابية غنيّة اللّمْس ، وعُرفه منشور ، ومنقاره مفتوح بصيحةٍ لا صوت لها . وتذكّر في تلك اللحظة ديك جمال سلطان المنحوت ، المتنزّى كعصفور ممتلىء ممشوق الكَفَل ، يُتلع عنقه الممدود في صيحة مفتوحة لن تسكت أبدا .

كان القرار ونقض القرار ، قد تم ، كله ، في الغيبة .

في تلك الليلة كانت شطحات التوله الجسدي بينهما جَموحا ، لايسلَس قيادُها .

فيما بعد ، قالت له : لاتفعلْ شيئا غير معقول ، مللتُ الكوارث التي تُصنع لي دون أن أعلم وتسقط على كتفي .

قالت : هل توجد في الحب ــ وفي علاقة الحب هذه على الأخص ــ قيم خلقية ؟ هل توجد هنا أو تعني شيئا ــ قيم خلقية ؟

قال : ما معنى هذا ، فعلاً ؟ أهذا هو السياق الصحيح ؟

قال : تقييمات ما ، مثل أن هذا الأمر أو ذاك ، ربما ، له قيمة الصدق ، مثلا ، أو الولاء ، لها مكانٌ بيننا ؟

قال : في قلب هذا التلاحم العضوي الذي يفوق كل شيء عضويّ ؟

قالت : هل الوحْش ينكر نفسه حقا لأنه قاتل ؟ هل القطط حقا خوّانة ؟

قال : أحقا أن هذا النوع من الاندماج ــ في وسط الغربة والغرابة ــ هذا الذوبان الذي يؤكد الذات نفسها مع ذلك ، أحقاً لا يزول ؟

قال : الزائل هو الجوهر ، اللحظة هي البقاء .

قالت : بل أخشى الزمن .

قال : أنتِ ، كلكِ ، في كل أحوالك ، قائمة في مهب الزعازع الهُوج ، وستبقين .

قالت : والزمن ؟ ألا يضرب الزمن كل شيء ؟ أخاف على حبنا من الزمن .

قال : لن يتغير نسيجه ولا قوامه . الحِدّة ، التوهّج ، والتعذيب والسطوع ، لعلها ؛ ربّما ، قد تتخذ تعقيداً جديداً أو كثافة مختلفة ولكنه يظلّ .

قالت : أنت أنت ، لا شفاء لك .

قال : عقيدة الجسد ليست جسديّة .

وقال : وإذا صحّت هذه العقيدة فليس فيها ، ولا يمكن أن يكون ، تقييم .

وقال : التراكم والاكتظاظ في خمسين عاماً من العمر ، تكَوُّمٌ من الأفكار والأثاث ، وتراكبٌ من المشاعر والأوهام وجحافل الأحلام المغلولة والتراب يسقط على مهل عبر السنوات . على آلام العمر المزدحمة الجافّة واحتشاد الذكريات وسَقَط المتاع ونُفاضات القلب الموجَع .

ولم يقل : كهلٌ آخر مُصاب من كهولك المضروبين ، والمكسّحين ، الذين تجمعينهم وتَنْحنين عليهم ، يذوى ويشتعل ويخبو من أجل معاشق وشهوات الروح التي لاتحقيق لها أبدا .

قالت : هناك دائما مخرج من الحصار ، في قلب كل حصار .

قال : رُمح دون كيشوت المثلوم ، في يد دون جوان وَاحِدِيٍّ العشق .

قالت : الأهم أن تفقد ، لا أن تقتني . أن تخسر . ما أهمية الكسب ؟ أى معنى لأن تأخذ ؟ أنت ، وأنا .

وقالت : ليس المهمّ – هو مهمّ – ولكنه أيضاً ليس صعبا ، أن تُعطِي .

قال : المهم والصعب معاً هو أن يعرف المرء – ويستطيع – أن يقبل العطيّة .

وقال : اللا محدود في كل أحد .

وقال : أنتِ قد وقفتِ – معي – نعناد ، في وجه حبي لك ، لم تعاديه ، وقبلتِهِ ، ولكنك وقفتِ ضد هزيمته لنفسه .

قالت : أنتَ قد اخترتَ بالفعل . وأنت تعرف .

قال : وأنتِ عرفتِ – دون أن أعرف أنا – أين أنا . وتضحيتك لي من أكبر عطاياك .

وقال : هل أنتِ حقاً لستِ بحاجة إلى هذا الحب ، وأنني الذي بحاجة اليه ؟

قالت : احتياجٌ يدعو احتياجاً . ليس هناكِ أوّل ولا ثانٍ . أهذا يحتاج إلى تأكيد ؟ هذا هو القانون . وأنت تعرف القانون .

قال : لا أعرفه ولا أقبله حتى إذا عرفت .

وقال : هذا كله لم يُقَل .

كانت عارية الصدر تحت قميص واسع من قماش حريري خفيف ، مفتوح ، وبنطلون ليّن ممتلىء ، امرأةٌ مملوءة مجدا ، تقدّم له القهوة السوداء في فنجان كبير عليه علامة الحُوت ، فاتحاً فاه ، محتشد البطن ، عن خطوط الموج المرسومة وتواريخ برج الزودياك بالإنجليزية ٢١ فبراير ، ٢٠ مارس ، وذكر كيف وجدها بعد لأيِ البحث واليأس ، أول مرة في فندق زيزينيا وصعدت معه السلالم الخطأ ، وهى تحمل عنه حقيبته بنفس البنطلون وبلوفر محبوك على الصدر الغنىّ الوفير المتحرر الآن ، يطل عليه بثقة ، فخوراً بنفسه ، معابث ، جرىء ، لدن ، مهتزّ وقائم باعتزاز ، مشكاةٌ مدوَّرة مضيئةٌ بلحم نورها الخاص أُطرِّزُ على جسد زجاجها المكوّر الدفىء خيوطَ قبلاتي وأنسج عليها بشفتيّ المضمومتين أسلاك الفيروز المذهّب الساخنة كأنها مسحوبة من

الفرن لتوّها ، على وهج رأس الشمعة البارزة الداكنة المشققة بخيوط دقيقة صغيرة .

وتذكّر أيضا شوارع زيزينيا وبولكلي الهادئة النظيفة الطويلة وهو يخرج إليها في أول الفجر . مصابيح الشوارع مازالت مشتعلة بلا جدوى في النور الغامض وصوت موج البحر واضح في صمت الشوارع والأشجار ملتفة أوراقها الأثيثة يسقط منها عليه بلل خفيف وهو يذهب إلى مكتب التليفون ، ويطلب الرقم مرة ومرة من موظف الدوْرية الليلية المنتفخ العينين المنتفخ الوجه شعره منكوش قليلا ، ويظل الرنين يصلصل في خواء الليل الموحش بلا إجابة .

ــ مرة ثانية وحياتك يمكن الرقم غلط .
ــ الرقم مضبوط والله ــ حاضر ياسيدي مرة ثانية ، حاضر .

والمضَض المعتاد واللهَف ، والترقّب ، والإصغاء إلى الرنين المتصل الملحّ من غير رد . في الشوارع الخالية الصامتة في أول الفجر ، كان يحس الدموع تسيل على وجهه من غير صوت ، من غير قهر ، من غير ضرورة .

قال : مزدحمٌ بالحب أكثر بكثير مما ينبغي ، على أى مقياس .
قال : وليس ثم مقياس .
قال : لماذا لا أستطيع أن أنسى ، وأتعزّى وأقبل الواقع ، كما يفعل كل الناس ؟ ألا يمضون في حياتهم ؟ ألا ينسون ، ويتعزون ؟ لماذا هذا الحاجز الشفاف المُحرِق النور ؟ .
قال : أريد أن أعرف ، فعلاً ، لماذا ؟

نباتات الظل الوارقة اليانعة النهْمة وقد مَنَعت واستطالت وتهدلت أوراقُها العريضة تحت الخشب السخن المخروط بخرومه الناعمة ، لا تريد ، ولا تحتمل ، ضوء الشمس ، شرسة ومخبوءة وضارية وغَضيرة ، وكأنما هي نفسها شجرة المعرفة التي بسقت ، عفيّة وساطية مقضياً عليها بألّا تُثمِر أبدا ، من الطينة الأوْلية ، الردغة الغميقة التي صنَع الله منها ليليت وأختها نعمة الأولى المُثنّاة المُغوِية التي يختنق بين ذراعيها العشاق .

وعندما رفضت نعمة النوم تحت آدم لأنها نِدٌّ له ومساوية له في الجوهر ، مخلوقة مثله من

الطين والحمأة ، حكَم الله عليها بأن يموت مائةٌ كل يوم من أبنائها الشياطين الذين أنجبتهم على مِهاد المرجان الطري المتموّج من اقترانها بالبحر الأحمر اللُجيّ الدفىء النّبَج ، وكان الموت قبلها لا يعرف طريقه إلى العالم ، فجاءت إليه بالموت ، حواء الأولى ، كاملةً وباهرة ، لم تكن حواء التفاحةِ والثعبان ، حواء المعصية ، بل كانت هى الوجه الآخر الواحد المُثنّى لآدم الأول ، كائن واحد مزدوج ظهراً لبطن ، ملتحميْن . الجسد الموحد غضٌ مازال ، أشواقه واحدة ومتكلّمة في القلب الواحد الآخذ المُعطِي معا ، لم يجمد بعد ولم يتصلّب ولم يشدخه الجرح المتقطّر بالدم الداخلي ـ متى حدث الانفصال ؟ لماذا جاءت خطيئة الانشقاق ؟ ومتى الغفران عنها ؟ متى يجيء ذلك الذي يحمل الصليب فأنا أنوء تحت ثقله المُحيي المُميت ؟ ولماذا ياربّ لم تنحّ عنى هذه الكأس نصف المملوءة بخمرِدمى ؟

وكما تشتعل مصابيح كثيرة من مصباح واحد ويبقى النور الواحد دون أن يتناقص المصباح كذلك تناثر الحُبّ في كل المخلوقات ولم يتناقص ، وكما ظهر الحُبّ في نقطة المنتصف بين النور والظلمة وتمّ تمام الجِماع بين الملائكة والبشر كذلك برغت أُولى اللذائذ الحسيّة على الأرض ، ولم تكن من قبل ، وبعد الحُبّ بزغت الكرمة من قطرة الدم المسكوبة على الأرض ، ومَنْ يشرب منها يعرف الشهوة ، وبعد الكرمة بزغت من الأرض شجرة الجميز ،وشجرة الرمان وسائر الأشجار .

الروح الأولى أحبت الحُبّ الذي كان معها ، وسكبت دمها عليه ، وعلى الأرض .

وبعدئذ ، من هذا الدم ، بزغت من حَرَجة الشوك ، الوردةُ الأولى على الأرض ، من أجل بهجة النور الذي سوف يظهر ساطعا في العلّيقة ، في آخر الزمان .

وكان على حواء الأولى أن تبعث الحياة في آدم الأول الذي لم تكن فيه روح ، حتى تُسَمّى ذريته التي سوف تولد له « آنية النور » . ومن ثم فعندما رأته ، شبيهها ورصيفها ، أخذتها به الرحمة ، وقالت : « فلتحيى . قم ، وانهض فوق الأرض . » ولساعتها استحالت الكلمة إلى فعل ، ذلك أنه عندما نهض آدم من سباته ، فتح عينيه في الحال . وعندما رآها قال لها : « أمّ كل الأحياء سوف تُدْعَين لأنك أنتِ التي أعطيتني الحياة » .

وجاءت رؤساء الملائكة السبعة إلى آدم وعندما رأوا حواء تتكلم معه ، قالوا لأحدهم الآخر : « مَنْ هذا الكائن النوراني الأنثى ؟ ، لأنها حقاً على شبَه الشَبَه الذي ظهر لنا في

النور ، تعالوا الآن فلنُمْسكْ بها ونلقِ بذورنا فيها ، حتى أنها عندما تتلوث ببذورنا لن تستطيع أن تصعد إلى النور » . ولكن حواء التي كانت هي نفسها قوةً أولى ضحكت على نيّتهم الرديئة وألقت بالظلام على عيونهم وتركتْ شبيهتها ، خلسة ، بجانب آدم . أما هي فقد دخلت إلى شجرة المعرفة ، وبقيت هناك ، وكانت هي نفسها شجرة المعرفة ، وأولئك العميان راحوا في الخديعة ، ولوّثوا جسمهم فقط .

كان آدم الأوّل النوراني هو العقل .

أما آدم الثاني فقد كانت له هِبة الروح ، وظهر في اليوم السادس .

وكان آدم الثالث أرضياً ، وظهر في اليومَ التاسع والأخير وتكاثرت ذريته ، واكتملت الأرض » .

في يوم الجمعة ذلك ، ٢٩ سبتمبر ، كان قد تأخر في النوم . كان يحلم حلما مضطربا متشابك الأحداث والصُوَر ، يتوه فيه بين قضبان السكة الحديد في محطةٍ غامضة على جانبها ربوة رملية عاليه تسير فوقها أخته لويزة التي كان يعرف مع ذلك أنها ماتت محروقة في المستشفى الفرنساوي من سنين طويلة ، لكنها كانت عندئذ تخطو بخفّةٍ على طريق غير مرصوف فوق الربوة الصاعدة والهواء يلعب بشعرها الناعم الفاتح اللون الذي تختلف به عنهم جميعا ، كما تختلف عنهم ببياض وجهها البيضاوي الرقيق ، وبنوع من بطء الروح ، لكنها كانت عندئذ تسير كأنها ترقص ، أو تطير ، ووراءها السماء الزرقاء الصافية ، بينما هو يجري تحت ، يبحث في لهَف ومضَض بين الأرصفة ، والمفتشين الواقفين بتربُّص ، والقضبان الملتوية بتفريعاتها الخبيثة الشكل ، والحمّالين الذين يجرون أمامه ووراءه ، والحواجز الحديدية التي يراها أمامه فجأة ، والكمسارية يطلّون عليه من نوافذ القطارات الخالية تماما من الناس ، يتلمس طريقا يصعد عليه من وهدته المتشابكة الخطوط تحت سقف المحطة الزجاجي العالي ، إلى الجسر الرملي الطريّ الكتلة الذي يعرف مع ذلك من مجرد رؤيته أن رمله سوف ينهار تحت قدميه حتى لو استطاع أن يجد السكة إليه وأن يضع قدميه عليه ، وكانت القطارات تصل وتصفّر وترجع وهو مايزال يدور وتهبط به مصاعد كبيرة ليس لها أبواب ، ويجري على سلالم ويدخل في أنفاق يقطعها فتمتد أمامه منيرةً وخاوية ولا نهاية لها ولا مخرج منها ، ويجد نفسه فجأة تحت الربوة ، والسماء خالية ليس فيها أحد ، ويسمع اسمه ويتلفت ويتساءل مَن الذي يناديه وعندما فتح عينيه وجد رامة تقف على رأس سريره المفرد الضيق ، واكتشف ، بعد لحظة كان كل شيء فيها ممحواً ، أبيض ، وليس فيها

مرجع ، أنه في استراحة ماريوبوليس ، وأن الوجه الذي يبتسم له هو وجه رامة يقول له شيئا لا يسمعه ، وأن أحمد يقف غير بعيد ينظر من النافذة المفتوحة على عمليات الحَفر المتوقفة اليوم وبُرج الكنيسة الأثرية البعيد وخيام الملاحظين والعمال من وراء السور .

قالت له : نوم العوافي . صحّ النوم . بقى نأتي بالسيارة ، والخفير يفتح لنا ، وندخل عليك ، ونظل ننادي ، ولا انت هنا ؟ هذا نوم الأبرار حقا ، يالله إصْحَ إصحَ ياسيدي ، قم ، خلاص أنا قلت لعم شعبان يعمل لنا الشاى ، قم تفضل اغسل وجهك وخذ حمّامك وتعالَ افطرْ .

كان كلامها ، كالمعتاد ، سهلاً ومرحا وعفويا ولكنه لم يخطىء نبرةً من التوتر ، والترقّب ، خلف الدفق والانسياب ، وأدرك على الفور ، من مجرد مجيئهمامعا ، أن اليوم المرتقب قد جاء ، أو اقترب جداً على الأقل .

لمّ جلابية نومه حوله وقام فذهب للحمام ، وحلق ذقنه ، واستحم بالكوز يدلق به الماء من البرميل الكبير المملوء فينصب عليه بارداً جدا ، من وراء ستارة من قماش الخيام ، ودعاهما للإفطار فقالوا إنهم أفطروا ، وأكل هو بيضة مسلوقة من الأمس ، ومربّى من علبة «قها» ورغيفاً مصنوعا من الدقيق ومخبوزا على الحَجَر الساخن كان قد صنعه له عم شعبان ، وشربوا الشاى .

قال لهما إن الحقيبة في مكان أمين عند خالته في بيتهم بالطرانة ، وقال رداً على نظرة سؤال غير مَقول ، إنهم في الفلاحين لا يسألون ، وعندهم شهامة ومازالوا يعرفون كيف يحفظون السر ، وإنهم على كل حال ليسوا غرباء على السلاح .

كان أحمد قد جاء له بالأهرام فقرأ أن زيارة المتحفظّ عليهم في أحداث الفتنة الطائفية ستقتصر على الأقارب فقط ، من الثانية صباحا إلى الثالثة بعد الظهر ، وأن مصر ستلعب مع المكسيك في كرة القدم للناشئين غداً ، في كانبيرا في استراليا ، وأن ملهى فيكتوريا الليلى يقدم مفاجآت الرقص الشرقي والغناء البدوي وأنغام الديسكو من سهير الشاعر وعايدة زكي وكتكوت مصطفى وسوسو عمر وبرلنتي صابرين وأوركسترا سوبرباورز ، وأنه في سينما راموبيس فِلْمين « الحب وحده لا يكفي »و« اللص المحترف » وأن اليابان لاتنوي أن تعترف بمنظمة التحرير

الفلسطينية ، وأن البطانيّة اليوناني المستوردة تباع في القطاع العام على أساس ١٤ جنيها و٨٥ قرشا وأن البوليس الفرنسي عثر على حمامة زاجلة مقتولة بالرصاص في أحد منازل باريس تحمل رسالة مكتوبة بالعبرية وأن الجنيه الذهب يساوي عشرة آلاف قرش بمحلّات عبد العزيز مصطفى باسكندرية ويساوي تسعة آلاف وتسعمائه قرش بمحلّات ألفونس حنا يوسف بشارع الثورة بالمنصورة ، وأن الحزب الراديكالي الفرنسي يؤكد تأييده لكامب ديفيد وأن بابا وماما يوقدان شمعة واحدة وألف مبروك لمينا ألكسان فهمي بالمنيا وأن ١٢٩ من أعضاء منظمة مجاهدي خلق اليسارية في إيران قد أُعدموا وأن الجو مائل للحرارة في القاهرة ، وأن مَلك افغانستان السابق يؤكد تأييده ــ أيضا ــ لثوار أفغانستان ضد الاحتلال السوفيتي ، وأن هناك للبيع كلاب جريفون فرنساوي بيضاء من سلالة جيدة وذكور، وهناك علاج للتخسيس للسيدة عشرة كيلو جرام في عشرة أيام .

وفي الطريق بين الغيطان ، وجدوا أنفسهم ، ثلاثتهم ، في السيارة الفولكس ، يخوضون على غير توقع ، غِمار نقاش مسدود الباب . وكان أحمد قد صمت أخيرا ، ينظر بعناد إلى ماء الترعة العريضة الثقيلة ، راكداً لا يجري ، إلى جانب السيارة ، والهواء الجاف يسفع وجوههم .

قال لها : دعي القلب ، وآثامه ، في حالها الآن .

وقال ، مشاكسا قليلا ، لكي يخفف من وطأة التوتر الذي يرتفع كلما اقتربت السيارة من القرية ولكنه وجد نفسه ، وكأنما رغما عنه أسيراً في أسطورة الرجل الذي تتجه اليه نواياهم :

ــ هل تذكرين صورة النيوزويك الشهيرة ، في نوفمبر أظن ، ٧٥ ، نعم بالضبط ، المطرب الزنجي الذي يشبهه يضرب على الجيتار ، مبتسما ، وزوجته ترقص في ذراعيْ فورد ، ترفع إليه نظرة مرسومة وابتسامة مرسومة ، أما بيرل بيلي ، صاحبةَ الملابس ، دفّاقة الوجه ، بشعرها الجعْد وزنجيّتها المليئة نفسها التي يحتشد بها غناؤها ، فترقص معه ، وقد وضعت وجهه بين يديها ، تربت عليه بحنان مدرَّب ومحنَّك ، وهو يبتسم .

قال : هو مولع بهؤلاء الناس من إنريكو ماسياس ابن المستعمر الجزائري العتيد إلى اليزابيث تايلور التي يقال عنها بنت صهيون ، فنان ، يحبّ الفنانين .

أشاحت بوجهها بصمتٍ وألِم حقبقي فأحسّ أنه كان سخيفا جدا .

وكانوا يقتربون من بوبيللو الذي طالما لعب على شِقافته وزجاجة الأزرق السميك في أول صباه ، قال لها : طبعا قرأتِ عن تيرانيوس ؟ وكيف كانت مركزاً لعبادة أبوللو ، لم أكن أعرف وأنا أتسلق هذا الجبل الوعر بالحطام والانقاض أنني كنت أقتحم معبده .. أما ديونيزيوس ، وضحك لنفسه ، فقالت : آه هذه إذن هي الطرانة ، طبعا ، صحيح ..

قال : انتظري حتى ترى السراية التي انعكستْ ذات ليلة فرأيتها مقلوبةً في قاع الماء ، وبيت الشيخ عيسى الله يرحمه ، والكنيسة التي كانت لنده تذهب إليها يوم الأحد ، وتبكي ، وبرج الحمام القديم . معالم آخر الطفولة وأوّل الصبا ، وشجرة الجميز التي كنت أنام فوق أغصانها العريضة وأُقطع فروعها الصغيرة للحَطَب ، وألعب تحتها مع لنده ورحمة ، والجسر الحجريّ الداخل إلى النيل الذي كنت أطلع عليه في ليالي القمر ، في عز الفيضان ، وأنادي الجنيّة ، لم تطلع لي أبداً ، ونظر إليها ثم قال : إلّا بعد ذلك بكثير .

كأنما كانوا في نزهة ، أو رحلة خلوية ، فقط .

عندما دخلوا القرية قبيل الظهر ركنوا السيارة في أول الجرن ، وخطر له بسرعة ، مرة أخرى ، كيف ازدحمت بالعيال والشباب الجالس على الأبواب بضجر ، وكيف قامت أعمدة النور الكهربائي وامتدت أسلاكها على أسطح البيوت التي ظهر عليها إيريال التليفزيون ، وكيف قامت بيوت حجرية من ثلاثة أدوار ، أعلى من السراية القديمة التي في طرف القرية ، ورأى على الطرف الآخر ، حيث كانت الساقية القديمة على البئر الجافة ، سورَ مزرعةِ الدواجن وسقفَها المنخفض الممتد ، والمصرف الضيق تحت السور قد غص بالحلفاء والهيش وورد النيل والنفايات .

وهم يسيرون على التراب الكثيف وهشيم أعواد الذرة ومزقٍ من ورق الصحف الجاف ويحاذرون من البقع العريضة الملبّدة بالماء حول برك صغيرة آسنة ، والعيال تجري بصمت وفُضول من ورائهم بقليل حتى يجرؤ أشطرهم وأشقاهم فيجري بسرعة وقد رفع طرف جلابيته ، ليمرق بجانبهم خطفا وهو يقول بصوت مرتفع ليُسمع زملاءه : « هاللو يا أهل مصر » فتضحك له

ببساطة وهي ترد عليه أيضا بصوت عال جرىء ويمرح كأنما تلعب معه : « يا هاللو ياأهل الطرانة » . فيبتسم الكبار الواقفون برصانة على الأبواب وهم يقولون « أهلا وسهلا ياست شرّفتوا يابهوات إمش ياواد أنت وهو ، إمش العبْ بعيد » .

ولاحظ أنهم يمسكون بالترانزستور ، بقلق ، ويتحلقون حوله ويتكلمون فيما بينهم بهمس ، وأن التليفزيونات مضيئة يتخايل نورها الأبيض داخل الغرف المعتمة ، وأحس في القرية جواً من الانتظار والتوجس .

مروا من تحت جميزته العتيقة ، مازالت عريضة جداً وكثيفة ولكنها عجوز ومتربة ومهمَلة ظلها رطيب وبارد قليلا في الرحبة الصغيرة التي تقع أمام بيت جدته القديم وقد بيع الآن إلى أغراب وتغيرت معالم حيطانه ولكنه مازال يرى من وراء الحيطان النخلة العجوز التي قال له جده إنه زرعها عندما كان صبيا .

دخلوا الحارة الضيقة ، في أوّلها بيت الشيخ عيسى ولكن كل بيوتها الأخرى من بيوت النصارى في البلد ، لم تتغير من أربعين سنة . كان بيت خالته وديدة قد ارتفع الآن بطابق جديد بناه لها ابنها المهندس الذي سافر إلى ليبيا ، ورحب بهم فانوس افندي زوج خالته ، مازال صلب العود ، لاشك أنه الآن قد جاوز السبعين من عمره ويذكّره تماما بأبيه عم أرساني الصراف في جلبابه الأبيض الناصع النظافة وطاقيته المدورة بحائط من نفس القماش وفي يده منشة وحذاؤه الأستيك لامع السواد ، وجهه مربع ومورّد وبشوش وعيناه غائرتان وذكيتان . وجاءت خالته وقد أصبحت الآن فلّاحة حقا ، بملابسها السوداء التي عليها تراب خفيف وقد ربطت شعرها المضطرب بمنديل لا لون له وسلّمت عليهم بلهجة نصفها اسكندراني ونصفها فلّاحي وجلسوا على الكنبة الاسطمبولي في القاعه التحتانية وحَلَف عليهم زوج خالته أن يتغدوا معا وجاء الشاى ، عنبريّ اللون ومسكّراً جدا ، في فناجين زجاجية صغيرة مُختَصَرة عليها حزام رفيع ذهبي اللون وكان التليفزيون مفتوحا ولاحظوا فجأة بعد انحسار موجة الترحيب أنه ليس فيه إلا موسيقى وأغان وطنية فقط .

وكانت رامة قد استجابت على الفور لترحيب الرجل الشيخ الذي كان وجهه قد ازداد تضرجا ، وازدادت عيناه لمعانا ، ودخلت على الفور في طقوس التكريم وتلقّي التكريم وتبادل

الحديث والمجاملات وكأنهما يعرفان أحدهما الآخر من زمن ، بينما ظل أحمد صموتاً تقريباً وخجولاً تقريبا ، فقالت متسائلة بقلق ، وهي تشير إلى التليفزيون : خير .. ما الحكاية ؟ فقال فانوس افندي بهدوء ، وبشيء من الفخر المكتوم إذ أحس أنه هو يعرف مالا يعرفون بعد : الحكاية ؟ حكاية إيه ياستّ هانم ؟ يعني انتم لم تعرفوا بعد ؟ قالت ، وقالوا معها دون أن يحسوا : نعرف ؟ نعرف ماذا ؟ ماذا حدث ؟ قال أخيرا : ضربوه وهو في القطار بينما كان يطلّ على الناس في محطة سنورس قبل الفيوّم وقال المذيع « خونة .. خونة .. » واحتبس صوته ، وانقطع الإرسال وظلوا يذيعون موسيقى حتى قالوا إن طلقات طائشة قد جاءت من بين الجماهير التي ازدحمت على رصيف المحطة للترحيب وقالوا إنه يُرجَّح إنها كانت قد أطلقت علامةً على فرح الناس وترحيبهم وإنه جُرح جرحا بسيطا ، وعادت الموسيقى حتى قالوا إنه نُقل بالهليكوبتر إلى مستشفى أنشاص وإنه سيتماثل للشفاء لكن إذاعة مونت كارلو قالت إن إصابته خطيرة واضطربت أخبار لندن وصوت أمريكا بين هذا وذاك .

سقط الصمت فجأة والوجوم ، وانفجرت الهواجس الداخلية فيه لكنها ظلت مكتومة ، ثم تلاحقت الأسئلة والتعليقات والرجْم بالظنون والتخمينات ، ونهض أحمد فجأة وانطلق إلى باب القاعة كأنه لا يعرف طريقه ، ثم استدرك في آخر لحظة وقال : « عن إذنكم لحظة وراجع » وهمّ ميخائيل بالنهوض وراءه فنظرت إليه وقالت بهمس مليح : « دعه ، دعه الآن سيرجع » ، وأخذت الترانزستور من بين أصابع فانوس افندي دون تكليف ، وراحت تقلّب بين المحطات .

لم يتغدوا عند خالته في النهاية ، وإن كانوا قد شربوا ثلاثة أدوار متتابعة من الشاى وعادوا للقاهرة في أول بعد الظهر ومعهم الحقيبة لم يعد لها جدوى . لم يعرف ميخائيل مصيرها ، ولم يسأل ولم يهتم .

قال : هل انتهت يوليو ؟ هل اليوم فقط ، مات عبد الناصر فعلا ؟ وقال : لا ..

قال ، صمتت البلد كلها وانزوت . كانت أخبار أسيوط مهما خُفِّفتْ ، مخيفة . وخلَت الشوارع . كان هذا الفراغ يذكّرني بيوم ٩ يونيو مع كل الفوارق ، حينما يتحصّن الناس بالسكوت وتجد نفسك فجأة ترى ماكنت لاتراه أبدا ، هَبّات التراب على أسفلت الشوارع الخاوية تطير بورق الصحف ، والأتوبيسات تجري بسرعة ، غير مزدحمة ، وقال إن صديقا له قال

إن الجنازة كانت محاصَرة تسير بين هذا الصمت والترصد من ناحية وبين العربات المصفحة مدافعها مشرعة موجّهة إلى الصفوف التي تسير ببطء وفيها الرؤساء والوزراء والكبار من الغرب والشرق ، الغرب على الأخص ، وكان رجال البوليس بملابسهم البيضاء المصفرّة يعطون ظهرهم للجنازة ، ثم صفّان متجاوران من الحرس العسكري إلى اليمين وبعدهم على طرف الجنازة نفسها ، صفّ من المظليّين بخوذاتهم وأسلحتهم ، وقال إنه قال إن ضباط السي آيْ إيه كانوا متناثرين يوجّهون الجنازة ويصدرون التعليمات والأوامر ويُطاعون ، وقال إنه لم يصدّقه فأكدها له ، وإن أعضاءِ مجلس الشعب كانوا يلبسون الكرافتات الملوّنة مخططة ومنقّطة ويثرثرون بأمور الحياة كأية جنازة مصرية تقليدية وإن البنات في السرادق بملابسهن السوداء الأنيقة ونظّارات الشمس الغالية والماكيّاج المتقَن كن يتلفتن باهتمام للضباط الشبان والدبلوماسيين الشبان ، وحكى إن الخيالة كانت تسبق الجنازة وإن حصانا جرى فجأة وشبّ بساقيه الأماميتين ، وارتفع بصدره في الهواء وإنه لم يسمع صهيله ، واضطربت الصفوف ووجد الناس أنفسهم في قبضة الفزع يجرون القهقري إلى الخلف بأسرع ما يستطيعون كأن فَهْماً غير مفْصَح عنه قد سرى بالرعب في السيقان. بأن ثم شيئا آخر قد حدث ، وقال إن ثلاثة من الرؤساء السابقين جروا القهقري مائة متر على الأقل في وسط الاضطراب والمفاجأة حتى هدأت النفوس واستأنفت الجنازة سيْرها الوجيز كأن ثم اتفاقاً مضمَرا ولكنه معروف جيداً بأنه يجب الفراغ من كل شيء بأسرع ما يكون ، قال إنه عندما انطبقت آخر بلاطة على فتحة القبر ، تماماً ، وتأكد انطباقها ، أحسّ أن البلد كلها صعّدت نَفَسا واحداً عميقا ، ثم انفجر طوفان النُكت كما لم يحدث قط من قبل . وقال : ما أبعد الشقة وأوسع الفرق بين جنازتين .

وقال لها ، بعد ذلك : أليس مُخجلا ، ومروّعا ، أن يقوموا همْ ، أكثر القوى السياسية تخلفا ، وغيبيّة ومحدوديّة وخطراً ، بما تسمينه عمل الخلاص الوطني ؟ وأن ذلك وَجَد كل هذا الترحيب الصامت أولاً ، ثم المعلَن عنه بعد ذلك على استحياء ، ثم صراحة وجهرا ؟ أليست هذه البلد أغرب البلاد ؟ أم أنّ كل أفكارنا يجب أن توضع موضع السؤال من جديد ؟ وأن مصر لا تطبّق عليها المعايير ؟ نسيج وحدها فعلاً كما لا نفتأ نقول ولكننا عندما نصطدم بهذا الواقع الغريب يُفحمنا الواقع وتسقطُ من أيدينا كل الموازين الجاهزة ؟ ثم انظري إلى ماحدث في أسيوط ، هذه الانفجارات المتأخرة على كل حال بعد الانفجارات القديمة ؟

قالت : أنتَ الذي كنت تقول إن هذا كله مصطنع ومدبّر وإن هؤلاء الاولاد على كل مثاليتهم الخارقة وإخلاصهم النهائي وشجاعتهم ، هم في النهاية مجرد أدوات ، أليس كذلك ؟

قال : نعم بلا شك . ولكن الأمر يذهب إلى أعمق من هذا . بلا شك .

قال : ومايزال يذهب إلى أعمق بكثير .

ثم قال : ولكن مصر ألفيّة .

وقال : وهذا أيضا كان باباً مفتوحا على العراء ، وهميّا ، وانتهت كل هذه الحكاية . بالنسبة لي على الأقل ، كانت ثقيلة الوقع حقا ومحمّلة بالفاجعة والجنون ، لكن هل انتهت حقا ؟ فنظرت إليه وسكتت .

نزلا مع مساعد أمين المتحف الشاب إلى البدروم . كان السقف منخفضا والمصابيح الكهربائية الأسطوانية العتيقة الشكل محاطةً بأسلاك دائرية يتصبّب نورها المصفّر ، حُزماً مستقيمة تسبح فيها حبيبات التراب المعلّقة ، على ثلاث مومياوات مازالت فيها رائحة النطرون القديم والكتّان الحائل ، في توابيت من فخار ، وعلى مائدة صغيرة قطع ذهبية ممسوحة النقش ، قال لهما المساعد : « وجدناها لحسن الحظ بعد أن انسحبوا من القنطرة شرق ، وإلّا كانوا سرقوها كما سرقوا غيرها » . وكان وجهها قد أخذ يختقن بزرقة خفيفة محمرة وأنفاسها تتسارع فخرجا بسرعة إلى الهواء الطلق .

قال لنفسه إن الخبرة لم تقلل من انبهاره وعجبه بالأعمدة المكسورة والتوابيت الحجرية ، ولا من هيبته لها ، ولا عينه كَلَّتْ من اكتشاف هذا الخيط ، هذا الرحيق المصري الخاص في عمق الرخام المصنوع على قوالب غريبة عنه : كان يعرف ــ دون أن يستطيع أن يضع يده تماما عليه ــ ذلك الاختلال الخفيّ في المقاييس بحيث يخرج الإنسانيُّ إلى مايجاوزه ، وتتخذ الهُجنة والاضطراب شكلَ احتجاج كامن وثابت أبداً ، على الصيغة العادية ، وتُقْسَر الكتلةُ أن تقول غير ما قُصد بها أن تقول . وكان يخيل إليه أن هناك انتصاراً حقا في التشويه وأن فساد المعايير الأجنبية فيه مرارةُ شموخ عريق غير منكسر ، مصر اليونانية الرومانية ، قال ، هي مصر المصريّة ، هي هذا دائماً في كل الصياغات .

في أول بعد الظهر ، كان في الشارع الضيق الظليل تحت شرفاته وبيوته العالية الشبابيك نفحة من هواء البحر المبلول ، وصمْتُ بدء القيلولة ، وكانت دكاكين النجارين الذين يصنعون نسخا من طُرز الأثاثات القديمة وبائعي الفحم البلدي الهش ، والمقاهي البلدية الصغيرة قد هدأت كلها . وقد خلا الميدان الصغير الذي تحيط به أسوار ضخمة حول ورَش وكالات

السيارات ، تطل عليه من الناحية الأخرى شرفات لها أعمدة حجرية صغيرة متقاربة كالسيقان السمينة من غير أقدام . ومرا بجانب جدار سينما مترو المصمّت بأبوابه الحديدية المغلقة ، واختارا مائدة صغيرة في ساحة مقهى إيليت المكشوفة ، وأمامهما على الرصيف الآخر محطة البنزين ومحلّ لورانتوس وباب سانتا لوتشيا الرشيق ونوافذه الزجاجية المستكنّة بأرستقراطية خلف الأستار المسدلة .

قال لها : إيليت هذا كان مجرد كشك لبيع الجيلاتي ، حينما كنت في الثقافة العامة سنة ١٩٤١ ، قبل التوجيهية . وكنا نخرج من العباسية الثانوية أنا وشفيق صاحبي في طريقنا لمحطة الرمل ، أو إلى البحر ، في أول الشتاء ، في شمس اسكندرية الناعمة الدفء ، ونقف هنا ونأكل چيلاتي . وعندما تمر امرأة ممتلئة بالرشاقة والأنوثة معاً - كان معظمهن عندئذ يونانيات أو ليڤانتيّات - كنا نقول ببساطة وبمرح بصوت عال : « يا هاللو » ونأخذ چيلاتي فيما يشبه الطقوس ونضحك وكان الخواجا بنفسه صاحب المحل هو الذي يصوغ الكأس المنعشة الباردة باللبن والشيكولاته أو الفستق وكانت كؤوس الجيلاتي مدورة وصغيرة ومصنوعة من ألومنيوم مفضّض رشيق .

فنظرت إليه وفي وجهها شُبهة ابتسامة لم تتكون بعد ، ولن تتكون ، وفي عيْنيها لا مبالاة .

طلب من الجرسون اليوناني صديقه القديم والضئيل القدّ ، المحكوم في جاكتته السوداء الضيقة بإحكام أدبي بائد ودماثة غابرة ، بوجهه النحيل المثلث وعينيه القلقتين الصغيرتين . وجاء طبق الجبنة المنوّعة : الشرائح الصفراء الشفافة والأصابع الكثيفة المحمّرة والمكعبات البيضاء المشققة الجلد ، والسلاطة المرتفعه بكومةٍ منسقة من أوراق الخس العريضة الفاتحة الخضرة وأرباع الطماطم مقطوعة اللحم نضرة ومتضرجة بدمها الصافي البهيج ، وأمشاق الجزَر الطويلة المستدقة الأطراف بلونها الرُمّاني الفاتح وفي قلبها استطالاتُ لبّها الهش الناعم بلونه الخشبيّ الأبيض قليلا ، وعليها كلها ندى الزيت النقيّ ، ومعها زجاجة الكيانتي المنتفخة البطن ، زجاجها الرفيع تحتضنه برفق حصيرةٌ رقيقة من القش المجدول الطريّ النسيج .

كانت شمس بعد الظهر رطيبة بنسيم البحر ، وكانت صفوف التلميذات والطلبة والموظفين والموظفات تمر من أمامهما في اتجاه محطة الرمل ، وعربة حنطور تنطلق فجأة بسرعة والعربجي قد

وقف نصف وقفة على مقعده ، يتحكم في الحصان الأصهب الثقيل الذي يجري في مرح وقد وجد لنفسه حرية مؤقتة في قلب شارع صفية زغلول ، وكان تحت أقدامهما على الرصيف جُزُر خشبية مرفوعة مدهونة بالأصفر وعليها أصُص نباتات الصبّار الغَضيرة ، قائمة ومنتفخة وشائكة ، داكنة الخضرة ، تتفجر أجسادها بحشوها المزدحم بالعصارة المكبوتة ومع ذلك فقد كان شوكها رقيقا ليس فيه شرّ وكان على فمه دون غرابة حس الشوك الناعم لا يخدش شفتيه بل يهدهدهما .

وهما يأكلان بهدوء ، ناعميْن بحسّ وجودهما معاً في الهواء الطلق ، تحت سماء حانية ، جاءت فجلست إلى المائدة المجاورة سيدةٌ واضح أنها يونانية أو أرمنية أو شيء من هذا القبيل ، بعد منتصف العمر بكثير ، نحيلة عظميّة ، ولكن أنيقة في جيبتها السوداء وبلوزتها الخضراء المنقطّة بقطرات سُود متناثرة الشكل ، ولها كشاكيش على الرقبة المجعدة نازلة على مثلث منفوش بالقماش الملفوف إلى البطن الهضيم المضلع حادّ الشكل ، جلست وهي تنظر بولع كامل إلى زميلها الأسمر ، شابا يتفجر بالجنس القوى ، عريض الصدر ومتكتّل الساقين وواضح أنه اسكندراني من أصحاب الصنايع أو البوتيكات ، وتقترب بوجهها الصافي الرقيق الغضون من وجهه الشبعان كل الشبع بذاته تكاد تأكله بعينيها وفمها المزموم الشفتين معا .

قالت له وهي تقضم شريحةً صغيرة من الجبنة الروميّ على شوكتها ، أنا لا استطيع أبداً أن أفهم سر هذا النوع من العلاقات . يكاد يكون هذا شيئا يناقض قوانين الطبيعة نفسها ، كيف تسمح لنفسها وهي بالتأكيد في سن أمّه أن يجرفها هذا النوع من الرغبة ، والتهالك ، هي مثل أمه ؟

قال ، لمجرد أن يُزجي الحديث تقريبا : بالضبط لهذا السبب . لأنها أمه ، أليس كذلك ، لأنه أيضا بلا شك يريد أمّاً وليس إلا طفلا محروما . كان هذا الرجل فرويد يعرف هذا ، وهو صحيح ، برغم كل شيء ، وقبْل فرويد بزمان ، طول الوقت ، من أيام سوفوكليس والبدائيِّين القدامى ونازِل .

قالت : دعك والنبى من فرويد وسوفوكليس والبدائيين . هذا يجعل جلدي يقشعرّ .

قال لها : فليكن . هذا ليس حباً فقط ، هو يأس . اليأس أمام فِعل الحياة نفسه . هي

لاتريد أن تُسلّم . تحديها هو هذا اليأس هذا الحب هذا الحقّ . أريد أن أقول ، يعني ، إن ما هو إنسانيٌّ فقط ليس حباً . ما تعدّه الأبعاد الانسانية ، بما فيها من عطف وودّ واحتمال وتسامح إلى آخره ، بما فيها من تنازلات وأنصاف الحلول والتأقلم والرضا بالحال على كل حال ، هذا ليس حبّا بل مُصَالحة . أي شيء غير إنساني ، كهذا ، هو الحب الحقّ ، بما فيه مما يتجاوز الآن ، ويتجاوز هنا ، بما يضرب في قلبه من خطب أساسيّ ، الأجنحة الهائلة الداخلية المحبوسة . اليأس شريان فاسد ولكنه يحتوي على السماء في داخله ، والأرض ، ويفوق طاقة البشر ، يَخرُج من الحيز الانساني ، هذا شيءيتصل بالله . ضروري . مَلاك الظلمة . الآخَر الذي هو الوجه الآخَر بلا انفصال . الحب لا يتصل بموضوعه بالضرورة . هو نفسه موضوعه . هي لاتحبه ، هذه المرأة التي تموت مكحولة العينين لا تذبل ، لقد حلّ فيها الله بالصدفة . هي إلهيّة . نعمتها مقلوبة تتنزّى في حمّيا احتضار لن ينتهي أبدا . هذا هو اليأس .

قالت له .. هوه .. هوه .. حِيلك . أنت تتكلم عن هذه السيدة ؟ متأكد ؟ هذا النظرية نظريّة مَن ؟

فارتد إلى نفسه وأحس فجأة شيئاً شريراً في نفسه فسأل بنبرة أراد لها أن تكون خفيفة . ولكنها جاءت مثقَلة : على فكرة لديك أخبار عن عيسى العطار ؟

كانت عيناها وهي تستديران اليه لادغتيْن بهما جرح وغضب حاد السنّ لأنه بالضبط جريح وقالت : غريب أن تذكره . هذا بالضبط ما أتوقعه منك . هذا أنت . إذا كنتَ أنا قد نسيته ، لماذا تسأل ؟

قال ، وقد أحس بخطئه غير المبرر ، وبأن الطعنة غير مشروعة :
ـــ أبداً لا شيء .

قالت : لا ليس عندى أخبار .

وقد فسد بعد الظهر كله في أثر ذلك ، ولولا رفقها به ودماثتها ومقدرتها على الغفران والقبول ما استطاع أن يصفّي تلك الغمامة الثقيلة التي انبجست من جرحها وأطبقت عليهما

بفعله هو بجوٍّ من التوتر والغضب والتنافر .

كانت ، من زمن ، في الدفْقة الأولى من نشوة التعرف من جديد والمصارحات المتبادلة بما تنطوي عليه من حكايات الآلام القديمة والأفراح القديمة وابتعاثات الشخوص الماثلة في ساحة الذكريات ، قالت له : ليس في حياتي إلا حُبّان اثنان ، حقيقيان . واحد مع خواجه ، ريشارد ، أنت تعرف الحكاية ، قلت لك عنها . قال : والثاني ؟ قالت : مع واحد مصري . قال : مَنْ ؟ قالت : عيسى العطار ، تعرّفت عليه بعد طلاقي من حسن بسنتين . كان أصغر مني بكثير ، في الثلاثين تقريبا ، كان رقيقا وحنونا في الوقت الذي كنت أحتاج فيه للحنان حاجتي للحياة نفسها ، كان كل شيء صعبا وخاليا من حولي ، وكنت قد حاولتُ حكاية الانتحار التي قلت لك عنها وفشلت . أنت ؟ أنت كنت قد ألغيتُك تماما ، كما قلتُ لك ، كنتُ قد اختفيت تماما أنت ونسيتُك فعلاً ، ماكان يمكن أن أذكرك وإلا ماكان يمكن أن أعيش ، حتى . ماذا كنت تريد ؟ هذا كان هو المخرج الوحيد . كنتَ صامتاً ، وبعيداً ، وتقاطعني عن عَمْد ، أليس كذلك ؟ أنا لا أعتذر ، بل أقرر حقيقة . كان عيسى هو النَسمَة الوحيدة في هذا الصمت ، وكنا نرى أحدنا الآخر كثيرا ، وطَلَب مني الزواج ورفضت ، ليس لأنني لم أكن أحبه بل لأنه كان أصغر مني ، وكانت حياته تسير في طريق آخر ولابد أن تمضي في طريقها وكنت أعرف خطر هذا النوع من العلاقات . صَدَمْتُه هو أيضا .

وتذكّر ، بعد ذلك بكثير ، أنها قد أشارت إليه بسرعة ، من قبل ، وقالت إنها لم تكن تشعر نحوه إلا بالودّ والتقدير ، فقط ، وإنه طلبها للزواج ولم تستطع ، لأنها لم تكن تحبه وكان أصغر منها سنا ، تذكّر أنها قالت إنها لم تكن تحبه . ثم نسى هذه الحكاية كلها . وعاد فتذكرها الآن وقال : متى تقول لكى تحرص عليّ وتخشى إيذائي ؟ ومتى تقول لكى تفعل العكس تماما ؟

وقال لنفسه فيما بعد : الغريب انني لم أحس بأدنى غيرة منه كأنه لم يوجد قط ، لا هو ولا ريتشارد ، ولا حسن ، لم أحاول قط أن أتتبع أخبارهم ، ولا حتى أن أرى شكلهم ولا من بعيد . وكانت غيرتي أكّالة وجنونية من آخرين .

وسأل نفسه : لماذا إذن طلبت منها أخباره في إبليت ؟

وقال : هذا كله غير صحيح . كأنما كنت أريد أن أقول لنفسي إنهم غير موجودين أصلاً . قال لها مرة : لا يمكن بالطبع أنني أريد أن أضع عليك أقفال العفة الحديدية تلك التي كانت تحملها نساء القرون الوسطى ، في أوربا وفي ألف ليلة على السواء . كيف كن يحملْنها ، على أي حال ، ويتحملنها ؟ كيف كان الحديد الصلب هذا يحبس النبض الحلو الناعم الحار ويخبطه بالمزلاج الموثق المسدود ؟ لا يمكن أنني أريد هذا ، هذا غير معقول .

قالت : ياسلام ! كلكم يارجال تضعونها علينا ، في خيالكم ، في رؤوسكم في حسكم العميق ، مهما زعمتم إنكم متحررون وتقدميون وعقلانيون وما لست أدري ، مازلتم رجالَ ألف ليلة ، وما زلتم تتصورون أن كيد النساء يغلب كيد الرجال .

قال : ألا يغلبه ؟

فضحكت .

قال لنفسه : هل هي تجعلني أدفع ثمن كل الاحتياجات غير المتحققة ، وكل شهوة الأَمن المحبوطة والمرفوضة ؟

قال : ثمن التخلي فادح .

قال : الفقدان الوجه الآخر والضروريّ للوِجْدان . الفقدان هو الجوهر الوحيد ، وليس هناك غيره ، في هذه الحكاية كلها .

الباب الثالث عشر

ملح البهجة الأبيض

قالت : أخاف على حبنا من الزمن ، الزمن يغيّر كل شيء .

قال : لا أخاف عليك من الزمن . لا .. لستِ أنت ، أنتِ خارج الزمن .

قالت : فليباركك الله ياحبيبي ، أنا لست العنقاء . متى تراني ، أنا ؟

وقالت : الزمن من جنس القَتَلة ، جنس غريب ، أجنبي ، ليس القتلة الذين في سَوْرة القتل إنسانيّون جدا ، بل الجنس الآخر ، غير الإنساني ، القتلة بلا غَضَب .

قال : ليس في هذا الحب زمن ، عندما أمسك بيدك ، عندما تمسك بي نظرتك ، عندما تنضم شفتاك عليّ ، يسقط الزمن ، لا ، لا يسقط لأنه ، عندئذ ، لم يكن موجوداً قط .

وسأل نفسه : أتخشى الزمن ؟ أم هي لا تطمئنّ علىَ نفسِها من الزمن ، وتخشى أن تتغير ، هي ؟

نظرت إليه متأملة ، تريد أن تصدّقه ، ولا تريد أن تقول شيئا .

عندما رجعا معا ، يحملان الحقائب الشبكية القماش المصنوعة من ضفائر مجدولة رفيعة من النايلون ، مثقلة بعُلب الزبادي الورقية البيضاء ، وكيلو كباب وكفتة ، وحمامتين مشويتين،ينز الورق بسمنها السخن الذي انداح في بقعة واسعة بنّية اللون ، وكيلو الفراولة بحبوبها المنبعجة التي تبضّ بالأحمر المحبب ، وزجاجتي المياه المعدنية بلونهما الشفاف الضارب إلى زرقة وضاحة ، قالت له إن المياه مقطوعة من الصبح وقال إنه يعطش معها بسرعة وقال إن الحب مسألة عطش ، فابتسمت .

وقفت أمام دكان الميكانيكي الداخل في قبوة تحت عقد عال مقوّر في جدار الخان القديم ؛ وقالت له إن سيارتها لم تقم بالأمس ، وإن هذا الميكانيكي الذي اكتشفته بالصدفة البحتة ، لقطة ، وغريب جدا ، ولم تر مثله أمانةً ومهارةً معا ، قالت له هل تصدّق إنه ليسانس في الفلسفة بامتياز ؟ وإنه درس الماركسية ، ودخل المعتقل ، وإنه الآن بعد أن خرج من المعتقل ، يترجم هيجل عن الألمانية ، وإنه رفض العمل في الجامعة ورفض التحضير للدكتوراه ، وفتح هذا الدكان وإن عنده مقدرة سحرية على الأشياء الميكانيكية ، عشقٌ لها ؟ وإنه يختار زبائنه ويرفض الكثيرين ، ويتهاون جدا ، أيضا ، في الأجرة . بُهت من الحكاية وقال : خرافيّ . هل هناك في مصر شيء كهذا ؟ قالت : أهو ... أمامك .

كانت أنبوبة الفلورسنت الوحيدة تُشيع ضوءاً خاصاً في عتمة العقد العالي ، النهارية ، وتحتها مباشرة ملصق كبير لجيفارا بالأبيض والأسود ، وصورة فوتوغرافية لعبد الناصر وهو يخرج من السيارة بملابسة العسكرية ، عندما كان ذاهبا يخطب في الأزهر في سنة ١٩٥٦ ، فوق رف خشبي عريض وثقيل عليه العدد الحديدية السوداء ، والمفاتيح الإنجليزي بمقاييسها المختلفة مرتبة حسب حجمها معلقةً بمسامير مدقوقةٍ في أعلى حجر الحائط العاري الخشن ، وعلى الأرض أوعية وبراميل وصفائح زيت قديمة ، وعربة حديدية صغيرة للنقل ، مسطحة الأرضية لها قائم طويل وعليها مسدس صهر كهربائي بلاستيك ضخم الفوّهة ، لونه برتقالي .

كانت سيارتها الفولكس على الرصيف ، أمام الدكان ، مفتوحة على الموتور من الخلف .

نهض الأسطى خريج الفلسفة من على كرسي صغير بدون ظهر من وراء الرفّ . كان وجهه عريضا مربّعا تقريبا ، بنظّارات ، وله لحية سوداء كبيرة ، لكنها لا توحي ، بشكلٍ غريب ومباشر ، بأنه من الجماعات الاسلامية ، هناك في الوجه شيء عقلىّ وقلِق ينفي هذا الاحتمال على الفور . وقميصه الأسود ، على اللحم ، مفتوح على صدره . مسح يديه بفوطة باهتة قبل أن يصافحها ، وهو يقول بدون تكليف ، وببساطة : أهلاً رامة ، العربة جاهزة بعد الظهر الساعة ستة تماما . قالت له : شد حيلك ياحسنى ، أحتاج العربة الليلة ، ضروري ، وحياتك .

كانت في تصافحُ اليدين صراحة جسميّة كأنها ودّ طبيعىّ عفوى ، منقول على مستوى مباشر ، ولا يعني شيئا أكثر من ذاته ، عرفتهما أحدهما بالآخر : حسنى ، ميخائيل ، رئيسى في الشغل من زمان وأستاذي ، ونظر إليه الميكانيكي الفيلسوف نظرةً لم يفهم مغزاها ، وإن كانت محكومة ومهذبة جدا ، محمَّلةً بمعرفة ما ، حدْسية . .

قال لنفسه إنه في طفولته كان يعرف ، ويحس ببصيرةٍ ما طفليّةٍ مبكرة النضج هذا الوداد الجسدي الذي لا يتجاوز أبدا ذاته ، ولا يكاد يعي بذاته ، عند السيدات البلديات ، والجارات والصديقات والحبايب اللاتي كن يترددن على بيتهم في غيط العنب بينهن بعضهن البعض ، بينهن وباعة اللبن والخضار والجزارين ، بينهن وبينه هو الولد الخجول المتيّقظ الجنس الصغير الجسم ، تدقّ الواحدة منهن بيدها على صدرها المفتوح في الجلابية البيتي الخفيفة تحت الملاءة السوداء ، أو تضرب على فخذها ، بنفس الحركة الطبيعية التي تأتيها رامة عندما تنفعل في حوارٍ ما ، أو

تمصمص بشفتيها وهى تحكي حكاية وتندمج . وعرفه أيضا في أول مراهقته عند البنات من قريباته في الطرانة ، وكن يكبرنه بقليل ، وكانت صراحة الجسم الأنثوي مثيرة تحت الجلابية الفلاحي المشجّرة التي ترسم البطن والفخذين وتسقط على الأقدام الحافية ، وكن يتحركن ويقمن ويجلسن وهنّ على ألفة كاملة مع أجسامهن ، وينظرن إليه ، عارفات كأنهن لا يعرفن . قال إن صراحة الجسم ، وقبوله والاعتزاز به ، ببساطة ، من غير أدنى تواطؤ بالحياء المصطنع ، هو حقيقة أولية ؛ طيبة ، لاتطلب شيئا وليس فيها أدنى غواية ، لم يرها إلا في بنات البلد ، وبنات الفلاحين ، ثم فيها ، هي ، أيضا ، بشكل مُكتسِح غير واع بنفسه في معظم الأحيان ، وله ذكاؤه الخاص في بعض الأحيان .

الشوق إليكِ ، فقط ، هو الذي يُبكيني .

لاشهادة أخرى وراء هذه الدموع التي مازالت تُخجلني .

قالت : حاول ألا تكون شقيا جدا .

قالت : يجب أن تكون فخورا ، وأن تسير في الشارع مرفوع القامة ، كالطاووس ، لأن رامة ناجي تحبك .

وقالت : أنا لم أحب طرزان ، مثلا . لماذا يجب أن تخجل من دموعك ؟

قال : أما الروح المكسورة ، فمن يحملها ؟

وقال : حبيبك ، الذي ليس طرزان ، مثلا ، لا يكاد يمر عليه يوم دون دموع مسكوبة أو محبوسة .

وقال : ولكن المحبّة تستر كل الذنوب .

قال : لو طاوعت نفسي لأمسكت عقد الفل الجاف المصفر الذي أحتفظ به بين صفحات قاموس ضخم للغة القبطيّة ، أغرقه قبلاتٍ ودموعا ، من فرط شوقي إليها ، إلى رائحتها إلى جسدها وصوتها وكلامها وحنانها ويديها .

قال : هذا يصلح موضوعا لأغنية .

وقال : هذا لا يصلح في أى شيء .

أكان ضروريا إذن أن تقول : سريري أخضر ، عطّرت فراشي بمرٍّ وعودٍ وقرفة ، وحبكَ ثمرة حلوة في حلقي ؟

أضروريٌّ الكلام ، أصلا ؟

وهي نائمة ، عيناها المدورتان المنتفختان قليلا ، مغمضتان ، وسمرة وجنتها الصافية متضرجة باحمرار خفيف ، جسمها الممتلىء بمجده الداخليّ مكشوفٌ له ، ومطمئن ، قد أسلمته له ، كأنما هو ليس لها ، شبعان في استرخاء العطاء الكامل المنقضي . يقترب ببطء ورفق من وجهها ويضع شفتيه على شفتيها نصف المفتوحتين لا يكاد يمسهما ، بخفة ، لا يحتمل أن يرد نفسه عنها ، لا يريد أن يصنع الحب لأن الحب قائم ولا يمكن أن يُمس ، يريد أن يقبلها لأنها هي نائمة ، حقيقة ، بجانبه ولأنه فقط ، يحبها .

سر الوجه الأنثوي النائم المطويّ على أسراره القديمة ، ومذابحه القديمة ، معاشقه وإحباطاته ، اشتعالات شبقه وكآبات وحشته وعزلته ، إراداته القوية واستسلامات ضعفه ، معاركه الضارية الوحشية وتنازلاته الآتية عن رحمةٍ قلب عطوف . الحياة الأخرى ، حافلةً ومحتشدة بكل عذاباتها ، وكل جنّاتها ، هادئة الآن ومستكنة في نور الوجه ، وخفائه ، وجماله الذي لايفسّر . الخد الأسيل الذي اكتسب من راحة النوم نعومةً خارقة كأنها مستحيلة ، والعينان المسدلتان ، والشفتان المفتوحتان قليلاً في براءة طفلية نسوية معا ، والاستسلام الكامل والسلام الكامل ، هذه هي الِهبة التي لاتُقدَّر التي أُعطيت له ، له . سر عطائها نفسها له ، في النوم ، بين ذراعيه ، أخفى وأعظم بما لا يقاس ، من سر عطائها نفسها له في الحب . هي هنا تسليم كامل وثقة كاملة ، بلا أدنى شرخ ، كأنها تهبه حياتها نفسها .

ريشها الأسود الناعم الملمس مفروش عليها ، مضموم على ثدييها ، يخفيها تحت سحر نومها ، الرُقْية نافذة الأثر ، عميقة ، فعالة في هدوء .

نادته باسمه ، بصوت آخر ، خاضع ومتنّ وبعيد ، من نومها ، هذا الصوت من نومها يعذّبه من الحنان المحبوس المكتفي بذاته ، يجعل صدرة يدرّ ويهمي من غير مناعة ، من غير حاجز ، في الصمت والسكون الكامل ، كأنما يريد أن يهبها نفسه وكل حياته وقد أحيط به فهو لا يدري كيف .

قال : نعم .
فأنّتْ أنين ارتياح ، واستسلام .

لم يقل لها: لا أحد، لا أحد على الاطلاق، لا نسوق الواحدات المتعدّدات، ولا أصدقائي على تنوعهم ، لا الصحاب ولا الغرباء ، لا أحد يمكن أن يعرف أو أن يفهم هذا الجَيَشان المتقلب في الداخل ، هذا الخليط المرتطم من الشوق الباطل الجارح للحبّ وللفهم وللحرية وللعدالة ، هذا الطين الليّن المتخثّر الخائن السطح من بقايا آثام عريقة وبقايا التخليات والتنازلات اليومية التي لا تريد أن تموت والرغبة المسفوحة تحت أقدام العابرين ، في المعرفة والرِفْق ، أن نفهم الوحشات العميقة المدى التي تحفر نفسها في داخلنا ، وبمجرد فهمها نُرقّق من خشونة خوافيها ، لا أحد ولا أعز الناس ولا أقربهم ، على الأخص أعز الناس ، على الأخص أعز الناس وأقربهم ، ولماذا يجب أن نفهم العيون المبتلة ؟
لا أنتِ ولا أنا أيضا . لا أعرف ولا أفهم ، فقط أريد .

قال : هذا كله غير صحيح .
قالت : أنت صلب العينين جداً ، وستعيش مائة عام .
قالت له : أنت عوّضتني ، بحبك الرقيق ، عن التلويث الذي عرفته في أول شبابي .
تعبت ، حياتي كانت مزدحمة ، كنت موضع الحب كما كنت موضع الشبق من الكثيرين

كانت قد قالت له : كان الأول وحشا ، وساديًا ، لا ، لاتسألني ، لا أريد أن أتذكر .
عشتروت التي كان رجالها ستة .

أما الأول فقد مضى في البرية متخبطاً وحده ذبيحا ، في يده سكين قابيل الأبديّ اللعنة وقد انغرست في صدره ، أما الثاني فقد استحال طائراً مكسور الجناح يتطوح عبر الغابات ، بين عمائر الأسمنت والحديد المسلح ، يلتقط حبات الرمان الصغيرة ويُسقطها . والحبات هي التي أثارت الربّة عليه ، فأسقطته من بين مخالبها الحنون ، ولكنها مازالت تحنو عليه ، وتحفظ حق العشرة القديمة .

أما الثالث الذي قالت عنه : « كان رجلا كاملا . وكنت طفلةً رغم كل التلوثات التي

وقعت عليّ . ولا أعرف ، في عمق جسمي ، ما الحب ، مع أن الطائر المكسور الجناح كان قد وقع عليّ . لكنه هو الذي أيقظني بعد أن كنت ميتة وباردة ، وعلّمني الحب في نار الثورة والشبق معا » ، فقد استحال أسدا مُطارَدا ، يلاحقه الحب والثورة .

الرابع هو الحب الأوّل حقا وإن كان ليس الشبق الأوّل . جاء من بعيد ينقّب بين أطلال آمون ومقدسات زوجته موت ، ويصنع المجد ستة أيام أولى . جواد جامح تسقط عليه السياط وهو يتغنى بترانيم حب مصرية ، وبعد الانقطاع الطويل في البراري الشاسعة قال لها : « أفتقدك » .

الخامس ذئب شاب مطرود جاء يحمل حنان الذئب الوحيد المُسْتوحِش للذئبة الوحيدة المستوحشة .

أما السادس فهو البستانيّ الذي يسقي وردتها بدمائه المنتباحة المسكوبة ، هو الآن الصقر الجارح الذي ينقضّ على الأرض المنتهَكة البريئة معا ، حور الذي يحلّق في السماء وفي منقاره الحاد أشلاءٌ لا اكتمال لها أبداً مزقٌ من أوصال الطائر المكسور والأسد والذئب والحصان التي مازالت جامحة كلها في ساحاتها الخلفية ومازال يصعد فوق بِركة الدم التي جفّت تحت تموز الذبيح .

وسوف تضحك وتقول له : هذه التعاشيق والتراكيب كلها تعسفية مصنوعة صنعاً من أوهامك ، ومن أوهامك عن نفسك .

يقترب منتصف الليل من يوم آخر غريبٍ بقدر ما أيامه غريبة ، ومألوف كأنه مرّ به مراتٍ بلا عدد .

في الثالثة من فجر ذلك اليوم كان مازال يواصل هذا الوجود الخاص به ، معها ، ومتوتراً شديد اليقظة ، يحيا بها ، يتحدث إليها كأنما بصوت متحدد وواضح النبرات ، ويسمع منها ، كأنها معه ، وفي الوقت نفسه يعرف أنه إنما يحلم ويتذكر وتنشط به الخيالات والهجسات القلقة الحادة . لم يكن عنده تفسير قريب لهذا كله ، لم يحدث ماهو غير مألوف في مسار اليوم الخارجيّ ، ولكنه كان يحس كل عصب فيه مشدودا ومتوفزا ، وفي قلبه غليان لا قرار له .

قال : في هذه الساعات دفْق وجودكِ يصاحبني على الدوام ، طاغياً ، يحتشد به الليل الذي يحيط بي والفجر الذي تتردد فيه ، خارج غرفتي ، نداءات الأذان ، وصوت البحر البعيد خافت وموحش، ولكن الوحشة تمتد مترامية وتتجسد كياناً له قوام كثيف يغطي العالم كله إلى مالا حدود له ويضغط عليه.

قال : هل تتصورين مدى الحب والحنين وتَطَوُّح القلب الذي يتفجر به العالم ، تحت هذا الضغط ، في تلك الساعات الأولى من الصبح الذي يتشقق به الليل ؟ هل تتصورين الحس بالفقدان ووطأة الصمت ؟

كان يقلّب ــ كما يحدث ــ زر الراديو الصغير ، ويسمع غمغمة اللغات وبلبلة الإذاعات واختلاط الأحداث والموسيقات ، التقط إذاعة اسرائيل بعربيتها الصلفة الوقحة تدعو المقاتلين ــ تسميهم المسلّحين ــ للاستسلام لجيش الدفاع الاسرائيلي وكان يمر من جديد بما عرفه في الأيام السوداء من عام ١٩٦٧ ، الضربات التي تشلّ النفس ويثور لها الغضب المكتوم العاجز الذي لا يطاق ، وهناك أيضا حس بالحب المهدر وبالدمار .

قال : ولن يكون هناك أبداً استسلام . هذا صحيح .

وقال : لم يرتد عليّ في يوم من الأيام ذلك الباب المغلق ، سجن الذات المقطوعة ، هذا أيضا صحيح . ولكن أين الخلاص ؟ لأن الشيء الغريب أنْ لم يعد هناك نداء . أنتِ أيضا لم أعد أناديك .

وجاءت أغنية من إحدى الإذاعات ، قديمة مترهلة بما تحمل من زمن وشجن ، سنتمنتالية ، من الأربعينيات. عادت إليه بأيام الاسكندرية البائدة ، وليالي الإظلام ، وتقطع الغارات ، انهدام بضعة بيوت قديمة في البياصة أو السبع بنات كانت عندئذ تهد القلب وتبدو اليوم بدائية وساذجة كأنها الرمي بالسهام أو الرماح . أشعار علي محمود طه الرومانتيكية الغريرة ، وصوت الغناء المتهدل ، كليوباترا أى حلم من لياليك الحسان ، في شارع راغب باشا الذي خلا بالليل من المارة تمر به قلقلة آخر ترام في الساعة الحادية عشرة ثم دقات «فيردى» بالسلام

الملكي والصمت القلق ، يأتي معها نوعٌ من الروع ورائحة احتراق أحلام الشباب وأوراقه وأشواقه الملتبسة المدفونة تتحرك من جديد .

سأل نفسه : أين كنتِ أنتِ ، في هذه الأيام ؟ أية طفلةٍ كنت ؟

وهزّه توقٌ لا يعرف كيف يقاومه إلى أن يعرف تلك الطفلة ، تلك الصبية وتلك الفتاة المخيفة الجمال الهضيمة الجسد التي رأى في عينيها المتقدتين حلماً لم يتحقق بعد ، فهل تحقق بعد ؟

في سبحة من سبحات تلك الأحلام الرُؤْيَات التي لا عداد لها ، يقظة مليئة بكل التفاصيل ، كان بجوارها على الصوفا وفرشها يغوص بها قليلاً ، النور من المسرجة المطرزة النحاس ؛ والمائدة الڤيكتورية الدسمة اللمعان ، خاوية تقريبا لم تزدحم بعد فقد أقيمت منذ أيام ، وشجرة الظل هناك ماتزال جديدة غير وارفة جدا ، والعتمة الخفيفة من وراء نقوش المشربية العتيقة المخرّمة ، وهو يحس أنه ، هنا ، في وطنه ، في هذا العالم الحميم الذي قالت له إنه ليس حقيقيا ، وقال ما أعمق مثول حقيقته . وطلب منها ، ببساطة وشوق ، أن يرى صورها القديمة مرة أخرى ، أن تقوم فتأتي إليه بها من الخزانة الصغيرة جنب السرير ، وهو عندما يقول لها بهذا الرجاء ، يرى قصاصات الصحيفة وصورة التخّرج من الجامعة ، والبنت التي في عينيها المعبودتين ذلك الحلم وذلك التمرد العميق وكأنه ذلك اليأس أيضا ، ومدت إليه يدها ، وأمسكت بها وجهه ، وقالت : « ياحبيبي » وكانت الكلمة بصوتها العذب ما أرق عذوبته ، صوتها الحنون ، فيها معرفة .

قال : معرفة بحبنا .

وكانت عيناه غير جافتين .

كان يتيقظ في الليل فجأة وينهض ، من الوحشة ، وسط مياه الليل الوثيقة الضيقة المزدحمة بأخبار الانتهاك . ومازالت أخبار بيروت الحصار والمذبحة تسقط من إذاعات العالم

المستيقظة النهمة ، بنغم رتيب الآن ، وكان يعرف أن الفجر ، والالم ، في الخارج ، ينتظرانه حتى يأتي الصباح الغائم الخاوي . وكان العالم موحشا ، واليقظة فيه موجعة ، وغاضبة .

وفي غرفته في ماريوبوليس المطلة على ليل صاخ ، ومنير ، وفيه هواء البحر ، يأتيه صوتها في التليفون :

« لماذا لا تأتي ؟ ولك في القاهرة امرأة ، وبيت ؟ » . كان الشوق في هذا الصوت الناعم لا يكاد يُحتمل ، وأحس نفسه يموت ، وجاءته الغربة من جديد والحس بالنفى والغضب الذي تطامن من حدّته دُعاباتٌ مستدعاةٌ بمجرد الإرادة ، وهو ينحني عليها ، يقبلها ، بسبيله إلى أن يمضي عنها لآخر مرة ، كل شيء حوله فيما يحس ركامٌ يتهاوي في زلزالِ سقوطٍ لا نهاية له ، حبه فقط هو الذي ينقذه ، وحبها . ويقول لها : « أحبيني » وتقول له « أحبك » .

أنياب الغضب تَسقُط . خُطى السقوط من عدن تحلّق به من جديد عَبْر النجوم . الرؤى الصور الذكريات الأحلام تتزاحم حوله ، جوارح ، أما شقشقة العصافير خارج حائط غرفته فهى طِفليّة وحمقاء . وكان يحس نفسه في غير مكان ، في أول هذا اليوم .

يدخل الآن على انحسار ذلك اليوم فكيف سيكون اليوم الجديد ؟

قال : كانت بدايات الأيام تأتي وتمضي وتعود ، لا نحس مرورها ولا أنّها جاءت أو انقضت ، تلك المنطقة الباهرة التي لا أستطيع أن أقترب منها الآن بأى جرأةٍ على التذكّر على الإطلاق ، أعرف أنها كامنة فيّ تحمل شحنة لا يمكن أن ألمسها ، أعرف أنها موجودة بطاقةٍ متفجرة ، أعرف أنها مجدي وكنزي المشتعل لن تُفلته أصابعي المحترقة .

صبابات القلب وصبوات الجسد التي لا مثيل لنشوتها . ما ودّعك ربك وماقلى . ويقظته حارة في أول الفجر الرطب الأنفاس .

قال : حُبي لك ـ كاليأس ـ لا ينكسر ، كلاهما ، هل قلت لك ذلك من قبل ؟ هل

تعرفين الآن لماذا لا أناديك ؟ فماذا يكون إذن هذا الشوق ؟ كيف يمكن أن يكون النداء بلا صوت ؟ لأنه أعمق ، بمالا يقاس ؟ وسطوته نهائية ؟

يوم جديد يقترب ، وبعده يوم جديد ، ويوم جديد ، وآخر ، وآخر ، كيف تأتي كلها ؟

وكيف تمضي ؟ .

قال : حبيبتي ، احرصي على نفسك ، وأحبيني .

قال : أنا أحبك .

الصرخة التي تبقى مسموعة ، ماثلة بعد أن يغوص الغريق في الماء لآخر مرة .

حواء التي راودتها نفسها بالخلود والألوهية . لحظة ، فسقته خمرها حتى أسكرته وأطعمته من شجرة الخلود ، فسقط عن عينيهما وعن عورتيهما الغشاء وعرفا أن ما ضُرب عليها حقاً هو الهلاك . ولكن لحظة الحلم بالخلود هي عين الخلود .

قال لها ، كأنه يهذى ، هل قال ؟

ـــ الحب خالد ، صنع الحب خالد ، القتل خالد ، العطاء النهائي خالد ، النداء خالد ، الجُرم خالد ، ما من شيء سوف يمسح الدم عن أيدي الجلادين ولا عن أفواه الضحايا المفتوحة ، شهداء الاسكندرية وبرية سقيط ، هذا خالد ؛ قتْلَى صبرا وشاتيلا ، هذا خالد ؛ الساقطون من كوبري عباس وفي محطة الرمل وفي باب الشعرية ، تحت الهلال والصليب ، هذا خالد ؛ والمعلّقون من الخطاطيف تنهش لحمهم كلاب السجن الحربي ، من سنج سنج إلى سومطرة ومن وارسو إلى بيونس إيرس ، من سيبيريا إلى فلسطين ، في القلعة وفي كل القلاع ، هذا خالد ، لا يزول على طول الأرضين وعرضها ، على طول الأزمان وعرضها ، على طول السماوات وعرضها ، خالد خالد خالد .. وكل أيدينا ، كلنا ، تنْطف دماً على المسامير المدقوقة في الخشبات القائمة إلى أبد الآبدين ، لا ننزل من عليها أبدا ، والخلّ ينزّ من طعنة الرمح المهتز المرشوق بين ضلوعنا ، لا يُنضَى عنها أبدا ، أبدا ! جُغرافيّا القتل والاستشهاد خريطتها خالدة

وليس لها حدود ، كل قتيل خالد وكل قاتل خالد ، كلهم ، واحداً واحداً ، لا يحل واحدٌ منهم محل واحدٍ أبدا . ليسوا أعداداً وليسوا تاريخاً وهم نسيج التاريخ الحيّ لُحمته وسداه .

قالت : لا أفهم هذا الحس بالإثم الفظيع . دعك من الأسباب الفرويدية والشخصية ، وما إلى ذلك . هذا كله ، كما تقول أنت ، سهل جدا ، لكن هذا الحس بالإثم ليس قبطيا ، حتى .

قال : القبطيّ فيه أنه ليس فقط حسا بالإثم بل بما يتجاوزه ويتحدّاه .

قالت : ولكن هناك قتل وقتل . لا يتساويان . هذا واضح جدا .
قال : أبداً . أبداً . واحد . وباقٍ دائما . بلا أدنى تبرير . بلا أدنى مغفرة .
قالت له : لماذا ترفرف دائما . أنت لست بطائر .
قال : ولماذا أنتِ المبدأ المُصحِّح ، دائما ؟ أنا .. أنا لا أستطيع أن أرفع قدميّ عن الأرض .

قال : هذه الكارثة التي حلت بالقلب ، لا تريد أن تنقضي ، متى تزول ؟ لن يحدث بالطبع . وأنا أعرف أنها لن تنقضي . فلماذا هذا السؤال ، وهذا اللجج ، وهذا العبث كله ؟ أما تستطيع أن تحتمل ، كما يحتمل الرجال ؟ وأنت تحتمل ، أيضا ، وهو أمر غير مهم جدا ، على أية حال .

قال لها ، سوف أحكي لك عن وابور الدقيق الذي كان بعد كوبري راغب باشا ووابور الدقيق الثاني الذي كان أمام بيتنا القديم في غيط العنب ، ومدرسة البنات التي كانت إلى جانبه ، وفيها تعريشة عنب ، وكيف كنت واقفاً في الشرفة المطلة عليها وأنا ربما في السادسة ، لابد أن ذلك كان في سنة ١٩٣٢ إذن ، وعندما رأيتُ كيف سقطت بنتٌ رمت نفسها من الدور الثالث ، كانت قد سقطت في الامتحان . وسمعتُ صوت ارتطام جسمها بتكعيبة العنب الخشبية المورقة والمحمّلة بالعناقيد . مازلتُ أسمع هذا الصوت بعد خمسين سنة ، وكيف نام الولد الصغير بعد أن جاءت عربة الإسعاف ومضت ، نام على حِجْر إستر امرأة خاله التي كانت تسكن معهم وكانت صورتك الأولى ، أنتِ ، وضع وجهه على فخذها ونام في حنانها .

دق الباب ، فنظرت إلى ساعتها بسرعة وقالت له هامسة قبل أن تتحرك لتفتح :

ـــ هذه سنية منصور ، ولازم معها السيد وكيل الوزارة . ميعادهما . منقولة ياسيدي إلى العريش مسئولةً عن منطقة شمال شرق . يابخت من كان النقيب خاله .

كانت قد نهضت بخفّة تجرى إلى الباب .

دخلت المرأة بانبعاجاتها المقتحمة ، صدرها المهول ، تحت البلوزة الحريرية ، يرفعه سوتيان لابد قويٌّ جدا ، وعجيزتها ترفع الجيبة الباريسيّة الغالية التي تبدو مع ذلك كأنها من شُغل خيّاطة بلدي ، وهى تبتسم ابتسامة ثابتة كأنها ملصوقة بوجهها . وظهر وراءها قدري عبد الفتاح وكيل الوزارة ، بجرمه الضخم ، ينهج قليلا ، وفي يده علبة ورقيّة بيضاء مربوطة بخيط مفضّض مذهب مضفور ، ومعقوص ، وعليها اسم حلواني (لابيتي) . وانحنى الوكيل يقبّل مضيفته فظهر التماع الصلع بالعرق الخفيف ، تحت شعره الطفيف المرجّل بعناية لكي يخفيه ، وقبّل خدها قبلةً رمزية بخدّه المتهدل وهو يُصدر أصواتا غامضة يقصد بها التعبير عن فرط السعادة لأنه جاء ، فتخرج الأصوات كأنها غمغمة بلهاء ، وجلس على الصوفا بثقل ، بطنه الكبير يندلق على نفسه ، أمامه . ولكنه كان حسن الاحتمال لهذا الثقل . بينما تبادل الجميع القبلات التقليدية وعبارات الترحيب التقليدية وبدأت الثرثرة المعتادة حول أخبار الهيئة والسفريات والبدلات والتنقلات والترقيات وحكايات السياسيين والصحفيين والأثريين والأثريات والنوادر عن العلاقات والاصطدامات والحفريات والمهمات وحكايات أخرى عن إشاعات تقول إنه أقيمت في صحراء الشرقية مزارع ضخمة لتربية الفراخ التي تذهب لتغذية مزارع ضخمة لتربية الثعالب ثم تصدير فرائها للخارج وبيعها أو إهدائها ، للحكّام والانفتاحيين والمقاولين الكبار ، ومزارع أخرى شاسعة لتربية النعام في الفيوم . وقال قدري عبد الفتاح إن هذا ، يمكنْ ، غير مهم لكن بعض هذه المزارع تقام على أراضٍ أثرية محظورةٍ على الاستغلال ، وعندما سئل لماذا لم تفعل الهيئة شيئاً ، سكت وهز يديه بحركة فصيحة عن العجز والتسليم ، وكان يشرب الشاى بصوتٍ شفْطٍ مرتفع ، فقالت له سنيّه بمعاتبةٍ جريئة وبلا حياء : « سيدى ياسيدى على أولاد الباشوات » فنظر إليها وقد تلقى صفعة التهزيء الذي ليس خفيفا جدا بامتنان كأنه تلقى عبارة إعزاز . كانت رامة قد قالت له مرة : يبدو كأن عنده تخلّفا عقليا فقال لها : على العكس ، ذكاؤه حاد ، ومن النوع النفاذ إلى مواطن المصالح والذي يتشمّم على الفور اتجاهات الريح ويتبعها بإصرار ، متسلحاً بعُدةٍ كبيرة من المقدرة كان يمكن أن تفعل الكثير في الاتجاه الصحيح ، خسارة . وتذكّر ميخائيل كيف كان يشهده في الندوات والاجتماعات متحدثاً لبقا ، ومناورا حصيفا مهاجما أو مدافعا ،

يسوق الحجج أو يهدّد عن طريق خفي أو فصيح ، أو يستفز ويستنفر ويصالح ويتنازل حتى يتحقق له ما يريد .

وبعد أن شربوا الشاى وأكلوا الجاتوه الثمين وأوشك معين الثرثرة على النضوب ، انصرف الوكيل وصديقته ، وردّت مضيفتهما عليهما الباب وعادت إليه وهى تثب وثبات خفيفة من مجرد الفرح بالخلاص منهما . كان يعرف أنهما جاءا في نوع من حملةٍ لتعبئة التأييد المضمَر لحركة الترقية الجديدة للسيدة صاحبة الوكيل ، أو على الأقل لتحييد ردود فعلٍ قد تثير زوبعة في الهيئة ، وكان ميخائيل يعرف عن هذه السيدة كفاءةً معينة وقدرة ، بغض النظر عن الجانب الشخصي المظلَّل في الحكاية ، فوقف موقف الحياد ، أما رامة فقد كانت أعلى بكثير منها في السلم الوظيفي ، وكانت منطقة شمال شرق بعيدة عن أى اهتمام لها ، على أى حال ، وكانت أيضا منصفة وقادرة على التسليم بأن الاستثناء له مبررات موضوعية أيضا ، وعلى أن تخفي إلى حدٍ ما احتقارها الهيِّن غير العنيف للمسألة كلها ، وحكت له ، وهى تخلع الفستان الهادىء الجمال ، وتأخذ راحتها على الصوفا ، بجلستها الأثيرة ، تضع ساقها تحت فخذها ، ويدها تتلمس أعلى صدرها بجانب الإبط ، بحركة بطيئة لا واعية ، حكاية يعرف منها جزءا وتَخْفى عليه أجزاء ، قالت له : « هل تعرف أنه كان في شبابه عضوا في « حدّتو » ؟ نعم ياسيدي كان ، ولم يُعتقل قط مع ذلك ، أرسله أبوه الباشا الذي كان لواءاً في الجيش ليدرس في لندن » . فقال إنه يعرف أنه حصل على الماچستير من جامعة إقليمية غير معروفة تقريبا ، نسى ماهى ، في انجلترا وليس في لندن . فقالت : « تماما عليك نور ، أنت على حق ، ورجع بعد عدة سنين والتحق بالمصلحة ، ولم يكن اسمها هيئة عندئذ طبعا ، وعرف كيف يسلك طريقه إلى أعلى بكل الوسائل المعروفة » . قال : « ألم أقل لك ؟ ذكاؤه هذا العمليّ الخارق فعّال ، لأنه أساساً لا يعرف معنى الأخلاق وإن كان يُحسن استخدام هذا المعنى ، ولكن سنيّة هذه كيف حصلت عليه ؟ . قالت : « أبداً ياحبيبي ألا تعرف يعني ؟ بالطريقة التي تحصل بها المرأة على الرجل ، ببساطة . كان الرجل قد طلّق زوجته ــ القصة تقليدية ــ هى التي صعّدته في الحكومة وتزوجها لأنها قريبة أحد الضباط الأحرار الذين اصبحوا موظفين كبارا ، وتخلى عنها بمجرد أن سقط قريبها في حكاية من حكايات الاختلاس ، وأصيب صاحبنا بنوبة قلبية فظهرت هذه ، كأنها كانت تتربص بالفرصة ، وأنقذته ، بمزيج من شهامة بنت البلد وحذقها معاً ، ويبدو والله أعلم أنها عرفت كيف ترعاه وكيف تُسلّيه أيضا بعد أن طلق امرأته ، فقط ، خلاص . الحكاية خلصت » . قال : « ولكن زوجها ، وأولادهما ؟ » قالت : « الرجل كما تعرف ، أو لاتعرف ، يمكن ، يعمل

طبيبا في الكويت فتح الله عليه ففتح عيادة خاصة تحولت إلى مستشفى خاص . مليونير عُقبى لك » . قال : « بعد الشر . فال الله ولا فالك » . قالت : « وذيل الحكاية ، الضروري ، أن السيد الوكيل اشترى شقة بالشيء الفلاني في عمارة جديدة بالمعادي ، وأن سنية منصور ، بالصدفة البحتة يعني ، لها شقة باسمها في نفس العمارة وفي نفس الدور أيضا ، عيني ياعيني على الصدفة البحتة وما يجيء منها » . قال ، متذكرا : « وكان هناك كلام عن ضياع عصا ذهبية أثرية في أثناء نقلها من المعرض الذي أقيم في دسلدورف ، أليس كذلك ؟ وكان قدرى عبد الفتاح سافر مع المعرض » . قالت : « بالضبط . ولم يسفر التحقيق عن شيء اللهم إلا مسئولية شركة الطيران وشركة التأمين . كل شيء تمام عند السفر وعند الشحن ، الأوراق والتوقيعات مضبوطة مائة في المائة ، ودفعت « لويدز » للحكومة . ولم يوجَّه لأحد لا إنذار ولا لوم ولا تكدير باللغة المصلحية القديمة ، حتى ، وطبعا مسئول الشئون الإدارية والمالية بعد ذلك بسنين بنى عمارة واشترى « خنزيرة » وقال إنه ورث عن عمه في الصعيد » . قال : « منطقة شمال شرق هذه ليست إلا خطوة طبعا ، عتبة ثانية في السلم ، ستَرَيْن ، وستعود بعد سنة مثلا نصفها سفريات ومهمات وإجازات ، إلى مدير عام في الهيئة » . قالت : « وهل في هذا كلام ؟ يمضغوها ياسيدي ، هنيًا لهم » . قال : « ظلمنا الرجل والله . وظلمناها .. في الرجل أيضا نوع من الصفاء والمودة . يعني ماذا أقول ؟ كأنه مجرى عميق في قلب جِرمه الضخم هذا ، وفيه أيضا جوانب طفولية شديدة العذوبة . وهى في الآخر بنت بلد . صحيح أفسدتها الحقبة التي نعيشها ، كما أفسدت الكثيرين . ولكن التربة الأساسية فيها كانْ يمكن أن تكون طيبة . لا أنسى كيف أنهما أوقفا العمل في معبد الواحات بعد أن سقط عليّ ، وكان الرجل شهما وفعل كل ما يمكن » . قالت : « لاتنسَ أيضا أن هذا كان من زمان » . قال : « وكم فينا كلنا من عيوب ، ومعاطب . ومن منا الذي سوف يرجمها أولاً بحجر ؟ إلى آخره » . قالت : « يمكن . أنت والله مازلت طيب القلب . والله أعلم ياسيدى بما تخفى الصدور . دعنا منهم ، هل عرفت أيضا أن إيفيت طوسون مسافرة إلى استراليا ؟ » قال : « الجماعه تتفكك يعني ، وينفلت عيارها . استراليا ، مرة واحدة ؟ مهاجرة يعني ؟ » قالت : « تلحق بصديقها هذا الذي تموت فيه ولا يعرفه أحد » . قال : « يابختهم .. ! على خيرة الله » . نظرت اليه وقالت : « أنت سوف تسافر معي ، بعد ، إلى جزيرتنا في اليونان » .

قال : « نعم ، نعم ، حتى لو لم يحدث ، نعم » .

وكتبت الآنسه رضا عبد السلام النعناعي في ١٢ مارس سنة ١٩٨٠ إلى « الأهرام » : « انهار المنزل الذي كنا نسكنه في شارع مختار الجندي رقم ٢٢، برأس التين في يوم ١٩٧٤/١٢/٣٠ . أخذنا غرفة بالمأوى بشارع البيطاش غرفة رقم ١٠. إنني أعيش مع أختى الكبيرة المطلقة ومع أولادها ويعيش معي أخي .. ثلاثة أسر في حجرة صغيرة لاتسع أكثر من ثلاثة أفراد ، مما ترتب عليه وفاة والدتي متأثرة بآلام الروماتيزم نتيجة الرطوبة الشديدة بالغرفة » .

وفي ١٩٧٦/٥/٣ نشرت « الأهرام » أن تاجر قطع غيار وهو لبناني- هرب من جحيم الحرب في بيروت دفع ٢٢٠٠ جنيه إيجاراً شهريا في شقة مفروشة في الدور رقم٢٤ من عمارة على النيل في الجيزة، كما استأجر شقيق هذا التاجر شقة في العمارة نفسها لكنه يدفع ايجارا زهيدا هو ٨٠٠ جنيها فقط في الشهر ، وأن التاجر اللبناني افتتح متجرين لبيع قطع الغيار في القاهرة كما اشترى سيارتين يقودهما سائقان خصوصيان غير ثلاث خدم وطباخ على خدمته » . وقال إن هذا حدث في سنة ١٩٧٦ وكانت الدنيا مازالت بخير ، وقبل ذلك بشهور قلائل كتبت صُدف عبد العزيز بالابراهيمية ، الاسكندرية ، في ١٩٧٥/١١/٢٨ ، إلى « الأهرام » : « عندما طلقني زوجي منذ ٤ سنوات وقذف بي وبأطفالي الخمسة منه إلى عرض الطريق بلا مال تنفق منه ولا قوت يمسك رمقنا تجمدت الدموع في عيني : أليس هو الرجل ؟ ألست مجرد أنثى يراها أحد الرجال متعة له حتى إذا زهد منها ألقى بها بعيدا كما لو كان يتخلص من نفاية ؟ إلى أن حصلت بعد عناء على حكم نفقة شهرية من أجل أطفالى لا تكاد تكفى سد أفواههم أسبوعا واحداً . لم أستطع إلى الآن تنفيذ هذا الحكم حيث إجراءات تنفيذ الأحكام بالغة التعقيد كما أن الدولة لم تضع إلى الآن نظاما يؤدى إلى تيسير تنفيذ أحكام النفقة دون تلك العقبات التي لاحصر لها ، ولقد سارعت إلى العمل كخادمة أقصد باللغة التي يتداولها السادة المهذبون (شغالة) نظير أجر يوميّ يقتضيني أن أعمل يوميا بلا توقف حتى أني لا أعرف مذاق الراحة لكيْ لا أحرم أطفالي من أجر اليوم الذي قد أتغيّبه عن العمل ... ثم ــ وكل الفضل لله ــ توفر معي ثمن بضعة أمتار من الكستور تكفي لتفصيل ثوب لكل من أطفالي قبل حلول برد الشتاء القارس حيث توجهت إلى المتجر الشعبي في حي كامب شيزار كى أشترى القماش لكنني فوجئت عند دفع الثمن أنى مجبرة على شراء زجاجة حبر .. ذهلت .. قلت لست في حاجة اليها ، أن اطفالي يستعملون في كتابة دروسهم أقلام الحبر الجاف .. لكن السادة العاملين في المتجر أصروا على آن ادفع ثمن زجاجة الحبر وإلا امتنعوا عن تسليمي القماش ؟ دفعت مرغمة حتى أتجنب ما يؤذى شعورى ،

لكنني بكيت غيظا وكمدا كما لم أبكِ من قبل . إن ثمن هذه الزجاجة قد لايكون كبيرا عندكم أيها السادة لكنه يعتبر عندى ثمن وجبة طعام كاملة من أجل أطفالى جميعا هذا إلى جانب أننى في غنى عنها كما أن أحدا لن يقبل شرائها منى ، إنكم تقولون : إن القشة تقصم أحيانا ظهر البعير .. لكنى أقول إن هذه الزجاجة قصمت ظهرى » .

قال : هذه السيدة تكتب بفصاحة .. تُرى من ترجم لها رسالتها إلى الفصحى ؟

أما في ٢٥ مايو سنة ١٩٨٠ فقد تعطل ركاب القطار القادم من منوف إلى القاهرة الساعة ٦,١٥ صباحا ، ومنهم طلاب يقصدون لجان امتحاناتهم وموظفون وعمال ، لمدة ثلث ساعة تقريبا .. لماذا ؟ بسبب حذاء الكمساري الذي وقع منه بين عربات القطار ، فأسرع بإبلاغ السائق الذي أوقف القطار بمنتهى المروءة لزميله ، التوقف كان عند محطة شلقان وسط الطريق » . قالت : خلاص ، خلصت الحكاية .

قالت له ، هل تذكر تلك الليلة عندما سقطتَ مريضا في الكاتاراكت القديم ؟ عندما كان بيننا موعد ، ولم يتحقق ؟ وجئتُ اليك في أول الفجر ، تذكّر ، وعندما خرجت من عندك اكتشفت أنك تركت عليّ نقطة دم ؟

لم يجب . كانت الليلة أقسى عليه من أن ينساها وأقسى من أن يعترف بأنه لا ينساها ، معا .

فأكملت : بينما ذهبتَ أنت إلى الكاتاراكت الجديد ، كنت أنا في انتظارك في البار ، في الكاتاراكت القديم ــ هذا كل شيء ، بهذه البساطة . الآن فقط أستطيع أن أقول لك . ليلتها لم يكن ممكناً أن أقول فيبدو أنني كنت أعتذر . وكنت أعرف أنك لن تصدّقنى على كل حال . لم أشأ أن أقول شيئا ، ألم يكن مجيئى اليك ، في حد ذاته ، فيه الكفاية ؟ لكنك أيضا لم تصدّق ، لم تصدّق معنى أنني جئت إليك ، هل تتذكر ؟

كيف كان يتذكر ..! كان جسمه هو الذي رفض أن يصدّقها ، ورفضها ، ورفض نفسه .

هل سافروا بعدها ، بيوم ، إلى الواحات ؟ هذا مضطرب في ذاكرته .

ولماذا لا تشير أبدا إلى سقوط المعبد عليه ؟ إلى تلك الساعات الستة والثلاثين التي قضاها في ظلمةٍ غريبة عرف بعدها كيف يكون نور الشمس جديدا ، وكيف تكون عيناه نفسهما ، جديدتين .

أكانت لا تريد أم لا تهتم بأن تذكر ؟ وأن تذكّره ؟ هل كانت تترك له — كما يشاء — أن يعود أو لايعود إلى هذه التجربة غير العادية بأي المقاييس ؟ وهل حكى لها ، أم لم يحكِ ، عنها ؟ أكان تورُّعها عن هذه الحكاية كلها نوعا من الحنو عليه والرعاية له ؟ أذلِكَ لأنها كانت تعرف ، هي أيضا ، تجارب معيّنة لا تُطاق ، ولا يُطاق استرجاعها ؟ .

في العربة الستيشن واجون العائدة من الواحات ، عبر غيطان الصعيد المظلمة الممتدة ، مهمَلة ومكبوحة ، في ركود الليل ، كانت قد تنبهت فجأة ونادت : « ميخائيل ؟ أين ميخائيل ؟» وكان عندئذ في آخر السيارة ، مهدوماً وصامتاً جدا . وكانت هي بجانب محمود الذي يقود ونور السيارة الخارجي ينعكس على وجهه من الخارج ، كأنه دوريان جراى بعد انكسار الصورة ، مجدّد الملامح غائر العينين ، نتوءات عظامه حادة ، كان ليلتها يبدو واثقا ومتمكنا في جاكتته الجلد السوداء التي تعطيه حضورا حيوانيا كثيف الملمس ، وكانت تُسند رأسها إلى كتفه ، وشعرها الذي كان طويلا متموجا ، عندئذ ، يرتمي عليه ، لماذا سألت عنه ، في تلك اللحظة ، بتلك اللهفة والروع ؟ أكانت تفتقده ؟ أكان ذلك بإحساسٍ من الذنب ومداركة الاثم حتى لو كان الاثم مَنْوِيّاً فقط ؟ أم — يا لقسوته عليها وعلى نفسه — كانت تنادي حتى تجعلة يتنبه — إن لم يكن قد فعل — إليه وإليها معا ؟ حتى يتيقظ إن كان غافلا ، ويرى ؟ كأنما تقول له : « أنظرْ ، لايَفُتْكَ النظر » . قال : « وحتى عندئذ لا يكون ذلك شراً ولا مجرد استمتاع بأن تُدير السكّين في الجرح وتؤرّث الألم . بل لكى تثبت له شيئاً . ماذا ؟ » أكانت تستفزه وتستثيره لكي يخرج إليها يطلبها ، ينافح عنها ، يردّ عنها اقتحاماً هي التي استدعته بل تكاد تكون صنعته صنعا ؟ . فيما بعد عرف أن محمود كان يبكي ، علناً وعلى رؤوس الأشهاد ، من حبها . لماذا كان يبكي ؟ ترك هيئة الآثار بعد ذلك واشتغل بالتصدير والاستيراد وتجارة العاديات ، ومات وحيداً ، بأزمة قلبية ، في غرفةِ فندقٍ بأثينا . لم يكن يحس في أيِ وقت من الأوقات أنه يكرهه ، كان يحس فقط أنه يمقتها هي . الآن يحبها فقط ، وكأنه نسى ، وإن لم يكن قد غفر شيئا .

قال : ربما لم يكن هناك ، أصلاً ، ما يُغتفر ، ربما لم يكن هناك ، أصلا ، إثم . بل براءة .

في أحضان النوم في جوف الحوت في نور الحلم مسافاتها ممتدة شاسعة والسفر فيها مطمئن ، مريح ، جسمها الهائل الناعم . وجهي في الظلمة بين ثدييها ، رائحة العجين الطازج كُشِف عنه الغطاء الآن فقط ، منذ لحظة واحدة . اللدونة الطيبة تختم على عينيّ بقوامها المموَّج ، وشفتاي تنضمان على الحبّة الصلبة المطواعة النافرة في كل من الروضتين المُونِقتين أستطعم حلاوة الثمرة الوحيدة الغضة والغار المكنون يلتفّ على باب حرشته البوص الغضّ الصغير تتمايل عيدانه تحت هبّات النَفَس الحار وتكتنّ فيه الحمامة المضرجة بدمائها . تتأودين بين ذراعي من ألم الشبق الذي يُرغيّ بالزَبَد إعصار المجيء عصف الرياح نزول الرفرفة الصائتة على بحيرة المعمدان .

قد بحثت في سيرتي ونقّبت في داخلي ، اعترفت علنا وأبحْتُ دمي فتجددت أحشائي . رفضتُ سطوة الظلمة ،والشيطان قد جُحد وقُيِّد بسلاسل في الهوة العميقة لألف عام ، أدرتُ وجهي عن عتمات الغرب ، وحدقّنا معاً في عين الشمس وبزغتْ تحت أقدامنا الزيتونةُ الدسمة الثمار وكرمةُ العنب المصفّى ، انهمر الماء وغاص الجسدان ثلاث مرات في صِبْغ العباب الأبيض المقدس المطيَّب بزيت الحنوط القديم وخرجنا مبعوثَيْن إلى الهواء على سِيف البحر ، انفك الأسر وتحللنا من رباطات الأوزار وشربنا بفرح من ينابيع الخلاص وكان لنا نور خُتم علينا بختم لايمحى ولا ينكسر وجَمحَتْ بنا مركبتُنا ذات الخيول إلى قلب السماء ، وعرفتُ أننا أطهار ، أطهار ، أطهار .

في لحظةِ التحقق الكامل يجيء القنوط الكامل ، قد عرفت المجد فليس هناك بعد إلا السقوط . وأعشتْ عينيّ المعرفة ، وكان لي الخلود . لم يعد بين يدى إلا الحب الرجيم واليأس الرجيم ، والظلمة الخارجية ، لحظةُ مراودة الألوهية . الخمر التي لا تتكرر ، غير إنسانية ، وطعم الثمرة من شجرة الخلود . سقط الغشاء ، وعرفت أن ما ضُرب عليّ هو الهلاك ، وإنما لحظة الحلم بالخلود هى عين الخلود .

نزل معها ليذهب إلى حفلة عند أحد أصدقائها القدامى . قالت : « نقضي نصف ساعة أو شيئا من هذا القبيل ، وأخلّص موضوع البيت بالمرة » . كان من أعز اصدقائها ، قالت : « تعرفه ؟ » . قال : « بالاسم فقط ، ظريف أن أتعرّف عليه » . قالت : « ما أغرب

ما يتحول الناس ، المناضل والثوريّ القديم يشتغل الآن بالمقاولات وعنده شركة للهندسة والاستيراد والتصدير ، ومليونير ، يطلب مني الآن ، من أجل الزمالة القديمة فقط ، خمسة عشر ألف جنيه ، من أجل خاطري فقط ، لكى يعيد تبليط الشقة بالبلاط المعصراني ويعيد تركيب أنابيب المياه ، وقال أى واحد غريب كان سيطلب منه عشرين ألفاً ، على الأقل ويكرم أيضا » . قالت : « كنت أريد أن أضع فسقية صغيرة في الصالة ، تحت المشربية . الأحلام لها الآن ثمن بالآلاف » .

دخلا الفيلا الصغيرة في المهندسين وقالت له : « اشتراها بتراب الفلوس وكما ترى صنع منها تحفة ، انظر إلى هذه الجنينة الخرافية » .

فتح لهما الباب الداخلي شابٌ بالاسموكنج والقميص المنشّى ، يتحرك كأنه مشدود بخيوط خفية ، كالأفلام ، وكانت البارتي في عز حَمْوتها ، وهناك عرب في بدل آتية مباشرة من « هارودز » ، ولحىً مدببة مخروطة تحت أنوف معقوفة صقرية ، والعيون ضيقة صلبة السواد ، الموديلات التي تلبسها السيدات والبنات كلها ماركات أصليّة ، والديكور الحديث المصقول العقيم السطوح كأنه لن يدفأ أبدا ، والبوفيه مفتوح بالفعل ، أقراص الفلافل الذهبيّة الصغيرة فقط من باب الطرافة ، كأنها لآلىء ، لا تؤكل ، تلتف تحت جسد الديك الرومي الضخم ، المُضمَّخ بخضرةٍ يانعة مدروسة ، والجمبري واللانجوست بقشره الرقيق ولحمه الابيض المشقوق ، وأطباق البفتيك التقليدية ، والفراخ والطبيخ والسَلَطات ، وكانت الموسيقى هادئة ، ولم يكونوا يرقصون بل يقفون مثنى وثلاثا وفي أيديهم الكؤوس أو يجلسون في جماعات صغيرة حول الموائد الأنيقة المتناثرة ، يأكلون على مهل ويتحدثون بأصوات جادة ولكن غير متزمتة . على أحد الموائد صحفي يساريّ ممنوع من الكتابة ، وجهه محتقن قليلا ولكنه يتكلم بإصرار وطلاقة وفي فمه سيجار هافانا ضخم . قال لها : « كنت أظن حمدي الدمرداش مازال في الجزائر » . قالت : « لا ، يعمل الآن مع العراق » . كانت الحفلة تشبه حفلات السفارات ولكنْ على المستوى المضبوط تماماً من الأناقة وارتفاع المكانة مع التخفف من القيود في الوقت نفسه . وكان الزبائن كلهم نقاوة ، من الحزب الوطني إلى التجمع والعمل ، من الرابطة الأفريقية إلى سيدات الهلال الأحمر ، من رجال يوليو إلى نساء مايو ، من كهول الأربعينات إلى المستثمرين الانفتاحيين بضحكاتهم المرتفعة والشتائم على أفواههم علامات المودة والتصافي ، ومحاميات ومقاولون وطبيبات

ووكيل وزارة واحد على الأقل وسيدات أعمال ومشتغلات بالسياحة نصفهن شراميط مثقفات ـــ يعني ـــ وكلهن بشهادات عالية ، وخواجات محترمون جدا أو مشبوهون جدا لا تعرف لهم أصلاً ولا ملّة . والكلام نصفه عربي ونصفه أمريكاني وفرنساوي في لغط الموسيقى المُترامي عبر الصالة والغرف المفتوحة على بعضها بعضاً والحديث في السياسة والأعمال والضحك الخفيف وحرارة الشرب والمغازلات . وكانت المساومات تجري ببساطة وبالإنجليزي وعلى المفتوح . كان صاحب الحفلة قد رحّب بهما ، وذهبت هي معه خطوات قليلة تناقش معه بخفّة . كان يعطي ظهره لجماعة صغيرة ، في يده كأس ، وسمع سيدة فهم أنها دكتورة ، تناقش أحد الصقور ، على كأس الويسكى ، بطريقة عملية جدا ، ولم تكن تناقش في الحقيقة بل تضع التسعيرة ، ببساطة ، قال لها بلغة أمريكية : « سوف يسعدني هذا جدا يا دكتورة ولكن » فقاطعته بالانجليزية بطريقة عملية جدا : « بالتأكيد . ولكن الثمن معروف . النومة بمائه دولار ، والليلة بخسمائة ، خذها أو اتركها » . فقال لها بصوت عاقل جدا : « في غاية الإنصاف ، حقا » .

وفي طريقهما إلى الخروج ، كان هناك شاب في غاية الوسامة ، جالس على الأرض مضطجع نصف اضطجاعة على البساط ، مسنوداً إلى فوتييّ يجلس عليه رجل نحيل جاف الوجه . قالت له : « انظر ، هذا مهيب ، ابن البرنس طلعت » . كان الولد ممدّدا ساقيه على الأرض ، في بنطلون تيركواز لامع وضيّق على الآخر ، ويده شفافة وهى تمسك بالكأس ، وعلى الأظافر لمعة باللون الطبيعي ، قالت له : « انظر ، وجهه كالقمر . اسم الله عليه ، يخرب بيته هو حلو بهذا الشكل لماذا ؟ » . وضحكا ، وعندما خرجا كان هواء الليل فيه نجدة .

قال لها : لابد أن آتى اليك بصورة غريبة وقعت عليها منذ قليل . جزء من وجه قديم ، وناضر بشكل لا يصدّق . وجدتّه بعثة متحف مينوسوتا فى أخميم . هل هى كاهنة أم أميرة ؟ ساحرة أم راقصة مقدسة ؟ البحث العلمي سوف يكشف لنا من هىَ ، ربما . كل مابقى من التمثال جزء من الذقن والفم ، فقط ، من الحجر الجيري الملوّن . صدَمني ، سحرني ، غير معقول . الشفتان هما شفتاك . قلت لا يمكن هذا غير صحيح ، غير ممكن . ولكن هذه الانفراجه التي توحي ببداية ابتسامة ، بل بمجرد نية الابتسامة ، والشفتان ، بنفس الامتلاء الخفيف ، بنفس التدوير ، كأنهما فرغتا الآن فقط من هذه الارتجافة التي لا تكاد تُلحَظ ، عندما تكون الابتسامة فكرة في العينين فقط ، أو عندما تكون متعة الحب قد بدأت أو لما تكد ، في منتهى الجمال .

كانت تنظر إليه باستطلاع ، قالت : الله يخليك ياحبيبي . هذا فقط لأنك تحبني .

كانت الخضرة الحية النضرة في عينيها متوقدة ، فيها بُرَحَاء استشراف البهجة . وكانت شفتاها ترتعشان ، منذ الآن ، موجةٌ هينة مترقرقة ، بأقل رجفة ممكنة . وكان ذلك يكفي لأن يثيره . ويسأل نفسه مسحورا : أتلك رعشة مصنوعة ، مقصودة ، مشغولة ؟ للإغواء ودغدغة الحس الحميم ، وكأنها تمنمة في خط جسمها الذي تعرف كيف تصونه ؟ أم أنها رعشة تلقائية تصدر من اهتزاز الحب في داخلها ، لا تملك أن تردها ، بل لا تعرف أنها هناك ؟ وهي تسدِّد عينيها إليه ، ترتهنه بل تستلبه في لحظتها الخاصة هي .

كانت ساقها السمراء الذهبية الباهتة الذهب ناعمةً تحت ملمسه ، وباردة . وقالت له : يدك دافئة جدا . فقال : وعلى عكس المثل ليس قلبي باردا ، وهي تتحول كلها إلى عجينة متماسكة وطريّة في الوقت نفسه ، ملفوفة ودائرية تغلّفه وتلتئم حوله ، لها هسيس كأنه انفلات الهواء المحبوس من الخمير المتلىء ، وكان جسمها يسيل ويتموج بين ذراعيه ، في حضنه ، ورأى بدهشة أن خصرها المحكَم الضيق ينسدل إلى الردفين الغنيَّيْن من غير أية طيّةٍ من طيات اللحم ، من غير أية ثنية ، مسبوكا وصافيا . حفيف النسيج اللّين وهي تنضوه عنها يمسُّ حنايا الجسدَ بصوت حميم . تسقط فوق عينيه المغلقتين على الطوايا المليئة أضغاثُ همسها الحار ، تلاطم أصوات الجسدين المتصاعدة المكتومة له وقع داخلي دفين من غير كلمات له لغته الخاصة تمسكه بألف ذراع . والموجتان اللدنتان تطبقان على عمود السفينة الذي يحجز موجاً ثابت القوام ، نسيتُ الشاطىء ، ولم يكن وطني أبداً إلا العباب . لماذا أظن أنني أستطيع عبور العباب على قشرةٍ طافية من الخشب ؟

كان قد حكى لها أنه في طفولته كان يستيقظ فجأة في الليل ، على السرير العريض ذى الأعمدة السوداء المتوجة بعساكر من النحاس الأصفر ، ويزيح اللحاف القطن الحائل اللون برائحته التي عطنت حدّتها ، ويحرص ، وهو يُنزل جلابيته على ساقيه ، ألّا يعرِّي أختيْه الصغيرتين النائمتين ناحية الحائط . لماذا كان هذا القلق الذي يدفعه للتيقظ ، يسترق النظر بخوف خفيف إلى الأعمدة السوداء الغامضة التي تحاصره من الجهات الأربعة بأكاليلها الباهتة اللَمعَان ؟

ويجري عبر الصالة الليلة الهادئة العتمة ، من أمام باب الغرفة الكبيرة التي يعرف أن أباه نائم فيها ، فالبيت إذن فيه أمان وثقة حتى في الليل المُبْهَم ، وينفذ إلى الشرفة العريضة العالية التي تطل على الشارع الترابي العريض في غيط العنب ، أمامها بيت منخفض مربّع وجنينة فيها نخل عالٍ ينوس سعفه في السماء الحريرية الزرقة ذات السحب البيضاء الخفيفة الطائرة بسرعة . وأمة متربعة أمام قصعة العجين الفخاريّة الواسعة الموضوعة على حصيرة قديمة لكى تحمي قعرها المحدب قليلا من برودة البلاط ، وعلى القصعة بطاطين وملايات نظيفة . كانت أمه في فستانها البيتي القصير ، والمدورة المجعدة تلفّ شعرها القصير الخشن ورِجْلاهاقويتان بيضاوان في ليل الشرفة الباهت الذي يوشك أن ينجاب ، وفي الهواء رائحة الفجر ، والديوك تصيح وتتبادل الزقاء من على سطوح البيوت ، واحداً بعد الآخر ، بنداءات ملحّة لا تنتهي ، بصوت شكاةٍ مشروخة ولكن مصممة . قالت له أمه : ميخائيل ؟ باسم الصليب ، ما الذي أوقظك ؟ قال : أريد أن أرى العجين . فلم تبتسم وكشفتْ البطاطين والملاءات مرة واحدة عن الكتلة الدسمة المقبّبة البيضاء ، بقوامها المتماسك ، ورائحة الخمير الخصبة مِلْءُ صدره ، وأمه تصنع أقراصا مدورة ، تلتقم بيديها العازفتين قطعة من صلب المادة الطيّبة اللدنة التي فيها مقاومة خفيفة أيضا ، وتُديرها بسرعة بين أصابعها وتُحكِم استدارتها ، وتتركها تسقط على اللوح الخشبي المستطيل ، بدقة ، بصوتِ ارتطامٍ طري ، لكى ينداح القرص قليلا ، وتهبط قمته الخفيفة إلى دائرة مضبوطة مستريحة . هل كانت أمه تعمل الخبيز العادي لكى ترسله في أول الصبح إلى الفرن ، يأتي صبى الفرن في الخامسة صباحا ويحمل الطاولات الخشبية واحدة فوق الأخرى ، تسندها الحَوَاية القماشية على رأسه ؟ أم كانت تعمل له أقراص الملاك ميخائيل ، في عيده ، وفاء للنذر القديم حتى يحفظه الملاك ولا يموت كما مات أخوه الذي سبقه وراح وهو رضيع ؟ وهل كانت ، بعد أن تقرّص العجين ، تختمه بالخاتم الخشبي المدهون بطبقة خفيفة من زيت السيرج والنقوش بالكلمات القبطية والصليب القبطي المورق الأطراف ؟ رائحة العجين الخمران لها لذة خاصة ، ينشقها الآن من بين نهديها .

كان ينهض من النوم ، في الليل ، فجأة ، كما في القديم ، فيجدها إلى جانبه ، وينزل من السرير بحرص ورفق ، ولا يكاد يصل إلى الباب حتى يسمع صوتها النائم بشكاةٍ طفلةٍ تخشى الوحدة في النوم : ميخائيل .. أين تذهب ؟ فيقول بصوت خفيض حانٍ : لا شيء .. راجع حالاً ، ويحس أنفاسها تنتظم من جديد ، ويذهب إلى المطبخ في نور الليل الخافت المتقطّر من النافذة الزجاجية العالية وحصيرتها مرفوعة ونفحة من هواء الليل تدخل من فتحتها العرضيّة

الصغيرة ، ويفتح الثلاجة فتسقط شريحة الضوء الكهربي منها على الأرض وعلى ساقيه يحسهما فجأة متحررتين وفيهما اكتمال واعتزاز ، ويلتقط مايجده في الثلاجة : حبّة مانجو ، برتقالة ، وأحيانا خوخة دمثة الجلد ناعمة الوبرة ، يشقها بالسكين ويأكل ويشرب الماء المثلج ، ويعود فيجدها نائمة نوما عميقا ولأنفاسها صوت يتردد ، فيه شهيق وزفير ، ومحسوساً ، ولكنّ في نومها توترا كأنها ماتزال تخوض معركة خفية لا تعرف فيها مَنْ الذي تحاربه ، وما الذي تحاربه ، وعندما يضع يده ، برفق ، على كتفها العارية ، تُطمئنها يده وتريحها ، فتهدأ الأنفاس المتلاحقة في النوم وكأنها ، أخيراً ، تنام حقا .

وعندما عاد إلى بيته بالاسكندرية كان قبل أن ينام يمر على الأبواب والنوافذ فيتحقق منها ، يعيد في الواقع طقوس بيتها ، حين كان يتأكد أن الباب الكبير الخشبي مغلق بالمزلاج ، وأن نافذة المطبخ فيها فرجة مفتوحة وأن الستارة مسدلة على نافذة القاعه الكبيرة وأنّ الزجاج وراء المشربية محكم ولكن النافذة الأخرى مواربة قليلا للتهوية وأنه ليس هناك إلا نور واحد صغير في الممر ، وتكون هى نائمة أو تنتظره ؛ قال لنفسه : هل للسنتمنتاليّة أيضا طقوس ؟ وقال : طبعا .

قالت له : عندما تنام إلى جانبي فكأنما صُنع جسمانا كلٌّ منهما للآخر . وقالت : كأنني لم أستيقظ يوما إلا في حضنك ، وحنايا جسمي ملتصقة بجسمك . كانا في الراحة من تعب الحب أو الغضب ، معاً ، بعد أن يغلبهما النومُ في الآخر ، وهما مازالا يتحدثان بصوت تغيب عنه اليقظة شيئا فشيئا ، وقد جاء الاستسلام . يُسلمان أنفسهما لهذا النوم الغريب ، ساعات قليلة ، في عتمتِه نورٌ يقظةٍ خافتة جدا . تندمج الأطراف الهادئة فلا يعود بينها أدنى انفصال ، في هذه الوحدة الغامضة الساكنة ، جسماً واحدا فيه قبول كامل لذاته ، لا يعود ثم مَنْ هو ومَنْ هى .

كانت تستدير على جنبها ، رأساهما على وسادة واحدة ، وذراعه تلتف حولها ، بين عنقها وكتفها ، ويده تستقر من الناحية الأخرى على صدرها تمتلىء به ، هادئة ومستريحة ، وصدره يجد في انحناءة ظهرها تجاوبا لصيقا محكما ، كأن الجسمين مصبوبان لأحدهما الآخر ، وربوة الردفين العالية المستكنّة تجد مكانها تحت ذراعه الأخرى ، يده مفتوحة على الدوران الناعم المتحدّر ، والسيقان متجاورة تتلامس وتتضامّ في بطء دون عمد ، حتى لايكاد يعرف أين ساقاها من ساقيه ، عندئذ كان يهبط السكون والسلام عليهما معا ، أنفاسها تنتظم ولها صوت خفيف

منتظم الترداد ، وقد تركت روحها النائمة له كما تركت جسمها النائم ، يحيطها بذارعيه ، بكلّه ، ويغادر هو أيضا روحَه وجسمَه ، راحةُ الغياب تغلق هذا الجسم الواحد المُثنّى الذي كَمُل واختفى ، ولم تبق إلا عتمة نور خافت جدا ، وحيد .

مازال اسمك هو الماء المِلْح في عينيّ . لماذا لا تجفّ عيناى حتى الآن ؟ لكن القدرة أيضا غير جافة وغير يابسة ، هى نضرة ، وصلبة العود .

حبيبات ألَق النجوم تومض وتنطفىء وتتقد من جديد وخزاتٍ دقيقةً على سطح مياه عينيك الساجية طوفان الجسد مياه الفيضان في عنفوانها تملأ أرض الجرن ، حارةً ومتموجة ، في أغسطس القديم ، قد نزلت نقطة الملاك ميخائيل ففاض النيل وأغرق قلبي المشقّق من جفاف التحاريق . رفّتْ ريحانةُ الروح وأينعت وردة أحلامي ، يداى تسيل عيونُهما المبقورة على منحنى بطنها العميق تهتزّ حوله عساليجُ البرديّ الغضّ الصغير . كالسماوات المقلوبة على دثارها أتمرغ ، ولا ينتهي تقلّبي على الطوايا المتفتحة بنعومة دمِثةٍ مقاوِمة ومطواعة معا ، عظام وجهي غارقة في الامتدادات الوثيرة من الجسد البرّاح الفسيح الذي لا يصل إلى أفقٍ بل ترتفع أمواجه وتهبط بسفينتى التي تمخر سطح العباب المكسوّ بضوء من ملح البهجة الأبيض تشق فيه مسارات الشموس الضيقة التي تتقد وتنطفىء بلا توقف بانفجاراتٍ صغيرة متتالية من المتعة الحادّة . مجد التاسعة الكورالية السامق يصطفق وتترنم به أجواز الأفلاك ، صعودا إلى أعالٍ لم تحلّق فيها قشاعيمُ النسور ولا الملائكة ذات الألف جناح . الموسيقى التي تقمّصَ بها القلبُ والجسدُ جبال من نور وثبج البحار نشواتُ مُتَع التحقّق لم يعرفها أحد في كل الأزمان إلى آخر الآباد تَصّاعدُ في أطباق سماواتٍ لا ينتهي لها صعود ما تزال ترتفع ترتفع حتى تتجاوز عروش المَلَكوت ، ورأسي أمام الآلهة ، نِدّاً بندّ ، وعيناى تحدّقان بعيونهم ، لا تطرفان . أعمدة الألف طنّ الألف قرنٍ من الزمان تتوقّل بجلالها البهيج إلى أعلى ليس لها انتهاء ، كأنها ، وهى شاهقة ، في خفة السهام المرشوقة في جسم السماء ، جسيمة وناعمة الكُتَل ومدوَّرة ، متفرقة ومتجاورة في غير شَعَث بل في انسياقٍ حرّ لا يحكمه إلا قانون التَمَل . سعة السماوات الشاسعة تعدو فيها جيادي التي تحمل الأعمدة الساطعة كأنها بلا وزن جامحةً تطير الرياح بأعرافها ، أيتها الآلهة الصيلفة ، هذا أنا هذا مجدي الذي لن ينثلّ إلى الأبد ، وصرخة المجد تتقوّض لها الأرض والسماوات بانهيار سدود الطوفان ، دفْق الانهمارالصافي على وجهها الأسمر وذقنها ، على الصدر والبطن

العميق ، من نافورة المعمدان . اصطفاق رفرفة الأجنحة على رأسينا في آخر هَتَفات الكوراليّة على آخر موجات نهر الأردن ، اكتمال البشارة وأوّل خطوةٍ نحو الجلجثة .

قالت له : سعيد أنت ياحبيبي ؟

كانت مستندة إلى صدره ووجهها مرفوع اليه ، غضّ وناعم بوهج عميق .

كان يحيط كتفيها بذراعه ويده الأخرى في يدها على حجرها ، في مسكة رفيقة ، دون ضغط .

قال بهدوء دون أن يتحرك : ليس هناك كلمات تصف هذا .

كانا مستنفدَيْن ، منهكَيْن بعد تحقق كاملٍ ، كلاهما . وقد وجدا نفسيهما على الشاطىء ، أنفاسهما منتظمة ، وكانت نظرتها اليه غائبة وتحتويه معا .

قالت كأنها تحدث نفسها : ليتنا نموت الآن ، في حضن أحدنا الآخر . أريد أن أموت بين ذراعيك ، الآن . لا أريد شيئا ، أي شيء ، بعد هذه اللحظة . تحقق لي كل شيء . ليست هناك سعادة أعظم من هذه ، أبداً ، في أي وقت .

تلك كلمات ، تلك لحظة ، لم يجرؤ أبداً أن يحلم بها . اختنق من السعادة والكمال . اختناقاً ساطعا فسيحا . لم يشدّد ذراعه حولها ، لم تختلج فيه جارحة . تجمَّد . وكل شيء توقف ، ثبت ، وصل إلى الحد الأخير الذي ليس بعده ما يوجد ولا مايُتصور .

لم يجد كلمة واحدة يقولها .

تململت فجأة ونهضت قليلا ، وابتعدت عنه قليلا ، وقالت بصوتٍ متغيّر ، مرةً واحدة : أنت لا تُصدِّقني .

كان سقوطه بعد ذلك إلى هدهدة اتهامها ، إلى التهدئة من روع شكّها ، إلى محاولة نقْل اليقين الذي لايمكن أن يُنقل بكلمات ، سقوطاً غير مُجدٍ . وأحس أنه غير مقنع ، غير كاف ، لم يكن هناك شيء كاف ، أبدا ، مهما قال ، ومهما فعل ، أحس فقط أنها تستمع اليه .

قال لنفسه : على الرغم من كل قوتها ، وبملاكها أمر نفسها وأمر الآخرين ، فما يُوثّقني بها حقا هو هذا الضعف الأساسيّ فيها .

قال : ياطفلتي ، كم أحبك .
وهي ، هذه المرة ، لم تُجِبْ .
قال لها : حبيبك عجوز .
قالت مبتسمة : أنا ، شخصيا ، في يدي برهان فيزيقيّ على عكس ذلك .
قال : الفراق صعب .
قالت ، بابتسامة خجول مستطلعة كأنها تطلب الموافقة والقبول ولا تريدهما : أليس هو الاختيار الوحيد ؟

وعندما صمت ، لم ينفِ ولم يُثبتْ ، قالت : سأعدّ لك قهوة ، ولي أيضا . تعال معي للمطبخ ، ساعِدْني .

قال لنفسه : هنا ، في بيتها ، في بيتنا ، وحده ، أعرف حرية نادرة لا أعرفها في أي مكان آخر من العالم . أين الاختيار ؟
قضى النهار كلّه في البلد ، وكانت القاهرة مزدحمة ويحسها خاوية على اكتظاظها ، فتح الباب بالمفاتيح التي أسلمتها له ، فوجدها قد عادت من الوزارة بعد يوم طويل ، وجلسا على الصوفا ، جنباً إلى جنب ، متربّعيْن ، متحرريْن من العالم أخيرا .

قالت له : أنظر ، مازلت أحتفظ بما تركته عليّ ، طول اليوم . خرجت وعدت به ، كأنني أريد أن احتفظ بك أنت ، على جِلْدي ، فلا تُمْحَي أبدا .

ماذا كان يمكن أن يقول ؟ كان هذا ، على عذوبته وسذاجته ، موجعاً له ، جدا . كان اعترافا ، بكل براءته ، يتفتّت له ، هو، بلا حَوْل . قال لنفسه : ألا تعرفين أنني معك ، أبدا ؟ هل أنتِ بحاجة إلى دليل محسوس ؟ أم أنّ حدسها أقوى واصدق ؟ أنّ الخيالات والأوهام والنجوي والحلم ، والألم ، مادامت كلها خفاءً ، ليست حقيقية ، ولا توجد ، وأن الشيء الحقيقي الوحيد ليس عندها ، ليس فيها ، ليس لها ؟

وقالت له : الولد الذي كان سيجيء لنا ، لو أنه جاء ، كان سيجمع كل ما بيننا نحن الاثنين. وكل مافي بلدنا ويكون باهرا .

قال : لم يأت .

وقال لها : هل تعرفين أنّ باسكال كان يعلّق ورقةً في ياقة سترته لكي تذكّره بما حدث له مرةً واحدة لم تتكرر ، مكتوبٌ فيها كلمتان فقط « البهجة — النار » ، يضعها على ملابسه كالحجاب الذي كانت أميّ تعلّقه بخيط حول عنقي ، تحت ملابسي ، كتَبَه لها راهب شاب نحيل ، أسود اللون وجافّ . وكان يأتي لنا من دير في وادي النطرون ، مرة كل سنة ، ويزورنا في بيتنا في غيط العنب ، يصليّ ويتغدى ويرش الماء المقدس من رجاجة صغيرة في جيب جبّته السوداء . ذهب هذا الحجاب ، ضاع مني لا أدري أين . ولكن البهجة النار لا أنساها ، تحرقني بمائها المُحيي ، معموديةً متكررة متقدة ، وكل مرة جديدة ، وأروع ، بلا مثيل ، بلا انتهاء .

كان يعرف جمال الوجود العاري ، يصعد ويتألق ويسطع ، لحظة بعد لحظة ، من غير زمن .

الباب الرابع عشر

الخبز المحروق

عندما قالت له : الآن أريد أن أموت في حضنك . لم يبق لي شيء أريده بعد الآن ؛

ولم يستطع أن يقول كلمة واحدة ، أحس نفسه يحدّق إليها ، فقط ، كأن ضربة من السعادة المفاجئة قد أطاحت به ؛

وقالت ، بغضب : أنت لا تصدّقني ؟

وبكت ؛

وأخذها اليه ، وهي ماتزال تقاومه قليلا ، ومازالت الدموع تسقط من عينيها ، من غير صوت ، صافية سلسالة ، ووجهها تحت الدموع كأنه قناع من الجمال والابتعاد ؛

عندئذ كانت عيناه تفيضان بالدموع الصامتة ، لا يحبسها وكأنه لا يملكها ولا يعرف أنها هناك .

وعندما رفعت إليه عينيها المغروقتين الواسعتين ، من وراء شفافية البكاء الندية ، وأحست أنه يبكي ، دون كلمة ، أخذت وجهه في حضنها وأخفت دموعه في صدرها ، فشدّد حواليها ذراعيه ، من غير أن يقول شيئا . وفي هذه الظلمة الحانية انجابت عنهما سحابة البكاء الغريب ، وحل بينهما هذا الصفاء النادر الذي يأتي بعد أن خلصت الروح ، والجسد ، من اضطرابهما.

قام ، يبتسم ابتسامة صغيرة ، قائلا : سأعدّ لك شيئا لتشربيه .

وعندما عاد ، يحمل الصينية الفضية الأسيوية الصغيرة ذات نقوش الباجودات والميموزا ، وعليها كأسان ، وسطل الثلج المدوّر فيه المكعّبات نصفها شفاف رائق ونصفها ينشعب فيه الجَمَد الأبيض ، وزجاجة الماء ، قال لها : أُغرقه لك ؟ كالمعتاد ؟ وكانت شفتاه توجعانه قليلا وهو يبتسم ، فأومأت برأسها ، وهي متربّعة على الصوفا ، تدخن ، في راحة هذا الإنهاك الروحي الأخير ، وتتوهج في الوقت نفسه بأنوثةٍ يانعة خمريّة الجسد . كانت رباعيات بيتهوفن بعيدة وكاملة ، وقريبة جداً إليهما كأنها تصدر عن شجوٍ داخليّ ، وبهاء ، فيهما ، يحسانه ويوجدان معه . وكان في يدها كتابُ مجموعةِ ت .س . إليوت ، الذي يعرفه ، كبيراً بغلافه الداكن القوي ، مفتوحاً على فخذيها . وقالت له : أقرأ لك شيئا من إليوت ؟ فأومأ برأسه ، وهو يجلس إلى جانبها ، مستنفَدا ، وملء صدره سعادة ساجية وبحتة ، وقد مُسِح عنه كل سوء .

كانت تقرأ الشعر بشجَنه الصافي المثقل بالدلالات ، إيقاعاته مفاجئة وفيها تمامُ الكمال ، وإيحاءاته شاسعة المرمى ومكثفة جدا في آنٍ معا . وكان لاكتشاف الشعر من جديد متعةٌ

جديدة ، وكان صوتها عذبا ، وقادرا ، متمكّن التنغيم ، وجَرْس السينات من بين أسنانها سلِس خفيف اللثغة جدا ، ولهجتها بالإنجليزية كاملة الحسن ، وكأن الشعر هى التي صنعته بل هى التي تحياه ، وكأنه يتخلّق إذ يقال ، الآن فقط ، ويتخذ كياناً له جسم ، لأول مرة . وقرأتْ الشعر طويلا ، ونهض بحرص وهدوء ، وأشار إليها فاستمرت تقرأ ، وأضاء لها الأباچورة الصغيرة إلى جانبها ، وهى مازالت تقرأ ، حتى أغلقتْ الكتاب وأسندت رأسها إلى ظهر الصوفّا . وأغمضت عينيها ، صامتة ، وانسالت الدموع من عينيها المغمضتين بنعومة ، وكان هو أيضا ممتلىء العينين بدموع كأنها موسيقى منثالة من غير ألم ولا صعوبة ، من حنان الشعر ، والحب ، والقسوة الخفية فيهما ، لم يكن في هذه الدموع حزن ولا ضعف . وكانت الكؤوس قد فرغت ، والموسيقى قد فرغت ، فقام يعيدهما من جديد ، وقال لها : أقرأ أنا قليلا . وقرأ لها قصائد الحب المصريّة من ترجمة إزرا پاوند ، وكان قد حفظها تقريبا ، فلم يكن يقرأ بل كان يتلو لها من آى حبه ، وكان صوته الحار الخافت يرتعش ، وكانت تعرف ، وكانت تبكي من جديد .

كانت سيجارته تشتعل وحدها على المنفضة ، نسيها .

قالت له : هذا يوم غريب ، نشرب ونقرأ الشعر ونبكي ، ونقرأ الشعر ونشرب ونبكي من جديد !

قال : ولنْ يفرغ هذا أبدا ، لن ينتهي . تعالي .

كان الليل قد أوغل ، لم يحسّاه . تناول يدها ، ذراعه حول خصرها ، وذهبا .

وكانت طقوس الحب صامتة وممتلئة حتى الكمال .

وقبل أن يغلبها النوم ، قالت له بصوت خفيض : هل بقيتْ لك أية فانتازيات لم تحققها ؟ أية خيالات جسدية لم تحدث ؟

قال ، وجوارحه كلّها راضية : لا .

كان يعرف أنه قد تجسدت له أحلامه الخفية كما لم يحلم قط أن تتشكل ، ولكنه كان يعرف أنّ له فانتازيات دفينة أعمق ، وأبعد شططا وجُموحا ، وأنها لعلها مستحيلة .

قالت له ، وهى تستدير ، وتضع وجهها على الوسادة الوحيدة ، تحت الدبّة البنيّة المعلقة

بقدميها ويديها على قائم السرير الخشبي الصقيل ، وكأن صوتها يغيب : هل تعرف ماذا أتمنّى ؟ فقط ؛ أن أمتّعك ، إلى آخر حدود المتعة . وأنا قادرة على هذا ، أنت تعرف .

قال بهمسٍ ، كأنه لا يريد لها أن تسمع : أعرف . وليس للمتعة حدود .

في أول الصبح ، عندما عادت ، كانت تنهج ، وهي تدخل ، سريعة الخطى ، خفيفة الجسم ، لاتكاد تمس الأرض ، وترد الباب الخشبي العريق ، صدرها يرتفع ويهبط من وراء الجلابية السابغة الطرية النسيج ، وعيناها تلمعان بالانفعال والفرح ، وقد تشربت بشرة وجهها السمراء الصافية بقعةً من الحمرة الخفيفة تسيل وتتسع قليلا قليلا . كانت قد قالت له : يجب أن ألحق نبوية قبل أن تخرج ، أعطيها هذه البرقية ترسلها للهيئة « في أجازة عارضة لظروف قهرية » . وقالت له بعينين ثقيلتين بالمعنى : أنت الظروف القهرية ، ونزلت السلالم الحجرية بسرعة . قالت له ، ومازالت أنفاسها متلاحقة قليلا : لحقتها على الباب . من بختك أنت ، وبختي أيضا ياحبيبي . وإلا كنت اضطررت للنزول . قال : أو كنت أذهب أنا . سكتت لحظة وقالت : أبدا ، كنت طلبتهم بالتليفون وأخذت الإجازة بالتليفون ، وخلاص . نظرت إليه ، وكأنها قررت شيئا ، ثم قالت : هل تعرف نزلتُ حافيةً وبالجلابية على اللحم . لم يحدث لي هذا أبدا من قبل . معك أنت تحدث لي هذه الأشياء . أفعل مالم أفعله قط من قبل .

وكانت مستثارة من عريها وهي تنزل بالجلابية اللدنة فقط ، على السلالم ، وأمام باب الشارع ، في الحوش الصغير تحت شجرة الجميز العجوز العفيّة ، فاستثاره ذلك أيضا .

كانت تعرف هاجسه الطفلي القديم بأن خبرتها وسعت كل شيء ، بشكلٍ ما ، وكأنها من آلاف السنين ، وكانت تريد منه أن يخلُص من هواجسه القديمة كلها .

قالت له : هل انتهى ميخائيل السيّء القديم ، تماما ؟ وراح لحاله ؟ لا ، ليس السيء ، بل الذي لم يكن يعرف ، فقط . هل فهمت ، إذن ، أنني أحبك ، أحبك أنت ؟

قال ، وفي نفسه يقين كامل : تماما . أعرف الآن .

قال : كان اليقين . فعلا ، كاملا .

وفيما بعد اكتشف أن ميخائيل القديم السيّء لم ينتهِ تماما . كأنما رغما عنه .

وقال : التنيّن مايزال . الإيمان غير كامل .

قالت له : ولدنا الجميل الذي لم يأت . كان سيجمع بين كل عناصر مصر !

وقالت ، ساهمة ، متأملة ، في فانتازيا خاصة : فكرت أن أتوقف عن تناول الحبوب ، لولا أنني أعرف متاعب الحمل والولادة في هذه السن .

قال : كانتَ تومىء إلى شيء لم أكن أفهمه . ولا أفهمه .

وقال لنفسه : هل انهزمتُ ؟ حتى في قلب الهزيمة المحققة ، قال ، لست مهزوما ، قال ، المجالدة لا تنتهي .

كانت قد قالت له : لا تسلّم ياحبيبي أبدا . أنت مقاتل .

وقالت : يتطلب الأمر ، مع ذلك ، قديسا ، قديسيْن ، كلينا ، حتى ننجح .

وقالت ، بمرارة : أنا أداة جنسية ممتازة .

فقال لنفسه : أليس هذا ، بالضبط ، هو ماتبني به ، هي ، أسطورتها الخاصة حول نفسها ؟ كان ثم ما يهجس به ، أيضا ، أنها عندما تحكي عن إنجازاتها الجنسية ، وانتصاراتها التي لاشك فيها ــ كما يبدو من ظاهر الأمور على الأقل ، فمن يعرف ؟ ــ فإنما تنسج فانتازيا لا تنفصل فيها عناصر الحقيقة ، بأى معنى من معاني الحقيقة ، عن أوهام الجسد وشطحاته

وقال إن جسدها الذي يعرفه ــ هو ــ ليس وهماً بأى معنى من الأوهام . فهل هو وهمها ؟

قال لها : أنت تعرفين كيف تُلغين المواقف ، والأشياء ، والأشخاص التي لا معنى لها عندك . أو لا تدخلين ، لا تتورطين ، فيها ، من الأصل .

النجوى الحارة التي مهما بلغ من عنف صدقها فهى ، بالحتم ، مَشوُبة وملتبسة ، وزيغ ، التليفون الذي يرن في بيتها ــ كما سوف تعرف ، وسوف تغضب ــ وهو في الاسكندرية ، قبيل الفجر ، كل ربع ساعة ، حتى أول الصبح ، مرة بعد مرة بلا كلل كل ربع ساعة ، وهى ليست بالبيت ، وهو في حُمّى هذيان لا يملك فيه من أمره شيئا ، يتصورها ، من بين ما يتصور من أضغاث الأوهام ، ترفض الرد ، لا تريد أن ترفع السماعة ، تصدّ اقتحاما لا قيمة ولا وزن له ، ماذا يُجديها التليفون بعد منتصف الليل ، وحتى آخر الفجر ؟ ماذا تفعل به ؟ والخطابات التي

يرسلها واحداً بعد واحد ، كل يوم ، ثم ينقطع عن إرسالها تماما ، فترات متطاولة ، وهي تعرف تماما مع ذلك أنه لابدّ يكتب لها خطابا أو أكثر كل يوم في ذهنِه ذلك القِلق الدؤوبِ المتحرك كفأر قارض في جُحره المعتم ، ماذا يهمها من خطاباتٍ متصوَّرة ولا يمكن أن تصل ؟ كل هذه الارتماءات والتخطفات والهجمات والارتدادات التي لا تأتي كلها بشيء ولا تذهب بشيء . أما هي ، فببساطة وعفوية ، وأصيلة ، لا تُلقي إلى ذلك كله بأدنى اهتمام . وتلغيه .

أما أنا ــ قال ــ فهذه العلاقة كلها مستحيلة عندي . ولا أني أحاول المستحيل ، وأغرز أسناني في الثمرة الصخرية .

وقال لها : صحيح . يحتاج الأمر إلى قديس ، إلى قديسين كلينا معا . وقد انقضى زمن القديسين ، ألم ينقضِ ؟

وقال : عندما أنتظر من صوتك نغمة حنان وحرارة ، أجده فجأة جافا ونقيا . وعندما أكون حارا في داخلي وفيّاضا ، يرنّ صوتي في مسامعي أنا ، بارداً لا مباليا أو متحفظا جدا ، فكيف بك وأنتِ التي تسمعينه ، لابدّ أنه يدفعك دفعا ، رغما عنك حتى ، للغيْر ، أو للرفض والتجريح .

قالت له : أليس من حقي أن أدافع عن نفسي ؟

قال : المشكلة ــ التي هي طِفليّة في الأساس ، أسلّم معك ــ أنني أصدر عن يقين ، غير مبرَّر ، بأنه ليس ثم بيننا ، ولا يمكن أن يكون ، دفاعٌ أو هجوم ، أن النغمة الصحيحة مُضمَرة ومعروفة سلفا ومسلَّم بها أساسا ، أنه مهما كان الشكل الخارجي فإن العمق ــ في هذا اليقين غير المبرَّر ــ مبنّي وراسخ .

ثم استدرك : وأنا أسلّم معك بأن هذا كله يبدو سخفا كاملا ..

فقاطعته : لا طبعا ، ليس سخفا ولا شيئا من هذا القبيل ، أنت على كل حساسيتك وذكائك ..

فقاطعها هذه المرة : ذكائي ؟ اعملي معروفاً ، أنا ؟ أنا ليس عندي ذرة ذكاء .

فأكملت ، بتصميم : أقول إنك على كل ذكائك ، وبالرغم منه ، بالرغم منك ، أنت لم تفهم المرأة قط .. ولم تفهمني ، لم تفهم شيئا أبدا ، فماذا أفعل لك ؟
قال بهمس ، كأنما لنفسه : كيف «يفهم» المرء مَن يحبه ؟ ما أريد ، فقط ، هو أن أعرفك . أما الفهم ، فمع الحب مستحيل . القبول ، نعم ، هذا هو كل شيء .

وقال : عندكِ حق ، فماذا تفعلين بي ؟ وماذا نفعل ، كلانا ، في هذه التصادمات التي يبدو أنها لا مفر منها ، هذه التباينات في نغمة الاتصال وفي نغمة انقطاع الاتصال معا ؟

قالت له : لن نعرف كيف نحتمل البقاء معاً إلا إذا تعلمنا كيف يحترم أحدنا الآخر ، باعتبار كل منا فرداً مستقلا ، له هويته ، له مزاجاته ، وتقلباته ، وحماقاته أحيانا . يجب أن يعرف كلٌّ منا قانون الآخر . أليس كذلك ؟
قال : وَهْمُ الفردية ، والاستقلال ، باعتباره قيمة أساسية عندها . ووَهْمُ الاندماج ، والفناء في الآخر باعتباره القانون الأوليّ ، عندي .

ثم قال : ما أشد سذاجة مطْلبي أن تتسق البُنَى حتى تعود واحدة ، وأن تتوافق النغمات في هارمونية واحدة ، وأن يتحقق الانصهار والذوبان والاستحالة إلى واحد . وأن تطلبه أيضا ، في كل لحظة ، دائما ، دائما ؟ أليس هذا هو العبث بعينه ، وأشد أنواع الطفولة سذاجة ؟ وتطلب هذا وأنت كبير ، ومجرِّب ، ومضروب ؟ حمق ، بل غفلة ، ببساطة .

وقال : وهذا التجريح للنفس أيضا حمق . ولو أنك ساذج وطفليّ حقا ، فلماذا لا تقبل سذاجتك وطفولتك ، ببساطة ؟
قالت : ومع ذلكِ ، حقاً ، قالت ، فأنت لست بكل هذه البراءة ياأخي . على مَنْ ؟ لا أقول أنت تخدع نفسك ، لا ، هذا شيء آخر .

كانت قد سافرت إلى المنيا من صباح الأربعاء ، قالت له : على عيني هذه السفرية ، ولكن لم أستطع أن أتخلص منها . الهيئة قررت افتتاح مقبرة اكتشفتها بعثة المتروبوليتان في تل العمارنة ، وهو كَشف فريد ، وسيأتي الوزير يوم الخميس ، مع الصحفيين والتليفزيون والسفير الأمريكاني أيضا ياسيدي ، وبقية اللّمّة المعتادة ، وقالت إنها ستأتي يوم الجمعة ، لأن هناك حفلة

يوم الخميس بعد الظهر يقيمها المحافظ ، وستصل على الظهر ، يوم الجمعة .

خرج ، كان البيت موحشا جدا وخاويا من غيرها . قال : أنزل ، أشرب شيئا في الفيشاوي ، ثم أذهب لميدان الأزهر . كان يعرف أن المظاهرة ستخرج بعد صلاة الظهر ، وجاءه شعور غامض كأنه لم يستقر أنه يجب أن يذهب ، قال : على الأقل ، لكي أرى . وابتسم لنفسه من التشوف واللهفة .

كان الميدان قد ازدحم بالناس ، رأى الدرجات الرخامية الممسوحة تحت الأبواب المفتوحة عن الأعمدة الداخلية الرشيقة ، والمآذن الألفية فيها كبرياء قديمة وحكمة حجرية ، والحائط العريق العريض فيه نقوش ملونة باهتة وعذبة ، يمتد ويدور إلى حارة رطبة ظليلة رائحتها تراب مبلول وفوْح البهارات والتوابل الحار . وكان الشبّان بالبنطلونات والقمصان وبالجلاليب البيضاء والطواقي الصغيرة المخرّمة ، يتماسكون بالأيدي ، وجوههم تنز بعرق خفيف ، ووجد نفسه في وسط دوامات ضيقة متلاحقة ، ورأى البنات يتجمعن معا ، البلوزات خرجت قليلا عن أحزمة الجيبات ، والفساتين تهدلت والأحذية المنخفضة الكعب عملية ومقصودة . وكانت الهتافات مازالت متفرقة ، ولكنها عميقة ولها صدى أجش ويجيش لها قلبه ، مصر الحرة مع فلسطين الحرة عائدون عائدون يسقط العدوان الإسرائيلي ارفعوا أيديكم عن بيروت الله أكبر الله أكبر النصر للإسلام يسقط الاستعمار تسقط الصهيونية لبنان لبنان بيروت بيروت ، بين أذرعة رفيعة من الخشب ، تنخفض ، وتتمايل ، وتعتدل وسط اللغط والنداءات والهتافات التي تكتسب عمقا أكبر وقوة أكبر ، وأبواق السيارات ، والأوتوبيسات التي وقفت في الشارع . وفجأة اتحدت الهتافات وصعدت ، محتشدة وجماعية ومنغّمة : عرفات عرفات .. يحيا عرفات تسقط إسرائيل عرفات عرفات . وكان الناس حوله ، متزاحمين ، متدفقين ، وكانت في جسمه حيويةٌ جديدة من أيام الشباب وترقّبٌ مشدود لم يعرفه منذ سنين طويلة ، ولم يكن يدرك تماما أن صوته قد وجد نفسه في الهتافات ، وأنه قد انضم إلى الناس ولم يعد يحس نفسه منفصلا ، بل ثَمّ تَحَرُّرٌ نادر وبهجة شاملة متغلغلة كأنها بهجة الحب ولكنّ لها قيمة أخرى ، الهدير العميق نفسه تحت سماء الاسكندرية التي يجري فيها سحاب أبيض خفيف ، وهو في شارع العطارين ، لا يسمع صوته الذي اكتسب رحابة وعَرْضا وقوة مزلزلة من الصوت الجماعيّ الواحد . الجلاء الجلاء . يسقط الاستعمار . الجلاء بالدماء . وهو لا يعرف إن كان هذا الصوت الأجش الذي له سطوة أخيرة مِلْكاً له أم ملكا لهذا الدفق الدافق من الناس الذي له وحده سلطانٌ على المدينة المشرئبّة

الأنفاس ، هذه الموجة الصافية المرتفعة الأمواج كمعمار جياش وثابت معا ، ومحتشد . الصفوف المترنحة تنتظم قليلا وتتتابع وتتحرك ببطء وقد اكتسبت ثقةً جديدة ، كانت السيارات المقفلة التي تحمل زعماء المعارضة قد انطلقت ، مرقت من جانب عربة الأمن المركزي الضخمة السوداء ، من بين صفين من العساكر ، بخوذاتهم وعصيهم ودروعهم وأقنعتهم البلاستيك الشفافة القوية الجدران ، واقفين في جمودٍ وتحفز معا ، وضابط جسيم على كتفه نسر وعدة نجوم ، يتقدم إلى أول المظاهرة ، بوجه محتقن تحت الخوذة التي تبدو ضيقة وغير مستقرة على رأسه ، ويتحدث ، وهو يشوّر بيديه ، إلى الصف الأول من الجمع الذي توقف الآن واضطرب وترددت هتافاته تعلو وتنخفض وتتشتت وتحتشد ، ثم تغيض إلى صيحاتٍ فردية مبحوحة لا تكاد تُسمع في الضجيج . ونداءات اثبت جمّعْ اثبتْ ولَغَط المتجمعين . حرّ الظهر ، وصَفٌّ واحد نحيل من العساكر الانجليز ، بالشورتات الكاكي ، والوجوه المحمرة المسحوبة تحت الخوذات المدورة ذات الشرائط تحت الذقون ، تنعكس الشمس الخفيفة الثقل على معدنها اللامع ، والصف ممتد خلف سيارة چيب مكشوفة جلس فيها جنديان أيديهما على التومى جَنْ الوحيد الرفيع الفوّهة ، مصوَّباً إلى الشارع ، لايكاد يبدو أن له تهديدا جادا . هبّات هواء البحر البليلة على الجلاليب البيضاء والبدل غير المكوية والقفاطين والقمصان المفتوحة والطرابيش . كانت طقطقة التومى جَنْ كأنها خافتة ورشيقة الإيقاع ، لا تأتي من مكانٍ محدد ، وكان يجري بين الناس الذين يجرون ، ويصطدم بالظهور ويترنح ويكاد يسقط ويستعيد توازنه ولا يحس أنه يشهق ، ورأى بجانبه صبياً قد ارتسم على صدره ، فوق جلابيته البيضاء ، خطٌّ منتظم ماثل من بقع الدم المستديرة الصغيرة ، بينها مسافات متساوية ، والصبى يهتز مرة واحدة ، مندهشَ العينين ، غير مصدِّق ، ويرفع ذراعاً واحدة ، ولم يسمع صوت ارتطامه بقضبان الترام اللامعة ، وانحنى رجلٌ متقدم السن ، يلبس بدلة داكنة ، عليه ، واجتمع حوله الناس بسرعة ، ورفعوا الصبى الميّت المفتوح العينين مازال ، على الأكتاف ، يتقدمون ببطء من جديد ، والدم ينز على جلابيته البيضاء ، وعاد المدفع الرشاش يطقطق واختلط الناس والصراخ والهتاف والسيقان التي تجري ومرةً واحدة تراجع الناس يتسابقون إلى الوراء ، يتخبطون ويجرون إلى الخلف وإلى اليمين في موجات سريعة من السيقان والأذرع المتصادمة . وقد انفكّت صفوف العساكر ونزلوا من العربة الضخمة بملابسهم السوداء ودخلوا في وسط المظاهرة ، والعصى ترتفع وتنزل على الظهور والأكتاف والرؤوس ، دون صوت ، والشتائم ، والهتافات الفردية والصراخ النسائي والنداءات اثبتْ ، جمّعْ على اليمين ، جمّعْ في الشارع والمتظاهرون يجرون من بين العساكر ويتدافعون متماسكي الأيدي إلى نهر الشارع

الذي وقفت إلى جانبيه عربات الاوتوبيس والملاكي والترام المزدحم بالناس الصامتين ، وفي غمرة الزحام رأى البنت التي كانت بلوزتها قد تهدّلت قليلا من الهتاف والتشوير وقد سقطت على الأرض من غير أن تصرخ ، أفلتت منها خشبة اللافتة البيضاء التي سقطت عليها فغطتها ، وكان الدم ينز ببطء على وجهها وعلى صدر بلوزتها التي خرجت الآن تماما من الجيبة المنحسرة عن رجليها الرفيعتين . كانت عينها قد تورمت وأخذت تزرقّ بسرعة وتُغمِض تماما ، فانحنى ، دون أن يفكر ، ورفعها على رجليها ، ليس على وجهها أي تعبير ، وقمتْ ، ونَفضتْ نفسها من يديه وانحنت من جديد تبحث بيديها في الأرض ، ولبست فردة حذائها المخلوع ، وجرت بين الأرجل المتلاحقة إلى الشارع ، وعبرت من فتحة الحاجز السلكي ، وغابت بين الناس . وكان آخر ما رآه استدارةَ العربة العالية السوداء وقد امتلأت مرة أخرى بحمولتها ، في الشارع ، متجهة ناحية العتبة ، خلف الصيحات والهتفات التي تتردد ، وحيدةً موحشة في صمت الظهر المفاجىء ، وآخرَ المتظاهرين يجرون في حلقات صغيرة تتجه بسرعة ، وتصميم ، إلى الميدان . أُحس بمن يجذبه من يده إلى القهوة الصغيرة في الحارة الضيقة الرطبة ، هل هذه العطارين أم الحسينيّة ؟ أحس بمن يسنده من ظهره ، ويُجلسه إلى كرسي جنب النصبة ، ويقول : اتفضل يافندي ، أقعد ، الله يجازيهم ، خد نَفَسك . استرح يافندي ، وكانت القهوة مزدحمة بالجالسين والواقفين ، ينظرون إليه ، وكان قلبه يجيش بحبهم ، وجاءه صبي القهوة الحافي القدمين بكوب من الماء أمسكه بيده ولم يستطع أن يشرب وهو مازال يجاهد لكى يتنفس ، يسمع صوت الشهيق الذي يتطلبه صدره بإلحاح سريع متلاحق ، كأنه يرقب شخصا آخر .

على أول المساء قالت : اعطني ملابسك .

نظر إليها بدهشة قليلة .

قالت : أغسلها لك ، أنقعها في الماء والسافو حتى تزول الرائحة .

قال : رائحة المظاهرة .

قالت وهي تقرّبها قليلا من أنفها ، ببساطةٍ وبشيء من التطلع أيضا :

ــ ليس فقط التراب والعرق ، رائحتي أيضا تعلق بملابسك .

قال : دعيها إذن . لا أريدها أن تزول .

فابتسمت ابتسامة خفيفة لايكاد ينفتح لها فمها الصغير .

كانت قد قالت له : طعمك أرضيّ ، صريح ، فيه شبهة من مِلْح وحلاوة طفيفة معا .. .

كان ، عندما يفتح دولابها ، تهجس اليه ملابسُها بسرٍّ عطرها القديم الحوشيّ النفح الذي ينشقه في شعرها ، وقد تطاير الأرَج الآن حول النسيج المخلوع الذي مازال يحتفظ بشكل طيّات جسمها .

وهي تقبّل يديه ببطء ، تمرر شفتيها ، بتماسٍّ وثيق ناعم ، على راحتيْ يديه قالت له :
ــ أصابعك فيها رائحتي .
رائحتها الحميمة . فأمسك بوجهها كلّه بين يديه ، كأنه يريد أن يحبسه ، وقبّلها على شفتيها ، قبلة طويلة .

قال : بهجات الجسم الصغيرة ، النشوات الطائرة العابرة ، هي التي تصنع بهجة الخلود الذي لا يزول .

وقال : بالطبع ليس هناك أبداً هذه العَرَضيّة العابرة التي أظنها قد انقضت . لم تنقضِ . وأظنها قد زالت ، ولكنها باقية ، بمعنى ما ، باقية . هذا أعرفه .

وقال : أيكون البقاء ــ في قلب العَرَضيّة ــ هو ، ربما ، كلّ السر ، وكل الوضوح ؟

وعاد يرتد على نفسه : البقاء ؟ الخلود ؟ هذا أيضا لاشيء ، لأنه لا زمن . هو أيضا عدم ، لأنه انعدام الوجود .

قال : مامعنى هذا ؟ مامعنى أنني موجود ، وأنني خلدت ؟ مَنْ يعرفني ؟ مَنْ يُبْقِيني ؟

وقال : حتى حبيبتي ، المرأة التي أنا خالد بها ، التي أنا خالد بحبها ، لا تعرف ، ولا تعرفني أنا ، هنا ، فكيف تُبقيني ؟ الخلود هو أيضا اللاوجود .

وقال : سُكْر الهوَى ، وسُكْر الخلود . أنّى لي بأن أفيق من السكْرين ؟

قال لها : هل حقا كنتِ قد ألغيتني ؟ خلال سنوات طويلة لا نهاية لها ، لم يكن فيها

در ع ولا تغطية ولا تبرير ، كنت أنت باقية . تقولين البرهان ؟ نعم ، قد ألغيتني بالفعل ، لكننا معا ، ألم تُلغِ الإلغاء ؟ فوراً ، معاً ، في لحظة واحدة ، في دموع الفرح الأولى التي لقيتني بها ، وأنت تضحكين ؟ وعندما قلتِ : ما أمجد هذا ! مجده كما هو ، باقٍ ، كما كان دائما ؟ لماذا ؟ بقوة هذا البقاء . البقاء الذي كان في قلب الإلغاء . البقاء ، مايزال .

قالت ، نصف راضية ، نصف منكرة : أنتَ ياحبيبي رومانتيكي بلا أمل . لا فائدة معك .

قال : أُبغض الرومانتيكية .

قالت : وما لها الرومانتيكية ؟ رديئة الرومانتيكية يعنى ؟ كُخّة الرومانتيكية ؟ ياسيدي أعطني رومانتيكية ، بقدر ما تستطيع !

ثم إنها كانت قد قالت له : أنت الذي تتكلم عن لواعج الحب ، ولوعة الحب ، أنت قطّعت السمكة وذيلها !

وعندئذ غضب ، وكتم غضبه ، فصالحته ، بطريقتها .

قال لها : عندي سؤال . أنا ليس فيّ ما يستحق الحب . ماذا تحبين فيَّ ؟

قالت : أسئلتك كثيرة ياأخي . أحب فيك كل شيء بما في ذلك مكالماتك التليفونية الجنونية في الفجر وأنا لست في البيت .

ولم تزد ، كأنها قالت منذ الآن أكثر مما ينبغي .

قال : لم أكن أقرب إلى أي مخلوق مني اليكِ . هذا الحس الكامل بالقرب الوثيق الحميم الآمن غير المتسائل ، وسقوط الحواجز وانتهاء كل عزلة ، يومض ويسطع ويصبح هو الحقيقة الثابتة . ثم يختفي ، كأن لم يوجد قط . ومع ذلك فلن أكتمل إلا بكِ ، أنتِ . لن أكتمل . الكمال وهمٌ لا أعرفه .

قالت له : لن تعرف أبداً كم أحبك .

وسأل نفسه : أكانت تريد أن تقول : «لن تعرف»أم «لن تكون لك القدرة أبدا» على أن « تفعل » بقدر ما « تعرف » ؟ أهذا ما كانت تعنيه ؟ أم انك تُحبينني أكثر مما سوف أُتيح لك أبدا أن تجعليني أعرف ؟ لأنني لن أدعك أبدا تُثبتين لي كل حبك ؟ لن أدعك أبدا

تجعلينني أعرف ، لأنني لا أريد أن أعرف ؟ أهذا ما كنت تقصدين ؟

قال : ما أشد إيجاع أن تقولي هذا ، لي أنا ، لأنك تعرفين بالضبط أن ما أطلبه قبل كل شيء هو المعرفة ، وأن الحب عندي هو المعرفة . لن أعرف أبدا . ولن تعرفي أبدا ، أنتِ . لأنك لا تعرفينني ، لن تعرفي أبدا حبي ، المعرفة التي هي ليست فقط الحب بل الإيمان أيضا . وماذا أعرف عنك ، أنتِ أقرب الناس إليّ وأعزهم عليّ ؟ أيمكن أن تكون للحلم أنياب المعرفة ؟

وعاد يقول : لماذا لن أعرف ؟ لأنك لا تريدين أم لأنني لا أريد ، أم لأننا ، كلينا ، لن نحتمل ؟ هل نستطيع ، كلانا ، أن نحتمل هذه الحقيقة ، حقيقة حبنا ؟

ولماذا يجب أن نحتمل ، أحدنا أو الآخر ؟ هل الاحتمال ضربة لازب ؟ هناك احتمالات أخرى . أهذا هو ؟ أهذا ما تريدين أن تقولي ؟

مهما حدث ، ومهما تطاول البعد وضربت الوحشة ، فلا تقولي أبدا مرة أخرى أنك تخشين النظر في عينيّ لأنك لا تعرفين ماذا ستجدين فيهما . ليس ، ولن يكون ، لايمكن أن يكون ، ثم انقطاع ، أهذا لا تعرفينه حقاً في عمق قلبك ؟ ولا تقولي أبدا مرة أخرى انني آتي كأنني قادمٌ من جديد ، كأنني غريب . أهذا يَقْبل السؤال ؟ فكيف بهذا التوق المتقد دائما ، هذا التذكّر الجسدي اليقظ الحاد ؟ الحقيقة شامخة ومجيدة في قلب كل الزعازع والأنواء . فلماذا القسوة من جانب ومن آخر ؟ ألا تكفي قسوة العالم ؟ أم هي لأن العالم قاس ، ولأن الحقيقة يضرب فيها خطُّ شقٍّ متلوٍّ من الحس بفوات الأوان ؟ أم لأن هذه الحقيقة نفسها ماكانت لتوجد ، بكل سموقها ، لو لم يعتور قلبَها هذا الشريانُ المُنْشعب القاتل ؟

قال لنفسه : أبداً ، ببساطة ، كانت تريد أن تقول إنها تحبك كثيرا . هذا كل شيء .

كانت قد قالت له : والنبي ، والنبي ، ارحم نفسك ياحبيبي وارحمني ، وارمِ بكل هذه الأسئلة والهواجس ، من النافذة .

وقالت : عندما أموت ، سوف تستريح .

قال : ليس هذا النوع من العذاب جديداً عليّ . الجديد هو وطأته . ولست أريده ، في نهاية الأمر . هذا النوع من الألم طبعا مألوف وقديم ، سئمته تماما . لماذا لا ينتهي ؟

وقال : ولست مولعاً به ولا شيء . بل أكثر ، هذا كله مبتذل ، ولامعنى له أبدا . وكان يجب ألا يوجد ، من الأصل .

قال : هو مجرد الشوق . ولكن الشوق إليها كان ينبغي أن يكون شيئا مبهجا ، برغم كل شيء . كانت السعادة والنشوة معها لا مثيل لها . وهي موجودة . قائمة . شيء قد تحقق فعلا . ألا يكفيك هذا رصيداً لا يفنى ، لا يمكن أن يفنى ؟ ألم تقل لك إنه يجب أن يكون فخرك بها ، واعتزازك بحبها ، شيئاً مما لايقاس عليه أى شيء ؟

قال : تلازمينني ، في خَلَدي أنتِ ، ليل نهار ، وتتجلّين لي . فأنت كُلّي . وعندما أحبك ، كلّي ، فلست أردّ إلا حقّك ، أنتِ صاحبته وواهبته . ياقمر قلبي الضارب في سمائه المدفونة . عطيتي لك أنت التي وهبتِني إياها . وعندما تسلبينني نفسَكِ أُشهد بنفيك ، ولكنني أنا الذي أنتفى . ولست بقادرةٍ — وأنت معي كليّةُ القدرة — أن تسلبيني إياكِ . هذا الهوى لم يعد مِلْكا لك ، ولا مِلْكي . حبي إياكِ أقوى ، وأكثر ضرواة ، من عينيك المهاجمتين ، خضرتهما تضرب صخرة قلبي فيسيل موجاً من الغضب والحنان معا ، وتعود قامة الصخر فترتفع عن الزَبَد المصطفق ، أحجاره صلبة وحادة وناتئة في ثبجَ المياه الخُضر . حتى بُعْدك لن يكون أبد الدهر بُعْدا . هل هناك ألصق بالقلب من قُرباك ؟ وهواك ضجيعُ قلبي ، وحُلمه . ما أسطعك في ظلمائك ! وعندما تغيب طعناتك في هذا الحشا الذي يرتمض ، ويبضّ دماءه السود القديمة ، يجالد نفسه بدرعه الوحيدة ، ودرعه هي حبك . لماذا أنت قاسية على نفسك ، وحناني هو الذي ينبغي أن يكون درعك ؟ وحتى ضرباتي المسددة إليك كأنها في حلم مختنق ليست إلا وجيعة هذا الحنان . شُلّت يدي . « فلا بُعدك يبقَى ، ولا قربك ينفعُ ، ولا حربك تُغني ، ولا سلمك يؤمَن . » « وأسألك ألا ترديني إليّ ، بعد ما اختطفتيني منيّ ! » لاتُرُدّيني إلى نفسي ، أبدا ، إلى وحدتي . وأعرف — من غير مسألة — أنه ما من ردة أبدا . كان اختطافك لي ، من نفسي ، إلى نفسي ، لُقياى ، وساعة ميعادي ، انتظرتها ، كالبشارة ، بإيمان كلّي . حتى جاءت في مركبة مجلجلة من سحاب البهجة الأبيض الجامح . هي الساعة الباقية لا تنقضي أبد الدهر .

قال : وتَقلُّبُ الهواجس هذا ، والاعتراف بالإيمان والخطيّة ، من أقصى النقيض إلى أقصى النقيض ، كل مرة ، بتكرارٍ يكاد يكون آليا ، من الفرح الساطع إلى الانقباض الرازح الثقيل ، من اليأس المظلم العينين إلى نشوة الأمل والتذكّر والتطلّع معا لاتكاد يمكن أن يُنظَر اليها ، من المقت والغضب إلى رحمة وحنان ، قال : لا ، ليس المقت ، الغضب ، نعم . قال : هذا يكاد يُفقدكِ القدرة على مجرد النفس . من قرارٍ أنني لن أراها ، بعد ، أبدا ، وأنَّ كل شيء قد انقضى وزال ، إلى رغبةٍ لاعجة أن أراها الآن ، أن أقوم فورا ، أن أُغفِل كل شيء ، كل شيء ، لكي أخرج إليها أخيرا ، في وضح النهار ، ولايتم شيء ، ولا يحدث شيء ، من الهدر والسقوط إلى التوفّز والخفّة والطيران بالفرح ، كل هذا قديم جدا ، كما قلت لك ، ومبتذل . وحتى لم يعد مثيراً لا للابتسام ولا للسخرية . إلامَ ينتهي هذا ؟ إلامَ ينتهي هذا ؟ ألا ينتهي ؟

قال : هذا لا يتملكني ، فقط ، أنا أيضا أتملكه .

قال : لا أحبك لأنني أتألم . لا . ولا أتألم — حتى — لأنني أحبك . بل أُحبك لأنني بكِ عرفتُ ما ينتفي به الألم . وعرفت أن الألم غير ضروري .

قال : أهذا هو السقوط ؟

قال لها : أترين إذن مدى الاضطراب ، وتقلّب الأشواق ، مجد التحليق بكل قوة الجناحين الضاربين الممتدين على سعة السماء ، وتخبّط التردّي في الحفرة العميقة ؟ وهل تغفرين لي ، أيضا ، كل هذه الفصاحة ؟ أحاول فقط ، أن أقول ، أتمنى فقط أن أقول ، ببساطةٍ جدا ، مدى حبي ، وغورَه ، وأنه عميقٌ وأساسي ، وحنوُّه لك لا ينتهي . وأعرف أن هذا التمني الذي لايجد تحقّقا سيستمر ، ويستمر ، من غير نهاية . ليس هناك إلا صمت حبنا ، حولنا ، أنظرُ إليكِ ، في عينيك اللتين أحبهما ، وأنت تبتسمين لي ، من على الرمال .

كان بعد الظهر قد تقدم . من الذي قال أولاً : كم الساعة الآن ؟ ومن الذي أجاب : كم ؟ نظر إلى ساعة معصمه وقال : غيرمعقول . الساعة الخامسة ، بعد الظهر . كنت أظنها الحادية عشرة بالكثير .

قالت : الساعة الحادية عشرة كنا نفطر ! كان الفجر ، وأول الصبح ، والظهر ، كلّها ، غير موجودة . كان الحب ، والقهوة ، والإفطار ، والشُرب ، والنوم في حضن أحدهما الآخر ،

والكلام ، والحب من جديد ، والحكايات ، وتكاشف الجسد ، وتماسّ القلبين ، وفيض الأحاديث والضحك ، التي لاتغيض ، كلّها ، لاتحدث في زمن . إيقاعها لازمن فيه .

فقاما ، وأعدت له جبنا أصفر ، وزيتونا أسود ، وفتحا علبة أنشوجة ، وخيارتين وجمصة صغيرة ، في ثلاثة أطباق مستديرة بيضاء ، على مائدة المطبخ ، وحملاها معا إلى المائدة النحاسية الصغيرة في القاعة الواسعة ، أمام الصوفّا . لم تكن المائدة الكبيرة قد أقيمت بعد ، لم يكن يعرف وجودها حتى . واكتشفت أنه ليس لديها خبز طازج ، فأخرجت من الثلاجة شقفتين جافتين أدخلتهما في الفرن وأدارت الزر ، وقالت : نسخنهما حتى يطري الخبز . وحمل هو الكأسين في يده ، وإناء الثلج بمكعباته البيضاء المنداة ، وأتت هي بزجاجة الماء المثلج ، وقالت : الحمد لله على الأقل فيه ثلج . شرب شفطة قبل الأكل ، وقالت : نذهب إلى الغرفة حتى يسخن العيش . وعلى الفور لم يكن هناك زمن ، من جديد . حبهما ملأ الحيّز الذي يدور فيه الزمن ، ونفاه إلى الخارج . جلسا على الصوفّا ، يتكشفان من جديد ، كأنما لأول مرة ، جسدَ الحب ، وغابا فيه .

قالت : ياخبر .. ! ماهذا ؟

رفعت رأسها فجأة من حضنه ، تتشمم الهواء في القاعة التي كان ضوء بعد الظهر يُشيع فيها ، من وراء المشربية ، تحت أشجار الظل ، هدوءا وسكونا عميقا ، ووصلت إليهما ، مرة واحدة ، رائحة الاحتراق ، كأنها حلقات غير مرئية ، فوجها الحاد مازال خافتا يتطاير لا يكاد يُمسَك به . وثبتْ من جانبه ، وانسدل عليها النسيج الهفهاف الذي كان قد انحسر عن فخذيها ، ووثبَ في الوقت نفسه ، وهما يهتفان معا : العيش !

عندما دخلا باب المطبخ كان الدخان الأسود يصعد في شرائط رفيعة متموجة من حافة باب الفرن الكهربائي ، وقبل أن يفتحا باب الفرن كان الخبز يبدو من الزجاج المدخّن وقد تقوس ، واسودّ ، تفحّم تماما ، وعلى أطرافه بقع حمراء متوهجة تشتعل .

ومن غير سبب واضح وَجَدَا أنهما يضحكان معا ، يضحكان فجأة ، ضحكاً لا يُكبح ولا يُرد ، لا يملكان أن يوقفاه ، ورأى نفسه يدور حول نفسه ، ويصفّق بيديه ، يكاد يرقص ، وهو لا يعرف أن ينطق كلمة واحدة ، من الضحك .

وضع ذراعه حول خصرها ، بعد أن هوّتْ المطبخ وفتحت نافذته ، وهو يوجهها إلى الغرفة ، وقال ومازالت بقايا الضحك تهزّه : حاف .. سنتغدى اليوم حاف .. من يريد الخبز ؟ من يريد الأكل ، حتى ؟

قالت له مرة ، في فجوةٍ من فجوات الغضب والمرارة الخفيفة : تموت حباً ، نعم تستطيع أن تموت حبا . ولكن من غير الممكن ، في كل وقت ، أن تعيش هذا الحب ، يوماً بعد يوم . لي صديقة زوجها يموت فيها حبا ، ولكنه أصيب في ٦٧ . لم يعد قادرا . وبعد علاج طويل في لندن عاد على مقعد متحرك . هذا مثال . كيف يمكن أن يستمر الحب ؟ كيف يمكن أن يعيش هذا الحب ؟ وهو مازال يموت فيها حبا . ليس الموت حبا هو المهم ، بل عمل الحياة في الحب .

في غمرة فتنته بها لم يدرك مدى الغضب الذي لابد أنه اعتمل في داخله . كأنما دَفَع به إلى أسفل ، كتمه ، فاختفى . ولكنه لم يكن قد قَضَى عليه .

كان قد عثر على التنّين ــ التنين نفسه ــ على الرمل ، على شاطىء البحر . كأنه كان في أول شبابه ، هل كان عندئذ أم الآن ؟ قرر لنفسه ألا يذهب للكلية ، أو للمتحف ، لا يعرف ، وخرج تحت السماء الشتوية الثقيلةِ بسحاب أسود مُنذِر ، وهواء البحر حادّ وبارد يطير بجاكتته الزرقاء الطويلة ، وعلى ياقتها قرص معدني أسود صغير مكتوب عليه بالانجليزية « الجلاء » وفي جيبه نسخة بنجوين من مختارات الشعر الانجليزي ، المطبوعة في القاهرة ، ذات الغلاف الأزرق الداكن من الورق الخفيف . ومرّ من أمام السلسلة ، والمدفع الضخم شرير الفوهة مصوّب إلى البحر الغاضب الأمواج ، ومن أمام كشك خشبي مغلق كانت مجندات الإيه تي إسْ الإنجليزيات تقدم فيه المشروبات للعساكر ، ومن أمام مبنى المستشفى الإيطالي الذي تحوّل إلى مستشفى للحلفاء ثم إلى كلية الآداب بعد ذلك بكثير ، وأمامه حرس من عساكر جنوب افريقيا السود ، ثم نزل من على السلالم الحديدية المكشوفة إلى الرمل الأبيض العريض ، تحت دوران السلسلة في أول الشاطبي ، وعلى الشاطىء أكوام متموجة من الأعشاب البحرية والطحالب المبلولة اللامعة الخضرة ، فوق أكوام طبقة أخرى تحتها ، أخذت تصفَرُّ قليلا وترقُّ كنسيج شفاف . كان رمل صباه الأخير يغوص تحت حذائه ، فيه مقاومَة خفيفة ، وهو يسير تحت سور الكورنيش الحجري العالي ، والموج المضطرب يقذف بنفسه على الرمال في كُتْلتِهِ المائية الجسيمة السوداء ، وأعراف الزبد الأبيض تفور وتنقلب وتنفثىء ، في زفيف بارد الغليان . ولكنه كان

يعرف أنه ليس في ذلك الزمن ، ويعرف أنه قد خاض معركته مع التنين من وقت طويل ، وأنه قد وجد بالفعل صورته الجميلة ، وعانقها ، وأن الصراع لم ينته ولن ينتهي ، وعندئذ عثر عليه ، كان صغير الجسم جدا ، راقداً بين الطحالب المبلولة الغضة الجلْد ، يحدّق إليه بعينين مفتوحتين لا تطرفان وعميقتين ، وكانت حراشيفه جافة ولكن غير جارحة ، وكأنه ، بين الأعشاب البحرية ، في قاع بئر مظلمة ، وكأنه كان يحرس كنزا قديما . ولكن الكنز مفقود ، أو غير موجود . وكأنّ التنين يحس بأنه في غير موطنه ، وأن العشب البحري الذي يرقد بين طياته ولفاته بارد ولزج ومبتل ، فانحنى عليه ، كانت عيناه لا ترفضانه ، وحمله بين ذراعيه ، وارتجف الذيل الطويل قليلا ، كأنه أحس الدفء في حضنه لكنه لم يغمض عينيه . وكانت عيناه جائعتين .

كيف عاد به من الشاطبي إلى غرفته ، عبر محطة الرمل التي كان الهواء يطير بسعف النخل الملوكي على جانبيها ، ودخل به إلى كشك المحطة الذي كان سقفه المحدَّب مغطى بالقرميد الأحمر ، وركب الترام الذاهب إلى راغب باشا ، وصعد به سلالم البيت الضيقة المصنوعة من الاسمنت الرمادي المنقَّط الذي اسودّ من التراب ، ومر من أمام باب المرأة السوداء العينين البضّة النهدين في قميصها الأحمر الضيق المفتوح الصدر التي كانت تنتظر نزوله على السلم كل صباح ، وهو يحمل في حضنه الثقَل الخفيف الحيّ الذي أخذ يدفأ الآن ، وأطراف حراشيفه تضغط على صدره بنقاط مدببة ولكن ناعمة ليس فيها ألم ؟

فتح باب شقته ، ودخل بسرعة إلى غرفته ، ووضعه على الكنبة البلدي التي تقع أمام مكتبه ، تحت صور ديستوفسكي وعمر الخيّام وكيتس وألبير قصيري ، في إطارها البيضاوي الخشبي المشغول . ورفع إليه التنين رأسه الجافّ ، مدّ فمه الطويل إليه ، مطبقا أسنانه في قبضة كأنها لن تنفتح أبدا . وقال لنفسه : كيف أرعاه ؟ وبماذا أطعمه ؟ كانت عيناه جائعتين .

كان ينحني على شفتيها ، يقبلها ، بحنان لا يملك أن يرده ، فرفعت إصبعها برفق ، ومسحت عن جانب وجهه الدموع الصافية الهادئة التي لم يكن يحس أنها تسيل ، بصمت كامل ، من عينيه المفتوحتين .

الوجد الذي لا ينتهي اضطراما ، والجوى ، انحسرت القسوة ، وانكسرت أسنان التنين . فهل جاءت قسوات جديدة ؟ الحب له لحم الرخام الأبيض الحيّ الغض الناضر ، لا يموت ، هل

تذكرين وردته السوداء الناعمة ؟ أضمّ جسدك الوثير فأعرف حلم جمال العالم وأعرف جسد الحقيقة ، أقبّلك فلا يعود ظمأ ، أقبّلك بكل الحنو والرقة والظمأ الذي أجد أنه لا ينتهي . عَبَق شعرك بخرافته الدسمة يجعلني أحيا وأموت وأحيا وأموت في إيقاع نبض الدم الذي لا يتوقف عن أن يناديك .

كان أول لقاء بينهما ، وحدهما ، في القاهرة ، عندما عاد من الاسكندرية ، وكانا قد عرفا معا ليل مدينته ، وقال : هل كان حلما ؟ واشتركنا فيه بالصدفة ؟ وقالت ، بصرامة : بل هو حقيقة . كان الميعاد في جروبي ثروت ، وجاءته بعد أن انتظر قليلا في الركن الداخلي الذي تطلّ نوافذه الزجاجية على الحديقة الشتوية ، في ميعادها بالضبط ، كان هو الذي جاء مبكرا قليلا . وكان جروبي بعد الظهر خاليا وموحشا ودافئا . وعندما أقبلت ، متمهلة ، تضع على فستانها الداكن القصير قليلا ، كوفية زرقاء ناصعة الزرقة ، طويلة جدا ، تلتف دون إحكام حول جيدها وتسقط من على كتفها ، إلى الأمام ، قالت له إنها محمومة وعندها ٣٨,٥ حرارة وإنها خرجت بإذن بالتليفون من زوجها ، فقد كان الطلاق لم يحدث بعد ولم تكن عليه ، عنده على الأقل ، دلالة ، فقال لها زوجها : ساعتين فقط ، مادامت المسألة عاجلة إلى هذه الدرجة ، لا تنسيي أن عندكِ حرارة ، وكانت تحكي ذلك دون دراما ودون غواية ، ودون شكاة ، كأنما تقرر وقائع لها أهمية ولكنها مجرد وقائع . وقالت له ، فيما بعد إن زوجها كان يشير إليه : ميخائيل هذا ، صديقك هذا ، ماهو ؟ مهندس ترميم أثري أم شاعر أم ثوري مهزوم ؟

وقالت له : أنت غير مهزوم . خلِّ بالك . إياك أن تظن هذا .

وكان مرة يتطلع إلى رفوف الكتب في مكتبةٍ في شارع شريف ، متخصصةٍ في الآثار ، والتاريخ ونُسَخ لوحات النحت الفرعوني البارز والغائر ، وكان المساء قد دخل ، وفي المكتبة جو القلق الذي يسبق الإغلاق وترقّب خروج البيّاعين بعد الشغل طول النهار ، عندما دخلت مع زوجها ، وسلّما عليه ، بايماءةٍ من الرأس ، دون أن يقتربا . كان ذلك في الفترة التي قالت له إنها ألغته فيها . وسمعها تتحدث مع صاحب المكتبة ، وتطلب منه رواية تاريخية شهيرة من العصر الأوروبي الوسيط ، كانت على رأس قائمة الروايات الأرْوَج بيعا عند ذاك . وأتى الرجل إليها بالرواية ، وكانت قد اقتربت منه ، مع زوجها ، ولمح ميخائيل على غلاف الرواية فرساناً مدرّعين تطير خيولهم المطهمة الكاسية بستائر ذات شراشيب نازلة على جنوبها ، في وسط غابات صنوبر مشتعلة تتطاير ألسنة النار في دؤاباتها ، فالتفتت إليه وقالت له ، وزوجها ينظر إليه ببرود ، إنها لا تستطيع أن تنام إلا على قصص مثيرة وخفيفة من هذا النوع ، فأومأ برأسه ، بابتسامة محتبسة ، وقال : صحيح ؟

قالت له : ياحبيبي ! هل تذكر هذا كله ؟ أنا نسيت . كانت أياما غريبة . لكننا افترقنا بعدها بقليل ، أصدقاء ، بهدوء . خرجت من البيت بملابسي ، وبمنال . لم أطلب منه مليما ولا شيئا . مع أنه كان يلح على أن نجلس ونقتسم . كان هذا ، ربما ، ردى الوحيد ، من غير كلام ، على مراهَقته الثانية ، هو ، كان عندئذ يحب كل أسبوع بنتا جديدة ، ويظهر معها في كل مكان ، وكان لابد أن تكون ، يادوب ، سنّ ١٨ ، ولابد أن تكون ، لازمْ ، من عائلة أرستقراطية .. !

ثم قالت له : قد لا تصدّق . لكنْ ، معه ، كنت باردة . جاء بعد بشاعةِ زوجي الأوّل ؛ وخلّفت منه ، ولكني لم أعرف الذروة معه أبدا . كنت ساذجة جدا ، أنت لا تصدّق ، أعرف ، ولكنني كنت أتصور أن هذا هو كل ما في الحب ، والزواج ، هذا العمل الآلي تقريبا ، الذي كان ، تقريبا ، لا يخصني ولا شأن لي به . حتى عرفت ، بعد ذلك بسنين . في مدينةِ ثورية ، مع الرجل الذي قلت لك إنه كان كاملا . هل كنت أحبه ؟ أم هو الذي كان يحبني ؟ وأنت تقول عني نيمفيّة ! ياحبيبي النيمفيّة لا تعرف الحب ، ولا صنع الحب ، ألا تعرف هذا ؟ أظن أن البرهان على عكس ذلك عندك أنت بالذات .

ثم قالت : الواحدة ، قد تنام مع الرجال ، نعم ، دون حبّ ، ممكن طبعا ، ولكن لا بد أن يكون هناك قدرٌ ما من الفهم الإنساني ، والصداقة ، والود . لا أفهم أبدا ، كيف تنام الواحدة مع رجل دون عطف ودون نوع من المودة . أبدا .

قالت : أى فرق هذا يصنعه ؟

قالت له إن ريتشارد ، بعد صمت سنين طويلة ، أرسل لها بطاقة في رأس السنة ، من كلمتين « الشوق إليك » فقط . قالت ، بنوع من التأمل ، ورجْع الحنين : أول مرة يكتب منذ عشرين سنة !

قال لنفسه : لماذا لم أحس لا غضبا ولا غيرة ولا شيئا ؟ كأنني أفهمها ، كلّها ، وكأن حبي يراها كلّها ، ويقبلها كلّها . وفي هذا الحب ثقة كأنها لا شأن لي بها ، ثقة خاصة به وحده ، لا أعرفها تماما .

وقال : هذا يمتهنني ، كرجل ، أم يؤكدني ؟

قالت له : أنت الذي أحب .

وقال لها : أنا أحبك . أنت تعرفين .
قالت : نعم ، بطريقتك ، ربما ، بشكل ما .
كم مرة قالت له هذا ، وكم مرة أجابها نفس الاجابة ؟
أجاب : لا ، بل دون تحديد ، دون شرط .
قالت : الحب الذي ليس له حدّ ولا شرط ، غير موجود ، أو على الأقل أمر غريب . أخشى أنه شيء آخر .

وكان قد قال لها ، بالتليفون : أوحشتيني .
فقالت : أنت أيضا . سوف نتكلم عندما نلتقي .

بصوتٍ مصقول ، مدرب ، مُتَحَكِّم فيه ، حلو المقاطع ، معتنىً بنبرته ، صوت البنت التي تعلمت في مدارس سويسرا لصقل البنات .

قال : عندما يُقال الشوق والحب بلهجة الصالونات المكيّفة الهواء ، المحسوبة ، المنتقاة ، يدفعني هذا إلى الخرس ، ويُسقِط كل مالديّ ، فأجمد ، وأنتفى .

قال : كلام العبادة قيل لك أكثر من مرة ، من أكثر من رجل ، هذا أعرفه ، ولا أحتمل أنه حدث . ولكنه قد حدث . لا يمكن محوه . ماذا أقول ، وماذا أفعل ، لكى يكون حبي عندك هو الذي ليس له مثيل ولا سابقة ، كما هو بالفعل ، عندي ؟

كان يبدو له أنها على غير اقتناع ، ولن يصل أبدا إلى إقناعها . الحياة يجب أن تكون هى الردّ . صنع الحياة .

قال : كأنما حياتي ليس من صنعي . ليست لى . وبالتالي ليست لها .
قال : ليس هذا صحيحا . بالطبع ، هى على حق . حياتي هى ما أصنعه ، طبعا ، هذا لا يحتاج إلى كلام .
قال : ولا هذا أيضا . هذا أيضا غير صحيح . هناك ـ فقط ـ شيء غير ملتئم ، لن يلتئم . وهى تعرف ذلك .

قالت له : في كل مرة أنا التي أناديك ، بالفعل . ولست أنت الذي تناديني . كنت تقول لي « ياساحرة ». لماذا لم تعد تقولها ؟ كنت أنا التي أُغويك ، أليس كذلك ؟ في المرة الأولى كنت أنا التي بكيت ، وأنا أطلبك ، لا تبتسَ . وفي المرة الثانية ذهبت إليك ، في ندوة مينا هاوسَ ، ووقفت على الباب أنتظرك ، وبعد ذلك ظللت أناديك وأنت ترفض الرد ، وكانت دموع الفرح هي التي لقيتك بها ، في أول مرة أفتح لك باب بيتنا ، أليس كذلك ؟

قال لها : ندائي من غير صوت . مِلحٌ ولا يتوقف . الطلب الضارب في العمق الغائر مني ، من غير أن أتكلم ، هذا هو الأول ، هذا هو الأخير . هذا هو الذي يستدعِي ، وكأنه يحتِّم ، الإجابة . ندائي وَجدك ، بل طلبي أوجدك ، ووجْدى بك هو وجودك ، بمعنىً من المعاني .

قالت : بمعنىً من المعاني ، يمكن .

قال : لم أعِش من غيرك ، ولا أعيش من غيرك ، لحظة . هذا فِعلك بي ، أرِد منهلك بالصدى والهيام فتردِّينني إليك ، اضطراراً واختيارا ، في وقت معا .

قالت بعفوية ، مندفعة ، كأنما من غير أن تنتبه : يانور عينىّ أنا !

كانت الشمس قد أوشكت على المغيب ، تنزل نحو الأفق الصحراوي البعيد ، وتزداد احمرارا في كل لحظة ، ولكنه كان يعرف أن أمامه على الأقل ساعتان من نور النهار ، وأن أنوار الموقع سوف تضاء بعد ذلك ، من المولّد الكهربائي الخاص حتى العاشرة مساء . كان عنده وقت كافٍ . كان قد ابتعد قليلا عن أطلال مارِيو بوليس القديمة ، ترك عمّ محمد يوجّه آخر أعمال الترميم ، فقد كان للرجل من الخبرة ما لعله لا يقل عن خبرته .

كان ثم شيء ما يدعوه إلى أن يوغل وحده في الصحراء في اتجاه الغرب . وكأنما يحس اضطرابا غامضا لابد له أن يرمي به على صفحة الرمل المتموجة ، اللدنة قليلا ، لا تنهار حباتها بسهولة تحت قدميه وليست صلبة مع ذلك تحت حذائه القماش الطري . وكان يقع وهو يمشي

في جُزرٍ من الحصى الصغير بين موجات الرمل الناعمة ، ويقرقع الحصى ، بأشكاله المتعددة تحت قدميه ، ثم تنقطع فلا يعود يحس تحت حذائه إلا طراوة الرمل الأبيض المريح . وقد ابتعدت أصوات الموقع تماما ، وهبّ به صمت الصحراء بهوائه الذي لا مثيل لنقائه وجفافه المنعش في الغروب ، وقد هانت الشمس جداً وأحسها عذبة الوقع على وجهه وصدره تحت القميص المفتوح .

ظهرت له على البُعد صخور الحجر الجيري المنخفضة المتراوحة الارتفاع ، وفيها مغارات منقورة في صلب الجبل ، تنفذ اليها آخر أشعة الغروب ، وأحسّها عامرة .

وكان قد صعد الآن على مدقات رملية طبيعية تتسع حينا وتضيق ، وتتعرج ، بين الارتفاعات القليلة في التلال الحجرية ، وكانت الصحراء تحته ، فجأة ، حيّة ، وعلى ما يرى من فراغها وصمتها ، مليئةً بل غاصةً بالمتعبدين القدامى ، مازلوا في فجر كنيستهم ، هاربين بإيمانهم إلى الله ، ليسوا مجرد ظلال دارسة على صفحةٍ مطوية من السنكسار ، وإنما كان يحس صلواتهم وتهجدهم ووحدتهم وخشونة قداستهم من أجل المسيح ، كل منهم في قلّايته الخفية ، غير مرئيّين ولكنهمُ هناك . وكأنه يرى ، من فوق ، جموع شياطين صغيرة تتواثب وتتزاحم ، وتتفرق حول فوهات المغاور الآمنة بمحبة الرب ، تتخايل له ، أو لا تكاد ، بأذنابها الطويلة كأذناب الفيران وقرونها الصغيرة النابتة على رؤوس حليقة ، ووجوهها الممسوحة بضحك داعر صامت ثابتِ القسمات ، والنيران الضيقة تومض وتنطفيء في عيونها الغائرة ، ثم تختفي ، لها قوام مرنٌ يتشكل كالدخان ، وتُصبّ له حدودٌ مهتزة ، وواضحة ، ثم تذوب ، نور الغروب الأخير يمحوه فلا يعود شيء إلا حضورها الذي لم يتلاشَ حتى ولو كان نور الشمس قد اخترقه وأجلاه .

كانت تسير معه ، إلى جانبه ، تصعد على الرمل الهيّن ، لم تتكلم ولكنه كان أنيساً بها ، كأنه يعرفها من زمن لا أول له ، وقلبه مرتاح ، لم تكن من الشيطان بل كان يعرف أنها قديسة ، ومن جمال وجهها المدوّر المشع الذي صوحته الشمس تعرّف أخيرا على اسمها ، مارية الاسكندرانية ، غانية راقودة القديمة ، تنزل معه على الصخور الآن ، مازالت تقضي أعوامها السبعة عشرة في الصحراء ، مارية المصرية ، الأولى والأخيرة ، تركت مجد الجسد البائد إلى مجد الجسد الحي ، وقد أخلصت نفسها للنقاء ، الإلاهة القديمة التي نزلت إلى الأرض لتأخذ على

عاتقها كل خطايا كل البغايا عابدات القمر والزهرة والعزّى ، كل الشائهات ، كل المضروبات وكل المساخيط من بنات جنسها . قال لها : العالم يرجمني ، ليل نهار ، بالأحجار ، فلا تحصبيني أنتِ بوردة . ألم تعرفي ؟ أن خِفّتها ، وغضوضتها ، ونعومتها لها وقع الزلزال ؟ كانت قد هجرت مدينة الأعمدة الرخامية البيضاء الملطّخة بدماء الأبرار وخمر الفُجّار الرديئة ، مدينة الحدائق اللفّاء أشجارها متدلية بثمار الخطيّة الكثيفة العصير ، وجياد المركبات الفارهة الصاهلة على رخام الطرق الملوكية ، ولكنها كانت تحملها كلها ، خمرَ المدينة وثمارها ، عواميدَها وخيولَها ، في جسدها المشتعل بشمس الصحراء ، ومازال في حنايا هذا الجسم المعذّب ، في البرية ، عارياً ، صوّحته الصحراء وشهوة القداسة ، لا يغطيه إلا شعرها الطويل الذي انسدل عليه يكسوه تماماً حتى أطراف قدميها الحافيتين ، مازال فيه تزاحُم العشاق البائدين ، أذرعهم وسيقانهم تحتضنها في نشوات الشبق الذي اندثر ، مازال فيه رجْع موسيقى الهارپ والصناجات والجيتار ، تحت كساء شعرها — ثوبها الوحيد السابغ من أمام ومن خلف ، محتشداً بأنوثة غضيرة محبوسة في ذاتها ، موهوبةً لمعمودية جديدة ، وكان يحبّها ، وكانت تنظر إليه وكأنها لا تراه ، ولكنها تعرفه ، أوجعتْه نظرتُها ولكنه وجد أنه يستطيع أن يحتمل .

قال : أريد نظرتك إليّ باقية ، فيما وراء الجسد ، فيما وراء الموت القريب ، وعيناى ، أريدهما دائما معلّقتين بك ، بكل مافيهما من وجْد وعشق لا موت له . وليس لنا موت ، كلانا ، هذا ما أريد . هذه النظرة ، كاصطدام صلب ماثل ، وكلها حنان ، أريدها ، أريدها أن تظل بعد الموت ، إلى ماوراء الموت .

وكانت الأعشاب الصحراوية النادرة قد نبتت بين غدائر شعرها الطويل المُهْتَدِل ، عبْر السنوات الطوال في البرية ، وكانت الأعشاب يانعة وغضّة العود ، وفيها زهور دقيقة النسيج مخملية ، صفراء وثيرة اللون ، وحمراء شاهقة الحمرة في تدويرها المتمنمم الصغير ، تختلط بجدائل الشعر العميقة السوداء ، في خشونته لدونة أثيثة ، ومهما لوّحته شمس الوحدة الطويلة فقد كان يحس هذا الشوك المنسدل الغزير الوَحِيّ ، ليّن الملمس ، ولا يمكن أن يمسه .

المصلوبة الحية تسير بجانبه ، تنزل من على الصخور ، حافية ، ويحملها ، هو ، بكل ما يُثقلها ، في داخله ، وخطْوُه معها لا وقع له ولا ثقل . وبين ذراعيها ثلاثة أرغفة من الخبز . هى كل زادها . ويوماً بعد يوم ، بعد إغفاءة أوّل الفجر ، حين تُجهدها الصلاة ويُنهكها التسبيح ،

كانت تفتح عينيها الساطعتين بخطرة الملكوت ، فتجد على باب قلّايتها المنقورة في الصخر ، ثلاثةَ أرغفة . كلَّ يوم . من أين تأتيها الأرغفة في يُبْس الصحراء الشاسعة الخاوية ؟ وهل كانت ترى ، كل يوم ، ملائكة الله الثلاثة ؟

ولما جاء آخر نور النهار ، أحس بها تتركه ، وتنزل إلى ظل سور الصخر الحجري المُصْفَرّ الذي أخذت صبغته الحمراء البنفسجية ساقطةٌ عليه من الغروب تدكن الى قتامةٍ تدريجية الإظلام . وعلى باب مغارتها ، كانت اللبؤة ترقد على جنبها ، جسيمة ، وهادئة ، بطنها يصعد ويهبط بأنفاسها المليئة . ونامت القديسة في حضن اللبؤة ، ورضعت من ثديها .

قال : دخلت مارية العذراء إلى الهيكل المقدس وهي بنت ثلاث سنوات . متى دخلتِ ، أنتِ مارية الأخيرة ، هيكلَ الجسد ؟ مع رغيفك الثالث ؟ الذي أحرقته الشمس الحانية القاسية ؟

ماريا ، ماريا ، ياروؤوم ، يامن سُقيتِ لبنَ الأمجاد جميعا ، مرارةُ انهمار حبك المدرار مريئةٌ وسائغةُ السلسال ، هي المنّ والسلوى . أنتِ امرأةُ المرآتين ، الساطعة والسوداء ، كلتيهما .

كانت أنوار الموقع تومض له ، من بعيد . ولم يكن يريد الرجوع .

قال : كل المقاربات ، كل المقارنات ، خاطئة ، وغير حقيقية ، أما أنت فتظلين أنتِ . فريدةً وغير متكررة . وليس مثلكِ شيء ولا أحد .

قال : مهما حدث ، ومهما يحدث ، أريدك أن تعرفي ، أنتِ ، مرةً واحدةً وأخيرة ، أنني أحبك . وأن حبك قائم ماثل لا يريم ، وجيّاش عارم ومضطرم ، لا يهمد ، ولا تناله سِنةٌ ولا شحوب . أكرر هذا ، المرة بعد المرة ، لأنني أريدك أن تضعيه في مكانٍ ما ، ومكانةٍ ما ، ولا أريد أن أحدد مكانه ، ولا مكانته ، في نفسك . كأنني مدفوع إلى الشهادة ، أو بحسٍ من الإثم . لماذا الإثم ؟ وكأنني أريدك أن تطهّريني من هذا الإثم الذي يلازمني ؟ طبيعيٌّ ، ربما ، أنه مطر كثيف ثقيل تحمله سحابات من الطفولة القاتمة . لهذا ، فأنتِ ، في حبي ، لست أُمّا ،

ولابديلةً عنها . ولهذا ، فإنك عندما قلتِ لي مرة « أحبك كما أحب بنتي نفسها ، تقريبا » شعّبني القلق الذي مايزال مراودا ، وإن كنت أظن إنك لم تقصدي نوع الحب ، بل تقصدين قيمته وعمقه . بهذا الحب الذي عندي لك يشتعل نسيجُ نفسي كما اشتعلتْ بالنار الشجرة العتيقة على الجبل . هذا كل ماأردتك أن تعرفي . قلتِ لي مرة « فلنسلّم ، بأننا قد لا نلتقي أبدا . لا ، دون غضب ، ودون عاطفية ، فلنسلّم بأن هذا ممكن ، وقد يحدث ، ووارد » ، حتى عندئذٍ ، وخاصةً عندئذٍ ، فهذا ما أردتك أن تعرفيه .

وقال : معك أنتِ وحدك ، في الحب ، عرفت ما الحرية ، والتراصف ، والنِّدية ، والتكامل الكمال . لست معك ابناً ، ولا أبا . لم أكن طفلاً يريد سُلافة الثدى الأمويّ ، ولا ربّاً يَمْنح عطيةَ الخلق ، ولا مجرد ذَكَرٍ شقيٍّ بجسمه يريد أن يتخفف من لأوائه الحسيّة التي لا صلة له برفيقته ، بل كنت معك عاشقاً ، عاشقاً مع عاشقة ، الحب واحد ، وأكثر من واحد ، معاً ، على أرض واحدة سويّة المهاد وغضة بالعشب والحَرَش ، أكلْنا معا من ثمرة المعرفة ، لكنها لم تكن محرقة ولا مُرّة العقابيل ، وبقينا ، وكان لنا الحق أن نبقى ، مع الآلهة الغاضبين ، أنداداً ورصفاء ، في عدْن المفتوحة الأبواب إلى مالا نهاية ، ليس هناك سقوط ، ولم نكن بحاجة إلى ورقة التين لأنه لم تكن لنا سوءة بل مجد . وهذه اللحظة الخاطفة ، ليس فيها زمن ، تحدث فريدةً كل مرة ، لاتتكرر ، هي الباقية ، هي الأبد ، هي المطلق . وعن يمين وعن يسار هناك النقص ، والبحث ، والعيّ ، والاستحالة ، والجفاف ، والذبول ، حولنا ، ولا يمسنا . نور المعرفة الحب في الأول وفي الآخِر ، ساطعا ، يُذيب شائبة الزمن .

قال : التأليه هو أيضا التجريد من الإنساني . ما الخلود ، في ومضة التحقق الخاطفة ؟

قال : هي واحدة ، اللحظة الأبد ، الجسديّ والإلهيّ ، بلا انفصال .

وسأل نفسه : أهي تخشى ، حقا ، هذا الذي يسميه المطلق في حبه ، هذا الذي يسميه أنه بلا حدّ ولا شرط ؟ تخشاه لأنه عندئذ إما شيء غير حقيقي ، بالمرة ، عندها . أو شيء مهدِّد ومروِّع بتطلّباته التي لا تطاق ولا يمكن أن تتحقق ، تطلباته منها ، ومنه ، مستحيلة ، وبالتالي فهو أيضا ، مرة أخرى ، شيء غير حقيقي . شيء — كما قالت — آخَر ؟ أم ، ببساطة ، لأنها تعرف أنه يحبها بأكثر مما تريد ، بأكثر مما تحتمل ، حتى لو كانت هي — كما قالت له يوماً ما ،

دون كلل ـ تحبه أكثر .. وأكثر .. ؟ هل ذلك لأنها واقعية ، صاحية ، أم لأن صدقها من نوع آخر يختلف عن صدقه ؟ هل الحلم ، وشِعر الحلم الخاص ، هنا ، مُدان ، ولا ضرورة ولا محلّ له ؟

قال : أريد أن ابتسم من هذا كله . ولا أستطيع ـ تماماً ـ أن أبتسم منه .

وعلى الرغم من دغْلة الغضب المتوغلة في مغاوري وعلى الرغم من غابة الغيلان المراوِغة فإن غُنّة غوايتك لا تغادرني مغمغمةً بأغنياتٍ غامضة المغزى ، غوائل الغُلّة قد غدت أضغاث لغو غابر ، وغاشيةُ غَبَشِ الغمْر قد غابت في غضون غرارةٍ لها نغمات المُلاغاة ، بَغْيُ طُغْمةِ مغانيك يُغلّلني ، غرامي فيك غُلواءُ وطُغيانُ غريمٍ ليس غريبا ولا يغيب عنّي بل مُوغِلٌ في أغواري .

أصغو إلى غُنْج أغاريدك الغزِلة وإلى دغدغة الغَيَد في غِلالتك ، أفْغَمُ ثغْرَك الرغْد ، وفي مُناغاتك غُفرانٌ لكل النَزَغات والمَغامِز ، بَزَغَ الغِراس المغرورِقُ في غيطاني ، غاضت الغَيامات وغار الغِيّ وتغضّنَ الغَضَا ، في غَمْضى غدائرُك المُغْدَوْدِنة على غَيْضتك الغنّاء غصوناً غضيرةً سابغةً على غُضوضةِ الردْغةِ الغمِقةِ ألغ فيها وأوغل في غَسقَ الغُلْمة ، الغَدَقُ يغمرني فأغصّ برغرغة الغطاس في الغدير الغضّ الغَمَرات ،وهأنذا غائبٌ في المثول ، وماثل في الغياب .

عندما خرج من عندها في آخر ليلة ، كان في حسه إنهاك عميق لم يكد يعرفه قط من قبل . كان الحوش الصغير المعتم خاويا ، وفكر أن نبويّة لا بدّ نائمة في غرفتها الصغيرة وراء الباب ، مع أولادها ، ربما مع زوجها . وهل تعيش مع زوج ؟ وفكّر أنه لا يعرف عنها شيئا .

وعندما ردّ الباب الخارجي الكثيف الثقل وراءه ، ومر من تحت الجميزة الليلية المليئة بحضور رازح ، فكر أنه ربما قد انقضت أعظمُ وأجملُ خيالاته . وقال إنها لم تكن خيالات . ومرت فجأة من جنبه ، في الليل ، قطةٌ طويلة الجسم ، سوداء ، تمد عنقها إلى الأمام وتجري بسيقان صامتة تماما ، ومرقت من بين أجسام السيارات الواقفة أمام الحيطان العريقة ، واختفت وراء كومة من الترابِ وأنقاضِ أحجارٍ ناتئة ، تبدو صلبة وعنيدة تحت نور عمود الشارع .

وصلتُ إلى الكورنيش ، جئت إليه من الشارع الضيق المنحدر ، تحدّه ، من ناحية ، ربوة زيزينيا العالية بسورها الحجري الضخم الحائل الاصفرار ، وبيوتٌ صغيرة منخفضة من

الناحية الأخرى ، شبابيكها مقفلة وصدئة اللون ، وكانت هناك سيارات قليلة تجري بسرعة كأنها تهرب ، على أسفلت الكورنيش العريض الذي يدور وينحني تحت البنايات الشاهقة الخاوية . وعندما نزلتُ السلالم الحجرية القديمة إلى الرمل المبلول ، كانت كتل الاسمنت الرمادية المفتتة الجوانب عليها طبقة من الطحلب الأخضر اليانع ، يترقرق بينها ماء صافٍ فيه قواقع بيضاء دقيقة هشّة . البحر أمواج عالية داكنة تصعد وتهبط ، عريضة ، رصاصية ، ثقيلة بالماء ، ليس فيها نقطة زَبَد واحدة ، ليس فيها رغوة بيضاء ، وصامتة . وكانت السماء ، من غير شمس ، منيرةً بضوء مشاع هادىء ، وفسيح ، من غير برد ، ومن غير هواء ، وكنت أنظر ، وأنا في داخل البحر ، إلى الشاطىء الذي يبدو بعيدا جدا ، لكنني أراه بوضوح قاطع كأنما من خلال عدسة مقرِّبة ناصعة ، والأمواج تذهب ، من عندي ، من حيث أقف ، إلى الشاطىء ، واحدةً بعد الأخرى ، ولا تعود ، تذهب فقط ، بنفس القوة ونفس الارتفاع ونفس الاتساع العريض ، ليس لها آخِر ، تغطي الشاطىء البعيد القريب ، تحت سورٍ حجريٍّ لا تظهر من ورائه إلا السماءُ الرمادية الخافتة اللون . لا أعرف ، ولكني أعرف أيضا بغموض ، أين ينتهي حدّ الشاطىء الغارق تحت الأمواج ، وأين العمق الذي لا قرار له ، وأنا واقف في البحر ، قدماى فقط مغمورتان بالماء . وأمامي ، في متناول يديّ ، في وسط الموج ، جذع شجرة ، عريض وحيّ ودافىء الخشب ، وليس له فروع وليس عليه ورق ، الجذع المدوَّر العضلات فقط ، قائم وراسخ الجذور في الصخر التحتيّ في الماء ، تنساب حوله الأمواج الكبيرة المتحدرة القاتمة الزرقة ، بسيولةٍ وامتلاء ، دون أن تترك حوله زَبَداً ولا دوّامات ، كأنه لا يُوجَد ، وكانت على طرفه نورس كأنها يجعة ، بيضاء ، مكتنزة الجناحين ، غضة الريش ، أنثوية ، لها منقار طويل وحاد ومُطبِق ، تنظر إليّ وفي عينيها تأمل ، تعرفني ، وتنتظرني ، أمدّ يديّ نحو الجذع ، وأنا واقف ، ثابت القدمين ، في الماء الثقيل ، أريد أن أمسكه ، أن أتعلق به ، لا يكف نزوعي ولا لهفتي ، ويداى لا تصلان إليه .

وكان الموج ، يرتفع من حولي ، بالتدريج ، يرتفع ثابتاً وهادئا ، يصعد إليّ ، دون قلق ، كأنني أريده .

القاهرة ٩ أكتوبر ١٩٨٣ — ٣ أغسطس ١٩٨٤

الرواية

الباب الأول	دم العشق مباح	٥
الباب الثاني	الحَومَان حول الدائرة	٢٩
الباب الثالث	أضغاث الورد القديم	٥٩
الباب الرابع	وَحدانيّة القلب	٨١
الباب الخامس	السقوط في قدس الأقداس	١٠٥
الباب السادس	شمس العيون الدفينة	١٢٧
الباب السابع	ظل الشمس المستحيل	١٥١
الباب الثامن	المنار الخفيّ على الطريق	١٧٩
الباب التاسع	الأبواب المفتوحة على العراء	٢٠٣
الباب العاشر	وجه الحنان الصارم	٢٢٩
الباب الحادي عشر	ورقة اللوتس المحبوسة	٢٥٣
الباب الثاني عشر	أشواق الصبّار الوحشية فات أوانها	٢٨٣
الباب الثالث عشر	ملح البهجة الأبيض	٣١١
الباب الرابع عشر	الخبز المحروق	٣٤١

للمؤلف

أ ـ قصص

١ ـ حيطان عالية ، قصص ، على نفقة المؤلف ، القاهرة ١٩٥٩ (نفد)
٢ ـ ساعات الكبرياء ، قصص ، دار الآداب ، بيروت ١٩٧٢ (نفد)
٣ ـ رامة والتنين ، رواية ـ طبعة محدودة ، القاهرة ١٩٧٩ (نفد)
ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٠
٤ ـ القصة القصيرة في السبعينيات
دراسة ومختارات ، مطبوعات القاهرة ، القاهرة ١٩٨٣
٥ ـ اختناقات العشق والصباح ، قصص ، دار المستقبل العربي ، القاهرة ١٩٨٣
٦ ـ محطة السكة الحديد ، رواية ، مختارات فصول ، القاهرة ، ١٩٨٥
٧ ـ ترابها زعفران ، نصوص اسكندرانية ، قصص (تحت الطبع)
٨ ـ أضلاع الصحراء ، رواية (تحت الطبع)

ب ـ ترجمة

١ ـ الخطاب المفقود ، إ . ل . كاراجيالي ، مسرحية ، الدار المصرية للكتب
القاهرة ١٩٥٧ (نفد) [المسرح القومي]
٢ ـ الحرب والسلام جـ ١و٢ ، تولستوى ، رواية ، الدار المصرية للكتب ،
القاهرة ١٩٥٨ (نفد) ،
٣ ـ الغجرية والفارس ، قصص رومانيّة ، الشركة العربية للطباعة والنشر ،
القاهرة ١٩٥٨ (نفد)
٤ ـ شهر العسل المر ، قصص إيطاليّة ، كتب ثقافية ، القاهرة ١٩٥٩ (نفد)
٥ ـ فارالاكو ، إميل سيسيه ، رواية غينيّة ، الألف كتاب ، القاهرة ١٩٦٢ (نفد)
٦ ـ أنتيجون ، چان آنوى ، مسرحية ، الألف كتاب ، القاهرة ١٩٦٣ (نفد)
(بالاشتراك مع ألفريد فرج) [المسرح القومي]
٧ ـ مشروع الحياة ـ سيمون دي بوڤوار ، فرانسيس چاسون ، دراسة ،
دار الآداب ، بيروت ١٩٦٧
٨ ـ ميديا ، چان آنوي ، مسرحية ، مجلة المسرح ، القاهرة ١٩٦٨ [المسرح القومي]

٩ ـــ الوجة الآخر لأمريكا ، ميكائيل هارنجتون ، دراسة ، دار الآداب ، بيروت ١٩٦٨
١٠ـــ تشريح جثة الاستعمار ، جي دي بوشير ، دراسة ، دار الآداب ، بيروت١٩٦٨
١١ـــ الشوارع العارية ، ڤاسكو پراتوليني ، رواية ، دار الآداب ، بيروت ١٩٦٩
١٢ـــ نحو التحرر ، هربرت ماركوز ، دراسة ، دار الآداب ، بيروت ١٩٧٢
١٣ـــ حوريات البحر ، قصص أمريكية ، دار الهلال ، القاهرة ١٩٧٩

جـ ـــ مسرحيات في البرنامج الثاني للاذاعة

١ ـــ النورس	انطون تشيكوف
٢ ـــ سوء التفاهم	البير كامي
٣ ـــ الحصار	البير كامي [المسرح الجامعي]
٤ ـــ المجانين	البير كامي
٥ ـــ مسافر بلا متاع	چان آنوي
٦ ـــ بيكيت	چان آنوي
٧ ـــ عنقاء كثيرة الظهور	كريستوفر فراى
٨ ـــ سوناتا الشبح	اوجست سترندبرج
٩ ـــ انتهت الحرب	ماكس فريش
١٠ـــ السلام	اريستوفانيس

دار شهدي للنشر

رقم الايداع ١٩٨٥/٣٧٢٤

وجه آخر لرواية الكاتب الأولى « رامة والتنين » متوازيةً ومُمتدة .
تجربة فريدة ، حبّ شبقيّ صوفيّ متوهج يسعى إلى الكمال المستحيل .
اللغة ــ بيت العالم ــ ثرية بمستوياتها الشعرية والعضوية والعقلية .
الفنّ الحق يطرح أسئلة لا تستنفد : ماهو الحب ؟ ماهى المعرفة ؟
ماهو العدل ؟ هل هى ممكنة ؟ وكيف ؟ هل المرأة ، في ذروة تحقّقها ،
فوق الزمن ؟ وهل تصبح التجربة الجسدية وَجْداً ، وخلوداً ، وجوهرَ
الحقيقة ؟ وهل القتل طريقٌ للعدالة ؟
الواقع الأرضيّ ، اليوميّ ، مضفور بالأساطير الفرعونية ، واليونانية ،
وصياغة الروح القبطية بعبقرية العربية الناصعة .
رواية وعي متميز بقضايا مصرية ، اجتماعية ، وفكرية ، طبقات التراث
المكنون وطبقات الجسد الجريح المنتصر ، مصر المعاصرة والأزلية ،
المقهورة والمتحدية التي تتجاوز الزمن .

ادوار الخراط

الزمن الآخر

الثمن : ٤٠٠ قرشاً



دار شهدي للنشر والتوزيع
١٦ شارع أسماعيل محمد ــ الزمالك - القاهرة
ت : ٤٠٢٨٣٦